المجموعة الكاملة

المجلد الأول

العبقريات الإسلامية

(١)

دار الكتاب اللبناني

المجلد الأول

العبقريات الإسلامية - ١

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الأول

العبقريات الإسلامية - ١

يحتوي على

عبقرية محمد

عبقرية الصديق

عبقرية عمر

دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة

دار الكتاب اللبناني
مكتبة المدرسة

طباعة - نشر - توزيع

الادارة العامة

الصنائع - مقابل مدخل الإذاعة اللبنانية
هاتف: ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٢٧٠ - ٣٤٩٢١٩
ص.ب: ٣١٧٦ - تلكس: LE22865
برقياً: كتالبان - بيروت - لبنان

المستودعات

هاتف: ٢٥٤٠٥٤ - ٢٣٧٥٣٧ - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٥٨٣٠٤

١٩٨٤

عباس محمود
العقاد

عبقرية محمد

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مُقَـدّمة

تعود بنا هـذه المقدمة ثلاثين سنة ، الى اليوم الذي سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه السلام

وكنت أقيم يومئذ في ضاحية العباسية البحرية على مقربة من الساحة التي كانت معدة للاحتفال بالمولد النبوي في كل عام

ولنا رهط من الأصدقاء المشتغلين بالأدب يشتركون في قراءة كتبه العربية والافرنجية ، ويترددون معا على الأحيـاء الوطنيـة ، وقلّما يترددون على غيرها . . فلا يزالون متنقـلين فترة بعـد فترة بين الحي الحسيني والحي الزينبي ، أو بين منشية القلعة ، وضاحية العباسية ، أو بين الروضة والخليج . . على حسب المناسـبات ، وعلى غير مناسـبة في كثير من الأوقات . .

وكان رهطا له نقائض الدنيا مجتمعات : نقائض الشباب ، ونقائض الحياة الفنية ، ونقائض الاختلاف في البيئة بين ناشىء في العاصمة وناشىء في الريف وناشىء في الصعيـد وناشىء في الثغور ، الى غير ذلك من النقائض التي كانت حلية لهذه الجماعة ، ولم تكن فيهـا من دواعي التفرّق والشتات . .

ومن عجائبها ان الذى كان يعربها بالأحيـاء الوطنية هو قراءتها فى الكتب الافرنجية التى كانت شائعة بينها ، لأنهم كانوا يقرأون أكثر ما كانوا يقرأون كتب «دكنز» و«هازليت» و«لي هانت» و«كارليل» .. وهم كتّاب مولعون بعرض الأخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية وتمثيل الريفيين ، والحضريين فى أوضاعهم المختلفة ، ولهم فصول عن الأسواق ، والدكاكين ، والباعة ، تفيض بحسن الملاحظة وبراعة الفكاهة ومتعة القراءة ، وتعود من يدمن قراءتها أن يتحرى نظائرها حيثما رآها

ففي يوم من أيام المولد ـــ والرهط يزورني لنؤم الساحة مجتمعين فى

المساء ــ كان الكاتب الانجليزى العظيم « توماس كارليل » هو محور الحديث كله ، لأنه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربية صاحب كتاب « الأبطال » الذى عقد فيه فصلا عن النبي محمد عليه السلام ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل

***

وانا لنتذاكر آراءه ومواضع ثنائه على النبي ، اذ بدرت من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية . وكان الفتى الذى بدرت منه الكلمة متحذلقا يتظاهر بالمعرفة ، ويحسب ان التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة . . فكان مما قاله شيء عن النبي والزواج ، وشيء عن البطولة ، فحواه :ان بطولة محمد انما هي بطولة سيف ودماء !

قلت : « ويحك ! . . ما سوّغ أحد السيف كما سوغته أنت بهذه القولة النابية ! »

وقال صديقنا المازني : « بل السيف أكرم من هذا ، وانما سوغ صاحبنا شيئا آخر يستحقه . . وأشار الى قدمه ! »

وارتفعت لهجة النقاش هنيهة ، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندي ، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول ، أو خيّل اليه انه مقبول

وتساءلنا : ما بالنا نقنع بتمجيد « كارليل » للنبي ، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ، ولا يعرف الاسلام كما نعرفه . . ثم سألني بعض الاخوان : « ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابا عن محمد على النمط الحديث ؟ »

قلت : « أفعل . . وأرجو أن يتم ذلك فى وقت قريب »

ولكنه لم يتم فى وقت قريب . . بل تمَّ بعد ثلاثين سنة ! . . وشاءت المصادفة العجيبة أن تتمَّ فصوله فى مثل الأيام التى سمعت فيها الاقتراح

لأول مرة . . فكتبت السطر الأخير فيه يوم مولد النبى على حسب الشهور الهجرية ، واتفقت هذه المصادفة على غير تدبير منى ولا من أحد ، لأنى لم أدبر لنفسى أوقات الفراغ التى هيأت لي اتمام فصوله وتقسيم العمل فيه يوما بعد يوم

***

والخيرة فى الواقع . .

والخيرة كذلك فى هذا التأخير . .

فانني لو كتبته يومئذ لعدت الى كتابته الآن من جديد ، واحتجت الى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية الى محصول ذلك العمر الباكر . . اذ هو عمر يستطيع المرء أن يمتلىء فيه اعجابا بمحمد ، لأنه عمر الاعجاب والحماسة الروحية . . بيد انه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره فى مثل تجاربه ، وفى مثل السن التى اضطلع فيها بالرسالة . وان تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو البعيد من شتى نواحيه

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين ؟ . .

انها مسافات فى عالم الفكر والروح . .لو تمثلت مكانا منظورا ، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار

كم رأي ؟ . . كم مذهب ؟ . . كم وسواس ؟ . .كم محنة ؟ . . كم مراجعة ؟ . . كم زلزال يتضعضع له الكيان وتميد معه الدعائم والأركان ؟ . . كم ، وكم فى ثلاثين سنة مما يطرق نفسا لا تعفيها الحياة من التجارب والعوارض لمحة عين فى نهار ؟ . . وكم لذلك كله من أثر فى توطيد الرأي وتهدئة الثوائر وتجلية الغبار ؟ . . وكم يضيف ذلك كله الى الشباب الباكر الذى كان يحلم يومئذ بالعظمة فى كل أوج ، وبالأوج المحمدي فى عليا مراتب الأنبياء ؟ . .

الخيرة فى الواقع . .

والخيرة فى ذلك التأخير . .

واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن « عبقرية محمد » بين يدى القراء ، لا نقول اننا قد استوفيناه كما أردناه ولا اننا فصلنا فيه الغرض الذى نوخيناه . . ولكننا نقول اننا التزمنا فيه الباعث الذى أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة . كأننا شرعنا فى كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة ، فكتبناه ونحن نستحضر فى الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التى يلغط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية ، ونظرنا اتفاقا ، فاذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية . . لأنهما كانا مثار اللغط تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد ، وكانا مثار اللغط فى كل ما ردده سفهاء الشانئين من الأصلاء والمقتدين فى هذا الباب . .

***

فسيرى القارىء أن « عبقرية محمد » عنوان يؤدي معناه فى حدوده المقصودة ولا يتعداها . فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف الى السير العربية والافرنجية التى حفلت بها « المكتبة المحمدية » حتى الآن . . لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها فى هذه الصفحات ، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار فى هذآ الموضوع ، ثم لا يقال انه استنفد كل الاستنفاد

وليس الكتاب شرحا للاسلام أو لبعض أحكامه ، أو دفاعا عنه ، أو مجادلة لخصـــومه . . فهذه أغراض مستوفاة فى مواطن شتى ، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها

انما الكتاب تقدير « لعبقرية محمـــد » بالمقـــدار الذى يدين به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذى يبث له الحب فى قلب كل انسان ، وليس فى قلب كل مسلم وكفى

فمحمد هنا عظيم . . لأنه قدوة المقتـــدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس . .

عظيم لأنه على خلق عظيم . .

وايتاء العظمة حقها لازم فى كل آونة وبين كل قبيل . . ولكنه فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا ألزم منه فى أزمنة أخرى ، لسببين متقاربين لا لسبب واحد : أحدهما أن العالم اليوم أحوج مما كان الى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة . . ولن يتاح لمصلح آن يهدي قومه وهو مغموط الحق ، معرض للجفوة والكنود

والسبب الآخر ان الناس قد اجترأوا على العظمة فى زماننا بقدر حاجتهم الى هدايتها . . فان شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسا من صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة ، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة . . والمساواة هى شرعة السواد الغالبة فى العصر الحديث . .

***

ولقد جار هذا الفهم الخاطىء للمساواة على حقوق العظماء السابقين ، كما جار على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين . ثم أغرى الناس بالجور بعد الجور غرورهم بطرائف العصر الحديث ، واعتقادهم انه قد آتى بالجديد الناسخ للقديم فى كل شىء . . حتى فى ملكات النفوس والأذهان ، وهى مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديدُ القديم

يرون ان البخار يلغي الشراع ، وربما كان الاختراع السابق أدل على القدرة وأبين عن الفضل من الاختراع الذى تلاه ، ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه . .

وينظرون الى أقطاب الدنيا كأن الأصل فى النظر اليهم أن يتجنوا عليهم ويثلبوا كرامتهم ، ولا يثوبوا الى الاعتراف لهم بالفضل الا مكرهين ، بعد أن تفرغ عندهم وسائل التجني والثلب والافتراء

هذه الآفة تهبط بالخلق الانساني الى الحضيض .

وتهبط بالرجاء فى اصلاح العيوب الخلقية والنفسية الى ما دون الحضيض . .

فماذا يساوي انسان لا يساوي الانسان العظيم شيئا لديه ؟ . . وأى

معرفة بحق من الحقوق يناط بها الرجاء اذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف ؟ . . واذا ضاع العظيم بين أناس ، فكيف لا يضيع بينهم الصغير ؟ . .

***

لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذى يفهمه المعاصرون ويتساوى فى اقراره المسلمون وغير المسلمين ، نافعا فى هذا الزمن الذى التوت فيه مقاييس التقدير . .

انه لنافع لمن يقدّرون محمدا ، وليس بنافع لمحمد أن يقدّروه . . لأنه فى عظمته الخالدة لا يضار بانكار ، ولا ينال منه بغى الجهلاء الا كما نال منه بغي الكفار . .

وانه لنافع للمسلم أن يقدر محمدا بالشواهد والبينات التى يراها غير المسلم ، فلا يسعه الا أن يقدرها ويجرى على مجراه فيها . . لأن مسلما يقدر محمدا على هذا النحو يحب محمدا مرتين : مرة بحكم دينه الذى لا يشاركه فيه غيره ، ومرة بحكم الشمائل الانسانية التى يشترك فيها جميع الناس . .

وحسبنا من « عبقرية محمد » أن نقيم البرهان على أن محمدا عظيم فى كل ميزان : عظيم فى ميزان الدين ، وعظيم فى ميزان العلم ، وعظيم فى ميزان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون فى العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا فى الطبائع الآدمية ، الا أن يرين العنت على الطبائع فتنحرف عن السواء وهى خاسرة بانحرافها ، ولا خسارة على السواء .

***

ان عمل محمد لكاف جد الكفاية لتخويله المكان الأسنى من التعظيم والاعجاب والثناء . .

انه نقل قومه من الايمان بالأصنام الى الايمان بالله ، ولم تكن أصناما كأصنام يونان يحسب للمعجب بها ذوق الجمال ان فاته أن يحسب له هدى الضمير . . ولكنها أصنام شائهات كتعاويذ السحر التى تفسد

الأذواق وتفسد العقول . . فنقلهم محمد من عبادة هـذه الدمامة الى عبادة الحق الأعلى . . عبادة خالق الكون الذى لا خالق سواه ، ونقل العالم كله من ركود الى حركة ومن فوضى الى نظـام ، ومن مهانة حيوانية الى كرامة انسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات . .

***

ان عمله هـذا لكاف لتخويله المكان الأسنى بين صفوة الأخيـار الخالدين ، فما من أحد يضن على صاحب هذا العمل بالتوقير ثم يجود بالتوقير على اسم انسان

الا اننا نمضي خطوة وراء هذا ، حين نقول:ان التعظيم حق « لعبقرية محمد » ولو لم تقترن بعمل محمد . .

لأن العبقرية قيمة فى النفس قبـل أن تبرزها الأعمـال ويكتب لها التوفيق ، وهى وحدها قيمة يعالى بها التقويم . .

***

فاذا رجح بمحمد ميزان العبقرية ، وميزان العمل ، وميزان العقيدة . . فهو نبي عظيم وبطل عظيم وانسان عظيم

وحسبنا من كتابنا هـذا أن يكون بنَاناً تومىء الى تلك العظمة فى آفاقها ، فان البنان لأقدر على الاشارة من الباع على الاحاطة ، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير . .

عباس محمود العقاد

عَلاماتُ مَوْلِد

عالم

كان عالما متداعيا قد شارف النهاية . . خلاصة ما يقال فيه انه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام . .

أى انه فقد أسباب الطمأنينة فى الباطن والظاهر . . طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون الى قوة فى الغيب ، تبسط العدل ، وتحمي الضعف ، وتجزي الظلم ، وتختار الأصلح الأكمل من جميع الأمور ..

وطمأنينة الظاهر التى تنشأ من الركون الى دولة تقضي بالشريعة ، وتفصل بين البغاة والأبرياء ، وتحرس الطريق ، وتخيف العائثين بالفساد . .

بيزنطة قد خرجت من الدين الى الجدل العقيم الذى أصبح بعد ذلك علما عليها ، وتضاءلت سطوتها فى البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمى بجوارها . .

وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس . . وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة ، وبواعث الفتن ، ونوازع الشهوات ...

والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة ، وبين التوحيد الذى هو ضرب من عبادة الأوثان . . ثم هى بعد هذا التشويه فى الدين ، ليست بذات رسالة فى الدنيا ولا بذات طور من أطوار التاريخ . . فليس لها عمل باق فى سجل الأعمال الباقيات . .

عالم يتطلع الى حال غير حاله . . عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثم للبناء .

وبين هذه الدول المتداعيات ، أمّة ليست بذات دولة ولكنها تتأهب لاقامة دولة . . هى أمّة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكاناتها ، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها

فى أيديها تجارة العالمين كلها . .

فاذا سارت القوافل من خليج فارس الى بحر الروم ، فهى تسير فى البادية بين حراس من العرب لا سلطان عليهم للدول المتداعية . . أو هم قد شعروا بذلك السلطان حينا فى ابّان الصولة الرومانية والصولة الفارسية ، ثم علموا انهم مالكون لزمامهم يرضون فتتصل الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق ، ويغضبون فتبور التجارة وينضب المورد وتكسد الأسواق

واذا سارت القوافل من اليمن الى الشام أو من بحر القلزم الى بحر الروم ، فهى فى جيرة الأعراب من كلتا الطريقين

أمة تيقظت لوجودها ، وعرفت شأنها بين من يحدقون بصحرائها . .

ثم رأت هؤلاء المحيطين بها يجورون عليها ، ويريدون اخضاعها وابتلاعها . .

فهرقل الرومى يرسل الى مكة من يحكمها ، وأبرهة الحبشى يزحف الى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها ، وفارس تطغى على شرق البلاد وعلى جنوبها . .

خطر من خارجها ، يزيد الأمة يقظة وانتباها لوجودها . .

وخطر من داخلها ، يدفع بها دفعا الى الزوال أو الى استكمال النقص المستشري فى حياتها ..

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة ، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع فى أيديها ثروة المدينة ..

حالة لا استقرار فيها . .

فمن هنا الترف ، والطمع ، والخمر ، والقمــار ، والمتعة ، وتسخير الأقوياء للضعفاء ..

ومن هنا الفاقة ، والحسرة ، والشك فى صلاح الأمور . .

ولكنه شك يبحث ويضطرب ، وليس بالشك الذى يستجم ويستكين

فحيثمـــا اجتمع أناس من أولي الرأي يذكرون العقيــدة وطمأنينة الضمير ، فهناك هاتف بينهم بســوء ما هم عليه . اجتمع أناس بنخلة لاحياء عيد العزّى فقال رجل منهم لاخوانه : « لله ما قومكم على شيء وانهم لفى ضلال . . فما حجر نطيف به لايسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، ومن فوقه يجري دم النحور . يا قوم التمسوا لكم دينا غير هذا الدين الذى أنتم عليه » . . ثم تفرقوا ، فمنهم من تنصر ، ومنهم من اعتزل الأوثان ، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الاســلام فلباها . . وكان الذى تنصر وسمع دعوة الاسلام ورقة بن نوفل الذى كتب له أن يتلقى بشارة النبي العربي عند ظهوره ويلقي اليه بالبشارة

هؤلاء شكوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير . .

وغيرهم شكوا وبحثوا عن وازع من الضمير ، ووازع من السلطان فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه . . وذلك حلف الفضول الذى شــهده النبى العربى فى شبابه وقال فيه : « ما أحب أن يكون لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم »

حالة لا تستقر ، ولا تزال فى طلب الاستقرار . .

وأمة يقظى ! . .

وخطر محدق بها مما حولها ، ومما هو فى دخائلها وأحشائها . .

حالة تنذر بالزوال ، وقلّما تزول أمة يقظى فى أوان انتباهها . . فتلك اذن حالة للتبديل والتجديد ..

قبيلة

وقبيلة تلك الأمة ، فى تلك المدينة . . لها شعبتان :

احداهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم كما كان قائما على هواها . .

والأخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القوى الذى يجور ويطغى ويستبقي أداة الجور والطغيان ، ومقام الضعيف الذى يحتمل الأذى ويصبر على الكريهة ولا يملك مع السيد الآمر الا أن يذعن له ويأكل من فضلات يديه

بيت

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق وليس له لؤم الثروة الجامحة والكبرياء الجائحة ، والقسوة على من دونه من المحرومين

ذلك هو بيت عبد المطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها العليا ، وان لم يكن معدودا من أثرياء القبيلة القرشية فى ذلك الأوان . .

ورأس هذا البيت ــ عبد المطلب ــ رجل قوي الخلق قوي الايمان فيما آمن به ، حكيم مع قوة طبعه وشدة ايمانه ، خليق أن ينجب العقب الذى يبشر بدعوة وينضح عن دين

نذَر لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة . . ثم أحله قومه وأحلته العرافة من نذره ، فأبى أن يتحلل حتى يستوثق من رضى الرب ورضى ضميره . سألتهم العرافة : « كم الديَة فيكم ؟ »

قالوا : « عشر من الابل »

قالت : « فتقربوا اذن بعشر من الابل واضربوا على الفتى وعليها بالقداح . . فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم » فما زالوا يزيدون حتى بلغت الابل مائة وخرجت القداح عليها . فهتفت قريش بعبد المطلب : « لقد رضي ربك .. فأطلق فتاك » . وكان

خليقا بمن يريد أن يتحلل ويتعلل أن يقبل ولا حرج عليه ، ولكن عبد المطلب لم يكن من المتحللين المتعللين ، فأبى الا أن يضرب عليها القداح ثلاث مرات ، ثم نحرت الابل للجياع من الأناسى والسباع

وجاء القائد الحبشي يهدم الكعبة ويسطو على الابل والشاه . . فلما سأله عبد المطلب أن يرد اليه ابله ، قال له مقال السياسي المحرج المداور بالكلام : « أراك تسأل عن ابلك ولا تسأل عن الكعبة »

فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المؤمن : « أما الابل فأنا ربها ، وأما البيت فله رب يحميه ! »

فكان ايمانه ايمانا كفؤا لدهاء السياسة ، ولم يكن ايمان العجز والتواكل والاستسلام ...

ومن كان له هذا الخلق ، وهذا الضمير ، وهذا الايمان ، وهذه الرئاسة ، فليس من عجب أن ينجب نبيا فى زمان يستدعي الأنبياء ، ومكان مهيىء لهم دون كل مكان .. بل العجب أن يكون الأمر غير ماكان

أب

واذا كان عبد المطلب جدا صالحا لنبي كريم ، فابنه عبد الله نعم الأب لذلك النبى الكريم . .

لكأنما كان بضعة من عالم الغيب ، أرسلت الى هذه الدنيا لتعقب فيها نبيا وهى لا تراه . . ثم تعود

كان انسانا من طينة الشهداء ، يتجه الى القلب الانسانى بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة . فهو الفتى الذى اسمه عبد الله والذى اختير للفداء ، فجاشت له شفقة قومه حتى تركه لهم القدر الى حين . وهو الفتى الذى تحدثت الفتيات فى الخدور بوسامته وحيائه ، وودت مئات منهن لو نعمن منه بنعمة الزواج . وهو الفتى الذى أقام مع عروسه ثلاثة أيام ، ثم سافر ليتّجر فاذا هى السفرة التى لايؤوب منها الذاهبون . وهو الفتى الذى مات وهو غريب ، وولد له نسله الكريم وهو دفين . وهكذا تتمثل

البصائر الخاشعة آباء الأنبياء والسلالة التى تصل بين الآخرة والدنيا وبين عالم البقاء وعالم الفناء ...

رجل

عالم يتطلع الى نبي . . وأمة تتطلع الى نبى ، ومدينة تتطلع الى نبى ، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لانجاب ذلك النبى

ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر فى صفاته ومقدماته ، ولا يدانيه رجل آخر فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة فى المدينة . . وفى الجزيرة ، وفى العالم بأسره

نبيل عريق النسب . . وليس بالوضيع الخامل ، فيصغر قدره فى أمة الأنساب والأحساب . .

فقير . . وليس بالغني المترف فيطغيه بأس النبلاء والأغنياء ، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار

يتيم بين رحماء .. فليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه التدليل ملكة الجد والارادة والاستقلال ، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذى تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح ، وفضيلة العطف على الآخرين

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش فى البادية والحاضرة .. تربى فى الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد الحروب والأحلاف ، واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء ..

فهو خلاصة الكفاية العربية فى خير ما تكون عليه الكفاية العربية . .

وهو على صلة بالدنيا التى أحاطت بقومه . . فلا هو يجهلها فيغفل عنها ، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق فى لجتها

أصلح رجل من أصلح بيت فى أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة ، على غير علم من الدنيا التى ترقبها ...

ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام . .

قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة اليه ، والجزيرة مهيأة

لظهوره لأنها محتاجة اليه ، والدنيا مهيأة لظهوره لأنها محتاجة اليه ، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هـذه العلامة ؟ . . وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير ؟ . . وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق ؟ . . علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج اليها الأمة ، وهي أسباب تمهد لظهورها ، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوانها . .

فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها ؟ . . واذا تعذر عليها أن تجتمع فأي علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟ . .

خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين ، والا فلأي شيء خلق . . . ولأي عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن ، لكان تاجرا أمينا ناجحا موثوقا به في سوق التجار والشراة . . ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ، ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة اليها في هذا العمل مهما يتسع له المجال

ولو اشتغل زعيما بين قومه لصلح للزعامة ، ولكن الزعامة لا تستوفي كل ما فيه من قدرة واستعداد . .

فالذي أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواها ، وما من أحد قد أعد في هذه الدنيا لرسالة دينية ان لم يكن محمد قد أعد لها أكمل اعداد . .

بشائر الرسالة

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية .. يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه ، وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم

الحديثة أو عارضته ، ويتفرقون فى الرأى والهوى بين تفسير الايمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة فى آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام ؟

لا موضع هنا لاختلاف . .

فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى اقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها

لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد ، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ، ولا عرفوا انها علامة على شىء أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة . .

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا الى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة ، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه

وقد ولد مع النبى عليه السلام أطفال كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها ، فاذا جاز للمصدق أن ينسبها الى مولده جاز للمكابر أن ينسبها الى مولد غيره . ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين . . يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين

أما العلاقة التى لا التباس فيها ولا سبيل الى انكارها ، فهى علامة الكون وعلامة التاريخ . .

قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا فى حاجة الى رسالة . .

وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة . .

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ . .

عبقرية الداعي

اتفقت أحوال العالم اذن على انتظار رسالة . .

واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة . .

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد ، ولا تتفق معها الوسائل التى تؤدى بها رسالته على أحسن الوجوه

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ، ثم لا يظهر الرسول

وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح وفى البيئة الصالحة ، ثم لا تتهيأ له الصفات التى يتم بها أداء الرسالة

ولكن الذى اتفق فى رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق ، وكان المعجزة التى تفوق المعجزات . . لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها ، مما يقبله العقل قبولا سائغا بغير عنت ولا استكراه . .

فكان محمد مستكملا للصفات التى لا غنى عنها فى انجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ

كانت له فصاحة اللسان واللغة . .

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة . .

وكانت له قوة الايمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها . .

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول . . ولكنها هى التى عليها المدار فى تبليغ الرسالة ، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال

الفصاحة

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ، ولموضوع

الكلام . . فيكون الكلام فصيحا وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع والقلوب

أما فصاحة محمد . . فقد تكاملت له فى كلامه ، وفى هيئة نطقه بكلامه ، وفى موضوع كلامه . .

فكان أعرب العرب ، كما قال عليه السلام : « أنا قرشي واسترضعت فى بنى سعد بن بكر »

فله من اللسان العربى أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة . . وهذه هى فصاحة الكلام

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس . . فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل

أما محمد فقد كان جمال فصاحته فى نطقه كجمال فصاحته فى كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس اليه »

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على ايقاعها فى أحسن مواقعها .. فهو صاحب كلام سليم فى نطق سليم ..

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا فى بنى سعد ، ويكون سليما فى كلامه سليما فى نطقه . . ثم لا يقول شيئا يستحق أن يستمع اليه السامع فى موضوعه

فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول فى فصاحته السائغة من شتى نواحيها.. فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات الا وهو دليل صادق على انه قد أوتي حقا « جوامع الكلم » ، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام

وكانت له مع الفصاحة صباحة ودماثة تحببانه الى كل من رآه ، وتجمعان اليه قلوب من عاشروه . وهى صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو ، ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا انه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء

وحسبك من حب الضعفاء اياه ان فتى مستعبدا يفقد أباه وأسرته ــ كزيد بن حارثة ــ ثم يظهر له أبوه بعد طول الغيبة ، فيؤثر البقاء مع محمد على الذهاب مع أبيه . .

وان خادم خديجة رضى الله عنها ــ ونعنى به ميسرة ــ يقدمه ليبشر سيدته بالربح والتوفيق فى تجارته ، وهو أولى أن ينفس عليه ، وأن يدعي لنفسه ما اختصه به من الفضل والتقديم

وحسبك من حب الأقوياء اياه انه جمع على محبته اناسا بينهم من التفاوت فى المزاج والخصال ما بين أبى بكر وعمر وعثمان وخالد وأبى عبيدة ، وهم جميعا من عظماء الرجال

ولكن الرجل قد يكون صبيحا دمثا محبوبا ، ولا يكون له من ثقة الناس وائتمانهم اياه نصيب كبير . . لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به ، واذا اتفقت الخصلتان حينا فمن الجائز أن تفترقا حينا آخر ، لأنهما فى عنصر الخصال لا تتلازمان

أما محمد فقد كان جامعا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان ، وكان مشهورا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه . وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه . وامتلأ هو من العلم بمنزلته من ثقة القوم ، فأحب أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم فى دعوته فكان يسألهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟ »

فيقولون : « نعم ، أنت عندنا غير متهم » . . الا أن الانسان ينفر مما يصدمه فى مألوفاته وموروثاته ، ولو صدقه وقام لديه ألف برهان عليه

فلم يكن ما بالقوم انهم لا يصـــدقون محمـــدا ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة ، وانما كان بهم أنهم ينفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوءه فيمن يحب أو فيما يحب ، وهو مفتوح العينين ناظر الى صدق ما يلقى اليه

الايمان والغيرة

ومن المحقق أن هـــذه الموافقات على كثرتها ، وهذه الشمائل على ندرتها ، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج اليها الداعى أشد من احتياجه الى الفصـــاحة والصبـــاحة . . وهى ايمانه بدعوته وغيرته على نجاحها . فقـــد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللســـان وطلاقة القسمات ، ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الايمان بصواب ما يدعو اليه ، والغيرة عليه . .

وقد قضى محمد عليه السلام شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان . . وجاوره أناس أقل منه نبلا فى النفس ولطفا فى الحس ونفورا من الرجس ، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله ، ومن حاجتهم الى عبادة غير عبادة الأصنام ، وآداب غير آدابهم فى تلك الأيام فاذا جاوزهم فى صـــدق وعيه وسداد سعيه فقـــد وافق المعهود فيه ، والموروث من جده وأبيه

ولما آمن برسالته هو ودعوة ربه اياه الى القيام بأداء تلك الرسالة لم يهجم على هذا الايمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم ، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره ، ولكنه تردد حتى استوثق ، وجزع حتى اطمأن . وخطر له فى فترة من الوحى ان الله قلاه وأعرض عنه ، ولم يأذن له فى دعوة الناس الى دينه . ثم تلقى الطمأنينة من وحي ربه ومن وحى قلبه ومن وحى صحبه . . فصدع بما أمر ، ورضى ضميره بما أوتي من الهداية على النحو الذى رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية ، مع ما بينه وبينهم من فارق فى الرتبة والأهبة ، وما بين

زمانهم وزمانه من فارق فى الحاجة الى الاصلاح

فما من عجب اذن أن يكون محمد صاحب دعوة . .

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت ، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التى بلغت . وانما العجب ممن يغفلون عن هذه الحقيقة أو يتغافلون عنها لهوى فى الأفئدة ، فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين أصروا أمس على الكفر به ، وحجبوا بأيديهم نوره عامدين . .

نجاح الدعوة

ما من حركة كبرى فى التاريخ تتضح للفهم ان لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهوما بأسبابه الواضحة المستقيمة التى لا عوج فى تأويلها ، وما من شيء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة ثم يخيل اليه أن الدعوة الاسلامية كانت فضولا غير مطلوب فى هذه الدنيا ، وان نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود أو غير الارهاب بالسيف والاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين

أى ارهاب وأى سيف ؟ . .

ان الرجل حين يقاتل من حوله انما يقاتلهم بالمئات والألوف .. وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا فى الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدا لسيوفهم ، وكانوا يلقون عنتا ولا يصيبون أحدا بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يخرجون أحدا من داره

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبى الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين . . ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الارهاب والوعيد ، ولم يحملوه ليبدأوا واحدا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ، ولم تكن كلها

الا حروب دفاع وامتناع

أما الاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين . . فلو كان هو باعثا للايمان ، لكان أحرى الناس أن يستجيب الى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم وأصحاب الترف والثروة فيهم ، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس الى استدامة الحياة واستبقاء النعمة . فان حياة النعيم بعد الموت محببة الى المنعمين تحبيبها الى المحرومين ، بل لعلها أشهى الى الأولين وأدنى . . ولعلهم أحرص عليها وأحنى ، لأن الحرمان بعد التذوق والاستمراء أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال

***

لم يكن أبو لهب أزهد فى اللذة من عمر . .

ولم يكن السابقون الى محمد أرغب فى النعيم من المتخلفين عنه . .

ولكننا ننظر الى السابقين وننظر الى المتخلفين ، فنرى فارقا واحدا بينهم أظهر من كل فارق . ذلك هو الفارق بين الأخيار والاشرار ، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين وبين من يعقلون ويصغون الى القول الحق ، ومن يستكبرون ولا يصغون الى قول

ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا ومن تخلفوا . . وليس هو الفارق بين طالب لذة وزاهد فيها ، او بين مخدوع فى النعيم وغير مخدوع

ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها من مثال عمر رضى الله عنه فى اسلامه . . فقصته فى ذلك نموذج لتلبية الدعوة المحمدية ، ينفى كل كلام يقال عن الوعيد والاغراء وأثرهما فى اقناع الأقوياء أو الضعفاء . .

قال ابن اسحق : « ... خرج عمر يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه . . . قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء . ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم . . ممن كان

أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة . فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : « من تريد يا عمر ؟ .. »

فقال : « أريد محمدا هذا الصابىء الذى فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله »

فقال نعيم : « والله لقد غرتك نفسك يا عمر !.. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟.. أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ »

قال : « وأى أهل بيتى ؟ »

قال : « ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو !.. وأختك فاطمة بنت الخطاب .. فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما »

قال : « فرجع عمر عامدا الى اخته وختنه ، وعندهما خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : « ما هذه الهينمة التى سمعت ؟ »

قالا له : « ما سمعت شيئا ! . . »

قال : « بلى والله ! .. لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه » .. وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته : « نعم . . قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك » . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته : « اعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد » . وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك قالت له أخته : « انا نخشاك عليها »

قال : « لا تخافى » وحلف لها بآلهته ليردنها اذا قرأها اليها . فلما قال ذلك طمعت فى اسلامه ، فقالت له : « يا أخى !.. انك نجس على شركك ، وانه لايمسها الا الطاهر » . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « سورة طه » . فقرأها فلما قرأ منها صدرا قال : « ما أحسن هذا

الكلام وأكرمه ! » فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له : «ياعمر ! والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيّه ، فانى سمعته وهو يقول : « اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب . . فالله الله يا عمر ! »

فقال له عند ذلك عمر : «فدلّنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم»

فقال له خباب : « هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه » .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا السيف ، فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : « يا رسول الله ! . . هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف »

فقال حمزة بن عبد المطلب : « نأذن له . . فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه »

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائذن له ! » فأذن له الرجل ونهض اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة وقال : « ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ .. فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ! »

فقال عمر : « يا رسول الله ! . . جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله »

قال : « فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه ان عمر قد أسلم » فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع اسلام حمزة ، وعرفوا انهما سيمنعان رسول الله وينتصفون بهما من عدوهم . . . »

هذه قصة اسلام عمر بن الخطاب ، وهذا موضع ما فيها من الوعيد والاغراء . . خرج بالسيف ليقتل محمدا ولم يخرج عليه احد من المسلمين بسيف ، وقرأ صدرا من «سورة طه» ليس فيه ذكر للخمر والنعيم وهو :

« طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى »

فلا جبن اذاً ولا طمع فى اسلام عمر بن الخطاب ، بل رحمة وانابة واعتذار . .

***

ولم يكن فى اسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر ناصرا وأضعف منه بأسا جبن ولا طمع ، لأنهم تعرضوا باسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله ، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال ان الذين سبقوهم الى الاسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة . . ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور ، فمن كان أقرب الى هذه الطلبة من غني أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم ، ومن كان به زيغ عنها فقد أبى . . وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للاسلام سيف يذود عنه ، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف . وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب اللذة والخوف ، ويضع الطغاة من قريش فى جانب العصمة والشجاعة الا آن يكون به هوى كهوى الكفار من قريش ، فى الاصرار والانكار

***

انما نجحت دعوة الاسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث ، وقام بها ذاع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته . .

فلا حاجة بها الى خارقة ينكرها العقل أو الى علة عوجاء يلتوى بها ذوو الأهواء ، فهى أوضح شيء فهما لمن أحب أن يفهم ، وهى أقوم شيء سبيلا لمن استقام . .

عبقرية محمد العسكرية

حروب دفاع

قلنا فى الفصل السابق ان الاسلام لم ينجح لأنه دين قتال كما يردد أعداؤه المغرضون ، ولكنه نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق ، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار

ونريد فى هذا الفصل أن نقول ان محمدا كان على اجتنابه العدوان يحسن من فنــون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتــدون عليه ، وانه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده . . ولكنه اجتنبه لأنه نظر الى الحرب نظرته الى ضرورة بغيضة يلجأ اليها ولا حيلة له فى اجتنابها ، ويجتنبها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة

وقبل ذلك ينبغى أن نستحضر فى الذهن بعض الحقائق التى تظهر لنا الاختلاف بين الدين الاسلامى والأديان الأخرى فى مسألة القتــال ، لنثبت أن للاسلام شأنا فى اجتناب القوة كشأن كل دين ، وانه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن الى جانب ذلك صالحــا للانتصــار ، وان الأديان الأخرى ما كانت لتحجم عن عمــل أقدم عليه النبى لو كانت دعوتها كدعوته ، وكانت أسبابها كأسبابه

***

فالحقيقة الأولى ، ان مطعن القائلين بأن الاسلام دين قتال انما يصدق ــ لو صــدق ــ فى بداءة عهد الاســلام كما أسلفنا ، يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين ، ولولاهم لما كان له جند ولا حمل فى سبيله سلاح . .

لكن الواقع ان الاسلام فى بداءة عهده كان هو المعتدى عليه ولم يكن من قبله اعتداء على أحد . . وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية واجتماع القول حول النبى عليه السلام ، فانهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الذين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أُمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة ، فلم يكن لهم قط عدوان ولا اكراه

وحروب النبى عليه السلام كما أسلفنا كانت كلها حروب دفاع . ولم تكن منها حرب هجوم الا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الايقان من نكث العهد والاصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم . . ففى غزوة تبوك عاد الجيش الاسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة ، وكان قد سرى الى النبى نبأ انهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية . فلما عدلوا عدل الجيش الاسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره

والحقيقة الثانية ، ان الاسلام انما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والاقناع

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف « سلطة » تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين اسماع المستعدين للاصغاء اليه

لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غنى فى اخضاعها عن القوة . .

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الاسلامية ، وانما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف . . وكل حجتهم التى يذودون بها عن تلك التقاليد انهم وجدوا آباءهم عليها ، وان زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه

وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب

السلطة التى تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التى تصد الدعوة الاسلامية ، فيمتنع القتال

ومن التجارب التى دل عليها التاريخ الحديث كما دل عليها التاريخ القديم ان السلطة لا غنى عنها لانجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب .. ومن تلك التجارب تجربة فرنسا فى القرن الماضى ، وتجربة روسيا فى القرن الحاضر ، وتجربة مصطفى كمال فى تركيا ، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله فى سائر البلاد

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة . . ولا بد من التمييز بين العملين ، لأنهما جد مختلفين

***

والحقيقة الثالثة ان الاسلام لم يحتكم الى السيف قط الا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الانسان على تحكيم السيف فيها . .

فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، ماذا تصنع ان لم تحتكم الى السلاح ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين»

والدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها ، بماذا تفض الخلاف بينهم ان لم تفضه بقوة السلطان ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضا حيث جاء فيه : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله . فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين »

وفى كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل ، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح . . ثم يأتى الصلح والتوفيق أو

يأتى التفاهم بالرضى والاختيار

***

والحقيقة الرابعة ، ان الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لابد من ملاحظتها عند البحث فى هذا الموضوع . .

فاليهودية أو الاسرائيلية كانت كما يدل عليها اسمها أشبه بالعصبية المحصورة فى أبناء اسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس . . فكان أبناؤهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه ، وكانوا من أجل هذا لايحركون ألسنتهم ـ فضلا عن امتشاق الحسام ـ لتعميم الدين اليهودى وادخال الأمم الأجنبية فيه ، ولا وجه اذن للمقارنة بين اليهودية والاسلام فى هذا الاعتبار . .

أما المسيحية فهى قد عنيت « أولا » بالآداب والأخلاق ، ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة

وقد ظهرت « ثانيا » فى بلاد للمعاملات والنظم الحكومية فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسلطان ، فهى قد عدلت عن فرض المعاملات والدساتير لهذه الضرورة ، لا لأن المعاملات والدساتير ليست من شأن الدين . .

وقد ظهرت « ثالثا » فى وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول ، وليس للوطن الذى ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة فى ميدان القتال

أما الاسلام فقد ظهر فى وطن لا سيطرة للأجنبى عليه ، وكان ظهوره لاصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام . . والا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية

فاذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية ، فذلك اختلاف موضعى طبيعى لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه

وآية ذلك ان المسيحية صنعت صنع الاسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش ، وحين استقلت شعوبها عن الأجانب المتغلبين . .

وأربت حروب المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الاسلام مجتمعات

***

والحقيقة الخامسة ، ان الاسلام شرع الجهاد ، وان النبى عليه السلام قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله »

وجاء فى القرآن الكريم : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » . .

وحدث فعلا ان المسلمين فتحوا بلادا غير بلاد العرب ، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح

الا ان هـذه الفتوح تأخرت فى الزمن ، ولم يتم شىء منهـا قبل استقرار الدولة للاسلام . فلا يمكن أن يقال انها كانت وسيلة الاسـلام للظهور ، وقد ظهر الاسلام قبلها وتمكن فى أرضه واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت فى سبيله . .

ثم ان هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة ان لم تفرضها الدعوة الى دينها . .

فلو قدرنا ان الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو اليه ، لوجب فى ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التى شاعت فى أرض فارس وفى أرض الروم .. ووجب أن يكف الشر الذى يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما ، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرى منهما الى حماه . .

هـذا الى أن الاسـلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب

***

والحقيقة السادسة ، ان المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل اسلامها وبعد اسلامها تدل على ان جانب الاسلام هو جانب الاقناع لمن أراد الاقناع . .

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار ، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام.. واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم ، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه ..

فاذا قيل ان المدعوين الى الاسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين ، فلا ينفى هذا القول انهم اقتنعوا به متأخرين . . ان الاسـلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار ، الى جانب قدرته على اكراه من يركب رأسه ويقف فى طريق الاصلاح . .

ومن نظر الى الاقناع العقلى ، تساوى لديه من يستميلك الى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام ، أو بتربية الأطفال عليها وهم لا يعقلون ، ومن يستميلك اليها بالخوف من الحاكم . . على فرض ان خوف الحاكم كان ذريعة من ذرائع نشر الاسلام

فالشـاهد الذى تطعمه وتكسوه ليقول قولك فى احدى القضايا ، كالشاهد الذى ينظر الى السوط فى يديك فيقول ذلك القول . . كلاهما لايأخذ باقناع الدليل ولا بنفاذ الحجة ، ولا يدفع عن عقيدة دفع العارف البصير . .

وصفوة ما تقدم ان الاسلام لم يوجب القتال الا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته جميـع الحقوق ، وان الذين خاطبهم بالسـيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك . . الا أن يحال بينهـا وبين انتصائه ، أو تبطل عندها الحاجة الى دعوة الغرباء الى أديانها . . وان الاسلام عقيدة ونظام ، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام فى أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه . .

القائد البصير

لم يكن الاسلام اذن دين قتال ، ولم يكن النبى رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عنها ، ولكنه مع هـذا كان نعم القائد البصير اذا وجبت الحرب ودعته اليها المصلحة اللازمة . . يعلم من فنونها بالالهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ، ويصيب فى اختيار

وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه اصابة التوفيق واصابة الحساب واصابة الاستشارة . وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والانشاء ، لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام

وقد كانت غزوة بدر هى التجربة الأولى للنبى عليه السلام فى ادارة المعارك الكبيرة ، فلم يأنف أن يستمع فيها الى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال الى غير المكان الذى نزل فيه ، ثم وعى من تجربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى .. فلو تتبع حروبه عليه السلام ناقد عسكرى من أساطين فن الحرب فى العصر الحديث ليقترح وراء خططه مقترحا أو ينبه الى خطأ ، لأعياه التعديل

ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذى كان هو الأسلوب الغالب فى العصور الماضية ، والذى ظهر فى الحرب العالمية الحاضرة انه لايزال الخطوة الأخيرة فى جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود . . لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق فى خطط النبى العسكرية ، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم . .

١ ــ فنابليون كان يوجه همه الأول الى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع ، فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع .. وانما كانت عنايته الكبرى منصرفة الى مبادرة الجيش الذى يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان ، وهو على يقين ان الفوز فى هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التى يلجأ اليها جلة القواد

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور .. أن يختار الموقع الملائم له ، وأن يختار الفرصة ، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده

وكان النبى عليه السلام سابقا الى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها فكان ــ كما قدمنا ــ لا يبدأ أحدا بالعدوان ، ولكنه اذا علم بعزم

الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال . بل ربما وصل اليه الخبر كما حدث فى غزوة تبوك والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة . . فلا يثنيه ذلك عن الخطة التى تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال ، ولا يبالى ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدى فلم يحدث ما توقعوه

وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها .. ولا يضيع الوقت فى انتظار ما يختاره أولئك الأعداء ، واضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة فى أيدى الهاجمين ، الا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه ، كما حدث فىغزوة الخندق

٢ — وكان نابليون يقول ان نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة الى واحد . .

والنبى عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التى هى فى الحقيقة قوة الايمان وربما بلغت نسبة هذه القوة الى الكثرة العددية كنسبه خمسة الى واحد فى بعض المعارك ، مع رجحان الفئة الكثيرة فى السلاح والركاب الى جانب رجحانهم فى عدد الجنود . . ومعجزة الايمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة فالنبى عليه السلام كان يحارب عربا بعرب ، وقرشيين بقرشيين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة . . فلا يقال هنا ان الفضل لقوم على قوم فى المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا فى جيوش نابليون ، وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والايمان

٣ — وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التى يتناولها اقتداره . . فكان يحارب الانجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصلالى القارة الأوربية ، وتحويل المعاملات عن طريق انجلترا الى طريق فرنسا . .

وهكذا كان النبى عليه السلام يحارب قريشا فى تجارتها ، ويبعث السرايا فى أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها

وأنكر بعض المتعصبين من أوربا هذه السرايا وسموها « قطعا للطريق » ، وهى هى سنة المصادرة بعينها التى أقرها « القانون الدولى » وعمل بها قادة الجيوش فى جميع العصور ، ورأينا تطبيقها فى الحرب الحاضرة والحرب الماضية ، رشيدا تارة وغاليا فى الحمق والشطط تارة أخرى . .

٤ ــ وقد أسلفنا ان نابليون كان يوجه همه الى الجيش ، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة

ونرجع الى غزوات النبى عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة ، الا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التى عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، أو قبل نجاحها فى الغدر والوقيعة ، كما حدث فى حصار بنى قريظة وبنى قينقاع ، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم فى الميدان المختار بغير كبير اختلاف

٥ ــ وكان نابليون معتدا برأيه فى الفنون العسكرية ولاسيما الخطط الحربية ، ولكنه كان مع هذا الاعتداد الشديد لايستغنى عن مشاورة صحبه فى مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه فى خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول ، ومن ذلك ما صنعه ببدر ــ وألمعنا اليه آنفا ــ حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال الى مكان غير الذى نزلوا فيه أول الأمر ثم بتعوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل اليه الأعداء ، وقيل فى روايات كثيرة انه عمل بمشورة سلمان الفارسى فى حفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة . فحفر الخندق وعمل النبى بيديه الكريمتين فى حفره . .

وقبول النبى مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة ، وسنة من سنن القواد الكبار ، غير اننا نعتقد انه عليه السلام كان خليقا أن

يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسى بين أهل المدينة فى ابان الهجمة عليها . . لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات الى سد الثغور وحماية الظهور فى جميع وقعاته . وفى وقعة أحد جعل الجبل الى ظهره وأقام على الشعب الذى يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميا مشددا عليهم فى التزام موقفهم ، قائلا لهم : « احموا ظهورنا فانا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وان رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وان رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وانما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل »

والذى يفعل هذا فى شعب جبل لايفوته أن يفعل مثله فى ثغرة مدينة ، ولكن المشاورة هنا هى المقصود بالمضاهاة بين ما سبق اليه النبى وما نبغ فيه نابليون . فهذه خصلة معهودة فى كبار القواد لا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب

٦ ــ ولم يعرف عن قائد حديث انه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون . .

وكانت فراسة النبى فى ذلك مضرب الأمثال ، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر ، لأنهما يذكران قريشا ولا يذكران أبا سفيان ، علم بفطنته الصادقة انهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء ، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور التى ينحرونها كل يوم ، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذى يحتاج اليه . وكان صلوات الله عليه انما يعول فى استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس الى العلم بفجاجه ودروبه ، ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كلٍّ فيما هو خبير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع

٧ ــ واشتهر عن نابليون انه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام ، وكان يقول انه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام . .

والنبى عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة فى كسب المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التى عاهدوا عليها ويشهرون به وبالاسلام أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون فى هجوه وهجو دينه ، فينفذ اليهم من يحاربهم فى حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم . .

***

وعاب هـذا بعض المغرضين من الكتاب الأوربيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشـاعر الانجليزى كولردج الذى كان يخوض فى ذمّه ويستهوى الأسماع بسحر حديثه . .

الا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الاسلام انما هى حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وانما هى فى مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الالهية والوثنية ، وليس وقوف الجيش أمام الجيش الا سبيلا من سبل الصراع فى هذا الميدان

فليس فى حالة سلم مع النبى اذن من يحاربه فى صميم الدعوة الدينية ، ويقصده بالطعن فى لباب رسالته الاسلامية ، وان لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده ، وانما هو مقاتل فى الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين ، ولا سيما اذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة الا ريثما تعود

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح ، فلا يجوز له أن يقتل أحدا لا يحمل السلاح فى وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب ازهاق حياته . وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين ، ولا كان للرسول الاسلامى من غرض لو جاز له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه فى دينه وان لم يشهروا السيف فى وجهه ، فان الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذى يضربون فيه

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التى سبق اليها محمد وجرى

عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح . .

لم يتخذ محمد الحرب صناعة ، ولا عمد اليها ــ كما أسلفنا ــ الا لدفع غارة واتقاء عداوة ، فاذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعا اليه ، فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذى تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع الى أن سكن فى منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمى بين رمال الصحراء

ولقد كانت خبرة النبى ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال ، فكانت طريقته فى اختيار المكان والغرض أو فى اختيار القائد وتزويده بالوصايا والأتباع مثلا يحتذى فى جميع العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذى كثرت فيه ذرائع التخبئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة ، فكثرت فيه ــ من ثم ــ حاجة المقاتلين الى استقصاء أحوال الأعداء . .

ففى الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التى تصدر الى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة ، أو بعد مسيرة ساعات ، أو فى عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض ، الى أمثال ذلك من العلامات التى تعين بها الجهات

ويتفق فى أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعا على سر البعثة ورجاله جميعا يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون فى غزوة أم فى مناورة استطلاع ، الى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات ، وهنالك تصدر الأوامر التى لابد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ ، ولا خوف من كشفها فى تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذى يقابلها به العدو اذا انكشف له قبل تنفيذها بفترة وجيزة ، ولا سيما اذا كانت الحركة من حركات البحار . .

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة . .

فقد عرفت فى المأثورات النبوية على أتم أصولها التى تلاحظ فى

أمثالها ، ومن ذلك انه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه أن « سر حتى تأتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك ، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم »

وهـذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثا وقديما وعند بداءة الدعوات على التخصيص

فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبى عليه السلام ، فلا يبعد أن يكون منهم مَنْ هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما فى البوح به من الخطر المحظور ، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون وأن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنّة حكيمة من سنن النبى عليه السلام فى جميع المطالب ، وهى فى حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع .. ولهذا كان اذا أراد غزوة ورّى بغيرها على النحو الذى يتبعه قادة الحروب الى الآن

ومما لوحظ فى كتاب النبى لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصايته ألا يكره أحدا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات فى هذا المقام

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذى يتقيه اذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه ، بل لعله ينقلب الى النقيض فيحرف الأخبار عمدا ، أو يتلقاها على غير اكتراث ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه

ولهذا تعانى الدول أكبر العناء فى مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفى امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضـة ، حتى تطمئن الى صحته قبل الاعتماد عليه

وفى الحرب الحاضرة تجربة جـديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين . .

فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطيارات وراء الصفوف ، فيتسللون الى مراكز المواصلات ويعيشون بين القرى المعزولة ، فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مُقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد

قيل فى الاعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير ، وقيل فى انتقادها والتنبيه الى خطرها كثير . .

فمن دواعى الاعجاب بها أنها أفادت فى قطع المواصلات واشاعة الذعر وتضليل المدافعين ، وانها شىء جديد فى شكله وان لم يكن جديدا فى غايته ومرماه . .

ومن أسباب انتقادها ان كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية . فهى تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسا لانجازه رقيبا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه ، فليس أيسر له اذا هو انفرد وأعوزته الرغبة فى انجاز عمله من أن يستأسر فى أول مكان يصل اليه من بلاد الأعداء ، طلبا للسلامة ، ولا عقاب عليه الى نهاية القتال . ثم يتعلل بما شاء من المعاذير ان وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه ، وهيهات ان تستجمع الأدلة عليه فى أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات .

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة ان لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول اليهم ، وهى لهذا أحرى أن تحسب من وحى اخوان الطريق والهام العقائد لا من النظام الذى يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود ، فلولا ان النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون فى نفوس الناشئة جذوة البغضاء ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذى يغنى عن الرقابة ساعة التنفيذ لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب ..

وها هنا تتجلى حكمة النبى عليه السلام فى اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والاكراه

فهذه « أولا » بعثة منفردة لا سبيل الى الاكراه الفعال بين رجالها اذا أريد . .

وهى « ثانيا » بعثة استطلاع لا يغنى فيها عمل الكاره المقسور . وألزم ما يلزم العامل فيها ايمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه ، فان أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شىء

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع فقد كان النبى عليه السلام عليما بمزاياه معنيا به غاية العناية ، يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، فى حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه . .

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون فى هذا الميدان حين أصيب فى وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون فى روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم

فمن أسباب هزيمة نابليون اهماله النصائح التى سمعها فى مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل فى الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأ ان القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع

ومن أسباب تلك الهزيمة ان الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطرقات حتى لايرى فيها ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذى كان شديد التعويل عليه

أما هتلر فقد أُتي من قبل هذين النقصين كما أُتي من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والاناة

فقد أشهر انه كان فى مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم . .

واشتهر أنه أخطأ فى استطلاع أخبار القوم اذ خيّل اليه أن الشعب الروسى يتحفز للثورة ويترقب الاغارة عليه لنصرة المغير كائنا من كان ، ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافى ، وهو عنصر الجرمان

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطىء قط مثل هــذا الخطــأ فى جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم ــ كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية ــ ان دراســته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين

وينبغى ألا تمر بنا سرية عبد الله بن جحش دون آن نستوفى كل ما فيها من الشئون العسكرية . لأنها تشتمل على أكثر من جانب واحــد من جوانب السنّة النبوية والتشريع الاسلامى فى هذه الشئون

فهى سرية استطلاع كما علمنا لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه

لكن حدث بعد فض الكتاب أن اثنين من رجال السرية ذهبا يطلبان بعيرا لهما ضل فأسرتهما قريش ، وهما سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان . .

ثم نزل الركب بنخلة فمرت بهم عير قريش تحمل تجارة عليها عمرو ابن الحضرمى ، آخر شهر رجب . وكانت قريش قد حجزت أموال أناس من المسلمين منهم بعض من فى السرية . فتشاوروا فى قتال آهل العير ، وحاروا فيما يصنعون : ان تركوا العير تمضى ليلتها امتنعت بالحرم وفاتهم تعويض ما حجزته قريش فى هذه الفرصة السانحة ، وان قاتلوا أهلها قتلوهم فى شهر حرام ، لكنهم اندفعوا الى القتال فأصابوا من أصابوه ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهم فأرداه ، وأسروا رجلين

وقفل عبد الله بن جحش ومن معه الى المدينة وقد حجزوا للنبى عليه السلام الخمس من غنيمتهم ، فأباه عليه السلام وقال لهم : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، وعنفهم اخوانهم لمخالفة النبى ، وساءت لقياهم بين أهل المدينة . .

وراحت قريش تثير ثائرة العرب ، واندس جماعة من اليهود يحضأون نار الفتنة ، وتنادوا أن محمدا وأصحابه قد أباحوا الدماء والأموال فى

الشهر الحرام ، وقال المسلمون فى مكة ، بل كان ذلك فى شعبان ، ثم نزلت الآيات : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا »

فقبض النبى العير والأسيرين ، وطلبت قريش فداءهما فقال عليه السلام : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ، فانا نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم »

هذه قصة السرية وما وقع فيها خلافا لأمر النبى وما نجم عنها من تشريع .

فاذا نحن كتبناها باصطلاح العصر الحديث فكيف نكتبها ؟.. وكيف نفهمها ؟ . .

هى لا خلاف حادثة طلائع أو حادثة حدود :

ترسل احدى الدول طليعة من جندها الى حدودها للكشف أو للحراسة ، فيقع الاشتباك بينها وبين طليعة فى بلاد دولة أخرى على غير علم من الحكومتين . .

فالذى يحدث فى هذه الحالة أن تنظر الحكومة الأخرى الى المسألة كأنها مسألة فردية عرضيـة لا تستوجب القتال . وتكتفى بما ينال المسئولين على أيدى حكومتهم من جزاء أو تأنيب ، وينحسم النزاع

هذا أو تصر الحكومة الأخرى على طلب الترضيـة . فان قبلتها الحكومة المطلوبة فالنزاع منحسم ، وان لم تقبلها فالمفاوضة والمساومة أو امتشاق الحسام . .

ذلك اذا نظر الفريقان الى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية ولم يشأ أحدهما أو كلاهما أن يضعاها موضع التشريع العام لتقرير الحكم الذى تجريان عليه فيها وفى أمثالها ، أو تقرير ما يعترفان به وما ينكرانه من الشرائط والأصول . .

وقريش لم تكتف بالنظر الى حادثة السرية كأنها حادثة فردية عرضية ،

ولم تعلن الحرب توا لأنها تبينت النية لاعلانها بعد حين .. ولكنها أثارت مسألة تشريع عام فى قتال الشهر الحرام .. فوجب أن ينصّ الاسلام على هذا التشريع صريحا لا لبس فيه ، وهذا الذى كان

ليست المسألة ان عبـد الله بن جحش قد خالف أمر النبى فهذا أمر مفروغ منه ولا محل للبحث فيه

انما المسألة هى : ما الحكم بعد الآن فى قتال الأشهر الحرم ؟ .. وماذا يبلغ من حق المشركين فى الاحتماء بحرمة هذه الأشهر اذا كانوا لايرعون للمسلمين حرمة ولا يزالون يقاتلونهم ويردونهم عن دينهم ما استطاعوا ؟ وما الجواب على تشهير قريش واحتجاجها بالحرمات التى لا ترعاها ؟..

هذا هو الحكم الذى وجب أن يعلنه الاسلام ، وقد أعلنه على الوجه الذى دانت به الشرائع الحديثة فى علاقاتها الحربية ولا تزال تدين به حتى اليوم . فهناك حرمات دولية اذا خالفتها احدى الدول بطل احتماؤها بها وأحل لغيرها أن يخالفها كما خالفتها أو يتخذ من القصاص ما يردع الشر ويعوض الخسارة ، والا كانت الحرمات درعا للمعتدين ولم تكن مانعا لهم وسدا فى وجوههم كما أريد بها أن تكون

***

واليوم تنقطع العـلاقة بين دولتين فى حالة حرب أو جفـاء فيجوز لكلتيهما أن تحجز ما عندها من أموال الدولة الأخرى وأن تأسر الذين فى بلادها من رعاياها ، ويجوز لها أن تجعل تلك الأموال ضمانا لسداد المغارم التى تنزل بها وبأبنائها ، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل ما يعامل به المعتقلون من أبنائها ، فى سجون الدولة الأخرى

فالذى حدث بعد سرية عبد الله بن جحش هو هذا بعينه ، وهو حكم القانون الدولى المتفق عليه : أسيران بأسيرين ، وأموال العير بالأموال التى حجزتها قريش للمسلمين . ولا محل لضجة النـاقدين من المبشرين والمتعصبين فى تعقيبهم على هـذا الحادث المـألوف أو على حكم النبى والاسلام فيه ، فان أصحاب هذه الضجة يعمون عما حولهم وينسون أن

المعاملات الدولية فى زمانهم لم نحصل فى أمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذى ارتضاه النبى ونزل به القرآن ، وهو حكم مساواة يدين به المسلمون كما يدانون ، ويحار المعتسف لو شاء أن يستبدل به ما هو خير منه وأدنى الى النفاذ والاتباع

وكان هذا القائد الملهم الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خبيرا كذلك بتجنيد كل قوة فى يديه متى وجب القتال ، ان قوة رأي وان قوة لسان وان قوة نفوذ ، فما نعرف أن أحدا وجه قوة الدعوة توجيها أسد ولا أنفع فى بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام

غرضان

والدعوة فى الحرب لها — كما لايخفى — غرضان أصيلان بين أغراضها العديدة . . أحدهما اقناع خصمك والناس بحقك ، وهـذا قد تكفل به القرآن والحـديث ودعاة الاسلام جميعـا ، فالدين كله دعوة من هذا القبيل . .

وثانيهما ، اضعافه عن قتالك باضعاف عزمه وايقاع الشتات بين صفوفه . . وربما بلغ النبى برجل واحد فى هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة ، وبالمكاتب والدواوين ، وبدر الأموال

قال ابن اسحق ما ننقـله ببعض تصرف : « ان نعيم بن مسـعود الغطفانى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، انى قد أسلمت ؛ وان قومى لم يعلموا باسلامى . . فمرنى بما شئت . . فقال رسـول الله : انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة . . . أى ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضا فلا يقوموا لنا ولا يستمروا على حربنا

« فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة — وكان لهم نديما فى الجاهلية — فقال : يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم . .

قالوا : صدقت . . لست عندنا بمتهم

« فقال لهم : ان قريشا وغطفان ليسوا كأنتم . . البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه الى غيره ، وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه . . وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره . . فليسوا كأنتم ! . . فان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم . فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا محمدا حتى تناجزوه . .

« فقالوا له : لقد أشرت بالرأى

« ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من قريش : قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا . وانه قد بلغنى أمر قد رأيت علي حقا أن أبلغكموه نصحا لكم . . فاكتموا عنى !

« قالوا : نفعل

« قال : تعلمون ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه : انا قد ندمنا على ما فعلنا . فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم ، فنعطيكم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ .. فأرسل اليهم أن نعم . . فان بعثت اليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم ، فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا

« ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، انكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إليّ ولا أراكم تتهموننى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم . .

« قال : فاكتموا عنى

« قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟ . .

« فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم

« فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، أرسل أبو سفيان

ابن حرب ورؤوس غطفان الى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسـنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر . . فاغدوا للقتال حتى تناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا اليهم . ان اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمـل فيه شيئا ، ولسنا مع ذلك بمقاتلى محمـد حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه

« فلما رجعت اليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله ان الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا الى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . .

***

« وقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا : ان الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فان رأوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم . .

« . . . وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شـديدة البرد ؛ فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم . . ثم رحلت قريش وغطفان الى بلادها ، وانصرف رسول الله عن الخندق راجعا إلى المدينة » هذه دعوة نعيم بن مسعود . .

***

وما نجحت دعوة قط برجل واحد نجاح هذا الرجل ، ولا انتهزت فرصة العناصر الطبيعية والعنـاصر التى تتألف منها جماعة الأعداء كما انتهزت هذه الفرصة . . فكل كلمة قيلت لطائفة من طوائفهم فهى الكلمة التى ينبغى أن تقال فى الوقت الذى ينبغى أن تفعل فيه فعلها ، وهذه هى دعوة الاضعاف والتمزيق كأمضى ما تكون

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية ينبغى أن ننظر الى فكرة القائد قبل أن تنظر الى ظواهر المعارك أو إلى أشكالها وأحجامها ، لأننا اذا نظرنا إلى الظواهر فلا معنى اذن للمقـارنة على الاطلاق اذ من المقطوع به ان عشرة ملايين يجتمعون فى ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وان حربا تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والاشارة ، وان نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والابل ، وان المدفع أمضى من السيف ، والرصاصة أمضى من السهم . فلا معنى اذن لمقارنة بالظواهر تنتهى إلى نتيجة واحدة . . هى استضخام الحرب الحديثـة والنظر إلى القيـادة الغابرة كأنها شيء صغير إلى جانب القيادة التى توجه هذه الضخامة

لكننا اذا نظرنا إلى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة فى القيادة لا نراها فى توجيه مليون . . بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة . .

***

وهذه الفكرة هى التى ترينا محمدا عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه وفى الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصـور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجه على يدى قائد من قوى الرأى والسلاح والكلام

وهذه القدرة هى شهادة كبرى للرسول تأتى من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال . .

فمن كانت عنده هذه الأداة النافذة فاقتصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضرورى الذى لا محيص عنه ، فذلك هو الرسول الذى تغلب فيه الرسالة على القيادة العسكرية ، ولا يلجأ الى هـذه القيـادة إلا حين توجبها رسالة الهداية . .

ويزيد هـذه الشهادة عظما أن الرجل الذى يجتنب القتـال فى غير ضرورة رجل شجاع غير هياب . .

شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجوز فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لآنهم ليسوا بأهل قتال ..

إن بعض المستشرقين زعموا أنه عليه الصلاة والسلام قد اشترك فى حرب الفجار بتجهيز السهام ، لأنه عمل أقرب الى خلقه من الخوض فى معمعة القتال . . وكأنهم أرادوا انه لم يكن قادرا على المشـاركة فى المعمعة بغير ذلك . .

فهذا خطأ فى الاحاطة بزايا هذه النفس العظيمة التى تعددت جوانبها حتى تجمعت فيها أطيب صفات الحنان وأكرم صفات البسالة والاقدام ..

فمحمد كان فى طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان علي فارس الفرسان يقول : « كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم .. فما يكون أحد أقرب منه الى العدو »

***

ولولا ثباته فى وقعة حنين ، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده فى وجه الرماة والطاعنين ، لحقّت الهزيمة على المسلمين

وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعا ، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه اليه الشجاعة الكريمة لم يدعه اليه شيء . . لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير فى داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسـه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب الى غيره

ومشاركته فى الوقعات الأخرى هى مشاركة القـائد الذى لا يعفي نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له ، فهى شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى ، وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود

واذا كان القائد خبيرا بالحرب قديرا عليها غير هياب لمخاوفها ، ثم اكتفى منها بالضرورى الذى لا محيــص عنه . . فذلك هو الرســول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية ، وتأتى جميع صفاته الحسنى تبعا لصفات الرسول

خصائص العظمة

لكن للعظمــة خصــائص تدعو إلى العجب ، وإن كانت معــروفة الأسباب . . وناهيك بالعظمة التى ترتقى هذا المرتقى

فمن تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيضين فى وقت واحد ..

لأنها متعددة الجوانب ، فيراها أناس على صورة ويراها غيرهم على صــورة أخرى ، وربما رأتها العين الواحدة على اختــلاف فى الوقتين المختلفين . .

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد ، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين ، ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك . .

ولأنها عميقة الأغوار فلا يســهل استبطانها لــكل ناظر ، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر . .

وهذا اذا سلمت النفوس من سوء النية .. فأما اذا ساءت النيات وران الهوى على البصائر فلا عجب إذن فى الضلال . .

***

ومن خصــائص العظمة النبــوية فى محمــد عليه السلام أنه وصف بالنقيضين على ألسنة المتعصبين من أعداء دينه . . فهو عند آناس منهم صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال ، وهو عند اناس آخرين صاحب قسوة تضريه بالقتل وإهدار الدماء البشرية فى غير جريرة . وتنزه محمد عن هذا وذاك ..

فاذا كانت شجاعته عليه السلام تنفي الشبهة فى رقة الضعف والخوف المعيب ، فحياته كلها من طفولته الباكرة تنفي الشبهة فى القسوة والجفاء ..

إذ كان فى كل صلة من صلاته بأهله أو بمرضعاته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمه مثلا للرحمة التى عز نظيرها فى الأنبياء

ولا نقف كثيرا عند الحوادث التى ذكرها المتعصبون ليستدلوا بها على إهدار الدماء فى غير جريرة . فأكثرها لم يثبت قط ثبوتا يقطع الشك فيه ، ولا سيما القول بتحريض النبى عليه السلام على قتل عصماء بنت مروان اليهودية لأنها كانت تهجو الاسلام والمسلمين . فان النبى عليه السلام قد نهى فى قول صريح عن قتل النساء وكرر نهيه فى غير موضع ، حتى قال بعض الفقهاء بمنع قتل المرأة وإن خرجت للقتال ، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها

***

والحادث الوحيد الذى يستحق الالتفات إليه هو مقتل كعب بن الأشرف الذى كان يهجو المسلمين ، ويقدح فى دينهم ، ويؤلب عليهم الأعداء ، ويأتمر بقتل النبى ، ويدخل فى كل دسيسة تنقض معالم الاسلام . وكان مع قومه بنى النضير معاهدا على أن يحالف المسلمين ، ويحارب من يحاربونهم . ولا يخرج لقتالهم ، ولا يقابلهم الا بما يقابل به الحليف حليفه من المودة والمعونة

فنقض العهد وزاد على نقضه تأليب العرب مع قومه على النبى وصحبه ، وبأنه رجع إلى المدينة « فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم » وافترى عليها وعليهم ما ليس يفتريه رجل شريف وليس يرضاه فى عرضه عربى غيور . .

ورد فى حديث مقتله أن الرهط الذين خرجوا لقتله انتهوا إلى حصنه ، فهتف به أبو نائلة — وكان حديث عهد بعرس — فوثب فى ملحفته . . . فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : « إنك امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة ! »

وصدقت امرأته حين وصفته بأنه محارب يعامل معاملة المحاربين وقد حنثوا فى ايمانهم ، فلم يكن راعيا لعهده ولم يكن له وازع من نفسه ولا

من قومه ، ولم يكن مأمونا على المسلمين وهو لائذ بحصنه . . فهو أقل الناس حقا فى أمان . .

وجاء فى الخبر أن النبى عليه السلام أقر مقتله ، فعاب بعض المؤرخين الأوربيين ذلك وحسبوه خروجا على سنن القتال يشبه فعلة نابليون الكبير حين أمر باختطاف الدوق دنجان ومحاكمته بغير حق . . مع ما بين الحادثين من بون بعيد بيّناه من قبل فلا نعود إليه . .

إلا أننا نوجز هنا فلا نزيد على أن نشير إلى حكم القانون الدولى فى أحدث العصور على من يؤخذون بصنيع معيب كصنيع ابن الأشرف ، وإن لم يبلغ مبلغه من الغدر والكيد والاساءة إلى الأعراض

وذلك هو حكم الأسير الذى ينطلق بعهد الشرف ألا يعود إلى القتال ، فان القانون الدولى يوجب عليه أن يوفى بعهده ويوجب على حكومته ألا تندبه إلى عمل ينقض ما عاهد الأعداء عليه ، ويقضى بحرمانه حق المعاملة كما يعامل أسرى الحرب إذا شهر السلاح على الذين أطلقوه أو على حلفائهم المحاربين فى صفوفهم ويصح إذن أن يحاكم كما يحاكم المذنبون ويقضى عليه بالموت (١)

***

فقوانين العصر الحديث إذن تعاقب بالموت جريمة أهون من جريمة كعب بن الأشرف بكثير ، لأنه تجاوز الغدر إلى التأليب والائتمار وثلب الأعراض . .

وليس فى توقيع هذه الأحكام قسوة ولا رحمة ، لأن المرجع فيها إلى الضرورة التى أوجبت القصاص وفرضته على الناس فى أحوال السلم بين أبناء الأمة الواحدة ، فضلا عن أحوال القتال بين الأعداء

أسرى غزوة بدر

ويلحق بقتل ابن الأشرف ما أخذه بعض المستشرقين من قتل بعض الأسرى بعد غزوة بدر وخروج النبى إلى ساحة الحرب لرؤية صرعى

(١) « أوبنهايم » الجزء الثانى صفحة ٣٠٢

المعركة وغنائمها بعد انتهائها .. فهو أمر لا يصح الحكم فيه إلا بالنظر إلى موضعه وموقعه وأشخاصه ، لأنه ليس بالحكم العام الذى اتبعه الاسلام فى جميع الأسرى وجميع الحروب ، وانما هى حالة أفراد كانوا معروفين بتعذيب المسلمين والتنكيل بهم فى غير مبالاة ولا نخوة . وليست هى كحالة الأسرى الذين يقعون فى أيدى أعدائهم غير معروفين بماض ولا بحاضر سوى أنهم جند كسائر الجند الذين يحشدهم الأعداء .. فقتل الأسرى بعد بدر إن هو إلا قصاص كقصاص المتهمين بالتعذيب وقد وقعوا فى أيدى من يتولى عقابهم من الغالبين . جاز هذا فى كل قانون ، وجاز أن يحاسب المغلوب على جرائمه التى ليست هى من فروض القتال أو من مباحاته فى شىء . . وفرق بين معاملة هؤلاء ومعاملة أسير كل ما تعلمه فى شأنه انه جندى لا بغضاء بينك وبينه قبل حمل السلاح ولا بعد وضع السلاح ، وليس فى عمله محل للثأر والمحاسبة بعد انقضاء واجبه وهو القتال الشريف . .

***

أما رؤية القتلى فى ساحة الحرب ، فقد نسى فيها أولئك الناقدون ان اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة انسانية لا غضاضة فيها . . ما لم تجاوز حدها إلى الفرح برؤية الدماء لمحض الفرح برؤية الدماء . وهذا ما لم يزعمه أحد من شاهدي المعركة عن النبى عليه السلام ، ولا نمّ عليه كلام أحد من المشركين أو المسلمين

ونسي أولئك الناقدون كذلك أن الرجل الذى يرى الدم فى المدينة العصرية ، غير الرجل الذى يرى الدم فى حروب البادية وفى حياة البادية على الاجمال .. ونعني بها حياة الرعاة التى تتكرر فيها إراقة الدم كل يوم ، وحياة القبائل التى كانت تغزو وتغزى فى كثير من الأيام . .

فانك لا ترمي بالقسوة طبيبا قد ألف النظر إلى الجثث وأشلائها والأجسام الحية وجراحها .. لأن الطب لن يكون فى الدنيا رحمة من الرحمات إن لم يألف الأطباء هذه المناظر ويملكوا جأشهم وهم يفتحون

أعينهم عليها . ولكنك قد ترمى بالقسوة إنسانا لم تقع عينه على منظر مثلها ثم هى تفاجئه فلا ينفر منها . وما من رجل عاش فى البادية وشهد غزوة من غزواتها يمكن أن يقال فيه إن ساحة الحرب تفاجئه بما لم يكن يراه ، أو بما يستلزم النظر إليه قسوة فى الطباع واستراحة إلى رؤية الدماء . .

كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدرا ، لينظروا بعين النبى إلى عواقب هذه الوقعة التى أوشكت أن تصبح الوقعة الحاسمة فى تاريخ الاسلام . .

***

كان عليهم أن ينظروا هنالك بعين النبى إلى جيشين .. أحدهما فيه السلاح والخيل والعدد ، والآخر فى ثلث من يقاتلونه عددا ، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف ومن كل مطية غير الاقدام . .

وكان عليهم أن يلمسوا إشفاق النبى من عاقبة هذه الوقعة ويستمعوا إليه وهو يناشد ربه : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى . . اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . . . »

وكان عليهم أن ينظروا إليه ، وقد مد يديه وشخص ببصره وجمع نفسه فى صلاته .. حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبو بكر يرده ويناديه : « بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعدك .. وهو لايلتفت إلى سقوط ردائه ولا إلى مناداة صفيه ، لاستغراقه فى الدعاء ..»

وكان عليهم أن يعلموا حرص قريش أن يستبقوا رجالا منهم ، يرجعون إلى مكة قبل المعركة أو بعدها ليثابروا على مناوأة النبى وإعادة الكرة عليه حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد ، وليس الصبر عليه بيسير . .

كان على الناقدين أن يعلموا هذا كله ليعلموا أن الشعور بالفرح فى مثل هذا الموقف العصيب أمر لا غرابة فيه ، وإنه شعور مطبوع فى نفس

حيّة تجاوب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة فى مواقف السلم أو مواقف القتال . فأول ما يبادر النفس الحية من شعور مطبوع صادق فى ذلك الموقف أن تغتبط بالنصر ، وتخرج من الضيق الى الفرج ، وتنظر فى ساحة الحرب الى من قضى فيها من قريش ومن عاد منها الى وكره ليعيد الكرّة ويستأنف الايذاء والمكيدة ، وأن ترى ما هى تلك الأسلاب والغنائم التى أوشكت أن تفتن بعض المقاتلين لأنها أول شيء شهدوه من نوعه ، ولما ينزل حكم الدين فى سلب أو غنيمة

إن محمدا رجل حيّ جيّاش النفس بدوافع الحياة ، وليس بناسك مهزول من نساك الصوامع الذين يكتمون فى حوانحهم كل دافعة وكل إحساس.. فامتناعه أن يشهد نتيجة المعركة التى سبقتها كل تلك المخاوف وستلحق بها كل تلك العواقب أمر لم يكن بالمنتظر من قائد فى مثل موقفه ، ولم تكن توجبه الفطرة الانسانية على المقاتل .. وهو فى اللحظة الأولى بعد الظفر خليق أن يعلم مدى انتصاره ، ومدى ما يتوقعه بعده ، ومدى ما فعلته الفئة القليلة بالفئة الكثيرة ، ليقيس عليه ما تفعله مثلها فيما يليها من وقعات . وهؤلاء مراسلو الصحف الحربيون الذين يدرسون اليوم أشباه هذه المواقف يجدون من واجبهم ألا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انجلاء الفريقين ، ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهما ويسجلوا ما لا غنى عن تسجيله فى جميع الحروب . فانصراف محمد عن ساحة بدر على أثر النصر عمل غريب يخل بمكانة القائد وبواجب التحقيق والاستفادة من كل ما يفيد

بعد معركة الاحزاب

ونحن فى صدد الحديث عن الرحمة والقسوة يحسن بنا أن نستقصي ما ذكره المؤرخون الأوربيون من مآخذ فى هذا الباب ، وأهمه عدا ما قدمناه قتل المقاتلين من بنى قريظة بعد معركة الأحزاب

فإن أولئك المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونه مخالفا للعرف المتبع

فى الحروب ، وينسون أمورا لا يصدق الحكم فى هذه المسألة ما لم يذكروها ويستحضروها أتم استحضار . وهى ان بنى قريظة حنثوا في أيمانهم مرات فلا يجدي معهم أخذ المواثيق من جديد ، وأنهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم الذين اختاروه ، وان سعدا انما دانهم بنص التوراة الذى يؤمنون به كما جاء فى التثنية : « حين تقرب من مدينـة لكي تحاربها استدعها الى الصلح ، فإن أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . . . » (اصحاح ١٠ الى ١٥ تثنية)

***

وينبغي أن يسأل الناقدون أنفسهم بعد هـذا : ماذا كان مصـير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب ؟

فالقضاء الذى قضاه النبى فى بنى قريظة عدل وحكمة وصـواب ، وما من أحد يقضي غير ذلك القضاء وهو مؤتمن على مصير أمة يرحمها من غدر أعدائها ، ومن لددهم فى خصومتها ، ومن استباحتهم كل منكر فى التربص والوثبة بعد الوثبة عليها

وان حملة تأديبية واحدة من حملات العصـور الحديثة يحملها قوم مسلحون على قوم عزل يذودون عن أوطانهم وحقـوقهم ، لفيها من البطش والتعذيب ما لم يحدث قط نظير له فى عقـاب بنى قريظة ، ولا فى جميع الحروب التى نشبت بين النبى عليه السـلام وبين أعداء له ولدينه ، هم المتفوقون عليه فى العدد والثروة والسلاح

إن عبقرية محمد فى قيادته لعبقرية ترضاها فنون الحرب ، وترضـاها المروءة ، وترضاها شريعة الله والناس ، وترضاها الحضـارة فى أحدث عصورها ، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء

عبقرية محمد السياسية

سياسة الخصوم والاتباع

السياسة على معان كثيرة فى العرف الحديث ..

فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم والعلاقات ، ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط فى أعمالها الخارجية ، ومنها ما يكون بين الراعى ورعيته أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات .. ولكل معنى من هذه المعانى اصطلاحه فى العرف الحديث ، وان جمعتها كلمة السياسة فى اللغة العربية

وقد تولى النبى عليه السلام أعمالا كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة فى عموم مدلوله .. ولكننا لا نعرف بينها عملا واحدا هو أدخل فى أبواب السياسة ، وأجمع لضروبها ، وأبعد عن المشاركة فى صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ العلني أو سائر الصفات التى اتصف بها عليه السلام من عهد الحديبية فى مراحله جميعا ، منذ ابتدأ بالدعوة الى الحج الى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدي قريش ..

ففى عهد الحديبية تجلى تدبير محمد فى سياسة خصومه وسياسة أتباعه ، وفى الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود

بدأ بالدعوة الى الحج ، فلم يقصره فى تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته .. بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التى تشارك المسلمين فى تعظيم البيت والسعي اليه ، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة فى وجه قريش ، ومصلحة واحدة فى وجه

مصلحتها . وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى ، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من اثارة نخوة العرب وتوجيهها الى مناوأة محمد والرسالة الاسلامية . فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها ، ولكنهم اذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم . فإذا خالفوا قريشا فى شىء فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المتنعين من قريش بالسيطرة على مكة ، وليس هو بشأن القبائل أجمعين ..

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمّدوه من اغضاب العرب على الاسلام ، بما ادعوا من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التى يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون الى مكة والرائحون منها .. فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصّاد البيت الحرام . فإذا حال بينهم وبين ما يقصدون اليه ، فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه .. ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين ..

وقد سمعنا كثيرا فى العصور الحديثة عن المقاومة السلبية أو المقاومة التى تجتنب العنف ولا تعتمد على غير وجه الحق والحجة

سمعنا بها فى الحركة الهندية التى قام على رأسها غاندى وتابعه فيها بعض مريديه ، حتى كان لها من الأثر فى ازعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقنابل ولا للمشاغبات الدامية ..

وقيل يومئذ ان غاندى قد تتلمذ فى هذه الحركة على المصلح الروسى الكبير ليون تولستوي .. وقيل بل هو أحرى أن يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التى تحرم ايذاء الحيوان فضلا عن الانسان ، قبل أن يشرع ليون تولستوى مذهبه الجديد

والذين قالوا بهذا الرأى الأخير استبعدوا أن يتفق المسلمون والبرهميون والبوذيون على حركة غاندى وتبشيره بتلك المقاومة

السلبية ، لاعتقادهم ان الاسلام قد شرع للقتال فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين ، من اجتناب القوة والتزام السـلم وترك المقاومة ..

لكن المثل الذى قدمه النبى صلوات الله عليه فى رحلة الحديبية ينقض ما توهموه ، ويبين لهم ان الاسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجري فى حينه مع مناسباته وأسبابه .. فلا هو يركن الى السيف وحده ولا الى السلم وحده ، بل يضع كليهما حيث يوضع ، ويدفع بكليهما حيث ينبغي أن يدفع . وهو الحكم المتصرف حيث يختار ما يختار ، وليس الآلة التى يسوقها السلم أو الحرب مساق الاضطرار

***

وقد خرج النبى الى مكة فى رحلة الحديبية حاجا لا غازيا .. يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله ، ويثبت نيّة السلم بالتجرد من السلاح ، الا ما يؤذن به لغير المقاتلين

فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقريش وحسب .. بل فصل بين قريش ومن معهم من الأحابيش ، وجعل الزعماء وذوي الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسالك فى دفعه أو قبوله أو مهادنته ، وهو عليه السلام يكرر الوصاة لأتباعه بالمسالمة والصبر منعا للاتفاق بين خصومه على قرار واحد ، وقل من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين ..

ولما اتفق الطرفان — المسلمون وقريش — على التعاهد والتهادن ، كانت سياسة النبى فى قبول الشروط التى طلبتها قريش غاية فى الحكمة والقدرة « الدبلوماسية » كما تسمى فى اصطلاح الساسة المحدثين ..

دعا بعلي بن أبى طالب فقال له : « بسم الله الرحمن الرحيم »

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش : « أمسك ! لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم »

فقال النبى : « اكتب باسمك اللهم » ..

ثم قال : « أكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو) » ..

فقال سهيل : « أمسك ! لو شهدت انك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك »

وروي ان عليا تردد فمسح النبى ما كتب بيـده ، وأمره أن يكتب « محمد بن عبد الله فى موضع محمد رسول الله »

ثم تعاهـدوا على ان من أتى محمـدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه ، وانه من أحب من العرب محالفة محمـد فلا جناح عليه .. ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه ، وأن يرجع محمـد وأصحابه عن مكة عامهم هـذا على أن يعودوا اليها فى العـام الذى يليه ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قربها ، ولا سلاح غيرها

***

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون ، لوجب أن يكتب على غير هـذا الأسلوب . فيعترف المشركون كرها أو طوعا بصفة النبوة ، ولا يردون أحدا من مواليهم أو قاصريهم يذهب الى النبى ويلحق بالمسلمين

ولكنه عهـد مهادنة أو عهد « ايقاف أعمال العداء الى حين » كما يسمونه فى اصطلاح العصر الحاضر.. فلا يعوزه شيء من الأصول المرعية فى أمثال هذه العهود ، من اثبات صفة المنـدوبين التى لا ارغام فيهـا لأحـد الطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين ، ومن حفظ كل لحقـه فى تجديد دعواه واستئناف مسعاه ..

فلو أن النبى عليه السلام شرَط على قريش أن ترد اليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الاسلامية ، ونقض الوصف الذى يصف به المسلمين .. فإن المسلم الذى يترك النبى باختياره ليلحق قريشا

ليس بمسلم ، ولكنه مشرك يشبه قريشا فى دينها وهى أولى به من نبى الاسلام ..

أما المسلم الذى يرد الى المشركين مكرما فإنما الصلة بينه وبين النبى الاسلام ، وهو شىء لا سلطان عليه للمشركين ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب .. فإن كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه ، وان كان وثيق الدين فبقي على دينه فلا خسارة على المسلمين

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش انها هى الخاسرة بذلك الشرط الذى حسبته غنما لها وخذلانا لمحمد صلوات الله عليه .. فإن المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد فى حوزته رعاية لعهده ، قد خرجوا الى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهى آمان فى عهد الهدنة بين الطرفين ، فلا استطاع المشركون آن يشكوهم الى النبى لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة ، ولا استطاعوا أن يحجزوهم فى مكة كما أرادوا يوم أملوا شروطهم فى عهد الحديبية ، ولو قضى العهد بولاية النبى على من ينفر من مسلمى مكة لجاز للمشركين آن ينقضوه أو يطالبوا النبى بالمحافظة عليه

***

وتم العهد .. فعرف من لم يعرف ما أفاء على الاسلام بعد قليل ،

فجهر بمحالفة النبى من لم يكن يجهر بولائه .. واستراح النبى من قريش ، ففرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل الى عظمائها بالدعوة الى دينه ، وفتح الأبواب لمن يفدون اليه ممن أنكروا بغي قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للاسلام حربا يبتلون فيها بما لا يطيقون

ويوم نزلت الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية : « إِنَّا فَتَحْنَا لكَ فتْحاً مُبِيناً ليغفرَ لك اللهُ ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخَّرَ ، ويتمَّ نعمتَه عليك ويهديَكَ صِرَاطا مُسْتقيما » لم يفقه الكثيرون معناها فى حينها ، ولم يتبيَّنوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذى حسبوه محض تسليم .. ولكنهم فهموا أى فتح هو بعد سنتين ، وعلموا ان من الفتوح ما يكون

بغير السيف ، وما يشبه الهزيمة فى ظاهره عند من يتعجلون ولا يحسنون النظر الى بعيد ..

***

الفتح المبين

كان فى تلك السنة فتح يراه الناظر بعين الغيب ولا يراه الناظر بعينه ، ولكنها سنة واحدة ثم رأى الفتح المبين من لايرون بغير العيون .. رأوه وامتلأت عيونهم بالنظر اليه ، فسرَّ قوما وساء آخرين

ففى السنة التالية نادى الرسول أصحابه أن يتجهزوا للحج ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية ، فخرجوا فى شوق المنطلق بعد منع،والمنتظر بعد صبر ، الا من استشهد فى خيبر وأدركته الوفاة خلال العام . وخرج معهم جمع كبير ممن لم يشهدوا الحديبية يتبعهم النساء والأطفال ، وساقوا أمامهم ستين بدنة مقلدات للهدي ، وقد حملوا السلاح والدروع والرماح وعلى رأسهم مائة فارس يقودهم محمد بن سلمة ..

فلما انتهى الرسول وصحبه الى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه ، وعلمت قريش بالنبأ ففزعوا وبعثوا بمكرز بن حفص فى نفر منهم فجاءوا يقولون : « والله يا محمد ما عُرِفتَ صغيرا ولا كبيرا بالغدر .. تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل الا بسلاح المسافر : السيوف فى القرب ؟ » فقال عليه السلام : « انى لا آدخل عليهم بسلاح » قال مكرز : « هو الذى تعرف به . البر والوفاء »

وانما حمل النبى السلاح للحيطة كما قال لصحبه : « ان هاجنا هائج من القوم كان السلاح قريبا منا » ... وتركه فى الحراسة على مقربة من مكة حيث يوصل اليه عند الحاجة اليه

ثم أقبل عليه السلام على ناقته القصواء وجموع المسلمين محدقون به متوشحون بالسيوف يلبون ويهللون ، وأخذ عبد الله بن رواحة بزمام القصواء وهو ينشد :

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير فى رسوله
يا رب اني مؤمن بقيله انى رأيت الحق في قبوله

وأوشك وقد هزته النخوة أن يصيح فى قريش صيحة الحرب ، فنهاه عمر رضى الله عنه وأمر النبى أن ينـادي ولا يزيد : « لا إله الا الله وحده نصر عبدَه ، وأعز جنده ، وخذَل الأحزابَ وحده » . فرفع ابن رواحه بها صـوته الجهير ، وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها جنبات الوادى القريب ، فيسمعها من فارقوا مكة لكيلا يسمعوها ولا يروا ركب النبى يخطو فى نواحيها ..

***

وكان الفتح الذى بصر به عَيَاناً من لم يره يوم الحديبية بنور البصيرة ، وأسلم من الضعفاء والأقوياء من كان عصيًا على الاسلام : فريق منهم بهَرَهم وفاء النبى بعهده مع استطاعة نقضه ، وفريق منهم راعهم سَمْت الدين ورحم الاسلام فيما بين المسلمين ، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من طاعة وتمكين ، وفريق منهم علموا أن العاقبة للاسلام فجُنحوا الى طريق السلامة والسلام ، وحسبك ان عمرة القضاء هذه قد جمعت فى آثارها من أسباب الاقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وهما فى رجاحة الخلق والعقـل مثلان متكافئان ، وان كانا لا يتشابهان ..

وهكذا تجلت عبقرية محمد فى سياسة الأمور كما تجلت فى قيـادة الجيوش . فكان على أحسن نجاح فى سياسته اذ نادى بعزيمة الحج وهو لم يفتح مكة بعـدده وعدته ، واذ دعا المسـلمين وغير المسـلمين الى مصاحبته فى رحلته ، واذ توخى ما توخى من طريقة المسالمة واقامة الحجة فى انفاذ عزيمته ، واذ قبل العهد الذى كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته ، واذ نظر الى عقباه ووصل به الى القصد الذى توخاه

عبقرية محمد الإدارية

ملكات شخصية

فى الاسلام أحكام كثيرة مما يدخل فى تصرف رجال الادارة كما نسميهم اليوم .. وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات ، كالمساندة والمبايعة والاستقراض والشفعة والتجارة وسائر شئون المعيشة الاجتماعية يقتدى بها المشترعون فى جميع العصور

ولكنا لا نريد بما نكتب عن النبى أن نسرد أحكام الفقه ونبسط وصايا الدين ، فهى مشروحة فى مواطنها لمن شاء الرجوع اليها

وانما نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه من حيث هى ملكات شخصية وسلائق نفسية ، تلازمه حيث كان مؤديا لرسالة الدين ، أو مؤديا لغير الرسالة من سائر أعمال الانسان

كذلك لا يعنينا مثلا أن نتكلم عن « الادارة » كأنها نصوص المنشورات و « اللوائح » التى تدار بها الدواوين وتجرى عليها تفصيلات الحركة فى مكاتب الحكومة ، فإن هذه وما اليها هى أعمال منفذين مأمورين وليست أعمال مديرين آمرين، وانما نعنى الملكة الادارية من حيث هى أساس فى التفكير : من اعتمد عليه استطاع أن يقيم بناء الادارة كلها على أسس قوية ، ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير والأوراق

فليس فى وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعة أن يؤسس ادارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة

أما السليقة المطبوعة على انشاء الادارة النافعة فهى السليقة التى تعرف النظام ، وتعرف التبعة ، وتعرف الاختصاص بالعمل ، فلا تسنده الى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه

وقد كانت هذه السليقة فى محمد عليه السلام على أتم ما تكون

كان يوصي بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعى أو العمل المجتمع الذى يحتاج الى تدبير . ومن حديثه المأثور : « اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمّروا أحدهم » . ومن أعماله المأثورة انه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة اذا أصيب من تقدمه بما يقعده عن القيادة . وكان قوام الرئاسة والامامة عنده شرطان هما جماع الشروط فى كل رئاسة ، وهما الكفاءة والحب : « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل فقد غشّ اللهَ وغش رسوله وغش جماعة المسلمين » ..

و « أيما رجل أمّ قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه »

وكان الى عنايته باسناد الأمر الى المدير القادر عليه حريصا على تقرير التبعات فى الشئون ما كبر منها وما صغر ، على النهج الذى أوضحه صلوات الله عليه حيث قال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وهى مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »

وقد كانت أوامر الاسلام ونواهيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصارا كانوا أو مهاجرين ، ولكنه عليه السلام لم يترك أحدا يدعي لنفسه حقا فى اقامة الحدود ، واكراه الناس على طاعة الأوامر ، واجتناب النواهى غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس

فلما قتل بعض المسلمين غداة فتح مكة رجلا من المشركين غضب عليه السلام ، وقال فيما قال من حديثه المبين « ... فمن قال لكم ان رسول الله قد قاتل فيها فقولوا ان الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة ... » . ولما أراد أن يصادر الخمر نهج فى ذلك منهجا يقصد به الى التعليم والاستئنان كما جاء فى رواية ابن عمر حيث قال :

« أمرنى النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن آتيه بمدية ، فأتيته بها ، فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها فقال أغدُ عليَّ بها . ففعلت ، فخرج بأصحابه الى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمرقد جُلبت من الشام. فأخذ المدية مني فشق ماكان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها ، وأمر الذين كانوا معى أن يمضوا معى ويعاونوني ، وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر الا شققته ففعلت ، فلم أترك فى أسواقها زقا الا شققته»

وهذا تصرف المدير بعد تصرف النبى الذى يبين الحرام ويبين الحلال فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين ، من تفقّه منهم ومن لم يتفقّه فى الدين ، ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغى أن تكون فى يد ولي المسلمين لا فى يد كل فرد يعرف الحلال والحرام . وليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل ، ولكنها مسألة ادارة وتنفيذ فى مجتمع حافل يشتمل على شتى المصالح والأهواء ، ولا يصاب ببلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة وتجاهل السلطان ، فلم يكتف النبى عليه السلام بصريح التحريم فى القرآن ، ولا اكتفى باسناد الأمر الى غير معروف الصفة فى تنفيذ الاحكام ، بل خرج بنفسه ثم أمر رجلا بعينه وأناسا بأعينهم أن يمضوا فى اتمام عمله ، ولم يجعل ذلك اذنا لمن شاء أن يفعل ما شاء ..

وما أكثر ما سمعنا فى أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام ، وتوطيد أركان الشريعة والقانون ، ولكننا لا نعرف فى كل ما قيـل كلاما هو أجمع لوجوه الصواب فى هذه المسألة من قول النبى : « السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت : « ... ألا ننازع الأمر أهله الا أن تروا كفرا بَوَاحاً عندكم من الله فيه برهان » . ومن قوله : « الامام الجائر خير من الفتنة ، وكل لا خير فيه . وفى بعض الشر خيار» . ومن قوله : « ان الأمير اذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم» الى أحاديث فى هذا المعنى هي جماع الضوابط التى تقوم عليها الادارة الحكيمة ، والخطط السليمة المستقيمة ، بين آمر ومأمور ..

نظام وفوق النظام سلطان ، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل لا شك فيه ، وجميع أولئك على سماحة لا تتعسف النزاع ولا تتعسف الريبة ولا تلتمس الغلواء

هذا الالهام النافذ السديد فى تدبير المصالح العامة ، وعلاج شئون الجماعات ، هو الذى أوحى الى الرسول الأمي قبل كشف الجراثيم ، وقبل تأسيس الحجر الصحى بين الدول ، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون ، أن يقضى فى مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذى لم يأت العلم بعـده بمزيد ، حيث قال : « اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها »

فتلك وصية من ينظر فى تدبيره الى العالم الانسانى بأسره لا الى سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد .. اذ ليس أصون للعالم من حصر الوباء فى مكانه ، وليس من حق مدينة أن تنشد السلامة لنفسها أو لأحد من سكانها بتعريض المدن كلها لعدواها ..

تدبير الشئون العامة

على ان الادارة العليا انما تتجلى فى تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع ، فليست الادارة كلها نصوصا وقواعد يجرى الحاكم فى تنفيذها مجرى الآلات والموازين التى تصرف الشئون على نسق واحد ، ولكنها فى كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك

وذلك هو المجال الذى تمت فيه عبقرية محمد فى حلول التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام . فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها الا أشار فيه بأعدل الآراء ، وأدناها الى السلم والارضاء

صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر باقامة الحجر الأسود فى مكانه ، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة ، ولا تؤمن عقبى الفصل فيه بايثار احدى القبائل على غيرها ولو جاء الايثار من طريق المصادفة والاقتراع ، فأشار محمد بالرأي الذى لا رأي غيره لحاضر الوقت ولمقبل

الغيب المجهول . فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم فى طرف من أطرافه ، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان ، وأن ينسلف الدعوة وهى مكنونة فى طوايا الزمان ، ولو علموا بها يومئذ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشنآن

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة الى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله ، وهو يشفق أن يقدح فى نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة .. فترك لناقته خطامها تسير ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك ، وفصلت فيما لو فصل فيه انسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها ، ولو أمنت فى تلك الساعة على دخل وسوء طوية ..

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم أناسا من أهل مكة الضعيف ايمانهم على الناس من الأنصار الذين صدقوا الاسلام وثبتوا على الجهاد ، فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه الى ارضائهم بالحجة التى لا تغلب من يدين بها ، بل تريه انه هو الغالب الكاسب وانها تصيب منه المقنع والاقناع فى وقت واحد : « أوجدتم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟.. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ .. فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار .. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ...»

كلام مدير فيه الادارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين ... فهو مدير حين تكون الادارة تدبير أمور ، ومدير حين تكون الادارة تدبير شعور ، وهو كفيل ألا يلي مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويتطرق اليها الاختلال ، لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة ، وبالاختصاص وبالسماحة ، وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال ، أو لخطل في ادارة الأعمال ..

البـليغ

« اللهم هل بلغت » !

هذه هي اللازمة التي ردّدها النبي في أطول خطبه الأخيرة ، وهي خطبة الوداع ..

وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها ، لأنها لخصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات . فما كانت حياة النبي كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها الا حياة تبليغ وبلاغ ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله عليه السلام وهو يجود بنفسه « جلال ربي الرفيع فقد بلّغت ! »

ولصدق هذه الدلالة ترى ان السمة الغالبة على أسلوب النبي في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الابلاغ قبل كل سمة أخرى .. بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها ، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هي منها بمثابة الفروع ..

وكلام النبي المحفوظ بين أيدينا اما معاهدات ورسائل كتبت في حينها ، واما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها وروعيت الدقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع

والابلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعا ، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر الى المرؤوسين أو مجرى الدعاء الذي يلقنه المسلم ليدعوَ الله على مثاله

انظر مثلا الى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال وهي كما جاء في مختار مسلم :

« ... بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا الى غار في جبل . فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم . فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها ، لعل

الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم : اللهم انه كان لى والدان شيخان كبيران ، وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم . فاذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدىّ فسقيتهما قبل بنىّ . وانه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما . فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره ان أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمى . فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر . فان كنت تعلم انى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء

« ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء ..

« وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت اليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار .. فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها

« فلما وقعت بين رجليها قالت : يا عبد الله ! اتق الله ولا تفتح الخاتم الا بحقه . فقمت عنها ، فان كنت تعلم انى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة . ففرج لهم

« وقال الآخر : اللهم انى كنت استأجرت أجيرا بفرق (١) أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرقة فرغب عنه .. فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها فقال : اتق الله ولا تظلمنى حقى ! قلت : اذهب الى تلك البقر ورعائها فخذها فقال : اتق الله ولا تستهزىء بى ! فقلت : انى لا أستهزىء بك . خذ ذلك البقر ورعاءها !.. فأخذه فذهب به ..

« فان كنت تعلم انى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى

« ففرج الله ما بقى »

---

(١) اناء يسع ثلاثة آصع

هذا أسلوبه عليه السلام فى التعليم بالقصص

فانظر الى أسلوبه فى توجيه الأمراء والولاة كما جاء فى مختار مسلم حيث قال : « كان رسول الله اذا أمَّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا باسم الله فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا . واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، فان أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء ، الا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم أبوا فسلهم الجزية . فان هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم

« واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه . ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فانكم ان تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله

« واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فأنت لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا »

وهذا أسلوبه عليه السلام فى تعليم الولاة بالأوامر والوصايا

فانظر الى أسلوبه فى الرسائل من رسالته الى النجاشى حيث قال :

« سلم أنت . فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه

« واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءني فانى رسول الله

« وقد بعثت اليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين ، فاذا جاءك فأقرهم ودع التجبر .. فانى أدعوك وجنودك الى الله فقد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصحي ..

« والسلام على من اتبع الهدى »

المعاهدات والمواثيق

أما أسلوبه فى المعاهدات والمواثيق فهذا طرف مما جاء فى كتابه عليه السلام بين المهاجرين والأنصار واليهود

« ... المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين

« وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأول ، وكل طائفة تفدي عانيها بالقسط بين المؤمنين

« وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالقسط بين المؤمنين

« وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .. »

وهكذا الى آخر الكتاب

تلك نماذج من كلام النبي فى أربع أبواب مختلفات ، تتفرق موضوعاتها كما تتفرق القصص والأوامر والرسائل والمواثيق ، ولكنها كلها موسومة بسمة واحدة لا اختلاف فيها ، وهى سمة الابلاغ أو البلاغ المبين.

وأصدق ما يقال فى تعريفها ما قيل فى تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة : أقرب موصل بين نقطتين

فليس أقرب من هذا الأسلوب فى ابلاغ الغرض منه...

لا كلفة ولا غموض ولا اغراب ، وقلة الغريب ــ بل ندرته ــ فى كلام النبى أجدر الأمور بالملاحظة فى اقامة المثل والنماذج لأساليب

البلاغة العربية ..

فمحمد العربي القرشي الناشىء فى بنى سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية فى أطراف الجزيرة ، لم يكن فى كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه الى مراجعة ... وسر ذلك انه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل الى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ، ومن ذلك ما روى عنه عليه السلام انه كان يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه ، وانه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال : « ان الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »

وقد عرف عن النبى عليه السلام فى حياته الخاصة والعامة انه كان قليل الكلام معرضا عن اللغو لا يقول الا الحق وان قاله فى مزاح.

فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة . فاذا كرر اللفظ بعينه كما جاء فى بعض المعاهدات فذلك أسلوب المعاهدات الذى لا محيص عنه ، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه . فهو أيضا سمة من سمات الابلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق ، أو على سبيل الاعادة التى روي انه كان يتوخاها عليه السلام أحيانا ليعقل عنه كلامه ..

وفى كتابه الى النجاشي زيادة من أسماء الله الحسنى ومن الاشارة الى المسيح وأمه لم تؤثر فى الكتب الأخرى .. ولكنها ألزم ما يلزم فى خطاب ملك مسيحي يراد منه أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح فى دينه وفى دين المسلمين الذي يدعى اليه ، وكيف يبتغى طريق المقابلة بين العقيدتين اذا شاء .. ما على الرسول الا البلاغ

وهذا هو البلاغ فى التعبير : كل كلمة تصل الى سامعها ، وكل كلمة مقصودة بمقدار ..

ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة متعمل فى ابتغاء التأثير ، الا الابلاغ الذى يليق بالرجولة والكرامة ، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الاعراض

وكان عليه السلام يكره « سجع الكهان » الذى يخدعون به السامع ليوهموه انه يستمع الى طلاسم السحرة والشيـاطين ، ولكنه لم يكن يأبى السجع بتة ولا يخلو كلامه من سجع يأتى على السجية ، ويغلب أن يكون ذلك فيما يرتل علانية كالأذان وما هو فى حكمه ، أو فيما يحفظ من الوصـايا الجامعة كقوله : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وان كان مائة شرط . قضـاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » أو قوله : « ان الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال »

ومذهبه فى هـذه الحلية اللطيفة مذهبه فى كل حلية تليق بالرجل : فحولة فى القول وفحولة فى الزينة ، فسجعه عليه السلام كحلية الذهب التى يليق بالرجل أن يتحلّى بها ، ولا مزيد

كتب اليه أبو سفيان كتابا يقول فى آخره :

« ... نريد منك نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا الى ذلك والا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار

تجاوبت القبائل من نزار لنصر اللات فى البيت الحرام
وأقبلتِ الضراغمُ من قريش على خيل مسوَّمة ضرام

فأجابه بكتاب جاء فيه : « وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتكم . فوالله ما لكم عندي جواب الا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام ، وبفلق الهام ، وخراب الديار ، وقلع الآثار ... »

فهذا السجع فى هذا المقام أصلح لخطاب الجاهليين ، لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين ، كما يعرفون منه معنى المناجزة والتخويف . ومن هنا أقر النبي نص الحلف الذى كان بين جده وخزاعة على ما كان به من سـجع وتفخيم يجعلونهما موثقا تعقـد به المواثيق وتؤكد به

الحرمات . وهذا نصه :

« باسمك اللهم . هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفا جامعا غير مفرق : الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر على الأصاغر ، والشاهد على الغائب . قد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد ، وأوثق عقد ، لا ينقض ولا ينكث ما أشرقت شمس على ثبير ، وحن بفلاة بعير ، وما أقام الأخشبان (١) واعتمر بمكة انسان : حلف أبد لطول أمد ، يؤيده طلوع الشمس شدا ، وظلام الليل مدا . وان عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون . على عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على طالب ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب فى شرق أو غرب . أو حزن أو سهل ، وجعلوا الله على ذلك كفيلا ، وكفى به جميلا ... »

هذه أمثلة السجع الذى فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره ، وما عداه من تجميل الكلام فهو تجميل الابلاغ الذى لا كلفة فيه

وقد أعانه عليه السلام على أسلوب الابلاغ أن الذين كانوا يستمعون اليه انما كانوا يستمعون الى كلام نبى محبوب مطاع . فهو نافذ فى نفوسهم بغير حيلة ، مستجمع لأسماعهم بغير تشويق، قائم بالكفاية الوسطى التى لا حاجة بها الى افراط ولا خوف عليها من تفريط.

أما رسائله الى الملوك والأمراء — ممن لم يسلم ولم يهتد — فانما كانت للابلاغ أول الأمر ، ثم يأتي بعدها التفسير والتفصيل على ألسنة المرشدين والموكلين بالاجابة فيما يسألونه عنه ، فهى كذلك قائمة على كفاية الابلاغ ، تلك الكفاية الوسطى التى لا افراط فيها ولا تفريط

ونقول ان الأمرين أعانا النبى على أسلوبه المبلغ البليغ ولا نقول انهما أنشآه وأوحياه .. فان الحوار القليل الذى حفظ لنا من أيام الدعوة الأولى قبل استفاضة الدين واقبال الأتباع المؤمنين قد كانت له صبغة هذا الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع .. لأن

(١) جبلا مكة

مصدر الفحولة فى الابلاغ ثقته بقوله لا ثقة المستمعين اليه . فكلامه كله نسق واحد فى هـذه الخصلة ، وخطابه كله خطاب سـهولة وكرامة ، وسياقه كله مطواع لا احتيال فيه ، ووصاته لمن يقتـدى به أن يقصر الخطبة ويقل الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة

ولا يفهمن من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثر فى اختلاف الوضع أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الناس . فقد كان عليه السلام يلاحظ هذا الاختلاف ويعطيه حقه كما كان يفعل حين يتكىء على قوس وهو يخطب فى الحرب ، أو يتكىء على عصا وهو يخطب فى العظات ، وكان يبدو على وجهه ما يختلج بصـدره اذا غضب أو أنذر « فكان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش : صبحكم مساكم » ..

أسلوب عصرى

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبى ـ كتابة وخطابا ـ آسلوبا عصريا يقتدي به المعاصرون فى زماننا هذا وفى كل زمان ... لأن الأسلوب الذى يخرج من الفطرة المستقيمة هو آسلوب عصري فى جميع العصـور ، ويخطىء من يحسب الوصـل بين الجمـل شرطا للكلام العربي القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتدعة فى الزمن الأخير ، ويخطىء كذلك من يحسب قبول الكلام لاشارات الترقيم علامة أخرى من علامات هذه الأساليب . فاليك الحديث الذي نقلناه آنفا وهو مثل من أمثلة كثار حيث يقول عليه السلام : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، وان كان مائة شرط : قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق»

هذا الحديث رضى البلاغة العربية فى وصله وفصله ، ورضى الأسلوب العصري فى اشارات ترقيمه ، وآية على خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو من التفريق

رأى النبي فى الشعر

وقد نقلت الينا تعقيبات معدودة عن رأى النبى فى الشعر والشعراء لا تدخل فى النقد الفني وتدخل فى كلام الأنبياء الذين يقيسون الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة . ومنها قوله : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » . وقوله عن امرىء القيس انه صاحب لواء الشعراء الى النار، وانه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود ، فكان يقول مثلا : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى ، ولكنه اذا نطق بقول سحيم عبد بنى الحسحاس : « كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا » قدم كلمة الاسلام فقال : « كفى الاسلام والشيب للمرء ناهيا » لينفي ما استطاع انه شاعر ينظم القصيد وان سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون.

وقد استحسن ما قيل من الشعر فى النضح عن الاسلام والذود عنه وعن آله ، فكانت آراؤه هذه وشبيهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام ، لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح ، ولم يبعثوا ليلقنوهم دروسهم فى قواعد النقد والانشاء

جوامع الكلم

الا ان الابلاغ أقوى الابلاغ فى كلام النبى هو اجتماع المعاني الكبار فى الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الوافية فى بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون فى مجلدات

ومن أمثلة ذلك علم السلوك فى الدنيا والدين وقد جمعه كله فى أقل من سطرين قصيرين من قوله : « احرث لدنيـاك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

ومن أمثلته علم السياسة الذى اجتمع كله فى قوله : « كما تكونوا يولّ عليكم » ..

فأى قاعدة من القواعد الأصيلة فى سياسة الأمم لا تنطوى بين هذه الكلمات ؟ ..

ينطوى فيها ان الأمم مسئولة عن حكوماتها ، لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالاكراه ، لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه ، والاكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه

وينطوى فيها ان العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومة ، فلا سبيل الى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل الى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال

وينطوى فيها ان الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وأحرى ألا يغير الوالى قوما حتى يتغيروا هم قبل ذلك

وينطوى فيها « ان الأمة مصدر السلطات » على حد التعبير الحديث

وينطوى فيها ان الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال

وذلك هو الابلاغ الذى ينفذ فى وجهاته كل نفاذ

ويلحق بهذا فى العلم بالتبعات قوله عليه السلام : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل »

فالمزايا الانسانية واجبات وأعباء وليست بالمتع والأزياء ، وعلم الانسان بالخير والشر يفرض عليه الفرائض التى يبتلى بها ، ولا يهنئه بالراحة التى يصبو اليها . وهو محسوب عليه وكذلك ذكاؤه محسوب عليه

وأمثال هذه الأحاديث فى أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الاحصاء فى هذا المقام

كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء...

وكان بليغا مبلغا على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين ، بل قدوة المرسلين .

مُحَمَّد الصِّدِّيق

عطوف ودود

اذا كان الرجل محبا للناس ، أهلا لحبهم إياه ، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها ..

وانما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الانسانية ومن سلامة الذوق ، ومتانة الخلق ، وطبيعة الوفاء

فلا يكفي أن يحب الناس ليحبوه . لأنه قد يحبهم وفى ذوقه نقص ينفّرهم منه ويزهّدهم فى حبه ..

ولا يكفى أن يكون محبا سليم الذوق ليبلغ من الصداقة مبلغها . فقد يكون محبا محبابا حسن الذوق ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوفي نزرا ضعيفا لا تدوم عليه صداقة ، ولا تستقر عليه علاقة

انما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية ، والذوق السليم ، والخلق المتين ، وقد كان محمد فى هذه الخصال جميعا مثلا عاليا بين صفوة خلق الله

كان عطوفا يرأم من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة طول حياته ، وان تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام

كان صبيا فى الثانية عشرة يوم سافر عمه ، فتعلق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه فى سفره

وكان شيخا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى

وليس فى سجل المودة الانسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين ، فيلقاها هاتفا بها : أمي ! أمي ! ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده ... كأنه يذكر ما لذلك

الثدي عليه من جميل ، ويعطيها من الابل والشاه ما يغنيها فى السنة الجدباء ..

ولقد وفدت عليه هوازن وهى مهزومة فى وقعة حنين وفيها عم له من الرضاعة ... لأجل هذا العم من الرضاعة تشفع النبى الى المسلمين أن يردوا السبي من نساء وأبناء ، واشترى السبي ممن أبوا رده الا بمال

وحضنته فى طفولته جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته ، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب عن أمر بناته ورحمه ، فقال لأصحابه : « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن ... وما زال يناديها يا أمة يا أمة كلما رآها وتحدث اليها ، وربما رآها فى وقعة قتال تدعو الله وهى لا تدري كيف تدعو بلكنتها الأعجمية ، فلا تنسيه الوقعة الحازبة أن يصغى اليها ويعطف عليها

***

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع . فما نهر خادما ولا ضرب أحدا ، وقال أنس : « خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي أف قط ؛ ولا قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ .. ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ .. »

وكان من أضحك الناس وأطيبهم نفسا ، صافي القلب اذا كره شيئا رؤي ذلك فى وجهه ، واذا رضي عرف من حوله رضاه

وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة ولم يقصره على ذوي الرحم من الناس ولا على الناس من غير ذوي الرحم . فكان يصغي الاناء للهرة لتشرب ، وكان يواسي فى موت طـائر يلهو به أخو خادمه ، وأوصى المسلمين « اذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين » وكرر الوصاية بها أن « اتقوا الله فى البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة »

وقال : « ان الله غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركى يلهث قد كاد يقتله العطش ، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء

فنغفر لها بذلك » .

وقال فى هذا المعنى : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض »

لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد كأنه من الأحياء ، فكانت له قصعة يقال لها الغراء . وكان له سيف محلى يسمى ذا الفقار ، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول ، وكان له سرج يسمى الداج وبساط يسمى الكز وركوة تسمى الصادر ، ومرآة تسمى المدلة ، ومقراض يسمى الجامع ، وقضيب يسمى الممشوق ..

وفى تسمية تلك الأشياء بالأسماء معنى الألفة التى تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين ، كأن لها « شخصية » مقربة تميزها بين مثيلاتها ، كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب ..

***

هذه العاطفة الانسانية التى رحبت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها لم تكن هى كل أداة الصداقة فى تلك النفس العلوية ، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونبلا ويتمثل ــ فيما يرجع الى علاقات النبى بالناس ــ فى رعاية شعورهم أتم رعاية وأدلها على الكرم والجود ..

« كان اذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه ، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف عنه . واذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله اياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده منه ... »

« وكان اذا ودع رجلا أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده ... »

« وكان أرحم الناس بالصبيان والعيال » ... « واذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته »

« وكان أشــدّ حيــاء من العذراء فى خدرها ، وأصبر الناس على أقدار الناس » ..

يحفظ مغيبهم كما يحفظ محضرهم ويقول لصحبه : « من اطلع فى كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع فى النار »

ومع العاطفة الانسانية والذوق السليم والأدب الكريم : سمت جميل ونظافة بالغة وحرص على أن يراه الناس فى أجمل مرآه

ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق ؟ .. وحسبك من ثقة الناس به ما أودعوه من أمانات وهم يناصبونه العداء ، فلم يخرج للهجرة وهو مهدد فى سربه حتى رد الأمانات الى أصحابها ، وقد يكون فى ردها ما ينبههم الى خروجه ويأخذ عليه سبيل النجاة ، وهــذا الى اشتهاره بالأمانة فى صباه حتى سمي بالأمين قبل أن يتجرد لدعوة تنبغي لداعيها أمثال هذه الصفات

***

كل هذه المزايا النفسية ــ بل بعض هذه المزايا النفسية ــ خليق أن يتم لصاحبه أداة الصداقة أوفى تمام ، وأن يجعله محباً لمن حوله جديرا منهم بأحسن حب وولاء . فلم يعرف فى تاريخ العظمة ــ لا بين الأنبياء ولا غير الأنبياء ــ انسان ظفر بنخبة من الصداقات على اختلاف الأقدار والبيئات والأمزجة والأجناس كالتى ظفر بها محمد ، ولم يعرف عن انسان أنه أحيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه الحب الذى أحيط به هذا القلب الكبير.

تقدم فى بعض فصول هذا الكتاب حديث زيد بن حارثة الذى خطف من أهله وهو صغير ثم اهتدى اليه أبوه واهتدى هو الى أبيه على لهفة الشوق بعد يأس طويل ، فلما وجب أن يختار بين الرجعة الى آله وبين البقاء مع سيده «محمد» اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد ، وشق عليه أن يحتجب عن ذلك القلب الذي غمره بحبه ومواساته ، وهو ضعيف شريد لا يرى ذويه ولا يدري من هم ذووه

وكان لا يغنى من لازموه أن يلزموه فى الحياة حتى يثقوا من ملازمتهم اياه بعد الممات . فضعف مولاه ثوبان ونحل جسمه وألح عليه الحزن فى ليله ونهاره ، فلما سأله السيد العطوف يستفسره علة حزنه ونحوله قال في طهارة الأبرار : « انى اذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأني ان دخلت الجنة فأنت تكون فى درجات النبيين فلا أراك » ورُويتْ هذه القصة فى أسباب نزول الآية الكريمة : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا »

وأدرك الموت بلالا فأحاط به أهله يصيحون وا كرباه وهو يجيبهم : « وا طرباه .. غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه .. ! »

***

وقد عنينا مما تقدم بحب الصداقة بين الانسان والانسان لأننا لم نقصد حب المؤمن لنبيه فى هذا الباب . فقد بلغ من امتلاء قلوب المسلمين والمسلمات بهذا الحب أن المرأة كانت تسمع أنباء المعركة فينعى اليها خاصة أهلها وهى تسترجع وتعرض عن هذا لتسأل عن النبى وتهتم بسلامته قبل اهتمامها بسلامة الأخوة وبنى الأعمام . الا اننا عنينا محبة الصداقة فى هذا الباب لأنها هى المحبة التى جعلت كثيرا من الناس يؤمنون بمحمد لمحبتهم اياه واطمئنانهم اليه ، فكانت سابقة فى قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والايمان

عظمة العظمات

ان عطف العظيم على الصغير حتى يستحق منه هذا الحب لفضيلة يشرف بها مقام العظيم فى نظر بنى الانسان

ولكن قد يقال ان استحقاق العظيم أن يحبه العظماء لأشرف من ذلك رتبة وأدل على حظه الجليل من فضائل التفوق والرجحان ... وهذا صحيح لاريب فيه ..

وهنا أيضا قد تمت لمحمد معجزته التى لم يضارعه فيها أحد من ذوى الصداقات النادرة ..

فأحدقت به نخبة من ذوى الأقدار تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة ، وكل منهم ذو شأن فى عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة ، كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر ، وعمر ، وخالد ، وأسامة ، وابن العاص ، والزبير ، وطلحة ، وسائر الصحابة الأولين ..

وربما عظم الرجل فى مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء والمريدون من النابغين فى تلك المزية ، كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنابليون

بل ربما أحاط الصالحون بالنبى العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة

***

أما عظمة العظمات فهى تلك التى تجذب اليها الأصحاب النابغين من كل معدن وكل طراز ، وهى التى يتقابل فى حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبى بكر وعلي ، وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص : كلهم عظيم وكلهم مع ذلك مخالف فى وصف العظمة لسواه

تلك هى العظمة التى اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن ، وأصبحت تجمع اليها البأس والحلم ، والحيلة والصراحة ، والألمعية والاجتهاد ، وحنكة السن وحمية الشباب

تلك هى بلا ريب عظمة العظمات ، ومعجزة الاعجاز فى باب الصداقات

وما استحقها محمد الا بنفس غنيت بالحب وخلصت له حتى أعطت كل محب لها كفاء ما يعطيها : مودة بمودة وصفاء بصفاء ، وعليها المزيد من فضل التفاوت فى الأقدار

ولقد كان صاحب الفضل على أصفيائه جميعا بما هداهم اليه من نور العقل ونور البصيرة ، وهما أشرف من نور البصر لأنه نعمة يشترك فيها

الانسان والعجماوات ، ونور العقل ونور البصيرة نعمتان يختص بهما الانسان . ومع هذا كان يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم كما قال عن أبى بكر « ما أحد أعظم عندى يدا من أبى بكر : واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته » وكما قال عن أبى بكر وعمر : « أبو بكر وعمر مني بمنزلة السمع والبصر» وكما قال عن علي : «علي أخي فى الدنيا والآخرة» وكما قال عن بعض أصحابه : « ان الله تعالى أمرني بحب أربعة وأخبرني انه يحبهم : علي منهم ، وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان » وكما قال عن الأنصار جميعا وهو فى مرض الموت : « استوصوا بالأنصار خيرا . انهم عيبتي التى أويت اليهم ، فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ».. وغير ذلك كثير عن الصحابة كافة وعن بعضهم مذكورين بأسمائهم .

***

على اننا نلمس دلائل هـذا الفؤاد الرحب وهـذا العطف الانساني الشامل فى معاملته لأعدائه وشانئيه فضلا عن معاملته للأصفياء ، ومن ليس بينهم وبينه عداء ولا صفاء ..

فما ثأر من أحد أساء اليه فى شخصه ، وقد عفا عن رجل همَّ بقتله وهو نائم ورفع السيف ليهوي به فسقط من يده على كره منه ، وما حارب قط أحدا كان فى وسعه أن يسالمه ويحاسنه ويتقي شره .

ومعاملته لعبد الله بن أُبي الذي كان المسلمون يسمونه رأس النفاق مثل من أمثلة الاغضاء والصفح الجميل . فقد عاهد وغدر ثم عاهد وغدر، وعاش ما عاش يكيد للنبى فى سره ويمالىء عليه أعداءه ، وشاع أن النبى عليه السلام قضى بقتله فتقدم ابنه وقال له : « يا رسول الله ، انه بلغني انك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا فمرني به فأنا أحمل اليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، واني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل أبى يمشي فى الناس فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار»

فأبى النبي أن يقتله وآثر الرفق به ، وزاد فى افضاله واجماله فكافأ

الولد خير مكافأة على خلوص نيته وايثاره البر بدينه على البر بأبيه . فأعطاه قميصه الطاهر يكفن به أباه وصلى عليه ميتا ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه ، وقد حاول عمر أن يثنيه عن الصلاة على ذلك العدو الذى آذاه جهد الايذاء فذكر الآية : « ... استغفر لهم أو لا تستغفر لهم . ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ... » فقال : « لو أعلم أني ان زدت على السبعين غفر له زدت »

***

هـذه النفس المطبوعة على الصـداقة والرحمة والسماحة ما أعجب اتهامها بالقسوة على ألسنة بعض المؤرخين الأوربيين ! ..

ما أعجب اتهامها بالقسوة لأنها دانت اناسا بالموت كما يدين القاضي مجرما بذنبه وهو من أرحم الرحماء ؟ ..

ما أعجبهم اذ يذكرون العقوبة وينسون الذنب الذى استوجب العقوبه كما يستوجب السبب النتيجة.

وأي ذنب ؟.. ذنب لو قوبل به غير محمد لأراق فيه أنهارا من الدماء وله حجة من سلطان الدنيا والآخرة.

فلا نذكر استهزاء المشركين به واعناتهم اياه والقـاءهم عليه القـذر والحجارة ، وائتمارهم بحياته وحياة أصحابه واخراجهم المسـلمين من ديارهم الى أقصى الديار ، ولا نذكر العنـاد والاغاظة والاستثارة لغير جريرة الا أنهم دعوا الى عبادة الله والتحلي بمكارم الأخلاق وترك عبادة الأصنام وترك الرذيلة

***

لا نذكر شيئا من هذا فهو أطول من أن يحصيه هذا الكتاب ، ولكننا نذكر حادثا واحدا تجمع فيه من اللؤم ما تفرق فى كثير غيره ، وذلك حادث الرسل الأربعين ــ وقيل السبعين ــ الذين قتلوا فى بئر معونة ولا ذنب لهم الا أنهم ذهبوا تلبية لدعوة الداعين ليعلّموا من ينشـد علم القرآن والدين ، غير مغصوب عليه

فماذا كانت دول الحضارة صانعة بالقـاتلين الغادرين لو كان هؤلاء الأربعون أو السبعون مبشرين بالدين المسيحي قتلوا فى قبيلة من الهمج الذين يأكلون الآدميين ومن حقهم أن يعذروا كما تعذر الوحوش .. ان بقي من أبناء القبيلة من يروي أنباء المقتلة ، فقد يقال ان القوم لرحماء فى العقاب ! ..

***

ولم يكن حادث بئر معونة بالحادث الوحيد من حوادث الغدر بالرسل الأبرياء . فلعلنا نختم هذا الفصل عن الصداقة بخير ما يختم به حين نشير الى غدر قبيلة هذيل بالرسل الستة الذين ذهبوا اليهم ليعلموا من شاء أن يتعلم أحكام الدين وهو آمن فى داره ، لا اكراه له ولا بغي عليه . فقتلوا جميعا وجيء بأحدهم زيد بن الدَّثِنَّة أسيراً ليباع .. فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه ، ونصب للقتل فسأله أبو سفيان مستهزئا :

أنشدك الله يا زيد . أتحب أن محمدا الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك ؟ » فأجابه زيد : « والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى ... »

فصاح أبو سفيان دهشا : « ما رأيت من الناس أحدا يحبه اصحابه ما يحب أصحابُ محمدٍ محمدا ... »

***

من فعلة كهذه تعلم مدى ما استحقه محمد من حب الأصدقاء ومدى ما استحقه أعداؤه من جزاء ، فقد أحب أصدقاءه وأحبوه لأنه طبع على الصداقة . أما أعداؤه فقـد لقوا جزاءهم لأنهم هم طبعوا على العداء والاعتداء ..

محمد الرئيس

الرئيس الصديق

من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس بعد كتابتنا عن محمد الصديق ، لأنه هو قد جعل للرئاسة معنى الصداقة المختارة ، فمحمد الرئيس هو الصديق الأكبر لمرؤوسيه ، مع استطاعته أن يعتز بكل ذريعة من ذرائع السلطان ..

فهناك الحكم بسلطان الدنيا

وهناك الحكم بسلطان الآخرة

وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة

وكل أولئك كان لمحمد الحق الأول فيه : كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمير المطلق اليدين فى رعاياه ، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبى الذى يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون ... وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفؤ وأوقر مهيب

ولكنه لم يشأ الا أن يكون الرئيس الأكبر ، بسلطان الصديق الأكبر.. بسلطان الحب والرضا والاختيار ..

فكان أكثر رجل مشاورة للرجال ، وكان حب التابعين شرطا عنده من شروط الامامة فى الحكم بل فى العبادة . فالامام المكروه لا ترضى له صلاة.

وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه .. فروي أنه كان فى سفر وأمر أصحابه باصلاح شاة . فقال رجل : يارسول الله ! عليّ ذبحها . وقال آخر: عليّ سلخها . وقال آخر: عليّ طبخها .. فقال عليه السلام : وعليّ جمع الحطب . فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل . قال : علمت أنكم

تكفونني ، ولكن أكره أن أتميز عليكم ، ان الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه »

وأبى ، والمسلمون يعملون فى حفر الخندق حول المدينة ، الا آن يعمل معهم بيديه . ولولا أنها سنّة حميدة يستنها للرؤساء فى حمل التكاليف لأعفى نفسه من ذلك العمل وأعفاه المسلمون منه شاكرين

وجعل قضاء حوائج الناس أمانا من عذاب الله أو كما قال : « ان لله تعالى عبادا اختصهم بحوائج الناس يفزع اليهم الناس فى حوائجهم . أولئك الآمنون من عذاب الله »

***

وقد كان أعلم الناس أن الأعمال بالنيات . ولكنه علم كذلك « ان الأمير اذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم »، فوكّل الضمائر الى أصحابها والى الله ، وحاسب الناس بما يجدي فيه الحساب

سمع خصومة بباب حجرته فخرج اليهم قائلا : « انما أنا بشر . وانه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق ، فأقضي له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فانما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها »

واليوم يكثر اللاغطون بحرية الفكر ويحسبونها كشفا من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم آن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا ويكن فى كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة ..

فهذا الذى يحسبونه كشفا من كشوف العصر الأخير قد جرى عليه حكم النبى قبل أربعة عشر قرنا ، وشرعه لأمته فى أحاديثه حيث قال عليه السلام : « ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » ..

وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل فى تطبيق الشريعة دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا اليها ، وهي هي دعوة النبي

العربي التى كررها ولم يدع قط الى غيرها فقال : « ان الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي » وقال : « ان الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف » وقال : « ان الله تعالى لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثنى معلما ميسرا » وروى عنه غير صاحب من أصحابه انه ما خير بين حكمين الا اختار أيسرهما ، ما لم يكن فيه خرق للدين ..

***

وكان يوصى بالضعفاء ويقول لصحبه : « أبغونى الضعفاء فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » ويذم الترفع على الخدم والفقراء « فما استكبر من أكل مع خادمه وركب الحمار بالأسواق واعتقل الشاة فحلبها »

لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير : « من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا »

اذ ليس الانصاف حراما على الكبراء حلالا لمن صغر دون من كبر ، فلكل حق ولكل انصاف . وانزال الناس منازلهم كما أمر قومه هو خير شعار تستقيم عليه الحكومة ، وتنعكس أمور الأمم بانعكاسه

***

وكان النبى الرئيس يعلم أن الرئاسة لجميع المرءوسين وليست للموافقين منهم دون المخالفين ، فيأمر قومه أن « اتقوا دعوة المظلوم وان كان كافرا فانها ليس دونها حجاب »

واذا قال هذا رئيس ونبي فانها لأولى السنن أن يتبعها الرؤساء كافة ، لأنهم لم يبعثوا لنشر الدين ومحو الكفر كما بعث الأنبياء.

لقد كانت سنة الرئاسة عند محمد هي سنة الصداقة .. فلو استغنى حكم عن الشريعة لاستغنى عنها حكم هذا الرئيس الذى جاء بالشريعة لجميع متبعيه ..

الـزّوْج

حق المرأة

الكلام عن زوج يستدعي الكلام عن مكانة امرأة عند رجل ، وعن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة

وانما تعرف مكانة المرأة التى وصلت اليها بفضل محمد ودينه ، متى عرفت مكانة المرأة التى استقرت عليها فى الجاهلية ، ومكانة المرأة التى استقرت عليها فى عصره — وبعد عصره — وبين أمم أخرى غير الأمة العربية ..

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة فى الجاهلية وما صارت اليه بعد رسالة محمد :

كانت متاعا يورث ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين ، فأصبحت بفضل الاسلام ونبيّه صاحبة حق مشروع ، ترث وتورث ولا يمنعها الزواج أن تتصرف بمالها وهى فى عصمته كما تشاء

وكانت وصمة تدفن فى مهدها فرارا من عار وجودها ، أو عبئا تدفن فى مهدها فرارا من نفقة طعامها .. فأصبحت انسانا مرعىّ الحيــاة ينال العقاب من ينالها بمكروه

ولم تكن فى البلاد الأخرى بأسعد حظا منها فى البلاد العربية

فلا نذكر شرائع الرومان واستعبادها النساء . ولا نذكر المتنطسين فى صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النجاسة وتجريدهم اياها من الروح

وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذى قيل فيه انه عصر المرأة الذهبى بين الأمم الأوربية ، وان الفرسان كانوا يفدون النساء بالدم والمال .. فهذا العصر كان كما قال الدارسون له : عصر الحصان قبل أن يكون

عصر المرأة أو عصر « السيدة المفداة »

وقد أجمله جون لانجدون دافيز صاحب «التاريخ الموجز للنساء» (١) فقال : « ان عصر الفروسية كان معروفا بما لحظ فيه من فقدان الشبان على الجملة الاهتمام بالجنس الآخر . ولعلنا نقلل من الدهشة لذلك لو أننا وعينا كلمة الفروسية وذكرنا أنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت ذات شأن بالخيل على خلاف ما يروق الكثيرين أن يذكروه . فقلما بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ الاهتمام بالحصان فى عصر الفروسية الا على اعتبار أنها عنوان ضيعة »

الى القارىء محادثة من كتاب أغاني الآداب والتحيات Chansons de Geste يروى فيها أن ابنة أوسيس Ausies جلست فى نافذتها ذات يوم فعبر بها فتيان — هما جاران وجربرت — وقال أحدهما : « أنظر. أنظر ياجربرت : وحق العذراء ما أجملها من فتاة ! فلم يزد صاحبه على أن قال : يا لهذا الجواد من مخلوق جميل !.. دون أن يلتفت بوجهه .. وعاد صاحبه يقول مرة أخرى : « ما أحسبني رأيت قط فتاة بهذه الملاحة . ما أجمل هاتين العينين السوداوين ! » وانطلقا وجربرت يقول : « ما أحسب أن جوادا قط يماثل هذا الجواد » وهى حادثة صغيرة ولكنها واضحة الدلالة ، اذ قلة الاهتمام تورث الازدراء ... والحق أن عصر الفروسية يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الازدراء . واليك مثلا حادثة فى الكتاب المتقدم يروى فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت الى قرينها الملك ببين Pepin تسأله معونة أهل اللورين . فأصغى اليها الملك ثم استشاط غضبا ولطمها على أنفها بجمع يده فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول : « شكرا لك . ان أرضاك هذا فأعطني من يدك لطمة أخرى حين تشاء »

ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هـــذا النحو كثيرا ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة .. وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت فى عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة

(1) Short History of Women : by John Langden Davies.

«... ... ومتى كانت المرأة تزف الى زوجها عفو الساعة وكثيرا ما تزف الى رجل لم تره قبل ذلك ، إما لتسهيل المحالفات الحربية والمدد العسكري، أو لتسهيل صفقة من صفقات الضياع. ومتى كانت بعد زفافها الى فارس مجنون بالحرب معطل الذكاء قد يكون فى معظم الأحوال بن الأميين ــ عرضة للضرب كلما واجهته بمخالفة ــ أترى سيدة القصر اذن واجدة لها رحمة أو ملاذا من حياة الشقاء أو من صحبة قرين ليس لها بأهل ؟ »

***

ولقد تقدم الزمن فى الغرب من العصور المظلمة الى عصور الفروسية الى ما بعدها من طلائع العصر الحديث ولما تبرح المرأة فى منزلة مسفّة لا تفضل ما كانت عليه فى الجاهلية العربية ، وقد تفضلها منزلة المرأة فى تلك الجاهلية ..

ففى سنة ١٧٩٠ ، بيعت امرأة فى أسواق انجلترا بشلنين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التى كانت تؤويها ..

وبقيت المرأة الى سنة ١٨٨٢ ، محرومة حقها الكامل فى ملك العقار وحرية المقاضاة ..

وكان تعلم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال ، فلما كانت اليصابات بلاكويل تتعلم فى جامعة جنيف سنة ١٨٤٩ ــ وهي أول طبيبة فى العالم ــ كان النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها ، ويزوين ذيولهن من طريقها احتقارا لها كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها.

ولما اجتهد بعضهم فى اقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فلادلفيا الأمريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصادر كل من يستشير أولئك الأطباء.

وهكذا تقدم الغرب الى أوائل عصرنا الحديث ولم تتقدم المرأة فيه تقدما يرفعها من مراغة الاستعباد التى استقرت فيها من قبل الجاهلية العربية ..

فماذا صنع محمد ؟ وماذا صنعت رسالة محمد ؟

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء ما فرض عليها : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف »

وحكم آخر من أحكامه العالية ، أمر المسلم باحسان معاشرتها ولو مكروهة غير ذات حظوة عند زوجها : « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

وأباح لها الدين فى الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب ممن اكتسبن »

ولم يفضل الرجل عليها الا بما كلفه من واجب كفالتها واقامة أودها والسهر عليها ..

أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم : « أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم »

وأمر بمداراة ضعفها ونقصها لأن « المرآة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة ، فان استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج ، وان ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها »

وأوجب على الرجل أن يتجمل لامرأته ويبدو لها فى المنظر الذى يروقها ، فقال عليه السلام مما قال فى هذا المعنى وهو كثير : « اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا ، فان بنى أسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم »

وأوجب على الرجل اذا خطب امرأة أن يظهرها على عيبه ان كان به عيب مستور : « اذا خطب أحدكم المرآة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب » ..

وبلغ من رعاية شعورها ومداراة خجلها الذى فطرت عليه أنه أوجب الرجل أن يمتعها كما تمتعه لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلبه الرجل منها : « فاذا جامع أحدكم أهله فليصدقها . ثم اذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها »

وكان تأديبه المسلمين فى هذه الصلة غاية فى الكياسة والترفق ، فقال مما قال فى هذا المعنى : « اذا دخلت ليلا فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمشط الشعثة ... الكيس ، الكيس ! »

معاملته لزوجاته

وانما نلخص ما أوجبه النبى على المسلمين عامة فى معاملاتهم لزوجاتهم ، وهى دون ما أوجبه على نفسه فى معاملة زوجاته بكثير

فكان يشفق أن يرينه غير باسم فى وجوههن ، ويزورهن جميعا فى الصباح والمساء ، واذا خلا بهن « كان ألين الناس ضاحكا بساما » كما قالت عائشة رضى الله عنها

ولم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه ، بل أنساهن برفقه وايناسه انهن يخاطبن رسول الله فى بعض الأحايين . فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : « تكلم ولا تقل الا حقا ... » ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها ، ومن تبلغ فى الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر ابن الخطاب فى شدته ، فيعجب لهم ويهمّ بأن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترىء كما يجترىء الزوجات الأخريات . واذا رأى النبى غضبا كهذا من جرأة كتلك كف من غضب الأب وقال له : ما لهذا دعوناك !

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن ، أو كما قال : « خدمتك زوجتك صدقة » ..

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين احداهن وسائرهن وهو ميل قلبه : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك »

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن بعث اليهن فتلطف فى سؤالهن : « أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ » .. ليقلن عند عائشة ويأذنّ له فى الاقامة ببيتها . ولو أنه أحل لنفسه أن يقيم حيث أقام وهو مريض لما كان فى ذلك من حرج

والمعاملة الطيبة فى الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ، ولكنه فى حالة الرضى خلق لا يشق فهمه على كثيرين

الا أن الخلق الذى يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء ، فى هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التى أثرت عن النبى فى قصة عائشة بنت الصديق وهى أحظى نسائه لديه ، ونلخصها مما روته بلسانها اذ تقول رضى الله عنها :

«...كان رسول الله اذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه . وأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى ، ثم قفلنا من الغزوة الى أن دنونا من المدينة ، فقمت حين آذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأني ، وأقبلت الى الرحل فلمست صدري فاذا عقدي قد انقطع ، فرجعت ألتمسه فحبسني ابتغاؤه .. وأقبل الي الرهط الذين كانوا يرحلون لي (١) فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه . وكانت النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن (٢) ولم يغشهن اللحم . انما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه اذ كنت مع ذلك جارية حديثة السن .

« ووجدت عقدي فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفتقدونني فيرجعون الي

« فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت . وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرس من وراء الجيش فأدلج (٣) فأصبح عند منزلي فرأى سواد انسان نائم . فعرفني حين رآني واسترجع . فاستيقظت وخمرت وجهي بجلبابي ، ووالله ما يكلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا في نحر الظهيرة (٤)

« فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول ..

---

(١) أى يحملون الرحل على البعير (٢) يثقلهن اللحم والشحم
(٣) سار آخر الليل (٤) أي في شدة الحر

واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون فى قول أهل الافك ولا أشعر بشيء من ذلك

« ... ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي . انما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذاك يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع (١)

« ثم عدنا فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح !

« قلت : بئس ما قلت ! أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟

« قالت : أي هنتاه (٢) ! أو لم تسمعي ما قال ؟

« قلت : وماذا قال ؟

« فأخبرتني بقول أهل الافك .. فازددت مرضا الى مرضي. فلما رجعت الى بيتي فدخل عليّ رسول الله فسلّم . ثم قال : كيف تيكم ؟ استأذنت أن آتي أبوي : أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي

« قالت أمي : يا بنيّة هوني عليك . فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها

« قلت : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم

« ودعا رسول الله علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما في فراق أهله . فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود ، وقال لرسول الله : هم أهلك ولا نعلم الا خيرا

« وأما علي بن أبي طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير . وان تسأل الجارية تصدقك...

« فدعا رسول الله بريرة يسألها : هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذي بعثك بالحق ان رأيت عليها أمراً قد أغمصه (٣) عليها أكثر

---

(١) اماكن فى خلاء المدينة تقصد لحاجة بمكائد الناس
(٢) كأنها تنعي عليها طيبتها وقلة معرفتها
(٣) اعيبه

من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن (١) فتأكله

« ... وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي ..

« فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلّم ثم جلس وتشهّد ثم قال : أما بعد يا عائشة فاني قد بلغني عنك كذا وكذا . فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه ...

« فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ! فقال : والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله ..

« فقلت لأمي : أجيبي عني . فقالت كذلك . والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله ..

« قلت ــ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن ــ اني والله لقد عرفت انكم سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به : فان قلت لكم اني بريئة ، والله يعلم اني بريئة ، لا تصدقوني . ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم اني بريئة ، لتصدقونني ، واني والله ما أجد لي ولكم مثلا الا كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشي

« ... ... فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيّه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان (٢) فى اليوم الشاتى

« فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أبشري يا عائشة ! .. أما الله فقد برأك

قالت لي أمي : قومي اليه

---

(١) اى الحيوان الذي يألف البيت
(٢) الدر

«قلت : والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد الا الله ، هو الذي أنزل براءتي..

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره .. فأقسم لا ينفق عليه شيئا أبدا . فأنزل الله عز وجل : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى.. الى قوله : ألا تحبون أن يغفرالله لكم ؟»

« فقال أبو بكر : والله اني لأحب أن يغفر الله لي ، ورجع الى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه »

تلك هي القصة التي عرفت بقصة الافك كما روتها لنا السيدة عائشة رضي الله عنها . وهي مسبار صادق يسبر لنا آغوار المروءة والرفق فى معاملة النبي لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين . فليس النبي هنا فى حالة من حالات الرضى التى تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الاناة ، ولكنه فى حالة من تلك الحالات التى تثير الحمية وتثير الحب وتثير النقمة وتثير فى النفس البشرية كل ساكنة تدعو الى طيب المعاملة ، فلم يكن فى هذه الحالة الا كرما خالصا بما سلك فى أمر نفسه وفى أمر أهله وفى أمر دينه ، ولم يدع لحالم من حالمي الحضـارة الحديثة مرتقى يتطلع اليه فى جميع هذه الغايات

سمع النبي حديثـا يلاك بين المنافقين ويسري الى المسلمين بل الى خاصة ذويه الأقربين : حديثا يسمعه رجل كعلي بن أبي طالب في بره وكرم نحيزته فلا يرى بعده حرجا من الطلاق والنساء كثيرات...

سمع النبي ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بيّنة ولم يرفضه بغير بينة ، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها الى حين .. فعادها وبه من الرفق والانصاف ما يأبى عليه أن يفاتحها فى مرضها بما يخامر نفسه الكريمة .. وبه من الموجدة والترقب ما أبى عليه أن يقابلها بما كان يقابلها به والنفس صافية كل الصفاء . وظل يسأل عنها سؤال متعتب ينتظر أن تشفى وأن تأتيه البينة فيشتد كل الشدة أو يرحم كل الرحمة ، ولا يعجله لغط الناس أن يأخذ فى هذا الموقف الأليم بما توجبه الحمية وما توجبه المروءة فى آن .

وسأل من ينبغي أن يسأل : عليا واسامة وهما بمقام ولديه ، وبريرة الجارية التى تعرف عائشة وتخلص لسيدها كما تخلص لسيدتها ، وضرة لعائشة تنافسها وتكاد أن تضارعها فى حظوتها لديه : زينب بنت جحش التى كانت أسرع من يقول لو علمت شيئا يقال . فاستعاذت بالله وقالت : « أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت الا خيرا »

واتصل الحديث بعائشة فاستأذنته فى زيارة أهلها ، وآن له أن يفاتحها وقد وصل النبأ الى سمعها . ولم يثن له قبل ذلك وهو كاظم ما فى فؤاده قادر على كتمانه مخافة أن يؤذيها بغير حق وهي تشكو سقامها ..

فاتحها لتبرىء نفسها أو تستغفر الله

***

وغضبت غضب البرىء المشكوك فيه ، وانها لبريئة فى نظر كل منصف يفهم أن امرأة كعائشة لا تعرض نفسها لهذه الريبة أمام جيش ، وفى وضح النهار ، ولغير ضرورة ، ومع رجل من المسلمين يتقي ما يتقيه المسلم فى هذا المقام من غضب النبي وغضب المسلمين وغضب الله . فتلك خلة تترفع عنها من هي أقل من عائشة منبتا ومنزلة وخلقا وانفة ، فكيف بها فى مكانها المعلوم ..

الا أن النبى أراد لها البراءة أمام الخلق عامة وأمام نفسه المحبة ، حذرا أن تكون تبرئته اياها عن محبة وضعف لا عن تبين واستيثاق ، فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق الى الثقة كان قد وفى الكرم والحمية والانصاف والرحمة أجمعين

نعم وفى الرحمة حتى باللاغطين المتعجلين الذين أبدؤوا وأعادوا فى ذلك الحديث المريب . وما أحد أرحم ممن يرحم المفترين على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سربه ، ولا يعذر الناس أحدا كما يعذرون نبيا مطاعا ينال فى عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه

ولقد علمنا من رواية السيدة عائشة كما علمنا من روايات شتى أن عبد الله بن أبي بن سلول كان أكبر اللاغطين بحديث الافك عن سوء نيّة وكيد مبيت للنبى ودينه ، وكان هذا الرجل كما تقدم فى بعض فصول هذا الكتاب بغيضا الى المسلمين متهما عندهم يتوجسون منه ويسمونه رأس المنافقين ولا يكفون عن طلب دمه واستئذان النبى فى قتله . فما ضر النبي لو خلّى بين المسلمين وبينه يحاسبونه على فريته ويحاسبونه على كيده وينقمون لعرض النبي منه ليأمنوا شره ويجعلوه عبرة لغيره ؟

واذا قيل ان عبد الله بن أبي كان من أصحاب العصبية التى يحسب حسابها وتتقى بوادرها ، فماذا يقال فى مسطح وهو مكفول أبي بكر وصنيعته الذى يأكل من ماله ؟ ما الذي أنجاه من السخط والعقاب وكفل له دوام البر والمعونة لولاسماحة النبي وسماحة أبي بكر وسماحة القرآن

على ان العصبية التي كان عبد الله بن أبي يلوذ بها لم تكن لتحميه عقاب النبي لو أراده بعقاب ولو كان أصرم عقاب .. فما من عصبية هي أقرب الى رحم الرجل وأولى بالذود عنه من ولده المشهور ببره . وقد أسلفنا أن ولد عبد الله قد تطوع لقتله يوم قيل له إن النبى يهدر دمه ويقضي بموته .. انما هى سماحة الكريم ..

انما هي السماحة التى شملت مسطحا كما شملت كبير المنـافقين ، وخرجت من حديث الافك كله بالعفو عن جميع المسيئين مخلصين فى الرأي وغير مخلصين ، وهي التى سبرت غورا فى قصـة هـذا الحديث فتكشفت عن أطيب معاملة للزوجات فى أحرج الحـالات ، وتلك هى المعاملة الطيبة فى مثلها الأعلى ، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشـهور بل تطول مدى السنين ، وتطول مدى السنين مع نسـاء مختلفات لا مع امرأة واحدة ، وتطول فى جميع الحالات ومنها حالة الألم البـالغ ولا تنحصر فى حالة الرضى والطمأنينة . وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوئام بين الأزواج فى العصر الذى وصـفوه بعصر المرأة ، لفرط ما

أطنب فيه المطنبون من اكبار شأنها والدعوة الى انصافها

تعدد الزوجات

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبي وهو الهدف الثاني الذى يرميه المشهرون بالاسلام فيكثرون من رميه كلما تكلموا عن أخلاق محمد عليه السلام وذكروا منها ما يزعمونه منافيا لشمائل النبوة ، مخالفا لما ينبغى أن يتصف به هداة الأرواح .. السيف والمرأة ! ..

كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبى بين الاستسلام للغضب والاستسلام للهوى ، وكلاهما بعيد من صفات الأنبياء

أما السيف فقد أسلفنا الكلام فيه ...

أما المرأة فالظنة فيها أضعف من الظنة فى السيف على ما نراه ، لأن الاستسلام للشهوة آخر شيء يخطر على بال الرجل المحقق ـ مسلما كان أو غير مسلم ـ حين يبحث فى تعدد زوجات النبى ، وفيما يدل عليه ذلك التعدد ، وفيما اقتضاه

قال لنا بعض المستشرقين ان تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ..

قلنا انك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية Undersexed لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغى أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية Oversexed لأنه جمع بين تسع نساء ..

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها . هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ، وما من فطرة هى أعمق فى طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى ، فهى الغريزة التى تلهم الحي فى كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى . أرأيت الى السمك وهو يعبر الماء الملح فى موسمه المعلوم فيطوي ألوفا من الفراسخ ليصل الى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه ؟.. أرأيت الى العصفور وهو يبني عشه ويعود من هجرته الى وطنه ؟ أرأيت الى الزهر وهو يتفتح ليغري الطير والنحل بنقل لقاحه ؟

أرأيت الى سنّة الحياة فى كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هى سنّتها ان لم تكن هي سنّة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة ان لم يكن على هذا السواء ؟ .

فحب المرأة لا مُعابة فيه ..

هذا هو سواء الفطرة لا مراء ..

وانما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه ، وحتى يشغل المرء عن عرضه ، وحتى يكلفه شططا فى طلابه فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يُعاب كما يُعاب الجور فى جميع الطباع ..

فمن الذى يعلم ما صنع النبى فى حياته ثم يقع فى روعه ان المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟

مَنْ مِنْ بناة التاريخ قد بنى فى حياته وبعد مماته تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدول الاسلامية ؟

ومَنْ ذا الذى يقول ان هذا عمل رجل مشغول ؟

عمّ شغلته المرأة ؟ ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد فى مسعاه ؟

فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطي الدعوة حقها ويعطي المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب . ورسالة محمد اذن هى الرسالة التى يتلقاها أناس خلقوا للحياة ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها . فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس فى عامة العصور

وأعجب شىء أن يقال عن النبى انه استسلم لِلَذّات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن فى الطلاق لأنهن طلبن اليه المزيد من النفقة وهو لايستطيعها

فقد شكَوْنَ — على فخرهن بالانتماء اليه — انهن لا يجدن نصيبهن من النفقة والزينة ، واجتمعت كلمتهن على الشكوى واشتددن فيها حتى وجم النبى وهمّ بتسريحهن ، أو تخييرهن بين الصبر على معيشتهن والتسريح

وذهب اليه أبو بكر يوما « يستأذن عليه فوجـد الناس جلوسـا لا يؤذن لأحد منهم . ثم دخل أبو بكر ، وعمر من بعده ، فوجدا النبي جالسا وحوله نساؤه واجما ساكتا . فأراد أبو بكر أن يقول شيئا يسري عنه ، فقال : « يارسول الله لو رأيت بنت خارجة ! سألتنى النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها » فضحك رسول الله وقال : هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة !.. فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ويقولان : « تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ »

فقلن : «والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده» . ثم اعتزلهن الرسول شهرا أوتسعة وعشرين يوما فنزلت بعدها الآية التىفيها التخيير وهي : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلا ، وإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ ، فإنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيما »

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها : « يا عائشة !.. انى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تتعجلي فيه حتى تستشيري أبويك .. »

قالت : « وما هو يا رسول الله ؟ » فتلا عليها الآية ..

قالت : « أفيك يارسول الله أستشير أبويّ ؟.. بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .. » ثم خيَّر نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة ، وقنعن بما هنّ فيه من معيشة كان كثير منْ زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها ..

علام يدل هذا ؟ ..

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات...

أهذا فعل رجل يستسلم لِـلّـذّات حسه ؟

أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسـه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين ، وهم موقنون ان ارادة الرسول من ارادة الله ؟ ..

وماذا كلّفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال انه كان يفرط فى ميله الى النساء ؟ .. هل كلّفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخّص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟

لم يكلفه شيئا من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ، ولم نرَ هنا رجلا تغلبه لذّات الحس كما يزعم المشهورون ، بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذّات فى طعامه ومعيشته وفى ميله الى نسائه .. فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة فى العيش قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك فى قدرة النبى عليها لو أراد »

رجل الجد والرصانة

وهكذا نبحث عن الرجل الذى توهمه المشهورون من مؤرخي أوربا فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التى تقع فى وهم واهم..

نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال انه رجل غلبته لذّات حسّه !!

ونرى رجلا تألّبت عليه نساؤه لأنه لايعطيهن الزينة التى يتحلّين بها لعينيه ثم يقال انه رجل غلبته لذّات حسّه ! ..

ونرى رجلا آثر معيشة الكفاف والقناعة على ارضاء نسائه بالتوسعة التى كانت فى وسعه ثم يقال انه رجل غلبته لذّات حسّه ! ..

ذلك كلام لو شاء المشهورون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغربا لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح . أو لعله أقبح فلاح ! ..

ويزيد فى غرابته أن الرجل الذى توهّموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ولا بعد زواجه فتتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع

فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة

كان معروفا من صباه الى كهولته فلم يعرف عنه أنه استسلم لِلَذّات

الحس فى ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهليـة تبيح ما لايبـاح .. بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة . وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات : تعالوا ياقوم فانظروا هذا الفتى الذى كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم الى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات .. كلا .. لم يقل أحد هذا قط من شانئيه وهم عديد لا يحصى . ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل.

ولما بنى بأولى زوجاته ـ خديجة ـ لم تكن لذات الحس هى التى سيطرت على هذا الزواج . لأنه بنى بها وهى فى نحو الأربعين وهو فى نحو الخامسة والعشرين ، ونيف على الخمسين وأوتي الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة فى الزواج بأخرى

ولم يكن وفاؤه لها بقية حياته وفاء المرء للذات حس أو ذكرى متاع جميل . لأنه فضلها على عائشة فى صباها وهى أحب نسائه اليه ، وكانت عائشة تغار منها فى قبرها فلم يكتمها قط أنه يفضلها عليها..

قالت له مرة : هل كانت الا عجوزا بدلك الله خيرا منها ، فقال لها مغضبا : « لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها .. آمنت بى اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء »

فلهذا أحب خديجة ووفى لها وفضلها ولم يمح ذكراها من نفسه قط من أعقبتها من الزوجات الفتيات : وفاء قلب وليست لذات حس ولا ذكرى متاع جميل ..

أسباب تعدد زوجاته

ولو كانت لذات الحس هى التى سيطرت على زواج النبى بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بارضاء هذه الملذات أن يجمع النبى اليه تسعا من الفتيات الأبكار اللائى اشتهرن بفتنة الجمال فى مكة والمدينة والجزيرة

العربية ، فيسرعن اليه راضيـــات فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التى لا تعلوها مصاهرة

لكنه لم يتزوج بكرا قط غير عائشة رضى الله عنها ، ولم يكن زواجاً بها مقصودا فى بداية الأمر حتى رغَّبته فيه خولة بنت حكيم التى عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة.

قالت عائشة رضي الله عنها : «لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون للنبي : « أي رسول الله ! .. ألا تتزوج ؟

قال : « من ؟ »

قالت : « ان شئت بكرا وان شئت ثيبا ؟ » ..

قال : « فمن البكر ؟ »

قالت : « بنت أحب الناس اليك عائشة بنت أبي بكر »

قال : « فمن الثيب ؟ »

قالت : « سودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك »

ثم كانت سودة هي أولى النساء اللاتي بنى بهن بعد وفاة خديجة وكان زوجها الأول ـــ ابن عمها ـــ قد توفي بعد رجوعه من الهجرة الى الحبشة . وكانت هي من آسبق النساء الى الاسلام فآمنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها الى الحبشة فرارا من اعنات المشركين له ولها . فلما مات لم يبق لها الا أن تعود الى أهلها فتصبأ وتؤذى ، أوتتزوج بغير كفؤ أن بكفؤ لايريدها . فضمها النبي اليه حماية لها وتأليفا لأعدائه من آلها وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظر الى لذات حس ومال الى متا

وكانت للنبي زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهي زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام التي زوجها زيدا بن حارثة بأمره وعلى غي رضى منها ، لأنها أنفت ـــ وهى ما هى فى الحسب والقرابة من رسو الله ـــ أن يتزوجها غلام عتيق..

هذه أيضا لم يكن « للذات الحس » المزعومة سلطان فى بناء النبي بها بعد تطليق زيد إياها وتعذر التوفيق بينهما ، ولو كان للذات الحس

سلطان فى هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبى أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قبول زيد وهي تأباه . فقد كانت ابنة عمته يراها منطفولتها ولا يفاجئه منحسنها شيء كان يجهله يوم عرضعليها زيدا وشدد عليها فى قبوله . فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من اعراضها عنه وترفعها عليه واغلاظها القول له ، كان زواج النبى بها «حلا لمشكلة» بيتية بين ربيب فى منزلة الابن وابنة عمة أطاعته فى زواج لم يقرن بالتوفيق

أما سائر زوجاته عليه السلام فما من واحدة منهن — رضي الله عنهن — الا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة

فأم سلمة كانت كهلة مسنة يوم خطبها ، كما قالت له معتذرة اليه لاعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها ، جبرا لخاطرها بعد موت زوجها عبد الله المخزومي من جرح أصابه فى غزوة أحد . ولما برح بها الحزن لوفاته واساها رسول الله قائلا : « سلي الله أن يؤجرك فى مصيبتك وأن يخلفك خيرا » ..

فقالت : « ومن يكون خيرا من أبي سلمة ؟ » فأوجب على نفسه خطبتها لأنها تعلم أنه خير من أبي سلمة ، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعمر خطباها فترفقت في الاعتذار ، وهما أعظم المسلمين قدرا بعد النبي عليه السلام ..

وجويرية بنت الحارث سيد قومه كانت احدى السبايا فى غزوة بني المصطلق فتزوجها النبي ليعتقها ويحض المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم تفريجا عنهم وتألفا لقلوبهم ، فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة اليه والبقاء فى حرم رسول الله فاختارت البقاء فى حرم رسول الله ..

وحفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها ، فعرضها أبوها على أبي بكر فسكت وعلى عثمان فسكت . وبث عمر أسفه للنبي فلم يكن للنبي عليه السلام أن يضن على وليه وصديقه بالمصاهرة التى شرف بها أبا بكر من

قبله ، وقال : يتزوج حفصة من هو خير من أبي بكر وعثمان.

ورملة بنت أبي سفيان تركت أباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها الى الحبشة ، ثم تنصّر زوجها وفارقها وهي غريبة هناك بغير عائل . فأرسل النبي الى النجاشي في طلبها لينقذها من ضياع الغربة وضياع الأهل وضياع القرين . فكانت النجدة الانسانية باعث هذا الزواج ولم يكن له باعث من المتعة والاستزادة من النساء ، وكان للنبي مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذى لم يفكر فيه حتى ألجأته النجدة الى التفكير فيه ، وهو أن يصل بينه وبين أبي سفيان بآصرة النسب ، عسى أن يهديه ذلك الى الدين ، بما يعطف من قلبه ويرضي من كبريائه

وكان اعزاز من ذلوا بعد عزة : سنّة النبي عليه السلام فى معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحماة والأقرباء ، ولهذا خيّر صفية الاسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بها ، فاختارت الزواج منه عليه السلام . وآية الآيات فى رعاية الشعور الانساني انه عليه السلام أنّب بلالا لأنه مرّ بها وبابنة عمها على قتلى اليهود . فقال له مغضبا : « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما ؟ » واحتقرتها زينب فلقّبتها يوما باليهودية فهجرها شهرا لايكلمها ليأخذ بناصر هذه الغريبة ويدفع عنها الضيم ..

***

تتكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد عليه السلام عن هذه الأسباب وشبيهاتها من دواعى اختياره لنسائه واستجماعه لهذا العدد من الزوجات فى حين واحد ..

ولا حرج — كما أسلفنا — على رجل قويم الفطرة أن يلتمس المتعة فى زواجه . ولكن الذى حدث فعلا أن المتعة لم تكن قط مقدمة فى الاعتبار عند نظر النبى فى اختيار واحدة من زوجاته قبل الدعوة أو بعدها ، وفى ابان الشباب أو بعد تجاوز الكهولة ..

وآخر صورة يتصورها المنصف هنا هى صــورة رجل فرغ للذاته وجلس ينتقى واحــدة بعد واحــدة من الحسان على حسب ما يرجوه عندها من متاع . فانما كان الاختيار كله على حسب حاجتهن الى الايواء الشريف أو على حسب المصلحة الكبرى التى تقضى باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأســاطين الجزيرة من أصــدقائه وأعدائه ، ولا استثناء فى هذه الخصلة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته حتى التى بنى بها فتاة بكرا موسومة بالجمال ، وهى الســيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه ..

الا أن المشهرين المتقولين نسبوا كل حقيقة من حقائق هذه الحيــاة الزوجية التى سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ولم يذكروا الا شيئا واحدا حرفوه عن معناه ودلالته ، ليفتروا على النبى ما طاب لهم أن يفتروه ، وذلك انه جمع فى وقت واحد بين تسع زوجات

نسوا انه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق ، فى غير مشقة عندهم ولا معابة.

ونســوا انه بقى الى نحو الخامســة والعشرين لم يتعسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور اليه بين الأسر وبين الفتيات ..

ونســوا انه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بســيدة فى الأربعين اكتفى بها الى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين ..

ونسوا انه اختار احسابا فى حاجة الى التآلف أو الرعاية ولم يختر جمالا مطلوبا للمتاع ..

ونسوا أن الرجل الذى وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير ، ولم يجاوز حياة القناعة قط لارضاء نسائه وارضاء نفسه ، ولو شــاء لما كلفه ارضاء نفســه وارضاؤهن غير القليل بالقياس الى ما فى يديه ..

نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتى جمع بينهن عليه السلام .. فلماذا نسوه ؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الاغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها

الوجهة الخلقية

ونستطرد الى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية فلا نطيل فيه ، لأننا نقصر هذا الكتاب على عبقرية محمد وما له اتصال بجوانب هذه العبقرية فى تعدد مناحيها ، ولم نرد به أن نتناول حكمة الشريعة الاسلامية فى تفصيلها ولا مسوغات الأصول الدينية على اختلافها.

فأوجز ما نقوله فى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن النبى عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحا يختاره من يختاره وله مندوحة عنه .. وانما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة فى بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات . ولن ينكر هذا الا متعنت يصدم الحقائق ويتجاهل المحسوس الماثل للعيان.

ففى حياة محمد الخاصة لا ينكر أحد أن بناءه بنسائه قد كان خيرا من الاخلاء بينهن وبين التأيم والمذلة والرجعة الى الكفر والضلالة ، وكان خيرا من قطع تلك الآصرة التى وصلت بينه وبين البيوت والعشائر فكان لها ما كان من فضل فى نفع الدين والمتدينين به ، وهى ضرورة يلجأ الى الاعتراف بها كل مسئول عن شئون أمة بل أمم تمارس الحياة الدنيا ، وكل امام عليم بطبائع الناس.

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع المدنية الحديثة جميعا ثم تحللت منها باباحة الزنى وعلاج مشكلة الزواج بحل خارج عن نطاق الزواج أو خارج عن نطاق البيت والأسرة . ولو اهتدت هذه الشرائع المدنية الى حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد

الزوجات ، وتنكر أنه ضرورة أكرم من ضرورات.
فلا شك ان الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم لها وللمجتمع من نبذها فى معترك هذه الدنيا الضروس بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم ، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حي يريد أن يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة هي الغرض الأكبر من كل زواج ، ولولاها لاتنقض فى المجتمع الانساني أساس كل زواج .
ولا شك أن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين خليلة أو عدة خليلات.

***

ولا شك أن تسهيل الزواج وبخاصة فى أوقات الحروب التى ينقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الانساني وأصلح من تسهيل العلاقات الأخرى التي لا تنفع النوع ولا تنفع الأخلاق ، ولا ترفع مكانة المرأة فى عصمة رجل أو فى متناول كثير من الرجال .
هذا شيء جائز ..
بل هذا شيء أكثر من جائز ، لأنه واقع لا محيد عنه ولا حيلة فيه . وغير ملوم من يواجه بحل أكرم من حلول شتى .. بل اللوم عليه أن ينظر فى شئون العالم ثم يغمض عينيه عن حقائقه التى تصدم كل عين
ومن السهل — على من أراد — أن يسوس العالم فى خياله بالفضائل التى تروقه وترضيه .. وليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذى يساس له ويرضى بما ارتضاه . وقد علم هذا كل رجل واجهته مشكلة واحدة من المشكلات التى واجهت محمدا بادىء الرأي على غير مثال سابق يحتذيه ، الا ما ألهمه الله ..
ماذا صنع نابليون فى عصرنا الحديث ؟ ..
وانما نضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلابا فى الأطوار والعادات يشبه نشأة الدين فى أيام الدعوة المحمدية ونعنى به الثورة الفرنسية ، وحضر انحدارا فى الأخلاق والآداب يشبه الانحدار الذى أصيب به

العرب فى أواخر عهد الجاهلية ، وأسّس دولة ، ونظر فى سنّ قانون ، وحاول ضروبا من الاصلاح ..

نابليون قد طلّق امرأته وأكره أحبار المسيحية على قبول هذا الطلاق، وقد اشتهرت له علاقات بخليلات متعددات ، غير الخليلات المجهولات ..

ونابليون يقول عن المرأة : « لقد صنعت كل ما وسعني أن أصنع لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى . إلا انك لا تستطيع أن تصنع لهم الشيء الكثير دون مساس بقواعد الزواج . والا أحجم الناس عن الزواج الا القليل »

« ولقد كان للرجل فى العهد القديم سريات الى جانب الزوجات ، ولم يكن أبناء الزنى محتقرين بين الناس احتقارهم اليوم .. انه لمن المضحك أن يحظر على الرجل الزواج بأكثر من واحدة . فتحمل هذه الزوجة الواحدة ، وكأن الرجل فى أثناء حملها أعزب أو عقيم ..

***

« واليوم لا سريات للرجال ولكنهم يعاشرون الخليلات وهن أقدر على التبديد والافساد ..

« انهم فى فرنسا يخولون النساء فوق حقهن من التعظيم . وانما الواجب ألا ينظر اليهنّ كأنهنّ مساويات للرجال .. فما هنّ فى الحقيقة الا آلات لتخريج الأطفال

« وقد تمردن فى ابان الثورة وعقدن الجماعات لأنفسهن وبدا لهنّ أن يؤلفن فرقا منهن فى الجيش

« وكان لابد من صدّهن .. لأن المجتمع الانسانى عرضة للخلل والفوضى اذا ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال وهى مكانهن الحق فى الحياة . نعم ان المجتمع لوشيك اذن أن يتمزق بددا بغير انتهاء

« وعلى جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة ... فاذا نشبت الحرب بينهما ، فلن تكون كحرب الأغنياء والفقراء أو حرب البيض والسود ! ..

« ألا وان الطلاق لأضر بالمرأة دون مراء . فالرجل الذى يجمع بين زوجات لا يبدو عليه من ذلك أثر كالأثر الذى يبدو على المرأة بعد التزوج بعدة رجال . انها تضمحل اذن كل الاضمحلال »

كذلك اعترف نابليـون بالضرورات الزوجية فى العصر الحـديث . فكيف اعترف بها « لنين » فى الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية ؟..

حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج .. فلا رابطة بين الزوجين أوثق من رابطـة الرفيقين فى الفندق أو الطريق . وليس أعجب ممن جعـل الزواج شريعة ملائكة الا الذى جعله على هذا النحو شريعة عجماوات.

عقوبة الزوجات

ولا نختم هذا الفصل عن النبى فى حياته الزوجية قبل أن نعرض لعقوبة الزوجات فى الاسلام وللعقوبة التى اختارها عليه السلام . لأن عقوبة الرجل لامرأته فى حالة الغضب كمحاسنته لها فى حالة الرضى — كلاهما ميزان صادق لمكانتها عنده ، ومكانة المرأة عامة فى تقديره

والقرآن ينص على العقوبات السـائغة فى حالة النشوز وهى العظة والهجر فى المضاجع والضرب ، والتسريح باحسان : « واللَّاتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهْجُرُوهُنَّ فى المَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ : فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَـبِيلا » . « ... وإِذَا طَلَّقْتُمُ النســاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فأَمْسِـكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بمعروفٍ ، ولا تُمْسِـكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ومن يفعلْ ذلكَ فقد ظَلَمَ نفسَه ... »

والنبى عليه السلام لم يطلق زوجة من زوجاته دخـل بها وعاشرها ولم يضرب قط واحدة منهن ، ولم يروَ عنه قط أنه ضرب أو نهر خادما فضلا عن زوجة ، بل روي عنه ما ينفي ذلك ممن عاشروه ولازموه

بل كان عليه السـلام يكره ضرب النســاء ويعيبه كما قال : « أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ .. يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره ! » ..

فما نص القرآن عليه من عقوبة الضرب فانما نص عليه لعلاج النشوز

الذى لا يستقيم بغيره ، وقيّده المفسرون بشروط تمنع الايذاء وتحصره فى القَدْر الذى يستقيم عليه الجزاء

فغاية ما يفهم من ذكر الضرب بين العقوبات ان بعض النساء يتأدّبن به ولا يتأدّبن بغيره ، وقد يعلم الكثيرون ان هؤلاء النساء لا يكرهنه ولا يسترذلنه ، وليس من الضرورى أن يكنّ من أولئك العصبيات المريضات اللائى يشتهين الضرب ،كما يشتهى بعض المرضى ألوان العذاب

انما العقوبة التى آثرها النبى عليهِ السلام هى الهجر الطويل أو القصير ، بعد العظة والعتاب الجميل

***

والهجر — ولا سيما الهجر فى المضاجع — عقوبة نفسية بالغة وليست كما يسبق الى بعضهم عقوبة حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة فان فوات السرور والمتعة أياما ، لا يؤلم المرأة هذا الايلام الذى يجعل الهجر فى المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق

قال الأستاذ رشيد رضا رحمه الله فى كتابه نداء الجنس اللطيف :

« أما الهجر فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره اياها ، ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه وهو الفراش ، ولا بهجر الحجرة التى يكون فيها الاضطجاع ، وانما يتحقق بالهجر فى الفراش نفسه . وتعمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة فى العقوبة لم يأذن بها الله تعالى . وربما يكون سببا لزيادة الجفوة . وفى الهجر فى المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذى هو فيه ، لأن الاجتماع فى المضجع هو الذى يهيج شعور الزوجية فتسكن نفس كل من الزوجين الى الآخر ويزول اضطرابها الذى أثارته الحوادث قبل ذلك . فاذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها فى هذه الحالة رجي أن يدعوها ذلك الشعور والسكون النفسى الى سؤاله عن السبب ويهبط بها من نشز المخالفة الى صف الموافقة ، وكأنى بالقارىء وقد جزم بأن هذا هو المراد ، وان كان مثلى لم يره لأحد من الأموات ولا الأحياء »

والذى نراه ان الأستاذ رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة النفسية . وان الحكمة فى ايثارها أعمق جدا من ظاهر الأمر كما رآه الأستاذ ..

فأبلغ العقوبات ولا ريب هى العقوبة التى تمس الانسـان فى غروره وتشككه فى صميم كيانه : فى المزية التى يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه ..

***

والمرأة تعلم انها ضعيفة الى جانب الرجل ، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت انها فاتنة له . وانها غالبته بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق اليها ورغبة فيها

فليكن له ما شاء من قوة ، فلها ما تشـاء من سحر وفتنة وعزاؤها الأكبر عن ضعفها ان فتنتها لا تقاوم ، وحسبها انها لا « تقاوم » بديلا من القوة والضلاعة فى الأجساد والعقول :

فاذا قاربت الرجل مضاجعة له وهى فى أشد حالاتها اغراء بالفتنة ثم لم يبالها ولم يؤخـذ بسحرها فما الذى يقع فى وقرها وهى تهجس بما تهجس به فى صدرها ؟

أفوات سرور ؟ أحنين الى السؤال والمعاتبة ؟ كلا .. بل يقع فى وقرها أن تشك فى صميم أنوثتهـا وأن ترى الرجل فى أقدر حالاته جديرا بهيبتها واذعانها ، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنـة ولا بغلبة الرغبة . فهو مالك أمره الى جانبها وهى الى جانبه لا تملك شيئا الا أن تثوب الى التسليم ، وتفر من هوان سحرها فى نظرها قبل فرارها من هوان سحرها فى نظر مضاجعها ..

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد ، بل هذا هو الصراع الذى تتجرد فيه الأنثى من كل سلاح ، لأنها جربت أمضى سلاح فى يديها فارتدت بعده الى الهزيمة التى لا تكابر نفسها فيها . فانما تكابر ضعفها

حين تلوذ بفتنتها .. فاذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لهـا ما تلوذ به بعد ذلك ..

***

وهنا حكمة العقوبة البالغة التى لا تقاس بفوات متعة ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة

انما العقوبة ابطال العصيـان ، ولن يبطل العصيان بشىء كما يبطل باحساس العاصى غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه . والهجر فى المضاجع هو مثابة الرجوع الى هذا الاحساس

***

على ان عقاب النبى لزوجاته كان من الندرة بحيث لا يذكر لولا ما تعود المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة فى حياته الخاصة والعامة على السواء ، وهذا مع طول العشرة وتعدد الزوجات وكثرة الحوادث الجسام وقلة النسل الذى يصل المقطوع ويرأب المصدوع

وكان معظم عقابه أشبه بعقاب نبى لمسلمات منه بعقاب زوج لزوجات . وهو فى حالتى عقابه واحسانه انسان على أكمل ما يكون الانسان من رحمة وكيس وانصاف

واذا حارت الأدلة فى قوام تلك الحياة الزوجية فالدليل الذى لا يحار أن ينقضى نحو أربعين سنة عليها وهى على ذلك الصفاء والولاء الذى لم يعرف مثله فى علاقات الرجال والنساء : هذه حياة زوجية لا تقوم على الحس والمتعة ، ولن تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب وراحة النفوس وحب الخير ومبادلة العطف والتعظيم.

الأَبُ

الابوة الروحية والابوة النوعية

حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التى دقت عن الفهم وحارت فى تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة

وهو ولا ريب يجرى على قانون مطرد فى جميع طبقات الأحياء وان كنا نحن لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ، ولا نزيد عن استقصاء بعض الملاحظات التى تقارب الحقيقة ، أو هى آقرب ما نستطيع الوصول اليه

وأهم هذه الملاحظات التقريبية انه يجرى على سنّة المكافأة والتعويض فى معظم حالاته . فيقابل النقص فى جانب بالزيادة فى جانب آخر ، ويقابل القصور فى مزية من المزايا بالاتقان فى مزية أخرى

فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير فى طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكافى لدوام النوع بعد فناء الكثير ..

والأحياء العليا يقل عدد المولود منها فى البطن الواحد . فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة فى الأحياء السفلى

ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هى الوسيلة الوحيدة التى يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه . فاذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجور ذلك على نسله وينتقص من قسمته فى أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور ، فاذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصور الأخرى . أو كأنما هى مواهب وأرزاق لايستوفيها الفرد الواحد الا بثمن غال يحسب عليه ،

ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الأنحاء

والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تحديد النسل وزيادة عدده

فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم باصلاح شئون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟ ..

ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا اليها . ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا انها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضى بنا الى الجزم أو الى التغليب ..

فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام

وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها اناث ، أو رزقوا ذرية من الاناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة

وتواريخ العظماء فى جميع نواحى العظمة ، وفى جميع الأمم ، وفى جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة : يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ، ويدخل فيهم القادة العسكريون والسياسيون ، ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبد الله نديم ، ومصطفى كامل ، ومصطفى فهمى ، ومحمود سامى البارودى ، وحافظ ابراهيم

فاذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم أن اصلاح شئون النوع الانسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية

فى بعض الأحوال ــ فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأغلى قيمة ان لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال بعد الأجيال وتتناول الملايين فى كل جيل ؟ .. وأى أبوة انسانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته ، وفى أمم لايلقاها فى زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

***

نذكر هــذا حين نذكر حظ محمــد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا فى الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار ..

ألا ما أثقل ثمن الاصلاح ! ..

ألا ما أحق المصلحين بالتمجيد وحسن الجزاء

فمحمد الأب كان أصلح الآباء ، ثم فجع فى بنيه فجيعة لا يدارى فيها ألم الانسان الا صبر الأنبياء

ومن الناس من لا يكون صديقا صالحا ولا سيدا صالحا ولا زوجا صالحا ، ولكنه أب صالح برّ ببنيه ..

لأن الرحم بين الآباء والأبنــاء أدنى الأرحــام الى المودة وأحراها بتحريك الشفقة فيمن لا يشفقن على أحد ..

فكيف تكون الأبوة فى نفس صلحت للصــداقة وصلحت للســيادة وصلحت للزوجيــة لأنها تصلح للعطف الذى يعم القريب والغريب ، ويشمل القوى والضعيف ؟

ذلك أب نعلم كيف يفرح بأبنائه

ونعلم كيف يحزن حين يفجع فى أولئك الأبناء

ومن الراجح أن العطف الأبوى لم يتمثل قط فى مولد احد من أبناء محمد عليه السلام كما تمثل فى مولد ابنه الذى سماه باسم جده الأكبر أملا فى أن يصبح بعده خليفته الأكبر . ولعل العطف الأبوى قد تمثل فى تشييع هذا الطفل الصغير أشد من تمثله فى استقباله يوم ميلاده

كانت أسباب كبيرة توحى الى قلب محمد العظيم شوقه الطويل الى

استقبال ذلك الوليد ..

كان منها ان محمدا عربى يحرص على العقب من بعده كحرص كل رجل من أبناء القبائل وأصحاب العصـبية : هم فخورون بالنسب فخورون بالعقب ، يحفظون سيرة السلف ويتوقون الى استبقاء الخلف على نحو لا يعهده الحضريون وان كان حب الذرية فطرة مركبة فى جميع الطباع

ومحمـد كان يحب التكاثر لنفسه ويحبه لأمته ويوصى المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ليفاخر بهم الأمم وفرة وعزة . فاشتياقه الى العقب من الذكور خليقة عربية تقترن بالخليقة الانسانية والخليقة النبوية ، فتزداد قوة على قوتها التى ركبت فى جميع الطباع ..

وكان من أسباب هذا الشوق القوى طول العهـد بالأبناء بعد من ولدتهم له السيدة خديجة رضى الله عنها ، وشماتة أناس من شانئيه سماه بعضهم بالأبتر لانقطاع معظم نسله : وفى ذلك نزول الآية الكريمة : « ان شانئك هو الأبتر »

فقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد له فى خلالها زوجة من زوجاته . ومات فى هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة رضى الله عنها التى ماتت بعده بقليل : مات القاسم ، والطاهر ، طفلين . وماتت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، بعد أن تزوّجن ، ولم يتعوض من فقدهن ما يعزيه بعض العزاء ..

فجيعة تضاعف الشوق الى الوليد المهأمول

وطول انتظار يضاعف الحب له كما يضاعف الشوق اليه

ولسنا ندرى لم طالت الفترة التى مضت على أزواج النبى جميعا بغير عقب .. ولكنا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التى لا يندر أن تجتمع فى أمثال هذه الأحوال . فعائشة البكر التى لم يتزوج النبى بكرا غيرها قد مات عنها عليه السـلام وهى دون العشرين . وهى سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وان كانت ولودا فيما بعدها

أما أزواجه الأخريات اللائى تزوّجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن

أعقبن لأزواجهن الأولين خلفا غير رملة أم حبيبة ، وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنّة يوم بنى بها النبى عليه السلام ، وفى عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة

فكلهنّ ما عدا هاتين لم يلدن للنبى ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التى يصعب تعليلها اذا تذكرنا أن النبى قد توخّى فى اختيارهن تلك الأغراض العامة التى أجملناها فى الفصل السابق ولم يتحرّ منها النسل خاصة : وهى الايواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن — بل معظمهن — قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة ، ما يعقم الولود

فاذا أضفنا الى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة النبوية التى أشرنا اليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبى فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن ودرء الأخطار — لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصى على التعليل

حزن الابوة

طال اشتياق النبى الى الوليد المأمول ، وتجدد اشتياقه فى أثر كل زواج حتى جاءته مارية القبطية من قطر بعيد ، ومن معدن غير المعدن الذى يختار لايواء المحزونات وتقريب الأسر والعصبيات ، فبشرت النبى بعقب لعله غلام ، واجتمع فى هذه البشارة اشتياق نيف وعشرين سنة ، ورجاء لا ينتهى بانتهاء الزمان

وولد ابراهيم ! ..

ولد الطفل الذى نظر أبوه اليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين ، بل ألوف السنين ، وتخيّر له الاسم الذى وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى ، ليكون أبا ويكون له أحفاد ، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد ..

ثم مات ذلك الطفل الصغير ..

ومات ذلك الأمل الكبير ..

مات كلاهما والأب فى الستين .. أى صدمة فى ختام العمر ؟ .. أى أمل فى الحياة ؟ .. الدين قد تم ، وهذه الآصرة قد انقطعت ، فليس فى الحياة ما يستقبل وينتظر : كل ما فيها للاشاحة والادبار

مات الطفل ولما يدرك السنتين

مصاب صغير ان كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين

ولكن المصائب فى الأعزاء انما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم ، والصغير أحوج الى العطف من الكبير المستقل بشأنه .

انما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا ، وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير ..

وانما تقاس بمبلغ الأمل فيهم ، والأمل يطول فى بداءة الطريق وقد يقصر فى منتصف الطريق

انما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين . وأى مصاب أفدح من مصاب الستين وما بعدها فى الأمل الوحيد الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه ؟

ما تخيلت محمدا فى موقف أدنى الى القلوب الانسانية من موقفه على قبر الوليد الصغير ذارف العينين مكظوم الوجد ضارعا الى الله

نفس قد نفثت الرجاء فى نفوس الألوف بعد الألوف ، وهى فى ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز : رجاء وا أسفاه لا يحييه كل ما ينفثه المصلح فى الدنيا من رجاء

وكأنى بمحمد كان يومئذ أقرب الى قلوب الخالفين من بعده مما كان مع الجالسين حوله ، ومع أقرب الناس اليه

كان أقرب الناس اليه زوجاته أمهات المسلمين . وكنّ يحببنه غاية ما يحب النساء الأزواج ، ولكن حبهن اياه لم يكن فى هذا الموقف من حب المقربات العاطفات ، لأنه حب أثار غيرتهن من أم الوليد المأمول ، فاحتجب من عطفهن بمقدار تلك الغيرة وبمقدار ذلك الحب . ولا لوم عليهنّ فيما طبع عليه الانسان وفيما لا يقصدنه ولا يقدرن عليه

وكان أقرب الناس اليه أصحابه الخاشعون بين يديه ، وكان اكبارهم لسيد الأنبياء ينسيهم انه أب من الآباء ، بل انه أب أرحم من سائر الآباء ..

ظنوا أن النبى لايحزن ، كما ظن قوم أن الشجاع لا يخاف ولا يحب الحياة ، وأن الكريم لا يعرف قيمة المال

لكن القلب الذى لا يعرف قيمة المال لا فضل له فى الكرم ، والقلب الذى لا يخاف لا فضل له فى الشجاعة ، والقلب الذى لا يحزن لا فضل له فى الصبر . انما الفضل فى الحزن والغلبة عليه ، وفى الخوف والسمو عليه ، وفى معرفة المال والايثار عليه

وفضل النبى فى نبوته وفى أبوته أنه حزن وبكى ، وتلك هى الصلة بينه وبين قلب الانسان ، وبينه وبين الناس ، وأى نبى تنقطع بينه وبين القلب الانسانى صلة كهذه الصلة التى تجمع أشتات القلوب ؟ ..

روى أسامة بن زيد أن زينب بنت النبى أرسلت اليه : « ان ابنتى قد حصرت فاشهدنا » فأرسل اليها عليه السلام يقول : « ان لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شىء عنده مسمى . فلتحتسب ولتصبر » . فأرسلت تقسم عليه ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم وقمنا . فرفع الصبى فى حجر النبى ونفسه تقعقع . ففاضت عينا النبى صلى الله عليه وسلم . فقال له سعد : « ما هذا يارسول الله ؟ »

قال : « هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده . ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء »

ما هذا يارسول الله ؟ !

هذا رسول الله فى أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل : فى الرحمة ، وفى الآصرة الانسانية ، وغير هذا لن يكون

ومحمد قد اتقى رؤية طفل يموت لابنته وهو كهل غير يائس من العقب ، فكيف يكون حزنه على فلذة كبده ابراهيم وهو بعده ذاهب الرجاء فى الأبناء ؟ ! ..

لقد كان حزنه لموته بمقدار فرحه بمولده ، وكان فرحه بمولده بمقدار أمله فيه واشتياقه اليه

وان العطف الانسانى كله ليتجه الى تلك النفس الزكية وهى تتوسع فرحا بالوليد المأمول ... حلق الأب المتهلل شعر وليده وتصدق بزنته فضة على المساكين ، وذلك هو التوسع الذى وسعه رجل كان أقدر الرجال على وجه البسيطة غير مستثنى فيها رؤساء ولا ملوك

جاء بأقصى ما عنده من الفرح وأقصى ما عنده من التوسعة ، ولو شاء لقد كان وزن الوليد كله درا وجوهرا بعض ما يستطيع فى ذلك اليوم الأغر الميمون ..

وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبال كان الحزن الوجيع يوم الوداع :

خرج الرجل الذى اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها ، وهو لا يضطلع بحمل قدميه : خرج يتوكأ على صديق عطوف الى حيث يحمل الوليد آخر مرة فى حجره الأبوى قبل أن يودعه حجر التراب .. وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : يا جبل !.. لو كان بك مثل ما بى لهدك . ولكن انا لله وانا اليه راجعون ..

أى والله ! .. انها لاحدى الفواقر التى يحملها اللحم والدم ولا تحملها صخور الجبال ..

وصرخ أسامة حين بكى رسول الله . فنهاه رسول الله وقال : البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان

حزن كما ينبغى له أن يحزن .. أما الحزن الذى لا ينبغى له فهو الصراخ الذى نهى عنه ، وهو أن تنكسف الشمس يوم موت ابراهيم فيحسب المسلمون أنها انكسفت لموته ، ويقول الأب الذى انكسفت الشمس حقا فى عينيه : « كلا .. ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ! »

أو تخسفان ولكن فى أكباد المحزونين ، وليس فى كبد السماء

أو كان من الحتم أن يكون محمد مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء ؟..

كذلك شاء القدر القادر ، وكذلك رأينا محمدا مثال الأب يوم ولد له ابراهيم ، ومثال الأب يوم ذهب عنه ابراهيم

ما يتمنى طفل — لو جاز أن يتمنى الأطفال — أبوة أرحم ولا أذكى من هذه الأبوة فى الحالتين ..

بل كان محمد مثال الأب حيثما كان له نسل قريب أو بعيد ، وذكر أو أنثى ، وصغير أو كبير

أرأيت الى الحسن بن فاطمة وقد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد فى صلاته ؟ ..

ان النبى فى صلاته لهو النبى فى مقامه الأسنى . وان النبى فى مقامه الأسنى ليشفق أن يشغل الصبي عن لعبه فيطيل السجدة حتى ينزل الصبي عن ظهره غير معجل . ويسأله بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك ؟ .. فيقول : ان ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله !

أرأيت الى فاطمة تدخل البيت أشبه الناس مشية بمشية محمد ؟ ..

أرأيت الى حنان يفيض على القلب كحنانه حين يرى فتاة تشبه أباها فى مشيته وسمته ! ..

تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات ، يختصها النبى بمناجاته فى غشية وفاته : انى مفارق الدنيا فتبكي . انك لاحقة بي فتضحك ... فى هذا الضحك وفى ذلك البكاء على برزخ الفراق بين الدنيا والآخرة أخلص الود والحنان بين الآباء والأبناء

سرّها بنبوّته ، وسرّها بأبوّته ، فضحكت ساعة الفراق لأنها ساعة الوعد باللقاء ..

وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء وأكرم الآباء

السَّيِّد

الخير المطبوع

قدمنا الكلام فى فصول هذا الكتاب عن محمد رئيسا ، ومحمد صديقا ، ومحمد زوجا ، ومحمد أبا ، بعد الكلام على عبقريته فى الدعوة ، وعبقريته في قيادة الجيوش ، وعبقريته فى السياسة والادارة والبلاغة

وبقي جانب لا تتم بغيره الاحاطة بجوانب النفس الانسانية فى العلاقات بينها وبين سائر النفوس ، وهو جانب المعاملة التى تكون بين الرجل ومن هم دونه ممن يملك أمرهم ويقبض على زمامهم ولا يعتصمون منه بعاصم غير عواصم طبعه وخلقه. ونريد بهم الخدم والعبيد والأرقاء ، وهى معاملة لها من الدلالة على الأخلاق ، ما يندر أن تدل عليه معاملة أخرى ، لأنها تأتي من طبائع النفس وعقائدها ، ولا تأتى بأمر آمر أو بدعوة داع

فالصـــداقة لها الحقوق المتكافئة بين الصديقين . لا يستطيع أحدهما أن ينساها زمنا طويلا الا ذكّره بها مذكر من صديقه الحافظ لحقوقه ، القادر على مقابلة الجفاء بمثله ، ولو فى طوية نفسه

والرئاسة قد تخول الرئيس حق السيطرة ، وتفرض على المرؤوسين واجب الطاعة ، غير أنها قلّ أن تنطلق بغير وازع من خشية الغضب أو خشية الانتقاض يحسب له الرئيس كل الحساب ، أو بعض الحساب

والأب يعطف على بنيه فلا يعجب الناس لعطفه عليهم ، لما ركب فى طباع جميع الأحياء من حب الأب لولده ، وان اختلف الآباء فى صفات العطف وفى استحقاقهم لبر الأبناء ..

وكذلك الزوج يرفق بزوجته وليس له كل الاختيار فى رفقه ، لمــا يكون بين الزوجين من دالة يعتز بها الضعيف ، ويستغنى بها أحيانا عن القوة والرئاسة ..

أما العبد المملوك فلا عاصم له غير ما فى نفس سيده من رحمه وخير ،

وانه لمن الرحمة والخير أن يتبع السيد أمر الدين مع عبيده وخدمه الذين لا ينصرهم عليه ناصر فى هذه الدنيا .. بل انها لرحمة تؤثر ولو وقفت عند حدود الأوامر الالهية ، فاذا تجاوزتها الى طواعية فى الخير لم يفرضها الدين ولم يفرضها العرف ولم يطلبها العبد نفسه فتلك هى الرحمة فى أصدق معانيها ، وهى أدل الدلالات على لباب الأخلاق

***

ولقد علم القارىء من فصولنا السابقة اننا لم نكتب هـذا الكتاب لشرح الأصول الاسلامية وتفصيل محاسن الدعوة المحمدية . فذلك غرض لا تتسع له هذه الفصول وليس لنا أن نتصـدى له بعد من فصـلوه وكرروا الكتابة فيه ..

وانما نقصد بهذه الفصـول الى غرض قدمنـاه على كل غرض فى موضوعه ، وهو بيـان البواعث النفسية التى توحى الى النبى أعماله ومعاملاته ، ولا شك فى مطابقة هذه البواعث لكل أمر من أوامر الدين وكل نهى من نواهيه . الا أن الخير المطبوع شىء والخير المأمور شىء آخر . والخير المطبوع هو الذى قصدنا الى بيانه بكل ما بيناه

ففى كتابنا عن معاملة محمد للعبيد والخدم لا ننوى أن نفصل أحكام الاسلام وأوامر القرآن فى هذه المعاملة ، وانما ننوى أن نبين مزية محمد على جميع السادة فى هذا الباب ، وهى مزية لا تتوافر لمن يقنعون بالتزام الأوامر والحدود ، ولا للذين يرتفعون الى أرفع مرتبة تفرضها هـذه الأوامر والحدود

الاسلام والرق

على أن هذا لا يمنعنا أن نوجز الاشارة بداءة الى مزية الاسلام بين الأديان الأخرى فى مسألة الرق والاستعباد ، لأن أناسـا يخلطون بين اعتراف الاسلام بنوع من الرق وبين اعتبـاره مسئولا عن وجوده فى الزمن القديم ، ويردون شيئا من ذلك الى عمل النبى عليه السلام ..

فمن الواجب أن نذكر أولا أن دينا من الأديان الأخرى لم يأمر بالغاء

الرق فى شكل من أشكاله ، سواء رق الحرب أو رق النخاسة والبيع والشراء ، وان أناسا من أقطاب المسيحية كالقديس أغسطين سوغوه واعتبروه جزاء عادلا للخطايا التى يقترفها المسترقون ، وجاء بعض أحبار الكنيسة فحرموا على الأرقاء شرف الخدمة فيها بالوعظ والهداية ، انفة لها أن يدنسها لؤم العنصر الذى وسموا به الرقيق

ويجب أن نذكر بعد هذا أن النظام الاقتصادى القديم فى أساسه كان مرتبطا بالاسترقاق أشد الارتباط . فكان الغاؤه طفرة واحدة أقرب شىء الى المستحيلات ، ولم يكن أنفع فى علاجه من التدرج خطوة فخطوة والابتداء بتصعيبه وترغيب الناس عنه ، وهو ما شرعه الاسلام

فالاسلام قد بدأ بتحريم كل رق غير رق الأسرى فى الحروب ، ثم حسن اطلاقهم وسماه مناً وعفوا يشكر فاعله عليه : « فاما مناً بعد واما فداء » ..

ثم أجاز للأسير أن يشترى نفسه ، وأوجب حريته فى حالات كثيرة يرجع معظمها الى ارادته هو ، اذا استطاع

والحق الذى لا مراء فيه أن صنيع الاسلام هذا كان أجمل صنيع لقيه الأرقاء من دين أو شريعة ، وأنه اذا كان هناك تمهيد لالغاء الرق بتة فذلك هو تمهيد الاسلام دون غيره ، وهو أقصى ما كان مستطاعا فى نظام العالم القديم : نظام كان عدد الأرقاء فيه يقارب عدد الأحرار ، كما جاء فى بعض الاحصاءات المروية عن الحضارتين الرومانية واليونانية

وقد نظر فى مسألة الرق عقل من أكبر العقول التى نبغت فى أمة اليونان بل فى الأمم كافة — ونعنى به ارسطو — فأقره وأوجبه لأنه جعله سنّة من سنن الفطرة وقيدا لا فكاك منه لطائفة من الناس ، خلقت عاجزة عن ولاية أمرها فلا غنى لها عن سيد ولا موئل لها من وال

معاملة محمد لعبيده

ولو وقف النبى عند هذا الحد فى معاملة الأرقاء لأحسن وأجمل وامتاز بأمر دينه على كل محسن الى الأرقاء فى زمانه الا اننا نقرر الواقع ولا

تتعداه قيد شعرة حين نقول ان كثيرا من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيرا من المعاملة التى ظفر بها خدم محمد وعبيده . ومَنْ مِن الآباء يحسن الى أبنائه خيرا من احسان محمد لزيد بن حارثة ولابنه أسامة ؟

فقـد أعتق زيدا ورآه أهلا للزواج بعقيـلة من أقرب قريباته اليه وأولاهن بحدبه وتوقيره ، وهى التى رآها بعد ذلك أهلا لزواجه بها وحظوتها لديه . فلم يعطه الحرية وكفى ، ولم يعطه المساواة فى العيش وكفى ، بل رفعه الى المنزلة الاجتماعية التى يرتفع اليها السادة ، ولا يثبتها شىء كما يثبتها شرف المصاهرة

ثم حفظ هذا البر الأبوى لابنه أسامة ، فولاه جيش الشام وهو دون العشرين ، وفى الجيش طائفة من أكابر الصحابة . فلو كان للنبى ولد فى سِنّه لما تكفَّل به أحسن من هذه الكفالة ، ولا ميَّزه أشرف من هذا التمييز ..

نعم لم نـعد الواقع ، ولا تجو زنا فى الوصف ، حين قلنا إن الابن لايتمنى خيرا من معاملة محمد لعبده . فقد عرف زيد فعلا أن محمدا خير من أب وخير من أسرة كاملة يرجع اليها وترجع اليه . فبقى معه ولم يذهب مع أبيه ، ولم يبق معه ايثارا لبركة النبوة فان محمدا لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم اختاره زيد وآثره على جميع آله . وانما بقى معه لأنه الانسان الذي يعرف حتى العبد الرقيق أن آصرة الانسانية عنده أوثق من آصرة الأبوة عند آخرين

ان حب الوالد لوليده وراثة ألوف الألوف من الأجيال . بل وراثة الحياة فى جميع الأحياء . فاذا بلغ البر بالضعفاء مبلغ الحب الأبوى من القوة فقد بلغ الذروة العليا التى لا متسنَّم فوقها لراق ..

لقد خيرت شريعة الاسلام المحسنين بين المن واعتاق الأسرى ، وبين الفداء بالمال أو البادلة .. فأيهما اختار المالك فهو احسان ..

أما محمد فقد اختار المن وزاد عليه . فأعتق كل أسير صار الى حوزته ، وزاد على العتق تلك الرحمة الأبوية التى شملت كل منتمٍ اليه ، ولم يستبح فى غضبه ما يستبيحه المعلم والوالد من ضرب وتعزير .. وربما

كانت كلماته للخادم المخالف أقرب الى الملاطفة منها الى العقاب . ومن ذلك قصة الوصيفة التى أرسلها فأبطأت فى الطريق ، فما زاد على أن قال لها حين عادت : « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك ! »

ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشيء الكثير

ولكن محمدا يخشى القصاص اذا استباحه فى معاملة وصيفة تهمل أمره ، وهو الذى لا يُهمَل له أمر عند سادة الشرفاء ..

وروى أنس أن النبى أرسله فى حاجة فانحرف الى صبيان يلعبون فى السوق : « واذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض ثيابى من ورائى ، فنظرت اليه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، فقال : يا أنيس ! .. اذهب حيث أمرتك ! »

كلمة أمر لا يقولها لخادمه الا وقد ناداه مدللا وقابله ضاحكا كأنه يعتب على قرين . وقد يلام القرين بأشد من هذا الملام

وكانت رحمته بعبيد غيره كرحمته بعبيده .. فكان يجاملهم ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافىء عليها ، ويلبى دعوتهم اذا دعوه الى طعام ، ويوصى بهم قائلا : « هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم » و « اتقوا الله فى الضعيفين النساء والرقيق »

البر بالخدمة

وربما كان البر بالخدمة فى هذا المقام أكرم وأنفى للهوان من البر بالخدم .. فالبر بالخادم عطف عليه . أما البر بالخدمة فارتفاع بالخادم الى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من خدمة أنفسهم بأيديهم ، وذلك هو البر بالخدمة كما عنيناه ، وذلك هو دأب النبى الذى جرى عليه فى بيته وبين أهله وخدمه

فقد كان يحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه أى البعير الذى يستقى عليه الماء . فاذا رأى الخدم لهم عملا فى البيت يماثل

عمل سيدهم ومالك أمرهم فتلك هي المساواة التي تمسح ضير الخدمة وتجبر كسرها ، ولا تقتصر على العطف والرحمة

ولم يقبل عليه السلام خدمة من خادم يأنف الأحرار أن يقضوها له شاكرين . فما كان فى رجالات المسلمين كابر ابن كابر الا كان يتمنى أن يؤدى لنبيّه تلك الخدمة التى تطوعت بها نفوس مواليه وأتباعه . وهذا ضرب آخر من ضروب البر بالخدمة والتسوية فيها بين مقام الخادم ومقام المريد . فكان عمل الخادم عنده عمل التلميذ الذى يجلس الى قدمى أستاذه ، حبا لا خنوعا ، وتوقيرا لا مذلّة ، وأدبا يفرضه على نفسه وليس بضريبة مكتوبة يفرضها عليه العرف والتأديب

وعلى هذا كان النبى عليه السلام يكره أن تقبّل يداه مخافة أن تجرى العادة بهذا بين الناس فتحمل بينهم على محمل الذلّة والخضوع . قال أبو هريرة رضى الله عنه : « دخلت السوق مع النبى صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل ، وقال للوزان : زن وأرجح ... فوثب الوزان الى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّلها ، فجذب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، انما أنا رجل منكم . ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال : صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله »

ولقد يصح أن يقال ان حصة النبى من خدمة نفسه كانت أعظم من حصة خدمه . وان تعويلهم عليه كان أكبر من تعويله عليهم وانه جعل الخدمة على سنته ضربا من توزيع الأعمال ، أو ضربا من تعاون أبناء البيت الواحد فيما يستطيعه كل منهم من تدبيره وقضاء شئونه

« انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد »

هذه كلمة السيد بامامته ، السيد بنسبه ، السيد بسلطانه ، السيد بالتفاف القلوب حوله ، السيد بسيادته على سره وعلانيّته ورأيه وهواه . ولو عمّت هذه السيادة لبطل الاستعباد وأصبح تفاوت الدرجات كتفاوت الأعمار شيئا لا غضاضة فيه على صغير ولا خنزوانة فيه لكبير . انما هو تقسيم أعمال ، وتعاون بين اخوان ، وان لم يكن تعاونا بين أمثال .

العـابد

الطبائع الاربع

طبيعة العبادة ، وطبيعة التفكير ، وطبيعة التعبير الجميـل ، وطبيعة العمل والحركة ...

هذه طبائع أربع تتفرق فى الناس وقلّما تجتمع فى انسان واحد على قوة واحدة . فاذا اجتمعت معا فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة ، وتلحق الأخريات بها فى القوة والدرجة على شىء من التفاوت

طبيعة العبادة تدعونا الى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة والتآلف بيننا وبينها : تدعونا الى الحلول من الكون فى أسرة كبيرة

وطبيعة التفكير تثير فى نفوسنا ملكات الكشف والاستقصاء : تدعونا الى الحلول من الكون فى معمل كبير

وطبيعة التعبيُر الجميل تشب النار المقدسة فى سرائرنا ، فتصهر معادن الجمال من هـذه الدنيا وتفرغها فى قوالب حسناء من صنع قرائحنا وألسنتنا ، أو صنع قرائحنا وأيدينا ، أو صنع قرائحنا وأوصالنا ، تدعونا الى الحلول من الكون فى متحف كبير

وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف تتأثر بدوافع الكون وكيف نؤثر فيها ، وتجذبنا اليها فنستمد منها القدرة التى تجذبها الينا : تدعونا الى الحلول من الكون فى ميدان صراع ومضمار سباق

وقلما تشعر بالكون بيتا لأسرة ، ومعمـلا لباحث ، ومتحف فن ، ومضمار سباق فى وقت واحد . انما هى حالة من هذه الحالات تجبّ سائر الحالات ، وقد تلحقها بها الحاق التابع بالمتبوع والمساعد بالعامل الأصيل

محمد بن عبد الله كانت فيه هذه الطبائع جميعا على نحو ظاهر فى كل طبيعة : كان عابدا ومفكرا وقائلا بليغا وعاملا يغير الدنيا بعمله . ولكنه عليه السلام كان عابدا قبل كل شيء ، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله ، وكل سجيّة فيه

تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه . فولد فى بيت السدانة والتقوى وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بايمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه ..

***

ونشأ يتيما من طفولته فانطوى على نفسه وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر الى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنايا ، الجانح الى الطهر واستقامة الضمير

وتكوّن فى بنيته عابدا من صباه ..

قيل انه فى الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حالة يختلف شرّاح التاريخ فى تفسيرها ، ويرويها من سمعوا بها على روايات مختلفات لا نرى ما هو الواقع الصحيح منها ، ويتعجل بعض المؤرخين الأوربيين فيحسبها ضربا من الصرع على غير سند علمى أو تاريخى محقق يستند اليه ..

كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدا قد تكوّن ليتلقى الوحى الالهى ، وان لهذا التكوين استعدادا لابد أن يلحظ من أوائل صباه ، لأن البنية الحية لن تتهيأ له فى أيام ولا فى شهر ولا فى سنوات ؛ ولن تستطيعه الا اذا تمّت أهبتها له والمولود فى صلب أبيه ، ولا نقول فى المهد أو فى الرضاع

فمن الأقوال المتواترة انه كان عليه السلام اذا نزل عليه الوحي نكس رأسه ، وكرب لذلك وتربد وجهه ، وأخذته البرحاء حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان فى اليوم الشاتي ، وسمع عند وجهه كدوي النحل ، وقد يصدع فيغلف رأسه بالحناء . وقدشاب فقال : «شيبتني هود وأخواتها » وعدّد حين سئل عن أخواتها سورا أخرى من القرآن الكريم .

وليس هذا من خليقة كل بنية انسانية : انما هو خليقة البنية التى تتلقى وحيا وتستوعب سرا وتهتز لنبأ عظيم

***

صفة العابد

وكانت أوصافه فى غير حالة الوحى توافق الاستعداد الذى يرشحه لتلقى الوحى والنبوة . فكان حسا كله وحياة كله . يراه من ينظر اليه فيرى فؤادا يقظا يتنبه لكل خالجة نفسية وكل نبأة خفية . يسرع فى مشيته ويلتفت فيلتفت بكل جسمه ، ويشير فيشير بكل كفه ، ويفكر فلا يزال يطرق الى الأرض أو يرفع بصره الى السماء ، ويدعو فيرفع يديه حتى يرى بياض ابطيه ، ويغضب فتحمر عيناه ووجنتاه ، ويمتلىء عرق جبينه وينام وقلبه يقظ لا ينام : حس مرهف يدنى اليه ما وراء الحجاب ، ويوقظ سريرته لأخفى البواطن ، ويجعله أبدا فى حالة قريبة من حالة الوحى حيثما هبط الوحى عليه ..

هـذه صفة عابد يفكر ويعبر ويعمـل ، وليست بصفة عابد ينقطع للعبادة أو ينقطع للتفكير ، أو يعمل كما يعمل بعض النساك الذين هزلت بنيتهم الجسدية فلم يبق لهم الا عكوف الصومعة أو رحلة الزهادة

كانت عبادة محمد خلوا بالنفس الى حين ، أو عجبا من بدائع الكون التى ألفها الناس لأنهم لم يوهب لهم فى أبصارهم وبصائرهم تلك النظرة الجديدة التى ترى كل شيء كأنه فى خلق جديد

ما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت اليوم أمام عينيه دهشة لا تعدلها دهشة ..

وهى هى دهشة العين التى أبت أن تكل من الألفة لأنها أبدا فى نظر جديد ، أو فى نظر الى كل منظور كأنه مخلوق جديد

وهكذا كانت عبادة محمد عليه السلام : عجب من بدائع الكون فى كل نظرة يراها لأول مرة ، وتفكير فى الخلق ينتهى الى الايمان لأنه يبـدأ بالعجب ، ولا يزال أبدا بين العجب والايمان

وان محمدا باعث الايمان الى القلوب . لقد كان يجدد ايمانه كما يجدد عجبه كل يوم . وكان يدعو الله فيقول : « يا مقلب القلوب ثبّت قلبى على دينك » ... وقيل له فى ذلك فقال : « انه ليس آدمى" الا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله . فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ »

حركة متجددة فى الحس وفى الفكر وفى الضمير

فلا انقطاع عن الحس للعبادة كل الانقطاع

ولا انقطاع عن الحس للتفكير كل الانقطاع

وانما هو تفكير من ينتظره العمل ، وليس بتفكير من ترك العمل ليوغل فى الفروض ومذاهب الاحتمال والتشكيك : ثلث آيامه لربه وثلثها لأهله ، وثلثها لنفسه . وما كان فى فراغه لنفسه ولا لأهله شىء يخرجه عن معنى عبادة الله والاتصال بالله ، على نحو من التعميم

***

بهره الجمال من صباه : جمال الشمس والقمر والنهار والليل والروض والصحراء ، وجمال الوجوه التى يلمح عليها الحسن فيطلب عندها الخير. انما هو الخير على كل حال ما قد طلب من الجمال . وانما جمال الله هو الذى قد كان يدعوه اليه ، كلما نظر لى خلق جميل

فكّر فى الخلق فآمن بالخالق واستقر هنالك لا يتقدم ولا يتأخر فقال : « ان الشيطان يأتى أحدكم فيقول : من خلق السماء ؟ فيقول الله ، فيقول : من خلق الأرض ؟ فيقول : الله . فيقول : من خلق الله ؟ فاذا وجد ذلك أحدكم فليقل : آمنت بالله ورسوله »

تلك هى نهاية التفكير التى ينتهى اليها عقل مستقيم خلق لعبادة عامل ، وتعليم الناس عبادة وعملا ، ولم يخلق ليوغل فى الفروض ويتقلب بين الشكوك ..

وانا لنسأل مع هذا : الى أين انتهى المفكرون الذين أوغلوا فى شكوكهم وتطوحوا بها الى قصوى ما تفرضه الفروض ؟

الى أين انتهى « كانت » Kant امام المفكرين فى هذا الباب بين

فلاسفة العصر الحديث ، ان لم نقل الحديث والقديم ؟

انتهى الى أن النفس نفسان والوجود وجودان : نفس حسية ونفس حقيقية .. ووجود محسوس ووجود حق هو ذات الوجود

النفس الحقيقية تدرك الوجود الحقيقى عندما ترجع الى قرارها ، ثم لا تتخطى بادراكها عالم الباطن الى عالم المحسوسات التى يتناولها التعبير وتصدير الكلام ..

***

أليس معنى هذا أن ايمان النفس الباطنة أمر لا يتعلق بالبرهان ؟ وأن المرجع غاية المرجع انما هو الايمان ولا شيء غير الايمان ؟

بل حتى البرهان الأكبر على وجود الله نعود اليه لنسأله ونسمع منه فماذا يقول ؟ ..

يقول لنا ان العدم معدوم فالوجود اذن موجود ، وانك اذا آمنت بالوجود فلا مناص لك من الايمان به فى صفته المثلى ، لأنك تحتاج الى مقتض لفرض النقص ولا تحتاج الى مقتض لفرض الكمال فى وجود لا يتطرق اليه العدم

وما الفارق بين الايمان بالله والايمان بالوجود فى صفته المثلى ؟

هنا ينتهى الايغال فى الفروض والشكوك

وهناك انتهى الايمان ، بغير ايغال فى فروض ولا شكوك ..

ألا تتلاقى النهايتان ؟ .. أو لا تضل الفروض والشكوك حيث تضل ثم لا يخطو لها قدمان وراء خطو الايمان ؟

لهذه السنّة التى استنّها النبى عليه السلام فى عبادته الروحية كثرت وصاياه بأدمان التفكير فى خلق الله واجتناب التفكير فى ذات الله . فقال فى حديث : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » وقال فى هـذا المعنى : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » وقال فى حديث قدسى : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق فعرفت » أو كما جاء فى رواية : « فخلقت الخلق فبي عرفوني »

وخلاصة هذه الأحاديث وما فى معناها ان التفكير فى حقائق الوجود ،ريق الوصـــول الى الله ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا ا . ـة : ايمان بالوجود الأبدى فى صفته المثلى ، وتفكير فى حقـــائق الـ ود كما نراها ونحسها ونعقلها ، وذلك قصارى ما عند العقيدة ، وقـ ـارى ما عند الفلسفة ، وقصارى ما عند العلم اذ يقف العلم عند حده ، وهذا هو العلم الذى فرضه الاسلام على كل مسلم ومسلمة ، وقال النبى فى رواية ابن عباس : « انه أفضل من الصلاة والصيام والحج والجهاد فى سبيل الله » لأنه سبيل الوصول الى الله

ومن الواجب أن نذكر بعد هذا جميعه أن محمدا نبى ، وان النبى يعلم جميع الناس الايمان ، وتلك سبيل جميع الناس فيما يفتح لهم من أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد . فهم يضلون فى تيه الشكوك والمناقضات التى يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون ، ولا يبلغون الى هداية أقوم وأسلم من هـــداية الايمان بالخالق والتفكير فى الخليقة . فاما هـــذه الهداية واما الضلال الذى لا هـــداية وراءه . وليس لنبى أن يحجب طريق الهداية ويفتح طريق الضلال

***

وقد تكلمنا فى هذا الفصل عن روح العبادة أو عن فطرة العابد التى توحى اليه « عبادته الروحية » ..

أما عبادة الشعائر الظاهرة فهى عبادة الاسلام كما فرضت على جميع المسلمين : يصلّى النبى ويصوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التى يتبعها كل مسلم ، وقد يطلب الى نفسه فى هذه العبادات ما ليس يطلبه الى غيره ، على سنّة السماحة والتيسير التى أُثِرت عنه فى كل عمل من أعماله وكل سجيّة من سجاياه ..

« فكان أخف الناس صلاة على الناس وأطول الناس صلاة لنفسه » وربما قام الليل أكثره أو أقله ولا يدين أحدا بالتهجد كما كان يتهجد

أو بالصلاة والصيام كما كان يصلى ويصوم ، بل قد نهى النـــاس أن يشتدوا فى العبادة فيصبحوا كالمنبت « لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » لأن النـــاس جميعا يتلقون الأمر بالعبادة كما يتلقون الأمر بفريضـــة واجبة ، فهم فى حاجة الى الرفق والتيسير

أما النفس المفطورة على العبادة فالصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء ، ومطاوعة لميل الضمير وميل الجوارح على السواء

***

وكان محمد « اذا حزبه أمر صلّى »

كذلك اذا حزب الأمر نفسا رجعت الى من تحب فخف وقرها وانفرج كربها ، وأنست بعد وحشة واهتدت بعد حيرة

ومتى وجدت النفس « فرحة اللقاء » فى الصلاة فلا اجهاد فيها لجسد ولا تضييق فيها لوقت ، بل فيهـــا الترويح عن الجهـــد والتنفيس عن الضيق ، ولاسيما اذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحيى ما تحيى من ليلها ونهارها فى الصلاة والعبادة ثم تؤدى عملها وتفكر تفكيرها ، ولا يحسب أحد يعرفها انها تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها ، أو عن حق من حقوق بنى الانسان

الرَّجُـل

المختار

عاش فى العصــور المــاضية كثير من العظماء الذين تواترت الأنباء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة فى الصور والتماثيل . غير اننا لا نعرف أحدا من هؤلاء العظماء تمت صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد عليه السلام من رواية أصحابه ومعاصريه ، فنحن نعرفه بالوصف خيرا من معرفتنا لبعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التى نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقة ، لأن هذه الصور والتماثيل قد تحكى للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة ، وقد تحكى للمتفرسين شيئا من طبــائعهم التى تنم عليها سيماهم ، الا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبى فى كل حالة من حالاته وكل لمحة من لمحاته : فى سيماه وفى هندامه ، وفى شرابه وطعامه ، وصلاته ، وصيامه ، وحلّه ومقامه ، وسكوته وكلامه ، لأن الذين وصفوه وأحبوه وأحبوا أن يقتدوا به فتحرجوا فى وصفه كما يتحرج المرء فى الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة ، فكانت أمانة الوصف هنا مزيجا من العطف والتدين ، وضربا من اتباع السنن وقضاء الفروض ، لم يختلف الوصف مرة الا كما تختلف نظرة الناظر الى وجه واحد بين ساعة وأخرى. فيقول غير ماقال آنفا ثم لايبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين..

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة أن النبى عليه السلام كان مثلا نادرا لجمال الرجولة العربية ، كان كشأنه فى جميع شــمائله مستوفيا للصفة من جميع نواحيها . فربّ رجل وسيم غير محبوب ، وربّ رجل وسيم محبوب غير مهيب ، وربّ رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه وهو

لا يحب الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء ، أما محمد عليه السلام فقد استوفى شمائل الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس. فكان على مايختاره واصفوه ومحبوه ، وكان نعم المسمى بالمختار.

اذا نظر اليه الناظر رأى رجلا أزهر اللون ، عظيم الهامة ، مفاض الجبين ، سبط الشعر ، أزج الحاجبين بينهما عرق يدره الغضب . أدعج العينين فى كحل ، اقنى الأنف يحسبه من لم يتأمله آشم العرنين ، أسيل الخد ، ضليع الفم ، غزير اللحية ، جميل الجيد ، عريض الصدر ، واسع ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، لا بالمشذب ولا بالقصير ، مربوعا أو أطول من المربوع ، معتدل الخلق متماسكا لا بالبدين ولا بالنحيل ..

واذا أقبل يتحرك نظر اليه الناظر فرأى رجلا يصفه الأقدمون بأنه « حي القلب » ويصفه المحدثون « بالحركة والحيوية » ..

يمشى فكأنما ينحدر من جبل وينحط من صبب ، ويرفع قدمه فيرفعها تقلعا كأنما ينشط بجملة جسمه ، ويلتفت فيلتفت كله ، ويشير فيشير بكفّه كلّها ، ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بابهام اليمنى راحة اليسرى ، ويفتتح الكلام بأشداقه ويختمه بأشداقه ، وربما حرّك رأسه وعضّ شفته فى أثناء كلامه . وهو على هذه الحركة الحية جم الحياء : أشد حياء من العذراء ، نضاح المحيا اذا كره شيئا عرف ذلك فى وجهه واذا رضى تطلقت أساريره وتبين رضاه

واقترن النشاط والحياء بالقوة والمضاء فى هذه البنية الجميلة ... فكان عليه السلام يصرع الرجل القوى . ويركب الفرس عاريا فيروضه على السير ، ويداعب من يحب بالمسابقة فى العدو . قالت عائشة رضى الله عنها : « خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا .. فتقدموا .. ثم قال : تعالي حتى أسابقك . فسابقته فسبقته ، فسكت

« حتى اذا حملت اللحم وكنا فى سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم

للناس : تقدموا .. فتقدموا .. ثم قال : تعالي آسابقك فسابقته فسبقني فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك ! »

وهذا بعد أن قارب الستين . انها لمسابقة تنم على فتوة الروح فوق ما نمت عليه من فتوة الأوصال.

وتجلت هذه الأريحية فى علاقته بكل انسان من خاصة أهله أو من عامة صحبه . فرقت حاشية جِده حتى عطفت على كل أسى ، ورحمت كل ضعف ، وامتزجت بكل شعور

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « دخـل النبى عليه السلام على أمّى فوجد أخى أبا عمير حزينا . فقال : يا أم سليم .. ما بال أبى عمر حزينا ؟ ..

فقالت : يا رسول الله مات نغيره . تعني طيرا كان يلعب به ..

فقال صلى الله عليه وسلم : أبا عمير ! .. ما فعل النغير ؟ .. وكان كلما رآه قال له ذلك » ..

وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت اليها ، فالسيد يزور خادمه فى بيته ، ويسأل أمّه عن حزن أخيه ، ويواسيه فى موت طائر ، ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه .

ومثل هذا عطفه على الضعف البشري فى رجل مثل عبد الله الحمار الذى لقّب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة ، فكان النبى عليه الصلاة والسلام يحده فى الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه.

قبوله للدعابة

وكان نعيمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعابة ، لا يقيل منها أحدا ولا يراه النبى فيتمالك أن يتبسم .. وربما قصد النبى ببعض هذه الدعابات لطمعه فى حلمه وعلمه بموقع الفكاهة من نفسه : جاء اعرابى الى الرسول فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : « لو نحرتها فأكلناها ؟.. فانا قد قرمنا الى اللحم ، ويغرم النبى صلى الله عليه وسلم حقها» فنحرها نعيمان. وخرج الاعرابى فرأى راحلته فصاح :

« وا عقراه يا محمد !..» . فخرج النبى يسأل : «من فعل هذا ؟» قالوا : «نعيمان» ... فاتبعه النبى حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى فى خندق وجعل عليه الجريد . فأشار اليه رجل ورفع صوته : « ما رأيته يارسول الله » وهو يشير بأصبعه الى حيث هو ، فأخرجه رسول الله وقد تعفر وجهه بالتراب فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال : « الذين دلوك عليَّ يارسول الله هم الذين أمروني ! » فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويضحك.. ثم غرم ثمن الراحلة..

ونعيمان هذا هو الذى باع عاملا لأبى بكر الصديق وهو يعلم أن النبأ وصل الى النبى لا محالة

سافر أبو بكر الى بصرى تاجرا ومعه نعيمان وسويط بن حرملة عامله على زاده . فجاءه نعيمان وطلب اليه طعاما فأباه عليه حتى يأتى أبو بكر. فأقسم نعيمان ليغيظنه . وذهب الى قوم فقال لهم : « تشترون مني عبدا لي ؟ » قالوا : « نعم ! » قال : « انه عبد له كلام ، وهو قائل لكم : لست بعبده . أنا رجل حر... الى أشباه ذلك . فان كان اذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا عليَّ عبدي ... » قالوا : « لا .. بل نشتريه ولا ننظر الى قوله » فاشتروه منه بعشر قلائص ، ثم أراهم اياه فوضعوا عمامته فى عنقه ولم يحفلوا بقوله ، وجعلوا كلما قال لهم : « أنا حر !.. انه يتهزأ ولست أنا بعبده » سخروا منه وقالوا : بل عرفنا خبرك فدع عنك اللجاجة ... فلما جاء أبو بكر سأل عنه فقصَّ عليه نعيمان قصته ، وذهبوا جميعا ليلحقوا بالقوم فيفتدوه ويعيدوه .

ثم قدموا على رسول الله فضحك من فعلة نعيمان ، وجعل يذكرها حولا كاملا كلما رآه .

من سعة النفس أن ينهض الرجل بعظائم الأمور بل بأعظمها جدا ووقارا وهو اقامة الأديان واصلاح الأمم وتحويل مجرى التاريخ ، ثم يطيب نفسا للفكاهة ويطيب عطفا على المتفكهين ، ويشركهم فيما يشغلهم من طرائف الفراغ . فللجد صرامة تستغرق بعض النفوس فلا تتسع لهذا

الجانب اللطيف من جوانب الحياة .. ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق الا دلت على شيء من ضيق الحظيرة ونقص المزايا وان نهضت بالعظيم من الأعمال ..

فاستراحة محمد الى الفكاهة هي مقياس تلك الآفاق النفسية الواسعة التى شملت كل ناحية من نواحى العاطفة الانسانية ، وهى المقياس الذى يبدى من العظمة ما يبديه الجد فى أعظم الأعمال

وكان محمد يتفكه ويمزح كما كان يستريح الى الفكاهة والمزاح ، وكان دأبه فى ذلك كدأبه فى جميع مزاياه : يعطى كل مزية حقها ولا يأخذ لها من حق غيرها ، أو يعطى الفكاهة حقها ولا ينقص بذلك من حق الصدق والمروءة . فعبد الله الخمار كان يجد من قلب النبى عطف القلب الكبير على نقيصة الضعف فى الرجل السكير ، ولكنه كان يجد من تأديب النبى جزاء الشارب الذى يخالف الدين ويخل تماديه بالشريعة . عطف يجمل بالنبى على أحسن ما يكون ، لأنه يجمل بالانسان على أفضل ما يكون.

واذا مزح محمد فانما كان يعطى الرضى والبشاشة حقهما ولا يأخذ لهما من حق الصدق والمروءة .. فكان مزاحه آية من آيات النبوة لأنه كان كذلك آية من آيات الانسانية ، ولم يكن بالنقيض الذى يستغرب من نبى كريم ..

قال لعمته صفية : لا تدخل الجنة عجوز ! .. فبكت ، فقال لها وهو يضحك : الله تعالى يقول : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فجعلناهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً » ... ففهمت ما أراد وثابت الى الرضى والرجاء.

وطلب اليه بعضهم أن يحمله على بعير . فوعده أن يحمله على ولد الناقة . فقال : يارسول الله !.. ما أصنع بولد الناقة ؟ .. فقال : وهل تلد الابل الا النوق ؟

وكان عليه السلام يقول لحاضنته السوداء أم أيمن وهى عجوز : « غطي قناعك يا أم أيمن ! »

وسمعها فى يوم حنين تنادي بلكنتها الأعجمية : «ست الله أقدامكم !»

فلم تنسه الغزوة القائمة أن يصغى اليها ويداعبها بين نذر الحرب وصليل السيوف ، وأقبـل عليهـا يقول : « اسكتي يا أم أيمن فانك عسراء اللسان ! » فكانت هذه الدعابة فى ذلك الموقف المرهوب كأنها تربيت سيد الفصحاء على تلك اللكنة البريئة .

***

اريحية محمد

هذه الأريحية الفياضة هى الحلية الباطنة التى تمت بها حلية محمد فى عيون الناس ، وهى جواب محمد لما كان له فى قلوبهم من حب واعظام ، أو هى الآصرة التى تجمع بين قلبـه وتلك القلوب فى نطـاق الأسرة الانسانية : يحبونه ويحبهم ويشعرون به ويشعر بهم ، وليس قصارى الأمر انه وسيم وانه محبوب وانه مهيب ..

سمت يقابل العيون بجمال
وأريحية تقابل النفوس بجمال

وقد سرت هذه الأريحية فى صميم طويته فامتزجت طواعية وارتجالا بجميع خصاله وجميع علاقاته بالناس ولا سيما الضعفاء والمكسورين . فكان أحرص انسان على جبر القلوب وتطييب الخواطر وتوخي المؤاساة واجتناب الاساءة ، يتفقد أصحابه كبارا وصغارا ويسأل عنهم ، ويتحدث الى ذوي الأقدار وعامة الناس فلا يحسب صغيرهم ان أحدا أكرم عليه منه ، ويتحدث اليه من شاء فلا يقطع عليه حديثه وان طال . واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ومن جالسه صابرّه حتى يكون هو المنصرف ، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الآخذ هو الذى يرسلها ..

ومن سننه التى اتبعها وأوصى باتباعها أن يجيب دعوة من دعاه ولا يرد دعوة عبد ولا خادم ولا أمة ولا فقير ، وفى ذلك يقول من وصاياه فى آداب الولائم والمحافل : « اذا اجتمع الداعيان فأجب أقربهما بابا ،

فان أقربهما بابا أقربهما جوارا ، وان سبق أحدهما فأجب الذى سبق »

يبدأ من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه . وربما خفف صلاته اذا جاءه أحد وهو يصلّى ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية.

يتقي الغضب جهده ويعالجه اذا أحسه بعلاج من الروح فيقبل على الصلاة والتسبيح ، أو بعلاج من الجسد فيجلس اذا كان قائما ويضطجع اذا كان جالسا ، ويأبى الحركة التى ينزع اليها وهو غضبان.

***

آدابه الاجتماعية

وكان فى آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المهذب فى كل زمان . فلم ير قط مادّاً رجليه بين أصحابه ، وتعوّد كلما زار أحدا ألا يقوم حتى يستأذنه ، ولم يكن ينفخ فى طعام ولا شراب ولا يتنفس فى اناء ، واذا أخذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وربما نهض بالليل فيشوص فاه بالسواك ، ولا يزال يستاك ويوصى بالاستياك بعد الطعام والتيقظ من النوم ، وكان يتطيب ويتحرى النظافة ويقول لصحبه : « اغتسلوا يوم الجمعة ولو كأسا بدينار » .

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل فى شئون عرضية لا تتصل بلباب الذوق والشعور . فيأكلون فى جيل بأصابع اليد ويأكلون فى الجيل الآخر بالشوكة والسكين ، ويخرج أناس بالثياب السود ويخرج غيرهم بالثياب البيض . وهى عرضيات يقاس بها عرف البيئة ولا يقاس بها تهذيب الطباع ، فلا ضير على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة ومن جيل لجيل . وانما الضير فيما يتناول الطبع السليم والذوق الحسن وهما الخصلتان اللتان كان عليه السلام قدوة فيهما لكل رجل مهذب فى كل أمة وفى كل زمان .. فلم يكن يهفو فى حق أحد . ولم يكن أحد يشكو من محضره بانصاف ، وذلك هو ملاك التهذيب الكامل فى أصدق معانيه ..

صاحب هذا السمت رسول ..

وصاحب هذه الآداب رسول ..

وخلاصة سمته وآدابه أنها سماحة فى الأنظار وسماحة فى القلوب .. فالسماحة هى الكلمة الواحدة التى تجمع هذه الخصال من أطرافها ، والسماحة هى الصفة التى ترقت فى محمد الى ذروة الكمال

ومن يكون الرسول ان كان لابد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة ؟ الرسول هو الذى له وازع من نفسه فى الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملات الناس ، لأن عمل الرسول الأول أن يقيم للناس وازعا يأمرهم بالحسن وينهاهم عن القبيح ويقرر لهم حدودهم التى لا يتخطونها فيما بينهم ، ومن كان هذا عمله الأول فينبغى أن تكون صفته الأولى — بل صفته الكبرى — أن يستغني عن الوازع وأن يغني الناس عن محاسبته وطلب الحق منه . وهذه هى السليقة الشاملة التى سرت فى خلائق محمد وامتزجت بجميع أعماله وأقواله فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه فى رعاية حق الصغير والكبير ، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول ، لأنها علامة من داخل السريرة .. وليست علامة من خارجها قد تلازم أوتفارق من تغروه .. وليس للنوع البشري مقياس صحيح يقاس به محمد فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل .. يعطيه هذه المرتبة من يدين بالاسلام ومن يدين بغير الاسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل .

فليس للنوع البشري أصل من أصول الفضائل يرمي الى مقصد أسمى وأنبل من تقديس تلك المناقب التى كان محمد قدوة فيها للمقتدين

***

عزيمة الزهد والايمان

وليس أولىّ بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس ويزهد فى نعمة العيش وهى بين يديه

فقد ثبت أن محمدا لم يستمتع بدنياه ولم يشبع ثلاثة أيام تباعا حتى

مضى لسبيله ، وقالت عائشة رضى الله عنها : « لقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول : « نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقوتك » فيقول : « ياعائشة ! مالي وللدنيا ... اخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا » ..

وقالت زوجه أم سلمة تصف ماوجدته في بيته ليلة عرسها : «... فاذا جرة فيها شيء من شعير ، واذا رحى وبرمة وقدر وكعب فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته فى البرمة ، وأخذت الكعب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه ! »

رآه عمر وقد أثر في جنبه حصير فقال له : « يارسول الله ! قد أثر في جنبك رمل هـذا الحصـير وفارس والروم قد وُسِّعَ عليهم وهم لايعبدون الله » فاستوى جالسا وقال : « أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟.. أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ! »

ولقد مات ودرعه مرهونة ، ولا ميراث لأهله مما ترك من عقار ، وهو قليل ..

فما عسى أن يقول قائل فى قدر هذا الرجل .. آمن به أو لم يؤمن ؟

أيقول انه رسول وانه كان يعلم انه رسول فصدع بأمر ربه واحتمل ما احتمل فى سبيل طاعته وفى سبيل اصلاح خلقه ؟

تلك اذن منزلة الأنبياء التى تستوجب له مقام أصفياء الله عند من يؤمن بالله ..

أم ينكر النبوات ويقول:انه رجل أراد الخير وهو لا يعلم انه رسول ولا ان الله مطالبه برسالته الى خلقه ، ولكنه تجرد لهـدايتهم فى غير مأرب يناله ولا نعمة ينعم بها لأنه لا يطيق لهم شرا ولا ينتظر فى الدنيا ولا الآخرة جزاء ؟

من قال هذا وغض من قدر رجل يحب الناس ذلك الحب ويغار على هدايتهم تلك الغيرة فهو انسان ممسوخ الضمير.

فمحمد الرجل فى المقام الأول بين الرجال : فى المقام الأول بخلقته ، وفى المقام الأول بنيته ، وفى المقام الأول بعمله ، وفى المقام الأول بالقياس الى المشبهين له فى دعوته ·

***

ونرى عن يقين انه لم يحرم نفسه ذلك الحرمان الا استزادة لأسباب الايمان وشحذا للعزيمة فى سبيل ذلك الايمان ، واعذارا الى الله والى الناس فيما تجرد له من اصلاح

لأن محمدا لم يكن كارها لطيبات الدنيا ولا حاضا لأحد على كراهتها والاعراض عنها . فاذا قنع بما قنع فانما فعل ذلك ليرتفع بايمانه عن ظنه هو لا عن ظنـون غيره ... كأنه يخشى اذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له أن يحسب تلك الحظوظ غرضا من الأغراض التى نظر اليها حين نظر الى هداية الناس ..

فليكن الايمان اذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء ... وتلك راحة ضميره ، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهده كله فى هدايتهم غير منقوص ولا مظنون..

اذا هدى الناس واستمتع بالعيش خشي أن يحسب المتعة من آماله..

واذا هدى الناس وكفى كانت الهداية هي جملة الآمال وغاية الآمال ..

فلينقص حظه من العيش ليكمل حظه وحظ أمته من ايمانه ، وليتم بذلك حسابه لنفسه وحسابه عند الله وحسابه بين الناس ..

وما حساب أولئك جميعا ؟

حساب رجل هو وازع نفسه فى السر والعلانية ، وهو أحق الناس أن يقيم وازعا للناس..

رجل ولا كمثله الرجال ..

مُحمّد في التاريخ

اتصال التاريخ بمحمد

أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمدا فى عبقريته ، أو محمدا فى نفسه ، أو محمـدا فى مناقبه التى يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية ، ومن لا يدين له برسالة .

ونريد بهذا الفصل — وهو خاتمة الكتاب — أن نذكر كلمة موجزة عن محمد فى التاريخ ، أو محمد فى العالم وأحداثه الخالدة . وهو بحث يغنينا فيه الايجاز ، لأن العالم كله صفحات تنبئنا بمكان محمد فيه .

محمد فى نفسه عظيم بالغ فى العظمة ، وفاقا لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند بني الانسان فى عصور الحضارة .

فما مكان هذه العظمة فى التاريخ ؟ .. ما مكانها فى العالم وأحداثه الباقية على تعاقب العصور ؟

مكانها فى التاريخ ان التاريخ كله بعد محمد متصل به مرهون بعمله ، وان حادثا واحدا من أحداثه الباقية لم يكن ليقع فى الدنيـا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله

فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوربا فى العصور الوسطى ، ولا الحروب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب ، ولا كشف القـارة الأمريكية ، ولا مسـاجلة الصراع بين الأوربيين والآسيويين والافريقيين ، ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات ، ولا الحرب العظمى التى شهدناها قبل بضع وعشرين سنة ، ولا الحرب الحاضرة التى نشهدها فى هذه الأيام ، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة فى الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذى ولد فى شـبه

الجزيرة العربية بعد خمسمائة واحدى وسبعين سنة من مولد المسيح..

كان التاريخ شيئا فأصبح شيئا آخر ، توسط بينهما وليد مستهل فى مهده بتلك الصيحات التى سمعت فى المهود عداد من هبط من الأرحام الى هذه الغبراء .. ما أضعفها يومئذ صيحات فى الهواء .. ما أقواها بعد ذلك أثرا فى دوافع التاريخ .. ما أضخم المعجزة .. وما أولانا أن نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيـال ، وما أغنانا أن نبحث عنها قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون ..

فتوح ايمان

على أننا نستعظم الأحداث العظام فى تاريخ بنى الانسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح ، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان

وجائز أن يقع فى الدنيا طوفان أو زلزال ، فيتصل به من أحداث الزحوف والفتوح ما يبدل فى التاريخ ، ويبتعث دوافع الشعوب

أما غير الجائز فهو أن تنفتح للانسان آفاق جديدة من عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحيها الايمان ، وبغير رسـالة باطنية تسبق هـذه الظواهر التى تهول الأنظار .

ولقد فتح الاسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح فى كل قلب من قلوب أتباعه عالما مغلقا تحيط به الظلمات ، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها،فان الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم وراء التخوم ، ولكنه زادَ الانسان أطيب زيادة يدركها فى هذه الحياة ، فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ، ودنا به مرتبة الى الله .

يدين بهذه الحقيقـة كل من يدين بحقيقة فى عالم الضـمير . فمن أنكرها فانما ينكر تقدم الانسان كثيرا أو قليلا فى هذه الطريق .

عقد عالم أوربى (١) مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح فسأل : « أليس

(١) الدكتور ماركس دودز فى كتابه « محمد وبوذا والمسيح »
Mohammed, Buddha, and Christ by Dr, Marcus Dodds.

محمد نبيا على وجه من الوجوه ؟ » ثم أجاب قائلا : « انه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء : فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله ، وتمكنت من نفســـه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة ، وانه لخليق فى هـــذه الفضيلة أن يسامي أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بني اسرائيل ، لأنه جازف بحياته فى سبيل الحق ، وصبر على الايذاء يوما بعد يوم عدة سنين ، وقابل النفي والحرمان والضغينة ، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة ، فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه انسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة ، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على اسكاته وعد ولا وعيد ولا اغراء ... ... وربما اهتدى الى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان ، الا أن أحدا آخر غير محمد لم يقم فى العالم مثل ما أقام من ايمان بالوحدانية دائم مكين ، وما أتيح له ذلك الا لمضـــاء عزمه أن يحمـــل الآخرين على الايمان . فاذا سأل سائل : ما الذى دفع بمحمد الى اقنـــاع غيره حيث رضي الموحدون بعبادة العزلة ؟ .. فلا مناص لنا أن نسلم انه هو العمق والقوة فى ايمانه بصدق ما دعا اليه » .

والحقيقة التى يراها المنصف مسلما كان أو غير مسلم ، هي هذه :

هي أن فتوح محمد فتوح ايمان ، وان قوة محمد قوة ايمان ، وانه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة ، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل . لقد جاء الاغراء الذى أشار اليه العالم الأوربي وهو داع مهدد فى سربه ، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته ، فما حفل بالاغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل به وهو واصل اليه ..

جاءه ســـيد قومه عتبة بن ربيعة وهو فى مبدأ أمره فقال له واعدا ملاطفا بعد أن أعياهم تخويفه متوعدين : « يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفّرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل

منا بعضها . فقال عليه السلام : قل يا أبا الوليد . فقال : يا ابن آخى ! .. ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » . فما زاد عليه السلام على أن أجابه بآيات من القرآن الكريم ، ثم تركه يعود كما أتى ..

ثم أدرك النبى غاية ما سعى اليه فلم يدخل له المال ولا المتاع فى حساب ، ولم يكن النعيم المستطاع آفعل فى اغرائه من النعيم الموعود ، بل كان النعيم المستطاع فوق ما حلم به عتبة بن ربيعة ، وكان النبى أزهد فيه من زهده فى النعيم الموعود فلم كل هذا ؟ لم هذا الجهاد ؟ ولم هذا العناء ؟ ولم هذا الصبر ان لم يكن فى سبيل الايمان ؟ وأى نبى له من الايمان شفاعة أكبر من هذه الشفاعة ورسالة أكبر من هذه الرسالة ؟.. وأى انسان يعرف تعظيم الأنبياء ان لم تظفر نبوة محمد عنده بالتعظيم ؟

التاريخ هو فيصل التفرقة بين محمد وشانئيه : حكمه أنفذ من حكم الشانئين والأصدقاء ، وأنفذ من حكم المشركين والموحدين ، وأنفذ من حكم المتدينين والملحدين ... لأنه حكم الله

وقد حكم له انه كان فى نفسه قدوة المهذبين ، وكان فى عمله أعظم الرجال أثرا فى الدنيا ، وكان فى عقيدته مؤمنا يبعث الايمان ، وصاحب دين يبقى ما بقيت فى الأرض آديان.

وسيطلع فى الأفق هلال ويغيب هلال ، وسيذهب فى الليل قمر ويعود قمر ، وتتعاقب هذه الشهور التى كأنها جعلت لتاريخ ما بين الصدور ، لأن الناس لا يؤرخون بها مواسم الزرع ولا مواعد الأشغال ولا أدوار الدواوين والحكومات ، ولا ينتظرونها الا هداية مع الظلام وسكينة مع الليل : أشبه بهداية العقيدة فى غياهب الضمير .

ستطلع الأقمار بعد الأقمار ، وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية ، وكأنها تقبل بعلم من معالم السماء يومىء الى بقعة من الأرض هى غار الهجرة . أو يومىء الى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد ، لأنه أدل الأيام على رسالته ، وأخلصها لعقيدته ورجاء سريرته ، وهو يوم التقويم الذي اختاره المسلمون بالهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم

لم كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ فى الاسلام ، ولم يكن يوم الدعوة ؟

ولم لم يكن يوم بدر أو يوم ولادة النبى أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ.. كل يوم من هذه الأيام كان فى ظاهر الرأي وعاجل النظر أولى بالتأريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة فى جنح الظلام

فالرجل الذى اختار يوم الهجرة بدءا لتاريخ الاسلام قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والايمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه..

لأن العقائد انما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب : كل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التى تعتقــد حقا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء

وليس يوم أحق بالتأريخ اذن من اليوم الذى هجر فيه النبي بلده ... « إِذْ أخرَجَهُ الذين كفروا ثانيَ اثنين ، إذْ هُما في الغَارِ ، اذ يقول لصاحبه لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ معنا . فأَنزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عليهِ وأيَّدَهُ بجنودٍ لم تَرَوْهَا وجعلَ كَلمةَ الذين كفَروا السُّفلَى وكلمةُ اللهِ هيَ العُلْيَا واللهُ عزيزٌ حكيم »

ليقل من قال ان التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتا معروفا على عهــد النبي عليه السلام .. وليقل من قال : ان دخول المدينــة هو المقصود بالتاريخ من الهجرة ، وهو يوم عظيم .. ليقل من قال هذا أو ذاك ، فان تاريخ النصر فى القرآن ظاهر اذ هو « ثاني اثنين » فى الغار

وان ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد ــ سواء كان هو المقترح أو مجيب

الاقتراح ـ حين نظر الى غار « ثور » ولم ينظر فى التأريخ الى نصر المدينة،ولا الى نصر بدر،ولا الى نصر أحد،ولا الى نصر فارس ، ونظر الى تالك « الجنود التى لم تروها » وقد نراها نحن الآن ..

يوم الدعوة لم يكن يوم الاسلام الأول ، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل انسان ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو كثير..

ويوم ميلاد النبى لم يكن يوم الاسلام الأول ، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الاسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية ، ولأن محمدا بشر مثلنا فى مولده ولكنه سيد الرسل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة الى حيث تنجو وحيث تسود ، وحيث يكون امتحانها الأول فى قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان فى غار

كذلك تؤرخ العقائد والأديان : بالشدة تأريخها وليس بالغنائم والفتوح،وانها لشىء فى القلوب فلنعرفها اذن حين لا تكون الا فى القلوب ، وحين يكون كل شىء ظاهر كأنه ينكرها وينفى وجودها وهى يومئذ من الوجود فى الصميم.

يوم عقيدة ورجاء

ان يوم الغار ليوم له عبرته وعزاؤه فى كل يوم ولا سيما ايام القلق والحيرة والانتظار ..

انه يوم عقيدة فهو يوم رجاء،ويوم نظر الى المستقبل الذى ينظر اليه من ليس له رضى فى حاضر عهده . وحاضر العالم فى عهده لايرضي أحدا من محبيه .. حيثما غلبت الحيرة والقلق فى العالم فهنالك أمر واحد كن منه على أتم اليقين . كن على يقين ان العالم يبحث عن عقيدة روحية ! لأنه يضيق بالحاضر وينظر الى المستقبل ، وكل مستقبل فلا محل له من جوانح الصدور ان لم يكن موضع رجاء ومرجع ايمان ، وغاية سعي يستحق الكفاح .. وفى التاريخ الانساني كله لم تقم قط حركة عظيمة على الماضى الذى لا مستقبل بعده ، انما تقوم الحركات العظمى جميعا على الرجاء فى غد محجوب ، أو على شىء يمكن أن يتحقق فى حياة

الانسان ، وشيء يبقى أبدا موضع الرجاء البعيد ..

لقد كان عليٌّ فتى يستقبل الدنيا ، وكان أبو بكر كهلا يدبر عنها ، يوم أعانا محمدا فى يوم حراء .. ولكنهما كانا معا على أبواب غد واحد ورجاء واحد ، يستوي فيه الفتى والكهل والشيخ الدالف الى قبره ، لأنه رجاء الايمان لا رجاء العيان.

المستقبل للايمان

ماذا فتح الاسلام لأبي بكر من عوالم الحياة ؟.. هل رجع به الى الماضي أو أقبل به على المستقبل .. هل مشى به فى حركة الى أمام أو قفل به فى رجعة الى وراء ؟.. الحق ان الاسلام مثل المستقبل للشيخوخة كما مثل المستقبل للشباب ، وانفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها البقاء ، وكان يفتح أمام أبى بكر — وليس أمام علي وحده — باب الحياة الصالحة فى الدنيا وباب الحياة الخالدة فى الآخرة ... وهكذا كل عقيدة فما هي بعقيدة على أى معنى من معاني الاعتقاد ان كان خيرها كله شيئا يناله الانسان فى أيامه ... فلا مناص فى العقيدة من خير وراء أيام الفناء

ليذكر هذا جميعه من يتحفزون للنهوض ، ومن يبتغون الحركة ، ويقودون الخطوات المقبلة فى عجلة أو اناة..

لن تتحرك أمة الا اذا فتحت أمامها باب المستقبل ، ولن تلتفت الى الماضي الا اذا كان فيه التقاء بالمستقبل ، ولن تعيره الحياة الا وهو مبعوث من جديد فى صورة الخلق الجديد .

ليذكر هذا من يحارون فى أمر العالم اليوم وهو غارق فى دمائه ، ضائق بحاضره ، معرض عن ماضيه .. فيمَ يحار ؟ ..

في طلب المستقبل ، في طلب العقيدة ، في طلب المسوّغ للوجود ، لأن الوجود وحده لا يكفي الانسان الا أن يكون على طبقة مع الحيوان..

فالايمان للمستقبل .. وعسى أن يكون المستقبل للايمان..

وعسى أن يجد العالم عزاء باقيا من يوم الغار ومن صاحب يوم « الغار » ..

عباس محمود

العقاد

عبقرية الصديق

دار الكتاب اللبناني - بيروت

عَبْقَرِيَّةُ الصِّدِّيق

تقديم

في تقديم كتابي هذا عن أبي بكر الصديق أقولُ ما قلتُه في «عبقرية محمد» و «عبقرية عمر» وكلّ كتاب من هـذا القبيل ، وفحواه أنني لا أكتبُ ترجمةً للصديق رضي الله عنه، ولا أكتب تاريخاً لخلافته وحوادث عصره ، ولا أعني بالوقائع من حيث هي وقائع ولا بالأخبار من حيث هي أخبار ، فهذه موضوعات لم أقصدها ولم أذكر في عناوين الكتبِ مـا يعد القارىء بها ويوجه استطلاعه إليها ، ولكننا قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية ، تعرفنا به وتجلو لنا خلائقه وبواعثَ أعمالهِ ، كما تجلو الصورة ملامحَ مَن تراه بالعين . فلا تعنينا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدي أداءها في هذا المقصد الذي لا مقصد لنا غيره ، وهي قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منهـــا الكبرُ أو الصغر إلا بذلك المقدار ، ولعل حادثاً صغيراً يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته ، ولمحة مصورة أظهر من لمحته . بل لعل كلمةً من الكلمات الموجزةِ التي تجيء عرضاً في بعض المناسبات تتقدم لهـــذا السببِ على الحوادث كبيرها وصغيرها في مقياس التاريخ .

ومن هنا أن تكون الصورة صادقة كلَّ الصدق في جملتها وتفصيلها . . . فليس من غرضنا التجميل الذي يخرج بالصورة عن حقيقتها ، ولسنا نريد أن يطلعَ القارىء على تلك الصورةِ فلا يعرفها ولا يعرف أبا بكر منها ، ولكن تجميل الصورة شيء ، وتوقير صاحبها شيء آخر ، فإنك إذا صورت أبا بكر ورفعت صورته مكاناً عليًّا لم تكن قد أضفت إليه جمالاً غير جماله أو غيَّرت ملامحَه النفسية بحيثُ تخفى على من يعرفها ، فهذا هو التوقيرُ الذي لا يُخِلُّ بالصورة ولا يعاب على المصور ، وليس هو بالتجميل المصطنع الذي يُضِلُّ الناظرَ عن الحقيقة .

فكل فضيلة أثبتناها لأبي بكر في هذه الصفحات فهي فضيلته التي لا نزاعَ فيها ، وكل عمل استطاعه ووصفناه بقدرته فقد استطاعه بغير جدال ، وما مِن عَمَل لم يعمله قلنا إنه قد عمله ، ولا من قدرة لم تظهر منه جعلناها من صنوف قدرته ، ثم يتوسمه القارىء بعد هذا فيرى صورة مميزة بين صور العظماء من أمثاله ، فهو محمود موَقَّر، وعمر بن الخطاب في صورته محمود موقر ، ولكنهما مع ذلك لا يتشابهان ولا يتراءى أحدهما في ملامح الآخر ، وهذا قصاراك من صدق الصورة في تمييز الرجل بين نظرائه ، وفي تمثيله بما فيه وما ليس فيه .

إنك حين تعدد ثروة رجل فتقول : إنه صاحبُ عشرة بيوت ، لا يلزمك بعد ذلك أن تقول : ولكنه ليس بصاحب أرض زراعية ولا أوراقٍ ماليةٍ ولا معاملَ صناعية ولا مرتبات حكومية ، وإذا أنت

سكتَّ عن هذا قاصداً أو غير قاصد لم يجز لأحد أن يلومَك أو يظنَّ بك تعمد الإخفاء والسكوت ، فحسبُك أنك ذكرت ثروته الصحيحة ولم تُضيف إليه ما ليس من ماله لتكون قد أعلمتَ من يريد العلم بثروته غاية ما ينبغي أن يعلم .

وكذلك الشان في ثروات النفوس حين يحصيها المقَدِّرون : تصدق إن ذكرت له ما يملك ، ولا يفوتك الصدق إن فاتك أن تحصِيَ كل ما ليس له بملك ، فليس هذا بغرض من أغراض الإحصاء أو التعريف .

ومذهبنا الذي نتوخاه في الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم في خدمة الإنسان أن نوفيهم حقَّهم من التوقير ، وأن نرفعَ صورهم إلى مكان التَّجِلَّةِ ، وإن لم يمنعنا هذا أن نَصدُقَهم الوصف والتصوير وقد عبرت عن هذا المذهب شعراً قبل ثلاثين سنة فقلت من أبيات :

لا تَلحُ ذا باس وذا همة على ذنوب العُصبة الغُلّبِ
فليس مقياسُك مقياسَهم ولا همُ مثلك في المأرب
انظر إلى ما خلَّفوا بعدهم من المعالي ثم لُمْ واعتب
من ركبَ الهائِلَ من أمره فعذره في ذلك المركب

ونحسب هذا المذهب في زماننا هذا أوجب مما كان في الأزمان الغابرة، لأن الأسباب التي تَغُضُّ من وقار العظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن عشر إلى الآن ، وهي مما يحدث عفواً في بعض الأحيان ، ومما يأتي قصداً

في أحيان أخرى ، وقـــد تفيد الاشارة إليهـا في اتقائها إذا كان إلى اتقائها سبيل .

بدأت هذه الأسباب بفهم سيىء للمنازعات التي شجرت بين رجال العلم ورجال الدين منذ النهضة العلمية الحديثة . فوقر في بعض الأذهان أن العلم الحديث قد ألغى ما قبله من جهود المصلحين وطلاب المعرفـــة الإلهية والدنيوية ، وخلط أناس بين دعاة الأديان الذين أخلصوا العقيدة في الإصلاح وبين رجـــال الأديان الذين استَغَلوا العقائد وتعمدوا إنكار الحقائـق ووقفوا بعنادهم ولجاجتهم عقبـة في طريق التقدم والتهذيب .

فالمصلحون من عظماء الأديان أهل لكل تعظيم واعتراف بالجميل ، لا يعيبهم انهم سبقوا عصر العـــلم الحديث ، بل يُزكّيهم ذلـــك ويضاعف حقهم في الثناء وعرفان الجميل ، ويدل على أن الحاجة إليهم كانت أمسّ وألزم وأنهم كانوا في خدمتهم الإنسانية أقدرَ وأعظم ، مع ما هو مفهوم من الفارق بين حاجة الناس إلى الدين وحاجتهم إلى العلوم . فهذه حاجة ذهنية وتلك حاجة حيويـــة أو روحية لا تغني فيها علوم العلماء .

ثم جاءت الديمقراطية وأساء بعض الناس فهمها كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين ، فظنوا أن حرية الصغير تجعله في صف الكبير ، وأن المساواة القانونية تلغي الفوارق الطبيعية ، وأن الثورة على الرؤساء المستبدين

معناها الثورة على كل ذي مكانة من العظماء ، وهو وَهْم ظاهر البطلان ولكنه قد سرَى مسراه إلى الأذهان ، فكثر التطاول على كل عظمة إنسانية ، وفشت بِدعةُ الاستخفاف والزراية حتى أوشك التوقير لمن يستحق التوقير أن يعاب .

ثم جاءت الشيوعية وهي قائمة على أن الأبطال صنائع المجتمع وليسوا باصحاب الفضل عليه ، وأن تعظيم الأبطال الغابرين يَصرِفُ الناس عن عيوب النظم الاجتماعية التي أنشأت أولئك الأبطال فخدموها قاصدين مدبرين أو على غير قصد منهم وتدبير ، وأفرط الشيوعيون في تلويث كل عظمة يؤدي توقيرها إلى نقض مذهبهم ومخالفة دعوتهم ، حتى بلغ من سخفهم في هذا أنهم غيّروا أبطال الروايات في مسرحيات شكسبير وأمثاله فعرضوا « هملت » على المسرح لئيما ماكراً سيىءَ النية على خلاف ما صوّره الشاعر ، لأن تصوير أمير من أمراء القرون الوسطى في صورة حسنة يُخِلُّ بما قرروه عن النظم الاجتماعية والسياسية في تلك القرون .

وتكاثرت على هذا النحو أسبابُ الغض من العظماء حتى صحَّ عندنا أن العظمة في حاجة إلى ما يسمى « برد الاعتبار » في لغة القانون ، فان الانسانية لا تعرف حقاً من الحقوق إن لم تعرف حقّ عظمائها ، وإن الإنسانية كلَّها ليست بشيء إن كانت العظمة الإنسانية في قديمها أو حديثها ليست بشيء .

ومن ثمّ مذهبنا في توقير العظمة مع التفرقة بين التوقير المحمود والتجميل المصطنع الذي يَعيب المصورَ ويُضلِل الناظر إلى الصورة. فليس لنا أن نُثبت جمالاً غير ثابت، ولكن لنا - بل علينا - متى أثبتنا الجمال في مكانه أن نرفع الصورة إلى مقام التوقير.

قال زميلنا الباحث الفاضل الأستاذ أحمد أمين من نقده لكتاب هيكل (باشا) في الصِّدِّيق وكتابي في عبقرية عمر: «... بقيت مسألة هامة كثيراً ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها، وهي أن العظيم مهما عظم له خطآت، وإلا ما كان إنساناً والعصمة لله وحده. فهل واجب المترجم له أن يعرض لكل ذلك في تفصيل، فيذكر كل ما لَهُ ويَشيد بذكره، ويذكر خطآته وينقدها، ويعلّم بذلك درساً في نواحي مجده، ودرساً آخر في مواضع خطئه، أو واجبه فقط تجلية نواحي العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحي الخطأ؟ أنا أرى أن الرأي الأول أوجب، متأسياً بأبي بكر وعمر نفسيْهما، والمؤلفان الفاضلان إلى الرأي الثاني أميل».

والواقع أننا إلى الرأي الثاني أميل كما قال زميلنا الأستاذ، ولكنه الميل الذي نُحِده بما قدمناه من حدود، ونحتج له بما بيناه من أسباب.

ويخيل إلينا أن الأستاذ نفسه يستطيب هذا الميل حين قال في صدر مقاله عن الكتابين: «... إن الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم من يشيد بعظمائهم ويستقصي نواحي مجدهم، بل قد دعتهم العصبية أحياناً

أن يتزيَّدوا في نواحي هذه العظمة ، ويعمِلوا الخيال في تبرير العيب وتكميل النقص تحميساً للنفس وإثارة لطلب الكمال . أما نحن فقد كان بيننا وبين عظمائنا سدودٌ وحواجزُ حالت بين شبابنا وجمهورنا والاستفادةِ منهم ... »

فهذه السدود كثيرة في الشرق، كثيرة في العصر الحاضر حيث كان ، وهي التي تُجيز لنا - بل تفرض علينا - أن نوفي العظماء حقهم من التوقير ، وأن نصورهم كما خلقهم الله، ثم لا علينا أن نرفع الصورة حيث شئنا بعد الصدق في التصوير .

عباس محمود العقاد

إِسْمٌ وَصِفَة

عُرف الخليفة الأول في التاريخ بأسماء كثيرة : أشهرها أبو بكر والصدّيق ، ويليهما في الشهرة عَتيق وعبد الله .

وقيل إنه عُرف بهذه الأسماء أو الألقاب في الإسلام والجاهلية على السواء .

عُرف في الجاهلية بلقب الصدّيق لأنه كان يتولى أمر الديّات وينوب فيها عن قريش ، فما تولاه من هذه الديات صدّقته قريش فيه وقَبِلَته ، وما تولاه غيره خذلَته وتردَّدَت في قبوله وإمضائه .

وعُرف بالعتيق لجمال وجهه ، من العتاقة وهي الجودة في كل شيء ، وقيل : بل من العِتق ، لأن أمه لم يكن يعيش لها ولد فاستقبلت به الكعبةَ وقالت : اللهم إن هـذا عتيقُك من النار فَهَبه لي . فعاش فعرف باسم عتيق... وقيل غير ذلك: إنه أحد ثلاثة أبناء هم:عتيق ومُعتق ومُعَيتيق، سموا بذلك تفاؤلاً بالعيش والعتق من الموت .

وعرف كما قيل في بعض الروايات باسم عبد الكعبة في الجاهلية ، ثم عبد الله في الإسلام .

وسُمي في الإسلام بالصديق لأنـه صدّق النبي عليه السلام في حديث الإسراء ، وبالعتيق لأنه عليه السلام بشّره بالعتق من النار .

ومن الجائز أنه عُرف بهذه الألقاب على تحمّلها في الجاهلية وتحملها في الإسلام . ففي حياته وسيرته قبل الإسلام وبعده ما يحقق هذه التسمية أو هذا التلقيب .

وُلِد للسنة الثانية أو الثالثة من عام الفِيل ، فهو أصغر من النبي عليه السلام بنحو سنتين ، وهو عبـد الله بن عثمان الذي عُرف باسم أبي قحافة ، ويَلتقِي نسبه ونسب النبي عليه السلام عند مُرّة بن كَعب ، بعد ستة آباء . وكِلاَ أبويه من بني تَيم ، وهم قومٌ اشتهر رجالهم بالدّماثة والأدب ، واشتهر نساؤهم بالدّل والحُظوة ، وقيل إن بنات تيم أدل النساء وأحظاهن عند الأزواج . وربما كان مرجع ذلك إلى طول عهـد القبيلة بحياة المدينة وأشغالها ، وأن اشتغالها بالتجارة كان يقوم على المَودّة وحسن المعاملة ولا يقوم على بَسطَة النفوذ وصولة الوَفر والغلبة . فبنو أمية ــ مثلاً ــ كانوا يتّجرون وكان زعيمهم أبو سفيان يُرسل القوافل بين الحجاز والشام ، ولكنها قوافل أشبه بالحملات والبعوث ، معوّلهم فيها على الوفر والوفرة ، وليست كذلك تجارة أبي بكر وإخوانه من أبنـاء

البُطون القرشية التي لها شرف النسب في غير مكاثرة بالعَدَد والعُدّة ، ومغالبة بالصَّولة ودهاء القوة ، كمغالبة الأمويين .

ومهما يكن من أثر المعاملة الودية وآداب الأسرة والمدنية في بني تيم، فهذه الآداب واضحة في أسرة الصديق رضي الله عنه أجمل وضوح ، لم تُذكر لنا قط أسرة كانت في عصره على مودّة أجمل من المودة التي اتصلت بينه وبين أبيه وأمه وأبنائـــه ، مدى الحياة . وقد كان له ابن حارَب في صفوف المشركين ، وأوشك أن يكون بينه وبين أبيه قتال ، ولكننا إذا تجاوزنا هذه الفَلتة من فلتات السن رَجعنا إلى أبُـوّة لا عقوقَ فيها بعد اهتداء ذلك الابن إلى الإسلام ، كما اهتـــدى إليه سائر ذَويه .

عاش أبو قحافة حتى رأى ابنَـه خليفةً يرفع صوتَـه على أناس لم يكن في مكة أرفع منهم صوتاً وأعظم خطراً ، وكان مكفوف البصر على باب داره بمكة يومَ أقبلَ أبو بكر إليها معتمراً بعد مبايعته بالخلافة ، فقيل له : هذا ابنك : فنهض يَتَلقّاه ، ورآه ابنه يهُم بالنهوض فعجل نازلاً عن راحلته وهي واقفة قبل أن يُنيخها ، وجعل يقول: يا أَبت لا تقم ! ثم لاقاه والتزمه وقبّل بين عينيه ، ولم ينتظر – وهو في نحو الستين – أن يُنيخ لينزل منها ، مخافة على ابيه من مشقة النهوض .

ودعا الخليفة بأبي سفيان لأمر أنكره فأخذتـــه الحِدّة التي كانت تُراجعه في بعض ثورات نفسه ، وأقبل يصيح على أبي سفيان وهويلين له

ويسترضيه . فسأل أبو قحافة قائده : على من يصيح ابني ؟ فقال : على أبي سفيان ! ... فدنا منه يقول له وفي كلامه من الغبطة أكثر مما فيه من الانكار ، وفيه من دهاء الطيبة أكثر مما فيه من سهو الشيخوخة : أعَلى أبي سفيان تصيح وترفع صوتك يا عتيق ؟ لقد عدَوت طورك وجُزت مقدارك !

فابتسم أبو بكر والصحابة ، وقال لأبيه المُنكِر في رضاه الراضي في إنكاره: يا أبت إن الله رفع بالإسلام قوماً وأذل به آخرين .

وهذه الطيبة التي لا تخلو من دهائها هي التي ظهرت من هذا الأب الصالح ، يوم نعوا إليه رسول الله فقال : أمر جلَل . وسأل : ومَن ولَيَ الأمرَ بعده ؟ قالوا : ابنك ؛ فعاد يسأل : فهل رَضِيَتْ بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة ؟ قالوا : نعم ... قال : لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطيَ لما منع !

بل هذه الطيبة التي لا تخلو من دهائها هي التي ظهرت منه حين هاجر ابنه مع النبي عليه السلام فأقبل على أحفاده يسألهم : ما ترَكَ لكم بعد هجرته من المال ؟ وهي التي ظهرت منه حين ذهب ابنه يُنفق من ماله لإعتاق الأرقاء الذين عذبهم المشركون فكان يقول : لو أنك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقت رجالاً جُلداً يمنعونك ويقومون دونك ؟ ويقول له ابنه : يا أبت إني أريد ما عند الله .

ثم عاش الأب الصالح حتى قُبض ابنــــه العظيم فرد ميراثه منه إلى أحفاده وسال حين بلغته وفاته وهو يقول : رزء جلل ، رزء جلل . فمن ولى الأمر بعده ؟ قالوا : عمر ؛ قال صاحبهُ ... يعني صاحب الأمر أو صاحب الصدّيق ، في إيجاز كافٍ كإيجاز ابنه العظيم .

كثير مما في أبي بكر من هذا الأب الصالح :طيبة في يقظة في استقامة، ويزيد عليه ابنه في كل وصف حميد ..

الصِّدِّيق الأوّل والخليفة الأوّل

في رواية من أشهر الروايات عن مرض النبي صلى الله عليه وسلم أن مُؤَذِّنه بلالاً جاءه يوماً ، وقد اشتد به المرض فقال عليه السلام :

مُروا أبا بكر فليُصَل بالناس .

قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ! إن أبا بكر رجل أسِيف ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس . فلو أمرت عمر ؟

فقال عليه السلام مرة أخرى : مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فعادت عائشة تقول لحفصة : قولي له : إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس . فلو أمرت عمر ؟

فأعادت حفصة ما قالته لها عائشة .

وضَجِر عليه السلام من هـــذه المراجعة ، فقال : إنّكُنَّ أنتنَّ صواحب يوسف . ثم قال لثالث مرة : مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وروى عبد الله بن زمعة أنه خرج من عند النبي، فإذا عمر في المسجد

وأبو بكر غائب . فقال : يا عمر . قم فصل بالناس . فتقدّم فكبّر ، وكان رجلا مجهراً . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته سأل : فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون .

ولام عمر عبد الله بن زمعة قائلا : ويحك ! ما صنعتَ بي يا ابن زمعة ؟ والله ما ظننتُ حين أمرتني إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بذلك . ولولا ذلك ما صلّيت بالناس .

قال ابن زمعة : والله ما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتُك أحقّ مَن حضر بالصلاة بالناس .

وموضع العجب في هذه الرواية تردد السيدة عائشة رضي الله عنها في تبليغ أمر النبي بإقامة أبيها مقامه في الصلاة ، وقد تكرر الأمر أكثر من مرة .

فهذا التردد عجيب من وجوه :

عجيب أن تتردد في تبليغ أمر محمد عليه السلام ، وهو الزوج المحبوب والنبي المطاع .

وعجيب أن تتردد في تبليغه ، وهو تشريف لأبيها بمقام كريم تتطاول إليه الرقاب .

ويزيده عجباً أن يحدث في شدة المرض والنبي مجهد يطلب الراحة ، وهي أشد نسائه سهراً عليه في مرضه ، وأرعاهم له بما يريحه ، ويخفف الجهد عنه .

نعم إن عائشة رضي الله عنهـــا كانت أكثر الناس دالّة على النبي وأجرأهم على مراجعته ، والتلطف في إبلاغه ما يتَهَيَّب القوم أن يبلغوه فلئن كانت هي أولى الناس أن تطيعه وتبلغ أمره ، لقد كانت كذلك تعلم من مكانتها عنده ما يُبيح لهـــا أن تراجعه وتأمن غضبه ، لدالّتها عليه وثقته من مضمر حبها له وامتثالها لأمره .

إلا أنها قد بلغت مكان الدالة عند رسول الله بما لها من صفات كثيرة غير الصَّباحة والجمال ، وأول تلك الصفات فرط الذكاء ولطافـــة الحس وحسن التقدير .

وخليق بمن كانت في مثل ذكائها ولطافة حسها وحسن تقديرها أن تفطن إلى الجد في ذلك الموقف العصيب ، وفي ذلك البـــلاغ الخطير ..

وهيهات أن تتردد يومئذ عن دلال في غير موضعه ، ولأسباب غـير السبب الذي يمكن أن يوحي إليها ذلك التردد، ولا بدّ له من سبب عظيم .

ولقد كان له سبب عظيم .

بل هو أعظم الأسباب التي يمكن أن توحي إليها ذلك التردد ، ولولاه لما أقدمت عليه .

وما نحسب أن شيئاً حفظته الروايات التاريخية لنا عن ذكاء السيدة عائشة يدل على قوة ذلك الذكاء ، كما دل عليه ترددها في ذلك الموقف العصيب .

يكفي أن نستحضر اليوم ما قيل عن الخلافة بعد النبي عليه السلام لنعلم مبلغ ذلك الذكاء العجيب في مقتبل الشباب و'نكبر ذلـــك النظر الثاقب إلى أبعد العواقب ، ونلتمس لها العذر الذي يَجمُـل بامرأة أحبها محمد ذلك الحب وأعزها ذلك الإعزاز .

فقد قيل في الخلافة بعد النبي كثير :

قيل فيها ما يخطر على بال الاكثرين ، وما يخطر على بال الأقلين ، وما ليس يخطر على بال أحـــد إلا أن يَجمحَ به التّعنت والاعتساف أغرب جماح .

قيل : إن وصول الخلافة إلى أبي بكر إنما كان مؤامرة بين عائشة وأبيها !.

وقيل : إنه كان مؤامرة بين رجال ثلاثة أعانتهم عائشة على مـــا تآمروا فيه ، بما كان لها من الحظوة عند رسول الله ، وكان هؤلاء الرجال على زعم أولئك القائلين أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ، وهم الذين أسرعوا – من المهاجرين – إلى سقيفة بني ساعدة ليُدركوا الأنصار قبل أن يتفقوا على اختيار أمير أو خليفة لرسول الله .

وقيل : إن هؤلاء الرجال الثلاثة اتفقوا على تعاقُب الحكم واحـداً بعد واحد: أبو بكر فعمر فابوعبيدة ؛ ولهذا قال عمر حين حضرته الوفاة: لو كان أبو عبيدة حيًّا لعهدت إليه لأنه أمـين الأمة ، كما قال فيه رسول الله ، وهذا زعم روّجه بعض المستشرقين ولَقِيَ بين القراء الأوربيين

كثيراً من القبول، لأنه شبيه بما عهدوه في أمثال هذه المواقف من أحاديث التدبير والتمهيد وروايات التواطؤ والائتمار .

فالسيدة عائشة مسعودة الحظ لامرَاء ، لأنها لم تخالف محمداً قط في أمر خطير ، وحين خالفته أو ترددت في تبليغ كلامه في أمر من أخطر الأمور ، كان هذا التردد أدَلّ على مكانتها وفضلها وعلى استحقاقها لمنزلة الإيثار في ذلك القلب العظيم .

فهي قد ترددت لتُبرىء نفسها من القالة ، وتُبرىء ذلك الموقف الخطير من المَظَنّة ، وتبرىء الخلافة من أسباب الادعاء ، وقد يكون فيها إضعاف وإيذاء .

وأشهدت على نفسها أولى الناس بالشهادة في ذلك الموقف الخطير حفصة بنت عمر رضى الله عنهما .

فإذا علمت حفصة أن عائشة راجعت رسول الله مرتين في تبليغ الأمر إلى أبيها أن يصلى بالناس ، فقد علمت ذلك مَن هي أحق بعلمه من سائر أمهات المسلمين ، إذ كان عمر رضي الله عنه أحدَ اثنين في حق الخلافة لا يُذكر أحدُهما إلا ذُكر الآخر ، كما ظهر ذلك من واقع الأمور ، أو كما ظهر من قول عبد الله بن زمعة لعمر : «حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق مَن حضر بالصلاة بالناس» .

فتردد عائشة في ذلك الموقف الخطير لم يضر بل نفع ، وكان أنفع من

إسراعها بالتبليغ ، وأول ما نفع به أنه أظهر رغبة النبي إظهاراً لا مجالَ للظنَّة فيه ، فكان ذلك من أدعى دواعي الاتفاق على الاختيار و قَطع السبيل على الفتنة والشقاق .

نعم إن رواية من الروايات تزعم لنا أن السيدة عائشة رضي الله عنها ترددت في التبليغ لأنها أشفقت أن يتشاءم الناس برؤية أبيها في مقام يُذكرهم بالخطر على أحب الناس إليهم في ذلك المقام ، وتلك سانحة يجوز أن تَسنح لها وهي أشد الناس إحساساً بذلك التشاؤم ووقعه في نفوس المسلمين . ولكننا إذا سلّمنا أنها رضي الله عنها قد تعمّدت الإبطاء في التبليغ ، فالسبب الذي أومأنا إليه آنفاً أولى وأليقَ بالمعهود من ذكائها وخلقها الكريم . لأنها لا تجهد النبي في مرضه ولا تفوّت على أبيها شرف الخلافة حذراً من التشاؤم وحده ، ثم هي لا تدعو حفصة إلى تعريض عمر لموقف تصون عنه أباها . فإن كان تعمُّدٌ للإبطاء في التبليغ فذلك السبب الذي أومأنا إليه آنفاً أحق الأسباب أن يَرجُح على غيره لتفسير ذلك الإبطاء ، فهو أدعى أن يَبطُل به العجب ولا يمتنع مع هذا أن يقترن بغيره من الأسباب .

* * *

ويقل العجب من تردد السيدة عائشة كلما ازداد العجب من تلك الفروض والأقاويل التي خاض فيها مَن خاض عن « مؤامرة » الخلافة المزعومة ، وليس لها سندٌ من التاريخ ، ولا من التفكير القويم ، ولا من

المعهود في أخلاق الرجال والنساء الذين عُزيت إليهم تلك المؤامرة بغير بَينَة قاطعة ولا ظن راجح .

فليس في شيء رواه الرواة عن الخلافة بعد النبي عليه السلام كلمةٌ واحدة تُرجِّح تلك الفروض والأقاويل ، سواء كان قائلها ممن أسرعوا إلى بيعة الصدِّيق أو تباطئوا في بيعته ، أو قضَوا حياتهم ولم يبايعوه .

وليس في شيء من خلائق أبي بكر وعمر وأبي عبيدة التي عهدها الناس منهم في حياة النبي أو بعد وفاته ما يأذن لمتوَهِّم أن يتوهم فيهم التآمر على خلافته وهو بقيد الحياة ، دون أن يطلعوه على جليلة أو دقيقة مما يفكرون فيه.

وليس في سيرة أبي بكر وعمر بعد أن وليا الخلافة ما ينم على طمع في السطوة ، وحرص على زَهو الملك يغريهما باستباحة ثقة النبي في حياته بما لا يليق.وهو عندهما بمكانٍ من التجِلَّة والحب لا تتطرق إليه الشكوك ولا ترتفع إليه الشبهات .

وعلى نقيض ذلك تَدُل الحوادث والروايات التاريخية على أن الأمر قد وقع منهم جميعاً موقع المفاجاة التي لم يتدبروا فيها إلا بعد وقوعها ، ولم يبرموا فيها الرأي على نَحوٍ من الأنحاء قبل اجتماع الأنصار بسقيفة بني ساعدة .

فالأقوال تتفق – أو تكاد تتفق ـ على أن أبا بكر لم يكن قريباً من

النبي عليه السلام يوم أمر النبي بلالاً أن يدعوه إلى الصلاة بالناس ، ولو كان بينه وبين السيدة عائشة إتفاقٌ في هذا الصدد لكان اقترابه من المسجد أو بيت النبي في تلك اللحظة لازماً كل اللزوم لإنجاز ذلك الاتفاق ، وإلا توجهت الدعوة إلى غيره وخرج الأمر من أيدي المتفقين .

وقد توفي النبي عليه السلام وليس في أصحابه الأقربين مَنْ كان يتوقع وفاته ، فتركه أبو بكر بعد الصلاة وهو يقول : يا نبي الله ! إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نُحب واليوم يوم بنت خارجة ، أفآتيها ؟

فأذن له النبي في الانصراف : وخرج أبو بكر إلى « السُّنح » حيث كان يقيم .

أما عمر فقد دهش لِنَعي النبي تلك الدهشة التي لم يكن لها على أُهبة ، ولو كان على أهبة لها لقد كان الأحْرَى أن يؤكد الوفاة ولا يستغربها ، تمهيداً لذلك الاتفاق المزعوم الذي سيتلوها .

وبلغ أبا بكر وعمر أن الأنصار مجتمعون في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة منهم ، فخرجا إلى السقيفة على غير اتفاق بينهما أيهما الذي يخاطب القوم . فكان عمر يخشى حِدّة أبي بكر فيهيىء في نفسه كلاماً يقوله ، وكان أبو بكر يخشى حدة عمر فيستمهله ويخاطب القوم قبله ، وليس في ذلك دليلُ اتفاق قديم .

وكان لقاؤهما أبا عُبَيدة يومئذ لقاء مصادفة في الطريق . وجاء في

رواية مشهورة أنّ عمر فاتح أبا عبيدة قبل ذلك فقال له : أبسط يدك فلأبايعك . فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله .فقال له أبو عبيدة: ما رأيت لك فهّةً [1] قبلها منذ أسلمت . أتبايعني وفيكم الصدّيق وثاني اثنين ! فإذا صحّت هذه الرواية فهي تنفي ما قيل عن تفاهم هؤلاء الرجال الثلاثة على مبايعة أبي بكر وتعاقب الخلافة بعده ، وقد يكون عمر فاتَح أبا عبيدة عازماً على مبايعته ، أو فاتحه لاستطلاع ما عنده من الرأي والرغبة ، فعلى كلتا الحالتين لا تفاهم مِن قبل على ذلك الرأي ولا اتفاق.

هكذا تَلقّى الصحاب الأجلاء نعي النبي ، وهكذا كانوا في أثناء شدة المرض عليه فمتى كان التفاهم المزعوم ؟ أقبل أن يمرض رسول الله يعقل عاقل أن يجتمع صفوة أصحابه والمؤمنين برسالته للتآمر على وراثته واغتنام موته ؟ إن جاز في عقل عاقل هذا ، فمن أدراهم إذن أن القرآن الكريم لا يوحي برأي في الخلافة غير الذي رَأوْه ؟ ومن أدراهم إذن ــ سلفاً ــ أن النبي عليه السلام يفارق هذه الدنيا ولا يُوصِي في أمر الخلافة بوصاة يشهدها الناس عامة وتخالف ما اتفقوا عليه ؟

إن الأمر لم يكن قابلا لأن يحصل فيه غير ما حصل ، بعد حسبان كل حساب ، واستقصاء كل فرض ، وتمحيص كل رواية .

ولم يكن فيه اتفاق مدَبّر على صورة من الصور ، وإنما هو كما قال

---

(١) الفهة : الزلة .

عمر رضى الله عنه : « إن بيعة أبي بكر كانت فَلْتة ... ألا وإن الله وقى شرها » .

وما حاجة الأمر إلى تمهيد وقد كان في غنى عن التمهيد ؟

لقد كان اختيار ابي بكر للخلافة « خيرة الواقع » الذي لا يحتاج إلى تدبير ، بل يقاوم كل تدبير .

فمن غير أبي بكر كانت تجتمع له الشرائط كما اجتمعت له ، وتتلاقى عنده الوجهات كما تلاقت عنده ؟

كانت تجتمع له شرائط السن ، والسبق إلى الإسلام ، وصحبة النبي في الغار ، والمودّة المرعية بين أجلاَّء الصحابة ، ومعظمهم ممن دخلوا في الدين على يديه.

وكانت أمَارات استخلافه ظاهرة من طلائعها الأولى قبل مرض النبي عليه السلام بسنوات . فكان أول أمير للحج بعث به النبي عليه السلام وهو بالمدينة . وكان ذلك سنة تسع من الهجرة ، واتفق في طريقه أنه دعا إلى صلاة الصبح فسمع رغوة ناقة وراء ظهره ، فوقف عن التكبير وقال: هذه رغوة ناقة النبي – صلى الله عليه وسلم – الجدْعاء فلعله أن يكون رسول الله فنصلي معه. فإذا علي ابن أبي طالب على الناقة . فسأله أبو بكر: أمير أم رسول ؟ قال: لا .بل رسول. أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم ببرَاءة أقرؤها على الناس . فلمّا قدموا مكة قام أبو بكر فخطب الناس محدّثا عن المناسك ، وقرأ عليٌّ سورة براءة حتى ختمها ،ثم كان يوم عرفة

فخطب أبو بكر وقرأ عليّ السورة، وهكذا حتى انتهت المناسك .

وكان قتال بين جماعة من الأوس فذهب النبي عليه السلام يُصلِح بينهم وقال لبلال: إن حضرت الصلاة ولم آت فمر أبا بكر فَليُصَلّ بالناس.

وأثبت البخاري عن جُبير بن مطعم أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجعَ إليه . قالت : أرأيت إن جئتُ فلم أجدك . . . كأنها تريد الموت . قال : إن لم تجديني فأتي أبا بكر .

وهذه أمارات مشهودة متفق عليها ، وغيرها أمارات شتى بعضها أصرح وبعضها أحوج إلى التأويل ، لا ضرورة لاستقصائها لأنها لا تبلغ في الجزم والتوكيد مبلغ ما قدمناه .

* * *

واقترنت بتلك الأمارات جميعاً أمارات أخرى لا تقل عنها صراحة وتواتراً تدل على رغبة قوية في اجتناب كل ما يُثير العصبية ، ويلبس الأمر على الجهلاء والمغرضين بين دعوة النبوة وطلب السلطان والاستعلاء .

فلا نحسب أن محمداً عليه السلام دل بعمله وقوله ومضامين رأيه على شيء واضح مطرد كما دل على هذه الرغبة القوية ، ولا ظهر منه الحرص على شيء كما ظهر حرصه على تنزيه النبوة من مطامع السيادة الدنيوية ومفاخر العصبيات .

فأبغض شيء كان إلى نفسه الكريمة قولُ من كانوا يقولون: إن النبوة تمهيد لدولة هاشمية أو وراثة دُنيوية .

ولهذا أثر عنه أنه لم يُولِّ أحداً من قرابته ولاية أو عمالة في مكة والمدينة أو في غيرهما .

بل لهذا أصهر إلى أبي سفيان ، واتخذ معاوية كاتباً للوحي ، وأمر يوم فتح مكة منادياً ينادي في الناس « ... من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن » ليمحوَ من نفوس بني أمية حزازة العصبية بينهم وبين بني هاشم ، ولا يدع في سرائرهم مجالاً للظن بأنها غَلَبة أسرة على أسرة ، أو بطن من قريش على سائر بطونها .

وقال عليه السلام : « ان هـذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه مـا اقاموا الدين » . ولم يقل « في بني هاشم » أو في بني عبد المطلب ، ولو شاء لقال .

ولا ريب أنه عليه السلام لم يُؤثر قريشاً بالأمر يومئذ لأنه يؤثر العصبية لبني قبيلته وقومه ، ولكنه آثرهم للحكمة السياسية البيِّنة التي لا يسهو عنها الهداة المسئولون عن مصائر الأمم في عصر من العصور . فقريش هم اصحاب السيادة في مكة وهي كعبة الإسلام وعاصمة الدول الإسلامية في ذلك الحين . ولن تفلح دولة يكون أهل العاصمة فيها أولَ الثائرين عليها والمنكرين لذويها .

ويغلب على اعتقادنا أنه عليه السلام ترك أمر الخلافة بغير وصية ظاهرة لأنه علم أن الخلافة مُنتهية إلى مثل ما انتهت إليه ، ولاسيَّما بعد تقديمه أبا بكر للصلاة بالناس .

ونص على « قريش » ولم يتجاوز ذلك لأنه علم أن قريشاً تتفق على مثل ما اتفقت عليه ، وأن الخلاف إنما يجيء – إن جاء – من جانب الأنصار أهل المدينة . فالحاجة ماسّة إلى هذا التخصيص لدفع الخلاف المنظور ، ومع هذا التخصيص اللازم وصية مكررة بإكرام الأنصار أوصى بها المسلمين بعده ، وهي وصية معناها الواضح في هذا المقام أنه عليه السلام كان يترقب أن تَؤُول الخلافة إلى المهاجرين فهم الذين تتجه إليهم الوصية بإكرام مثوى إخوانهم الأنصار، ولولا ذلك لما اتجهت الوصية لفريق منهما دون فريق .

ونقول إن النبي علم بمصير الخلافة على الوجه الذي صارت إليه ، لأننا لا نستطيع أن نفهم أنه عليه السلام ترك هذه المسألة وهو يتوقع فيها الفشل والفتنة ولم يُبرم فيها حكماً يدفعهما به ما استطاع .

فإذا انحصرت الخلافة يومئذ في قريش فهي صائرة إلى أبي بكر دون غيره ولا حاجةَ إلى تدبير لن يغيِّر مصير الأمور .

وإلا فكيف كانت الخلافة صائرة إلى غير ما صارت إليه وهي محصورة يومئذ في قريش ؟

وإلى من كانت تصير ؟

إن الذين تولوْها بعد أبي بكر من صحابة النبي هم عمر وعثمان وعلي ومعاوية . فأي هؤلاء كان أظهر حقًّا وأقرب طريقاً وأدنى من الصدّيق إلى اتفاق المسلمين عليه ؟

أهو عمر ؟ لقد كان أصغر من أبي بكر بنحو عشر سنين ، ولم تكن له سابقة في الإسلام وفي صحبة النبي ، ولم تكن ألفةُ الناس له كألفتهم لأبي بكر ، وليس هو بأقوى عصبة منه بين بطون قريش ، وليس هو بالذي يَشغَب على أبي بكر ويعصيه لطمع في الخلافة إذا تقدم إليها بل كان هو أول من بايعه وحثّ الناس على بيعته . وقال له : أنت أفضل مني . فقال أبو بكر : وأنت أقوى مني . فعاد عمر يقول : وإن قوتي لك مع فضلك ، وكان هذا فصل الخطاب ومرجع الاختيار الذي لا تفويتَ فيه لفضل ولا قوة ، ولا تضييع فيه لفرصة أبي بكر التي لا فرصة بعدها . أما عمر فله بعد ذلك فرصته حين يأتي أوانها .

أفكانت تصير إذن إلى عثمان بن عفان ؟

إن عثمان رضي الله عنه أسلم على يدي أبي بكر ، وقد كانت معه عصبية بني أمية وهي عصبية قوية ، ولكن زعامة تلك العصبية كانت في يد أبي سفيان يومَذاك ولا طريقَ له إلى الخلافة وإن طمع فيها . وتنزه عثمان مع هذا أن يركن إلى تلك العصبية ليزاحم أبا بكر في حق لا ينكر ولا يَنفسَه عليه .

أفكانت تصير إذن إلى علي بن أبي طالب ؟

إنما كانت تصير إليه بحجة بني هاشم وهي الحجة التي اتقاها النبي جهده كما قدمنا ، وكان بنو هاشم مع هذا لا يتفقون على اختيار واحد من رؤسائهم الثلاثة العباس وعلي وأخيه عقيل ، ولم يكن عليٌّ بعد هذا وذاك قد جاوز الثلاثين إلا بسنوات قلائل ، وهي عَقَبة من العقبات التي لا يسهل تذليلها في أمة ترعى حق السن ومكانة الشيوخ إلا بوصية ظاهرة من النبي عليه السلام. ولم تكن هناك وصية من هذا القبيل كما اتفق عليه كل سنَد وثيق .

أفكانت تصير إذن إلى معاوية بن أبي سفيان؟

ما نحسب أن معاوية نفسه قام بخلده أن يرشح نفسه لخلافة النبي في تلك الآونة . ولو توافرت له السن وتوافرت له الذرائع التي تقربه من ذلك الأمل لآثرت قريش بالمبايعة كل بطن من بطونها غير بطن بني أمية ، لأن الخلافة في بني أمية معناها دولة بني أمية ، لاستطاعتهم بالخلافة وقوة العصبية أن يفرضوا دولتهم على سائر البطون وسائر القبائل ... أما الخلافة في بني تَيم ، رهط أبي بكر ،فهي خلافة قريش كلها ومعهم جميع المسلمين ، لتعذر قيام الدولة ببطن واحد من البطون الصغيرة واحتياج الحاكم إلى اتفاق هذه البطون من حوله . ويقال مثل ذلك في بني عَدِيٍّ رهط عمر ، وفي سائر البطون القرشية ما عدا هاشما وأمية .

فإذا كان انتخاب أبي بكر للخلافة هو رأي قريش الذي لا محيدَ

عنه ، وهو نِيـّة النبي التي ظهرت من أعماله وإشاراته ، فما الحاجة إلى التدبير بين السيدة عائشة وأبيها ، أو بين الرجال الثلاثة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ؟ ومن أين ياتي تخيل التدبير ولا موجب له من الفروض ولا من الإسناد ؟

ربما كان الدليل الذي هـو أقطع من كل دليل على نفي التدبير المزعوم أن نُقَدِّرَ أن التدبير لم يحصل قط فماذا كان يحصل بعد امتناعه — أكان يقع في مسالة الخلافة شيء غير الذي وقع ؟ وما هو ؟ ومـــا حيلة التدبير في منعه ؟

فإن كان الجواب أن التدبير وتركْ التدبير يستويان ، وأن الحـاجة إليه لا تخطر على بال عاقل ، ففي ذلك غِنًى عن الأدلة الأخرى التي تنقضه وتُلقِي به في مراجم الظنون والأوهام .

نظر النبي إلى ذلك كله بالبصيرة الثاقبة التي تكشف له ما لا ينكشف لغيره ، فسكت بالقدر اللازم ، وأشار بالقدر اللازم ، وعلم أنه قد أشار بما فيه الكفاية ، وأن ما زاد على ذلك فهو زيادة على الكفاية .

وما نشك لحظة في أنه عليه السلام قد أحاط بكل ما يحاط به في هذه المسالة خلال مرضه وقبل مرضه ، وقـــد اطمأن إلى كل ما يوجب الاطمئنان في تقديره ، وأنه لو رأى حاجة إلى المزيد من التصريح بالقول القاطع لصرّح وقطع بالقول ، لأننا لا نستطيـع أن نفهم أنه عليه السلام

يترك الإسلام والمسلمين عرضة للفشل والفتنة ثم لا يدفع ذلك بما في وسعه. فاكتفاؤه بما صنع هو الدليل على علمه بما سيحدث واستغنائه عن المزيد من التدبير.

وقد نظر عليه السلام – ولا ريب – إلى كل ما يستحق النظر في مسألة الخلافة وهو يرشح لها أبا بكر ذلك الترشيح الأبوي الذي يؤنس بالرأي ولا يُقحمه على القلوب.

نظر إلى حق أبي بكر كما نظر إلى مصلحة المسلمين.

فحق أبي بكر في قيامه مقام النبي ظاهر ما فيه خلاف، ولا موجب لِتخطيه إلى غيره على وجه من الوجوه.

ومصلحة المسلمين في ولايته راجحة في كل حساب، لأن المسلمين كانوا يومئذ أحوجَ إلى عهد يكون امتداداً لعهد النبي حتى يحين وقت التوسع والتصرف، وأحوج إلى ألفة غير مخشية ولا منفوسة تعوضهم من طاعتهم للنبي بتعاونهم على النصيحة والمودة. وكل أولئك ميسور لأبي بكر قبل تيسره لغيره من جِلّة الصحابة الأقربين. فهو في حرْص شديد على الاقتداء بالنبي حرفاً حرفاً وخطوة خطوة لن يكون عهده إلا امتداداً للعهد النبوي حتى تتغير الاحوال فتأذن بالتغيير، وهو في ألفته واجتماع القلوب إليه خير من يخلف الطاعة بالمودة، ويعالج الفرقة والانقسام بالرفق والتؤدة. فإن جدّ ما يدعو إلى التصرف أو يدعو إلى الشدة فهناك الأعوان المخلصون له وللدين، وهناك المشيرون الذين يقلبون

الرأي على جميع الوجوه : فضله مع قوتهم وقوتُه مع فضلهم ، نعم العون ونعم الكفيل باجتماع أسباب الحول والحيلة ، كما ألمــع إلى ذلك عمر ابن الخطاب.

ثم حانت الساعة التي تهيأت لها مشيئة القدر وتهيأت لها مشيئة الناس على ذلك النحو المستقيم .

فتم في يوم واحد كل ما ينبغي أن يتم في يوم .

ولاح للوهلة الأولى أن الخطر عظيم وأنه موشك أن يعصف بكل شيء وأن يخرج على كل سواه .

إذ اجتمع الأنصار يتحدثون بحقهم في الخلافة دون المهـــاجرين ، وهمّت الفتنة أن تنطلق بغير عنان في طريق لا تُعرف عقباه ، ولكنها فتنة مكبوحة قُدِّر لها ألا تقوى على الانطـــلاق من باب السقيفة التي نَجَمت فيها .

فكان سعد بن عبادة زعيم القوم مريضاً لا تؤاتيه في ذلك اليوم حركة النفس التي لا غنى عنها في ذلك المقام ، لأنهـــا تعدي بالهيبة والثقة من يستمعون إليه . فحملوه من بيته إلى السقيفـة وهو لا يملك زمام عزمه ولا يقدر على الكلام ، فجعل يخاطبهم بلسان القريبـــين منه وجعلوا يصغون إليه إصغاءهم إلى مريض يشعرون بضعفه لا إلى زعيم يشعرون بقوته وبأسه .

وكان القوم فريقين متنافسين منذ زمن قديم ، وهم الخزرج والأوس وبينهما ملاحاة دائمة تهون معها كل ملاحاة بين الأنصار والمهاجرين .

وكانت يقظة عمر وأصحابه أسرع من فتنة القوم . فبلغوا السقيفة في إبّانها وعالجوا الأمر حق علاجه ، وقال كل منهم كلمة كانت أنفذ من سهم وأقهر من جيش . قال أبو بكر : « إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفَسَتَهْ عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ، ولا تدين العرب لغير هذا الحي من قريش ... نحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تُقضَى دونكم الأمور » وقال عمر : « إن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم » . وقال أبو عبيدة : « يامعشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزَر فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر » .

ونادى أبوبكر القوم : هذا عمر وهذا ابو عبيدة فأيها شئتم فبايعوا . فقال عمر وقال أبو عبيدة مثل مقالته : « لا والله ! لا نتولى هذا الأمر عليك . فإنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك .

ابسط يدك نبايعك .

فبايعه زعيم من الأوْس ، بشير بن سعد ، وهو يقول : « كرهت أن

أنازع قوماً حقا جعله الله لهم » وقال النقيب أُسَيدْ بن حُضير : « والله لئن وليتْها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم نصيباً أبداً فقوموا بايعوا ... » .

وبايع عمر وأبو عبيدة فكأنما بايع المهاجرون معهما ، ولم يبق للخزرج الحاضرين عزمُ خلاف ، فتزاحموا على البيعة حتى أوشكوا أن يطئوا زعيمهم المريض ، وماتت الفتنة في مهدها لأنها ولدت بعلّة الموت .

ولدت بعلة الموت فماتت وما اصطدمت بأكثر من ثلاثة رجال ، لم يستعدوا لها بأكثر من استعداد الساعة . بل لعلهم أفلحوا في القضاء عليها لأنهم كانوا أولئك الثلاثة بعينهم ولم يكونوا جمعاً حاشداً من المهاجرين المناظرين فلاحوا للقوم هداة ينصحون ولم يلوحوا لهم غزاة يقتحمون، وكان ذلك أدعى أن يستمعوا إليهم كما يستمعون إلى الضيف الناصح دون أن تثار فيهم نخوة الغاضب لذِماره ، المطروق عليه في عُقْر داره.

ولو أن سعد بن عبادة كان صحيحاً غير مريض ، وكان الأنصار حزباً واحداً غير منقسم ، وكان المهاجرون الثلاثة متخلفين عن الموعد الحاسم ، أو كانوا غير أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، أو كانوا جمعاً كثيراً يَحفِز العداء والمقاومة ، لجاز أن يتغير مجرى الأمور وأن يكون للتاريخ الإسلامي شان غير شانه الذي عرفناه .

ولكننا نخطىء كثيراً إذا نسينا فضل الأنصار أنفسهم فيما صارت

إليه الأمور ، فقـــد كانت لهم فيه مشيئة مستورة إن لم تقل مشيئة ظاهرة .

كانوا على الأرجح يقضون حق المجاملة لسعد بن عبادة ولا ينوون الزيادة أو يَجِدون في الكفاح لانتزاع الخلافة : كانوا مسلمين قبل كل شيء ولم يكونوا طلاب مُلك قبل كل شيء ، وكانوا يحسون ما أحسه المسلمون جميعاً إذ قالوا : إن النبي قد ائتمن أبا بكر على الدين بتقديمه للصلاة فكيف لا يؤتمن على الدنيا ؟ وكانوا يعلمون أن المهاجرين مقدَّمون في القرآن على الأنصـــار : «والسَّابِقُونَ الأوَّلونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ والَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بإحْسَانٍ » . فلم يكن إيمانهم بحقهم في الخلافة إيمان مَنْ يغضب لفواتها ويستميت في طلبها ، ولم يكن حرصهم على السلطان أشدَّ مِن حِرصهم على الدين ومصلحة المسلمين ، ولم يكن أملهم فيها إذا نازعتهم قريش عليها بالأمل الذي يطغى على كل تفكير ، فما هو إلا أن أشار بعضهم إلى منازعة المهاجرين حتى قالوا : « منا أمير ومنهم أمير » قبل أن تستفيض بينهم حجج المهاجرين . ثم تمت البيعـــة فلم يعودوا إلى تَمَحل الاسباب للخروج على صاحب الأمر كما يفعل كل حريص على السلطان لَجُوج فيه .

فهم ولا ريب أصحاب مشيئة فيما صارت إليه الأمور ، على هذا النحو من المشيئة التى قد يجهلها صاحبها وهي حاضرة .

وهم ولا ريب إخوان يطلبون حقّاً في الإرث المشروع إن ثبت لهم

حق فيه ، وليسوا بأعداء ينظرون إلى أسلاب العدو ويستحقونها بالغلبة عليها ، كائنة ما كانت ذريعتهم إليها من حق أو باطل .

على أنهم لو كانوا غير ذلك وكان نزاعهم إلى السلطان نزاعاً طاغياً لا يبالون فيه بالحقوق والحرمات لبطل في هذا النزاع كل تدبير سابق لأبي بكر وصاحبيه ، ولكان مآل الفتنة إلى حكم الواقع الذي لا تغني فيه الخطط السابقة ولا العظات البالغة . إذ قصارى التدبير من أبي بكر وصاحبيه أن يجمعوا حولهم كلمة قريش ورؤسائها وبطونها . فأما أن يُخضعوا بالتدبير من لا يخضع لغير السيف ، وأن يدفعوا بالاتفاق بينهم ما ليس له دافع ، فذلك هو المحال بعينه ، أو ذلك هو الاتفاق على أناس خارجين من نطاق الاتفاق .

وصفوة القول أن خلافة أبي بكر كانت نتيجة لكل مقدمة سبقتها مَن فعل الحوادث ، أو من فعل أحد عامد أو غير عامد .

وغير هذه الخلافة ما كان ليكون ، إلا الفتنة التي لا يجدي فيها اختيار هذا ولا اختيار ذاكَ ، ولا يُغني فيها تدبير ولا تقدير .

ولسنا نُحب أن يُفهم من هذا أن أحداً من كبار الصحابة كان يعاف الخلافة ولا يَسره أن يُختار لهذا المقام العظيم،وأن يراه الناس أهلاً للاضطلاع بعبئه الجسيم . فخلافة النبي شرف لا يأباه أحد يحبه ويعظمه ويتتبع خطاه ، وأقل من هذا المقام الأسنى كان حقيقاً عند الصحابة أن

يستشرفوا له ، ولا يكتموا طموحهم إليه . جاء أهل نجران إلى النبي عليه السلام فقالوا : «ابعث لنا رجلاً أميناً فقال : لأبعثن إليكم أميناً حق أمين » فاستشرف لها الناس . فبعث أبا عبيدة بن الجراح .

وروى أبو بكر هذه القصة حيث قال : « قدم إلينا وفد نجران فقالوا : يا محمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويُعطيناه . فقال : والذي بعثني بالحق لأرْسلَنَّ معكم القوي الأمين » فما تعرضت للإمارة غيرها . فرفعت رأسي لأريَه نفسي ، فقال : قم يا أبا عبيدة .

ولقد ساء أبا بكر بعد مبايعته الأولى أن ينقبض أناس عنه فظهر منه الاستياء حيث قال : « أيها الناس ! ألست أحق الناس بها؟ ألست أول من أسلم ؟ » .

وغير ذلك – أيضاً – لم يكن ليعقله العقل ولا بالذي يجمل بالكريم ، فكل رجل كريم يسوءه أن ينقبض أناس عنه وهو جدير منهم بغير الانقباض .

ولكن الغبطة بالخلافة شيء والاحتيال لها بالحيلة والدسيسة شيء آخر ، فهذا الذي نُنكره لأننا لم نجد دليلاً واحداً عليه ، ووجدنا أدلة كثيرة على نقيضه .

كذلك دبر أبو بكر وأصحابه كلما يُحمد تدبيره بعد قيامه بالخلافة لتوطيد أركانها وحماية الإسلام غوائل عصيانها والتمرد عليها ، وجهدوا أن يفرقوا كل اجتماع يخشون مَغَبَّته على وحدة المسلمين . فاقترحوا على

العباس بن عبد المطلب أن يجعلوا له نصيباً يكون له ولعَقِبه من بعده ليمنعوا الاتفاق بينه وبين علي ابن أخيه ، إن سعى إليهما من يسعى إلى التأليب والتخريب ، كما هَمّ أبو سفيان أن يفعل باسم البطون القوية في قريش : بني هاشم وبني أمية ، وصنع أبو بكر وأصحابه نظائر ذلك في سبيل الوحدة العربية والجماعة الإسلامية ، ولكن الذي صنعوه هو التدبير الواجب الذي لا يضير ، وقد يكون في تركه ضير كبير .

لقد كان أبو بكر الخليفة الأول لأنه كان الصديق الأول ، ولأن شروط الخلافة التي اجتمعت له لم تجتمع لأحد غيره ، وليس له من منازع فيها بين أهل عصره ، ولأن المزايا التي قد يَرجحه بها أنداده وقرناؤه لا تضيع على الإسلام بولايته عليهم ومعونتهم إياه . فكان اختياره أصح اختيار عُرف في تاريخ الولاية ، وكانت التوفيقات فيها غنية عن التدبير والتمهيد . فإن لجّ بعض المكابرين مع هذا في دعوى التدبير فأنعِم به تدبيراً ينقطع به الخلاف ، ويتم به أصح استخلاف .

صِفَاته

كان أبو بكر في جملة ما وصفوه به أبيض تخالطه صفرة ، وسيماً ، غزير شعر الرأس ، خفيف العارضين ، ناتِىء الجبهة ، غائر العينين مَعروق الوجه ، نحيفاً مسترخي إزاره عن حِقْوَيْه [1] حمش الساقين [2] ، ممحوص الفخذين خفيف اللحم في سائر جسمه .

وكان أجنأ ـ أي منحني القامة ـ وقيل في وصف آخر : إنه حسن القامة لا يُلحظ عليه انحناء ، ولعله كان كذلك أيام الشباب ، ولم يرد في أخباره وصف قاطع عن الطول والقصر ، ولكنه على ما يؤخذ من بعض تلك الأخبار كان أميل إلى القصر ، ولا سيَّما أخبار الهجرة مع النبي عليه السلام .

فقد جاء في خبر الهجرة أن النبي عليه السلام « كان على بعير ، وأبو بكر على بعير ، وعامر بن فهيرة على بعير ، فكان رسول الله صلى الله عليه

---

١ ـ الحقو : موضع شد الإزار وهو الخاصرة ٢ ـ دقيق الساقين خلص من الاسترخاء .

وسلم يثقل على البعير فيتحول عنه إلى بعير أبي بكر ، ويتحول أبو بكر إلى بعير عامر ويتحول عامر إلى بعير رسول الله صلى الله عليه وسلم .. »

فكان هو أخف من عامر بن فهيرة .

وكان عامر بن فهيرة أخف من رسول الله عليه السلام .

وكان رسول الله كما علمنا من وصفه ربعة في الرجال فوق القصير ودون الطويل ، ولم يكن بيِّن الامتلاء ، بل معتدلاً لا إلى السمن ولا إلى النحافة ، فلو كان أبو بكر رضي الله عنه أطول من الربعة لما كان أخف كثيراً من رسول الله ، وأخف كذلك من عامر بن فهيرة ، بحيث يظهر الفرق بينه وبينهما في حركة البعير الذي يتعاقبون ركوبه .

أما صفاته الخلقية فقد اتفقت فيها أقوال واصفيه ، ودلائل أعماله في الجاهلية والإسلام ، فكان أليفاً ودوداً حسن المعاشرة ، وكان مطبوعاً على أفضل الصفات التي تتألف له الناسَ فيألفونه ، ومنها التواضع ولين الجانب . فلم يتعال على أحد قط في جاهليته ولا في إسلامه ، وكان في خلافته أظهر تواضعاً منه قبل ولايته الخلافة . فإذا مدحه مادح قال: اللهم أنت أعلم مني بنفسي ، وإذا سقط منه خطام ناقته وهو راكب نزل منها ليأخذه ولم يأمر أحداً بمناولته إياه . وبلغ من بغضه الخُيلاء أنه كان يبغضها حتى حيث يغتفرها الناس من ربات الحجال . فدخل يوماً على السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تمشي وتنظر إلى ذيل ثيابها

فقال : يا عائشة ! أمـا تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قالت : ومم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العُجْب بزينة الدنيا مقَته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فلما نزعت تلك الزينة التي أعجبتها فتصدقت بها قال : عسى ذلك يكفر عنك .

ولم يكن تألّفه الناس محْض َمجاملة باللسان مما يستسهله معظم المشهورين بالتودد والمجاملة ، ولكنها كانت ألفة النجدة والكرم والسخاء، فكان كما قال ابن الدُّغنة لقريش، وقد همّ أبو بكر أن يهجر بلده: « أتُخرجون رجلاً يُكسب المعدوم ويَصل الرحم ويحمل الكلّ ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق ؟ »

فهو ودود كريم لا يضن بماله وجاهه في سبيل الكرم والسخاء .

ومع هذه المودة وهذه الألفة كانت فيـه حِدَّة يغالبها ولا يستعصي عليه أن يكبح جماحها . ووصف بها نفسه ووصفه بها أقرب الناس إليـه وأصدقهم في وصفه . فقال في خطبة من أوائل خطبـه بعد مبايعته : « . . . اعلموا أن لي شيطاناً يعتريني فإذا رأيتمـوني غضبت فاجتنبوني . . »

وقال عمر بن الخطـاب : « وكنت أداري منه بعض الحد — أي الحدة — » وذلك حين أعدّ كلاماً يقوله في سقيفة بني ساعدة ، مخافة أن يحتدّ أبو بكر في ذلك المقام .

وسئل عنه ابن عباس فقال : « كان خيراً كله على حدّة كانت فيه ».

إلا أنها كانت حدة تنم على سرعة التأثّر فيـــه ، فإذا لم تكن غضباً يغالبه ويكبحه فهو سريـع التأثر إلى الرحمة والرفق في جملة أحواله ، يميل إلى الحزن والأسى ويعطـف على الحزين والأسْوان ، أو كان كما وصفته عائشة رضي الله عنها : « غزير الدمعة وقيذ الجوانـــح [(١)] شجي النشيج » ... « أسيفاً متى يقم مقامك ـ تخاطب رسول الله ـ لا يسمع الناس ».

***

وكان في جاهليته وإسلامه وقوراً جميل السّمْت يغار على مروءته ويتجنب ما يريب . فلم يشرب الخمر قط لأنها مُخلّة بوقار مثلِه ، وسئل: لم كان يتجنبها في الجاهلية. فقال: « كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي ، فإن من شرب الخمر كان مُضيّعاً في عقله ومروءته » ، ومن مروءته أنه كان يتقي كل مــــا يورده موارد الشبهات . دعاه رجل في الجاهلية أن يستصحبه لحاجة يُعينُه عليها ، فرآه يمر في طريق غير التي يمر منها فسأله : أين تذهب ؟ هـــذه الطريق !.. قال الرجل : إن فيها أناساً نستحي منهم أن نمر عليهم . قال رضي الله عنه : تدعوني إلى طريق

---

١ ـ الوقيذ الجوانح : المحزون القلب .

نستحي منها ؟ ما أنا بالذي أصاحبك .

وكان لمروءته يتحاشى السقَط من الكلام ، فلا يتكلم إلا أن يدعوه داع إلى قولة خير فيقولها إذن ويصدق في مقاله . ومن وصاياه لبعض عماله : « إذا وعظتهم فاوجز فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً »

وقد اشتهر بالصدق في الجاهلية والإسلام ، فكان « ضامن » قريش المقبول الضمان . لا يعد أحداً إلا وفى وصدّق الدائن والمدين . ووكلت إليه الديات والمغارم فلم يكن يحمل شيئاً منها إلا اطمأن إليه الناس ، فإن احتملها أحدٌ غيره خذلوه ولم يصْدُقوه .

وما امتحن صدقه بشيء إلا كان صدقه أثبت وأقوى . فخطب رسولُ الله ابنته عائشة حين ذكرتها له خوله بنت حكيم . وكان المطعم ابن عديّ قد خطبها قبل ذلك لابنه ، فقال أبو بكر لزوجه أم رومان : « إن المطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه والله ما أخلف أبو بكر وعداً قط ... » ثم أتى مطعماً وعنده امرأته ، فسأله : ما تقول في أمر هذه الجارية ؟ فاقبل الرجل على امرأته ليسألها : ما تقولين ؟ فاقبلت هي على أبي بكر تقول : لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تُصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه . فلم يجبها أبو بكر وسأل المطعم بن عدي : ما تقول أنت ؟ فكان جوابه : إنها تقول ما تسمع .

فتحلل أبو بكر عند ذلك من وعده ، ولم يتحلل منه قبل ذلك على

ما في نسب الرسول من شرف، ومـــا في قلبه من إعزاز له يفوق كل إعزاز .

وكانت شجاعته كفاءة صدقه ووفائـه بوعده : سواء منها شجاعـة الرأي وشجاعة القتال . فلما أسلم لم يبال أن يعلن إسلامـــه وأن يجهر بصلاته ودعائه ، يصيبه في ذلك ما يصيب ، ولمـــا وجب القتال كان هو أقرب المقاتلين إلى رسول الله في كل غزوة وكل مأزق من مآزق الجلاد ، وانهزم كثير من الشجعان في بعض الملاحم الحازبة ، ولم تذكر له قط هزيمة في ساعة من ساعات الشدة ، ولا ثبت نفر قط حيث يصعب الثبات إلا كان هو بين أول الثابتين . ولم تكن وقعـة قط أشد على المسلمـين من وقعتي أحد وحنين ، ولّـى فيهما مَن ولّـى واستشهد من استشهد وتردد في صفوف العسكرين أن الرسول عليه السلام كان بين المستشهدين . فذعر الضعيف وقال القوي : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله ...

ففي وقعة أحد ــ أشد هاتـــين الوقعتين ــ كان أبو بكر في طليعة الثابتين ، ونظر إلى حلقة من درع قد نشبت في جبين صديقه وصفيه و نبيه فشغله أن يصاب هذا المصاب ، وانكب عليهـــا لينزعها ، لولا أن أقسم عليه أبو عبيدة ليسبقنه هو إلى نزعها ، فجذبها بثَنِيَّته جذباً رفيقاً حتى نزعها وسقطت ثنيته .

***

وعلى هذا الحظ الوافر من المزايا الخلقية كان له قسط محمود من المزايا العقلية التي يمتاز بها ذوو الأقدار من أهل زمانه ، فقيل فيه وفي صاحبه أبي عبيدة : إنهما « داهيتا قريش » . وأثر عنه أنه كان أسرع الناس إلى الفطنة لما يوحي به النبي عليه السلام بالتلميح دون التصريح . ومما جاء في الحديث الشريف عن علمه وفطنته أنه عليه السلام قال :

« كأني أعطيت عُساً [1] مملوءاً لبناً فشربت منه حتى امتلأت ، فرأيتها تجري في عروقي بين الجلد واللحم ، ففضَلت منها فضلة فأعطيتها أبا بكر . قالوا : يا رسول الله ! هذا علم أعطاكه الله ، حتى إذا امتلأت فضلت فضلة أعطيتها أبا بكر . قال صلى الله عليه وسلم : قد أصبتم » .

***

وكان لأبي بكر حظ وافر من الملَكة الروحية إلى جانب ما عنده من هذه الملكة الذهنية ، وتلك الملكة الخلقية ، ونعني بالملكة الروحية ما نسميه اليوم بيقظة الضمير .

ومناط الضمير أن يرعى الإنسان حق غيره، وأن يُحْسِنَ ولايسيء، وهي خصلة كانت ملحوظة في أبي بكر من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالدين الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر ، ويدعو إلى اتباع الحق واجتناب الباطل . فلما جاء هذا الدين بَنَى منه على أساس قديم ، وبلغت به نفسه

---

(١) العس : الإناء الكبير أو القدح الكبير

قصارى ما تبلغه نفس طيبة من رعاية حقوق الناس: ومن كلف بالخيرات وسخط على الشرور.

قال ربيعة الأسلمي: «جرى بيني وبين أبي بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها وندم، فقال: يا ربيعة! ردّ عليَّ مثلها حتى يكون قصاصاً. قلت: لا أفعل! قال: لتقولن أو لأستعدِيَنَّ عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: ما أنا بفاعل. فانطلق أبو بكر وجاء أناس مِنْ أسلَم فقالوا لي: رحم الله أبا بكر، في أي شيءٍ يستعدي عليك وهو الذي قال لك ما قال؟ فقلت: أتدرون من هذا أبو بكر الصديق؟ هذا ثاني اثنين، وهذا ذو شيبة في الإسلام. إياكم لا يلتفت فيرا كم تنصروني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه، فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة. وانطلق أبو بكر وتبعته وحدي حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحدثه الحديث كما كان. فرفع إليَّ رأسه فقال: يا ربيعة! مالك والصديق؟ فقلت يا رسول الله: كان كذا وكذا، فقال لي كلمة كرهتها، فقال لي قل كما قلت حتى يكون قصاصاً فأبيت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجلْ لا ترد عليه، ولكن قل: قد غفر الله لك يا أبا بكر..»

وهو يكره أن يسيء لأنه يكره أن يُساء، ويعلم ما تُوقعه الإساءة في النفس من ألَم يغلبها على الحلم والأناة حتى في المحضر الذي تُراض فيه على غاية الحلم وغاية الأناة.

بينا رسول الله جالس ومعه أصحابه وَقع رجل بأبي بكر فآذاه ، فصَمتَ عنه . ثم آذاه الثانية فصَمَت عنه . ثم آذاه الثالثة فانتصر منه . فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر. فقال : أوَجدْت عليّ يا رسول الله؟ فقال رسول الله : نزل ملك من السماء يكذبه بما قال ، فلما انتصرت وقع الشيطان .

ولا شك أنه درس من الدروس النبوية يداوي به نوازع الحِدة في صاحبه الأمين ، لأنه كان يهيئه لأمر عظيم : أمر ينبغي لمن تولاه أن تؤلمه إساءته إلى الناس فوق ألمه لإساءة الناس إليه .

ومن يقظة الضمير فيه أنه لم يطق أن تستقر في جوفه لقمة يشك في ما تاها : فكان له مملوك يغِل عليه ، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة . قال المملوك : مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ قال : حملني على ذلك الجوع ... من أين جئت بهذا ؟ فأنبأه المملوك أنه مرَّ بقوم كان يَرقِي لهم في الجاهلية فوعدوه ، فلما أن كان ذلك اليوم مرّ بهم فإذا عرس لهم فاعطوه ذلك الطعام !

قال الصديق : إن كدت لتهلكني .

وأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ ـ وجعلت اللقمة لا تخرج ـ فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء ...

فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها .

قيل له : يرحمك الله ! كل هذا من أجل لقمة ؟ فقال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها .

وما نحسب أن يوماً مرَّ به دون أن يُطيع فيه داعي الإحسان، وسليقة البر والمودة سُئل عنها أو لم يُسأل .

فكان من عادة النبي عليه السلام أن يسأل أصحابه حيناً بعد حين عما ابتدروه من الخيرات فلا يكتموه شيئاً لأنه يسأل ويريد أن يجاب ، ليُتبع جوابهم عظة من العظات ، أو يعقبه بحديث يؤثرونه عنه .

صلى النبي ذات صباح فلما قضى صلاته سأل : أيكم أصبح اليوم صائماً ؟

قال عمر : أما أنا يا رسول الله فقد بت لا أحدِّث نفسي بالصوم ، وأصبحت مفطراً .

وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، بت الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم ، فاصبحت صائماً .

ثم سأل النبي : أيكم عاد اليوم مريضاً ؟

قال عمر : إنما صلينا الساعة ولم نبرح ، فكيف نعود المريض ؟

وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله . أخبروني أن أخي عبد الرحمن بن

عوف مريض وجع ، فجعلت طريقي عليه ، فسألت عنـــه ، ثم أتيت المسجد .

ثم قال النبي : فأيكم تصدق اليوم بصدقة ؟

قال عمر : يا رسول الله . ما برحنا معك مذ صلينا فكيف نتصدق !

وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، دخلت المسجد ، فإذا سائل يسأل وابنٌ لعبد الرحمن بن أبي بكر معه كسرة خبز ، فأخذتها فأعطيتهـــا السائل .

فقال النبي : فأبشر بالجنة . أبشر بالجنة !

لا جَرَم يقول عمر : ما سابقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني اليه .

ولا جرم يقول عليّ : هو السبّاق . والذي نفسي بيدِه ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا اليه أبو بكر .

***

لقد وصف لنا الصديق بأوصاف نستطيع أن نعيدها اليوم بما ألفْناه من أساليب العصر فنراها على وفاق لحقائق تلك الاوصاف ودلالاتهـــا ، وذلك أبْـين البيّـنات عن صدق ما وصفوه به في الجاهلية أو الاسلام .

فمن جملة الملامح والسمات التي وُصف بها يتبين لنا أنه كان من أصحاب

المزاج العصبي الناشئين في وراثة كريمة ، فهو عصبي كريم النزعات والطوايا .

ولا يندر في أصحاب هذا المزاج أن يتميزوا بحدّة الذكاء وسرعة التأثر والطموح إلى المثل العليا والحماسة لما يعتقدونه ، والتعلق بما يؤمنون به ويصدقونه ، والتقدم في العقائد والدعوات .

بل هذا هو الغالب فيهم ، كما نشاهد اليوم في كل دعوة دينية أو اجتماعية أو سياسية ، لن تخلوَ من إناس في مزاج أبي بكر وخلائقه الجسدية والنفسية ، ينصرونها ويتشبثون بها ويؤمنون بدُعاتها ولا ينكصون عن سبيلهم أو سبيلها .

وإذا كان الرجل من بيت من بيوت الشرف والوجاهة فشأنه ـ إذ يكون على هذا المزاج ـ أن يعتصم بالوقار ودواعيه ، وأن يستزيد من خلائق الصدق والمروءة التي رُكّبت فيه .

ولم يكن أبو بكر على علمنا صاحب « الشخصية الباطشة » التي تروع الناظر إليها لأول وهلة .

ولم تكن سيادة بيته سيادة جبارين يملكون الناس بالباس والسطوة.

فسبيله إذن أن يعتصم بصدقه ومروءته ليحفظ بهما كرامة الشرف الذي ينتمي إليه ، وأن يستزيد من ذلك الصدق وتلك المروءة بما يزيدهما

في التمكين و يُملي لهما في الثبات والرسوخ، وأن يتجنب فلتات الطبع واللسان و يتنزه عن كل مخلّ بالوقار مُزْر بالصيان ، لأن وقاره وصيانه هما الحجاز القائم بينه وبين كل مهانة واستخفاف ، ولو كان باطش المظهر أو باطش السيادة لقد يستغني عنهما بعض الاستغناء في بعض الأحيان. أما وهو بعيد من البطش في مظهره وسيادته فليس من شانه أن يغفل عن سمْت الوقار والمروءة طرفة عين .

وقد عرف الصديق بالحدة وهي أيضاً من خلائق هذا المزاج التي يُغالبها مَن يحرصون على وقارهم ومروءتهم أن يستهدفا لجرائر الحدة أو يندفعا في غير عمل حميد .

إلا أن يُمس الرجل فيما هو من أخص الخصائص التي يقوم عليها مزاجه وتستقيم عليها عاداته وسماته فعندئذ تعسر المغالبة وتبرز الحدة من مكمنها ، وهي على حق إذن في بروزها .

لهذا نرجع الى حوادث أبي بكر في الحدة والصرامة على خلاف عادته من الرحمة والألفة ، فإذا هي كلها مما يمس الصدق والتصديق أو يمس الإيمان ، أو يجري مجرى الاستهزاء الذي يمس الوقار .

بلغ أقصى ما بلغ من غضب وحدة في عقاب الفُجَاءة بن إياس ابن عبد ياليل . وبقي طوال حياته يندم على حدته في ذلك العقاب ..

وماذا صنع الفجاءة حتى هاج منه تلك الحدة التي يغالبها أقوى مغالبة؟

أثاره في مكمن الثورة فيه ..

كذبه الأمانة ، وخدعه وخدع المسلمين، وقتل من قتل من الآمنين، وقلما غضب إنسان كما يغضب الصادق لصدقه المخدوع ، ولا سيما الخديعة التي فيها غدر وسفك دماء .

جاءه يطلب سلاحاً ليحارب به المرتدين ، فأخذ السلاح وحارب به المسلمين الآمنين ، وعاث في الطريق ينهب ويسلب ويهدر الدماء ، فلما وقع في الأسر لم يجزئه عنده إلا أن يقذف به في النار .

وجاء له رجل من أحبار اليهود اسمه فنحاص في الآية : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً » فقال فنحاص مستهزئاً بالله والنبي : « لو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطيناه ! » .

هذا هو الاستهزاء .

وهذا هو المساس بالإيمان .

وكلاهما لا يطيقه الرجل المؤمن الوقور وتغلبه فيه الحدة إن هو غلبها في غير ذلك من الأمور .

ولقد عاش أبو بكر ما عاش أليفاً مؤلفاً لقومه ، محبا محبوباً فيمن حوله ، رحيماً بالغرباء فضلاً عن الأقربين وفضلاً عن الأبناء ، إلا أن

هذا الرجل الرحيم الأليف نهض الى مبارزة ابنه ودعا عليه بالهلاك حين شهد الحرب مع المشركين ، ورأى البرّ به ـ غاية البر ـ أن ينهض هو لمبارزته ولا يدعه لأحد غيره من المسلمين .

كان ذلك يوم بدر ، وكان ابنه عبد الرحمن من أشجع الشجعان بين العرب ، ومن أنفذ الرماة سهماً في قريش . فتقدم الصفوف يدعو إلى البراز ، وقام أبوه يجيب دعوته ، لولا أن استبقاه النبي عليه السلام ، وهو يقول له : متّعني بنفسك .

ولما أسلم عبد الرحمن قال لأبيه : لقد أهدفت لي يوم بدر فَضِفْتُ عنك ـ أي عدلت عنك ـ ولم أقتلك ، فقال أبوه : لكنك لو أهدفت لي لم أضِف عنك .

وهكذا نعلم أين تبدر الحدة وأين تبدر الصرامة من خليقة أبي بكر المسالم الوديع ، فحيثما روى راوٍ أنه احتد أو اشتد فلنعلم عن يقين أن في الأمر شيئاً يمس التصديق والإيمان ، أو يمس المروءة والوقار ، فلا تأتي الحدة أو الشدة يومئذ في غير موضعها من الطبيعة التي ولد بها ومَرَنَ عليها .

رجل له خصائص المزاج العصبي في البِنْيَة الدقيقة
ورجل من عنصر كريم وأرومة طيبة
ورجل له قدم في السيادة واعتصام بالوقار والمروءة .

فكل ما روي عنه فهو موافق لهذه الخصال، منتظم في هذه الخصائص، معقول في هذا التركيب في الُخلُق والخليقة ، وهو من ثمَّ دليل على صحة الوصف وصحة السيرة على الإجمال .

ولن يكون هذا الرجل على هذا التكوين إلا كما وصفوه ونقلوا عنه: حديد الطبع ، مستمسك الخلق ، سريع التأثر ، قوي العاطفة ، محبّاً للاعتقاد ، حَمِساً في اعتقاده ، صادقاً في وعده ، كما نستطيع أن نعرف ممن طُبعوا على هذا المزاج ونراهم بيننا رأي العين ، أو نعرفهم على السماع معرفة اليقين .

ونحن فيما نتوخاه من المضاهاة بين أوصاف السابقين وأوصافنا نحن المعاصرين إنما نريد أن نُفضي إلى المقياس الصحيح للتصديق أو التكذيب، والمحك الصالح للتشكيك أو التغليب . فإذا كانت الاوصاف التي نقرؤها مطابقة للأوصاف التي نعقلها والتي نعهدها فذلك هو برهان الصحة في كل مقياس .

وإنه لمن واجبنا في عصرنا هذا أن نقضي على آفة العصر التي أوشكت ان تغلب فيه على كل آفة ، وهي الظن الشائع بين المتفيهقين والمتهجمين أن البراعة كل البراعة في التكذيب ، وأن الجهالة كل الجهالة في التصديق ، وليست الجهالة كلها في الحقيقة هنا ، ولا البراعة كلها في الحقيقة هناك ..

فكثيراً ما تكون الغفلة في التكذيب أعظم من الغفلة في التصديق ،

وكثيراً ما يكون بخْس الشيء الثمين أدل على الغباء وأضيع للمنفعة من إغلاء الشيء البخس ، في تسويم التجارة أو تسويم الضمائر والعقول .

خذ مثلا لذلك حسنات أبي بكر اليومية التي ساله عنها النبي عليه السلام ، فاتفق في يوم سؤاله عنها أنه كان قد أهداها جميعاً على وجه من الوجوه ..

تلمح على وجه المتفيهق المتشكك مسحة التردد وهو يتابع ذلك الخبر كانه مما لا يجوز ولا يتكرر على هذا المنوال .

فإذا سالته : لم التردد وفي وسعك أن تبلغ بالخبر إلى مقطع اليقين ؟ لم تقف هنا ولا تتابع الطريق إلى منتهاه ؟ إنك لتعلم إذن ان التردد سخف حين يكون اليقين منك على مد اليدين تتناوله إن شئت متى مددتهما إليه ..

ماذا يكون إن صدقنا الخبر؟

وماذا يكون إن كذبناه ؟

إن صدقنا الخبر فكل ما هنالك أن إماماً في الدين مطبوعاً على الكرم والكرامة قد جرى على سنة نبيه وهاديه ، فاصبح صائماً وعاد مريضاً وتصدق على فقير بكسرة خبز وجدها في يد حفيده .

وليس هذا بممتنع ، بل هذا أقرب الأشياء أن يقع، ولاسيما إذا أضفناه

إلى جملة أخبار أبي بكر من إحسانه في الجاهلية والإسلام ، ومن إنفاقه المال كله في سبيل الخير حتى مات وهو فقير .

فإن كذبنا الخبر فماذا يتقاضانا تكذيبه من جهد للعقل واعتساف للتفكير والتخمين ؟

إن كذّبناه وجب أن نعتقد أن أبا بكر رضي الله عنه قد أجاب النبي عليه السلام بغير الحق ، وأنه يتجافى صدق المقال في أقمن المواضع بصدق المقال ، فلو جاز أن يكذب على كل إنسان لما جاز أن يكذب على الرجل الذي صدقه ، وخاطر بالمال والبنين والحياة في سبيل تصديقه . فمن الذي يقبل هذا الفرض ولا يرى أن كل فرض دونه أدنى إلى القبول ؟

ومن الذي يعقل ثم يخيل إليه أن العقل يميل به إلى هذا التكذيب ولا يميل به إلى ذلك التصديق ؟

ونقول : إن هذا جائز لنتمادى مع التفهيق إلى أقصى مداه فما الذي يتقاضانا جوازه مرة أخرى من جهد واعتساف ؟

يتقاضانا أن نقبل شيئاً يقرب من المستحيل .

إن الرجل الذي يجترىء على الكذب في هذا المقام لا ينطبع على الصدق ، ولا يخفى كذبه على الناس ، فكيف به وهو مشهور بالصدق في كل ما قال ، والوفاء بكل ما وعد ؟ وكيف به وهو مشهور بالصدق في

شؤون الضمان والمغارم ، وهي شؤون لا يخفى التدليس فيهـــا إلى زمن طويل ؟ وكيف به وهو مشهور بالصدق قبل أن يدين بالدين الذي يحضه عليه ؟

أيجوز أنَّ أكذَب الـكاذبين ، بأمر الدين وبغير أمر الدين ، يشتهر بانه أصدق الصادقين ؟

تصديق هذا غفلة أدعى إلى السخرية من كل غفلة ! ولا سيما إذا لجأ الإنسان إليها فراراً من القول بأن إماماً شبيهاً بالأنبياء يصوم أيامه ويعود مرضاه ويعطي مسكيناً كسرة من الخبز ، وهو قد أعطى الألوف وأنقذ المعسرين وضَمِن من ليس له ضمان .

وعلى هذا النحو نتوخى التصحيح والترجيح فيما ناخذ به من أوصاف هؤلاء العظماء . أقرب المقاييس إلينا أن يكون تكذيب الوصف أصعب من تصديقه في تقدير العقل والبديهة ، وفيما نعهده اليوم من حقائق هذه الأوصاف .

وكذلك أوصاف الصديق كما نقلها الناقلون وكما يفهمها اليوم الفاهمون ، فإن الأقدمين ذكروا أوصافاً متفرقة لم يقصدوا أن نجمعهـــا نحن ، ولا قصدوا بعد جمعها أن نعرضها على علم النفس ووقائع الحياة ، كما وضحت لنا بمصباح العلم الحديث .

ولكننا جمعنا تلك الأوصاف وعرضناها على علم النفس فوجدنا بينها

ذلك التناسب الذي يقضي بتصديقها ، وينفي الظنة عن استقامتها في جملتها .

فابو بكر كما وصفوه رجل لا محالة من أصلاء المزاج العصبي النابتين في منبت الشرف والمروءة ، وقد قالوا : إنه كان يجود بماله ، ومثل هذا الرجل خليق أن يجود بماله ، وقالوا : إنه يحتد ويعطف ، ومثل هذا الرجل معهود في حدته وعطفه ، وقالوا : إنه يروض نفسه على السمت[1] والكرم ، ومثل هذا الرجل لا يستغني عن هذه الرياضة ولا يعجز عنها ، وقالوا : إنه يشتد في اعتقاده ، وليس فيما شهدناه وخبرناه أشد من اعتقاد مثله .

قالوا ذلك فلم يقولوا عجباً ولم يقل أحد ما ينقضه وينفيه وله حجة فيه .

فإذا كانت للعقل أمانة فالأمانة في تقرير هذه الأوصاف كما فهمناها بالاستقراء وكما رواها الرواة في مُجمل الأنباء ، وإذا كانت للعقل مهانة فمهانة العقل أن نعطله عن فهم حقيقة ماثلة ، لغير شيء من الأشياء .

---

(١) السمت : الاعتدال والوقار .

مِفْتَاح شَخصِيَّتِه

كان أبو بكر كما رأينا رجلاً عصبي المزاج دقيق البنية ، خفيف اللحم صغير التركيب .

تكوين يغلب على أصحابه أحد أمرين : إن كانوا من كرام النحيزة[1] فهم مطبوعون على الإعجاب بالبطولة ، والإيمان بالأبطال .

وإن كانوا من لئام النحيزة فهم مطبوعون على الحسد والكيد ، وهما ضرب من الإعجاب المعكوس يؤدي إليه انعكاس الطبيعة ، والإحساس بالعظمة في غير معاطفة بينهم وبينها ولا ارتياح إليها .

فالحسد هو إعجاب اللئيم عند شعوره بالعظمة ، أو هو التحية التي يؤديها اللئيم الى العظمة حسبما عنده من التواء وارتكاس[2] .

---

(١) النحيزة : الطبيعة (٢) ارتكس : وقع في أمر

ولهذا يصح أن يقال : إن أصحـــاب البنية الدقيقة والمزاج العصبي مطبوعون على الشعور بالعظمة على حال من الأحوال ، فإن كانوا كراماً شعروا بها مغتبطين مؤيدين، وإن كانوا لئاماً شعروا بها محنـقين مُتَبـّطين، ويندر فيهم جداً من يشذ عن هذه أو تلك من الخصال .

ولقد كان أبو بكر رجلاً كريماً أليفاً من أهـل الخير والمودة ، فلا جرم كان الإعجاب بالبطولة طبعاً متأصلا فيـــه ، مقروناً بكل ما في الإعجاب من حب وثقة وإيمان ، ولا جرم كان هـذا الإعجاب « مفتاحاً لشخصيته » مفسراً لكل ما يلتبس من أعماله ، مميزاً لكل ما يتشابه بينه وبين غيره من الصفات .

قلنا في كتابنا عن « عبقرية عمر » : إن مفتاح الشخصية « هو الأداة الصغيرة التي تفتح لنا أبوابها ، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابه والأغراض . فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فاذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق » .

وقلنا : « وليس مفتاح البيت وصفاً ولا تمثيـــلاً لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخائلها ، ولا تزيد » .

فشخصية الصديق لها مفتاح قريب المتناول وهو هذا المفتاح ، مفتاح

الإعجاب بالبطولة .

وهذا الإعجاب بالبطولة هو الوَسْم الذي يتسم به كل عمل من أعماله وكل نية من نياته ، وهو السر الذي نراه كامناً في كل رأي يرتئيه وكل قرار حاسم يستقر عليه .

والإعجاب بالبطولة في التاريخ الإنساني شيء عظيم ؛ ليس بعد البطولة منزلة يشرف بها الإنسان أشرف من منزلة الإعجاب بها والركون إليها . لأن الفضيلتين معاً لازمتان جنباً الى جنب في كل أمر جليل تم في تاريخ الإنسان ، وكل طور من اطوار التقدم ارتقى اليه .

وليقل أصحاب التحليل العلمي ما يشاءون .

وليقل أصحاب القياس المنطقي ما يحبون .

فشاءوا أو لم يشاءوا ، وأحبوا أو لم يحبوا ، لقد تم بغير التحليل العلمي وبغير القياس المنطقي كثير من العظائم في تاريخ الإنسان، ولم يتم قط — ولن يتم فيما نرى — أمر عظيم واحد بغير البطولة وبغير الإعجاب بالأبطال .

لها برهانها من الواقع كبرهان الأقيسة المنطقية والتجارب العلمية . فالرجل الذي ينهض له البرهان النفساني على الثقة ببطل من الأبطال فيثق به ويعينه على عمله ليس بالرجل الذاهب على غير هدى أو الآخذ بغير دليل . كلا . فعمله ونتيجة عمله كلاهما برهان يغنيه عن مصنع التحليل

وعن قضايا المنطق ، ويغني العالم كذلك عنها إذا نظرنا الى العمل ثم نظرنا إلى النتيجة ، و نظرنا قبل هذا وبعد هذا الى طبائع الإنسان .

خذ لذلك مثلاً حديث الأعاجيب التي سمعها أبو بكر في أيام الدعوة المحمدية فصدقها لأنه يصدق صاحبها ويركن اليه .

هبه قد ثاب إلى معمل التحليل فقال له المعمل إنه لم يسمع بأمثال هذه الأعاجيب ، وليس لديه مسبار لها يصلح للتأييد أو التفنيد .

وهبه قد ثاب إلى قضايا المنطق فقالت له : إنها لاتعرف هذه الأقيسة ولا هذه المقدمات ولا هذه البراهين.

وهبه قعد في مكانه بعد هذا وذاك ، لأن معمل التحليل لا ينشط به إلى الحركة في هذا الطريق ، ولأن قضايا المنطق لا تزجيه إلى الجهاد في هذا الميدان ـ أفكاسب هو إذن ؟ أفعاقل هو إذن ؟ أفحق ما انتهى إليه وما انتهت اليه الجزيرة العربية من جراء سكونه وإحجامه ؟

إن الجزيرة العربية لا تربح شيئاً بذلك التمحيص المزعوم ، وإن العالم الإنساني لا يزيد عقلا ولا علماً ولا تحليلا ولا قضايا منطق بذلك الإحجام الذي استقر عليه . وإن أبا بكر لن يكون خيراً من أبي بكر ، والدنيا لن تكون خيراً من الدنيا ، والتفكير لن يكون خيراً من التفكير ، بل كلٌ من أولئك فاقد وخاسر ومنقوص .

وقصارى ما في الأمر أن رجلاً شك فلم يعمل شيئاً ، ولم يدر أحد بأنه شك ولا بأنه لم يعمل ، ولم ينتفع عقل الإنسان بما كان .

أفيفهم فاهم من هذا أننا نقول : إن العمل على خطأ خير من الشك على صواب ؟

كلا !.. ليس هذا ما نقوله ، وليس هذا ما نحن مضطرون إلى قوله بضرورة من الضرورات .

وإنما نقول : إن الشك إذن هو الخطأ ، وان برهان خطئه نفساني يقام له وزنه كما يقام الوزن للتحليل العلمي والقضايا المنطقية ، وإنما الخطأ أن تحوج البطولة إلى الدخول في المعمل لتثبت لك قدرها ،وتثبت لك حقها في الإعجاب، وحقها في العمل ، وحقها في تحويل تاريخ الإنسان ثم تثبت لك قدرتها عليه !

ليس المعمل محل هذا .

محل هذا نفس الإنسان .

وساءت الدنيا إن كانت نفس الإنسان لا تغنيه في تقويم النفوس، ولا سيما أعظم النفوس .

أفلا يروعني البطل إلا خلال الأنابيق والأنابيب ؟

أفلا تملكني نخوة الإعجاب إلا بوثيقة من إيساغوجي ؟

أفيروقني الطائر المنطلق فاعلم لمَ يروقني،ويتراءى لي الروح العظيم

فأقول: مكانك حتى أرجع إلى مائدة التشريح أو الى قارورة الكيمياء ؟!

ما قال ذلك قائل قط أمام روح عظيم .

والسبب واضح مستقيم ..

السبب أن الروح العظيم كان قبل ان تكون مائدة تشريح وقارورة كيمياء ، وأن الإنسانية ألهِمت خيراً ألا تؤجل الإعجاب بكل روح عظيم إلى أن يظهر المشرحون والمحللون .

ليظهروا « على مهلهم » ولتاخذ العظمة الروحية حقها من الاعجاب قبل إذنهم ، فلا مناقضة للعلم ولا للمنطق في ذلك . إنما المناقضة أن نعلق دوافع النفوس وبواعث الفطرة على شيء لا تتعلق به ولا تتوقف عليه ، ولا نخطيء الواقع ثم نخطيء الواقع الصالح ولا سند لنا أوثق من الواقع على كل حال ، ولا شفاعة أكرم من شفاعة الواقع الصالح في كل مآل .

أفيقولون إن البديهة قد تخطيء في الإعجاب ؟

قد تخطيء ولا جدال ..

ولكن كذلك يخطيء العقل ، وكذلك تخطيء التجربة ، وكذلك تخطيء العلوم وتمضي في خطئها مئات السنين . ولم يقل أحد أن قبولها للخطأ ينفي قبولها للصواب ، ولا نسي أحد أنها إذا أخطأت مرة فلها امتحان من العواقب يأبى على الخطأ أن يدوم .

على أن تمحيص القضايا المنطقية أو العلمية شيء وتمحيص الشمائل

النفسية شيء آخر . وربما كانت وسائل الصديق أقل من وسائل المحللين والمشرحين في العصر الحاضر في باب القضايا المنطقية أو العلمية . أما في باب الشمائل النفسية فوسائله ليست بأقل من وسائلهم بحال، وقدرته على أن يُحس من حوله عظمة النفس الإنسانية ليست بأقل من قدرة أحد من المحللين والمشرحين .

وهو قد قال : هـــذه نفس عظيمة لا شك في عظمتها ، فالخير في متابعتها ، إن لم يكن بد من افتراق الطريق بينها وبين أعدائها.

وهو فيما قال قد أصاب .

أصاب منطقاً وأصـاب علماً وأصاب حسّاً وأصاب بكل مقياس من مقاييس الصواب .

هو فيما قال أصوب ممن يخالفه رأياً ، ولو استند إلى كل حجة من حجج التحليل والتشريح .

وهاديه فيما اهتدى إليه هو إعجابه بالبطولة ..

وهو إعجابه بالبطولة التي تستحق الإعجاب ، لأن الإعجاب طبقات تتفاوت، كما أن البطولة نفسها طبقات تتفاوت. وقد كان هو من طبقات هذا الإعجاب في أرفع مكان . .

لأنه لم يعجب ببطل تروعه منه سطوة العُتاة المتجبرين ، ولم يعجب ببطل تروعه منه مظاهر الزخرف والخيلاء ، ولم يعجب ببطل تروعه

منه جلبـَة الصيت الفارغ والمواكب الجوفاء ، ولم يعجب ببطل يزدهي بالوَفـْر والثروة أو بالعُصْبة أولي القوة .

لا . لم يكن شيء من هذا هو الذي راعه من بطولة محمد عليه السلام ، لأن محمداً عليه السلام لم يكن ذا سطوة ، بل كان عرضـــة للأذى من المسلطين عليه ، ولم يكن من أصحاب الزخرف والخيلاء بل كان أعداؤه هم أصحاب الزخرف والخيلاء . ولم يكن وراءه أحد يتبعه ولا معه مال يصل به من يصل إليه ، بل كان وحيداً يطرده الأكثرون ، فقيراً يعينـه الموسرون ، وأولهم أول صدّيقيه والمقبلين عليه .

إنما البطولة التي أعجب بهـا أبو بكر هي البطولة التي ليس أشرف منها بطولة تعرفها النفس الإنسانية : هي بطولة الحق ، وبطولة الخير ، وبطولة الاستقامة ، وهي بعد هذا ، وفوق هذا ، بطولة الفـــداء ـ يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء .

تلك هي بطولة محمد .

وذلك هو إعجاب الصدّيق . خير لبني آدم أن يبقى لهم هذا الإعجاب من أن يزول ويبقى بعده كل شيء ، وأي شيء !

***

ولقد أجدى ذلك الخلق الكريم أكبر جدواه لأنه تهيأ له بسليقتـــه ونشأته وتوشّج تركيبه عليه .

فظهر منه في إيمان القلب، وروِيّة الفكر، وفي سياسته العامة، وفي سياسته الخاصة، وما تشتمل عليه من أدب سلوك وعلاقة بالناس.

أحاط به أناس من المشركين يتهكمون به ساخرين عابثين: هل لك إلى صاحبك؟ إنه يزعم أنه أُسْريَ به الليلة الى بيت المقدس!

وكان أناس قد ارتدوا بعد إسلام لما سمعوا بحديث الإسراء ولم يتبيّنوه، فاما أبو بكر فما زاد على أن قال: أوَ قد قال ذلك؟ لئن قال ذلك لقد صدق!

فغاظهم منه أنهم لم يبلغوا منه موقع التشكيك فيما أرْبى عندهم على حدود التصديق، وعادوا يسالونه: أتصدق أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يُصبح؟

قال: نعم! إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء في غدوة أو روحة. ثم ذهب إلى النبي عليه السلام فطفق يسمع منه ويصدقه ويقول: أشهد أنك لرسول الله.

وهذا هو البرهان النفساني كما دعوناه، وهو برهان لا خلل فيه من وجهته التي يستقيم عليها، وإن لم يكن هو البرهان الذي تعوده المناطقة والعلماء.

وهنا موضع صالح للتفرقة بين هذه البراهين في ظواهرها، وللتوفيق

بينها فيا تنتهي إليه من نُشدان الحقيقة الكبرى :

إني لأصدقه فيا هو أبعد من ذلك من خبر السماء .

وفحوى ذلك : إني لأصدقه لأنه أهل للتصديق .

هذا هو أساس الإقناع في منطق الإعجاب والإيمان، فإن كان للمنطق أو للتجربة العلميـــة أساس آخر ، فليس معنى ذلك أن الأساسين متناقضان متدابران ، وإنما معناه أنهما نحوان مختلفان .

ولكننا إن فرضنا مع هذا أنهما قد تناقضا وتدابرا فليس الخطأ إذن في جانب الصديق ، ولكنـــه على التحقيق في جانب العالم أو المنطيق .

إن قال العالم أو المنطيق : إنني لا أصدق حديث الإسراء ولهذا أبطل الدعوة الإسلامية وأبطل قبلها العظمة المحمدية ، فهو المخطىء في برهانه وهو الذي تعدى به حدود قياسه ..

لأنه نظر إلى المسألة في غير جانبها الذي يُنظر إليه ، من حيث كان أبو بكر على صواب كل الصواب في نظرته إليها من جانبها الأوفى ، أو جانبها الذي هو مناط التأييد والإنكار .

أبو بكر يأخذ النفس العظيمة مأخذاً واحداً ويصدق الخـــبر فيها جملة واحدة ولا يجزئها قطعة قطعة وخبراً خبراً ، فيبطلها كلها بخبر من أخبارها وجزء من أجزائها .

وأبو بكر ينظر الى المسالة في أساسها فيطمئن إليها عند ذلك الأساس ويبني عليه كل ما فوقه من الإضافات والمزايدات ، والمسالة في أساسها هنا هي مسألة الصلاح والفساد ، ومسالة التوحيد وعبـــادة الأصنام . ومسالة المقابلة بين الاخلاق الجاهليـــة والاخلاق التي تأمر بها الدعوة بالمحمدية ، ومسالة الثقة بالمقاصد العظيمة والمساعي الكريمة . أو الثقـــة الجهل الشائع والعادات الذميمة.

فإذا كان أبو بكر قد نظر إلى هذا الاساس فهو المصيب .

وإذا كان العالم هو والمنطيق لم ينظرا إليـــه فهما المخطئان، وهما المقيمان للقياس على غير أساس قويم . إذ كان خليقاً بهما أن ينظرا إليه ولا يغفلا عنه وهو أولى بالتقديم والاعتبار ، سواء أخذناه بالإحساس والإيمان ، او بالتجربة وبالتفكير.

تُرى لو مَثُل العالم والمنطيق والصديق أمام عرش « الحق » السرمد بعد ذلك اليوم بعشر سنين فسالهم فاجابوه كل على ما أجملنا آنفا، فأيهم كان يسخطه وأيهم كان يرضيه ؟

يمثُل العالم أو المنطيق بين يدي الحق فيساله: ماذا سمعت قبل عشر سنين ؟

فيقول: سمعت مُن رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقـــدس فلم أظفر منه ببرهان .

فيسأله : فماذا صنعت بعد ذلك ؟

فيقول: كذّبته و صدقت المشركين ، ثم نقضت الدعوة الإسلامية و بقيت حتى اليوم على سنة الجاهلية .

فما يختلف اثنان إذن في الجواب الذي يلقاه ذلك العالم أو ذلك المنطيق، ليقولن الحق له إذن : إنك أخطأت وخالفت العلم والمنطق فيما صنعت لأن تلك المقدمة لا تنتهي بك إلى تلك النتيجة ، وحديث الإسراء على أيّ معنى فهمته لن يجعل النفس العظيمة لغواً ، ولن يجعل عملها العظيم مستحقًّا للإبطال .

ويمثل الصدّيق بين يَدَي الحق فيسأله: ماذا صنعت قبل عشر سنين ؟

فيقول : سمعت من رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقدس فلم أشك فيما رآه .

فيسأله : ولِم لمْ يخامرك الشك فيه ؟

فيقول : لأنني صدقته في أمر السماء فما يكون لي أن أكذّبه فيما دون ذلك .

فيسأله : فلم صدقته في أمر السماء ؟

فيقول : لأنني أعتقد فيه الخير ولا أعتقد فيه السوء ، ولأنني أعتقد السوء في منكريه ولا أعتقد فيهم الخير .

ليقولَن الحق له إذن : إنك أصبت وتأدَّيت إلى التصديق من طريق صالح للتصديق ، ووافقت المنطق والعلم أخـــيراً وإن لم تأت معهما في الطريق ، وإن هذه السنين العشر لتشهد لك بصدق الوعي ولا تشهد بـه لمن خالفوك : أخذت في المنطق والعلم بالنتيجة ولم تبال بالمقدمة ، وأخذ المخالفون إياك بالمقدمة ولم يبالوا بالنتيجة . فأنت في سبيلك أهدى وأنت إلى المنطق والعلم أقرب وأدنى .

أفيفهم فاهم من هذا أننا ندين بقول القائلين : إن النجاح هو برهان الصلاح ؟

كلا ! ليس هذا ما ندين به ، وليس هذا بالذي يقتضيه مـا قدمناه ، وكل ما هنالك أننا نقرر حقيقة لا شك فيها حين نقول : إن أبا بكر كان أفهم للعظمة المحمدية ممن أنكروها لأنهم شكوا في حـديث الإسراء ، وإن المنطق والعلم لا يقضيان بمحاربة الدعوة المحمدية كائناً ما كان فهم الفاهمين لحديث الإسراء . فإن قال قائل : إن المنطق والعـــلم يقضيان بذلك فهو يظلم المنطق والعلم فيما ادعاه عليهما بغير برهان ؛ وهو الذي يخـــالف البرهان النفساني في آن .

ولا حاجة بنا هنا إلى إلغاء البراهين العلمية أو البراهين المنطقية ، وإنمـا حاجتنا كلها ألا تلغى البراهين النفسانية ؛ لأنها قد تتناول العظائم الإنسانية في عمومها فينطوي فيها العلم والمنطق معاً ، وتأتي الأيام بعد ذلك بتفصيل هذا الإجمال وتوضيح هذا الإبهام .

يقول قائل : وما مرجعنا في البراهين النفسانية ؟ أنصدق كل من يدعيها ؟ أنأخذ بها حيثما رأيناها ؟ أندين بالإعجاب حيثما هتف هاتف بإعجاب ؟ فأقرب ما عندنا من جواب أن عظمة النفوس مستحقة للإعجاب كما يستحقه جمال الوجوه .

فماذا عسانا قائلين لمن يسألنا : وما مرجعنا في جمال الوجوه ؟... ولا حاجة هنا إلى مرجع ، ولا فائدة في المرجع إن وجدناه .

فجمال الوجوه لا يتوقف على مرجعه الذي نسهب أو نوجز في توضيحه ... وعظمة النفوس من باب أولى قائمة في الدنيا بغير مرجعها الذي نسوقها إليه ، ولا خوف عليها من قلة المراجع عندنا ، فهي تأتي حين تأتي بآياتها وبراهينها ، وحيثما ظهرت مُعجبة ظهر لها صديقون معجبون ، وأقبل عليها مقبلون وأعرض عنها معرضون ، ولن ينفعها المرجع شيئاً إن لم يكن فيها ما يغنيها عنه .

وقد كان في وسعنا أن نجتزىء بهذا ولا نزيد عليه . ولكننا نود أن نستريح بالعقل إلى سند ما أمكننا أن نريحه . فغاية ما نستريح بالعقل إليه في هذا الصدد مأخوذ من كلام الصديق نفسه رضي الله عنه . وذلك إذ يقول : « إن خير الخصلتين لك أبغضهما إليك » .. فالدعوة التي تزين لنا ما نستنيم إليه ليست بدعوة عظيم ، والدعوة التي ترفعنا فوق أنفسنا وتنهض بنا إلى ما يشق علينا هي الدعوة العظيمة في أصدق

مقاييسها ، وهي التي تفرحنا بالواجب ولا تفرحنا بالهوى ، وحسبها ذلك « برهاناً نفسانيًّا » لا نهتدي إلى خير منه ، فكل ما عظم بنا فقد كلفنا ما يشق علينا وانتقل بنا الى طور فوق طورنا ، فإن كنا على استعداد لهذا الانتقال مالت إليه نفوسنا كما يميل الجسم إلى النمو وإن كان نموه ليكلفه عنتاً عند الولادة ، وعنتاً عند التسنين ، وعنتاً عند المراهقة، وعنتاً عند بلوغه سن الرشد والاستقلال ... وان لم نكن على استعداد كرهناه وحسبنا الراحة في كراهته ، وهي في الحقيقة داء يمنع النماء .

مرجع « البرهان النفساني » الصادق في تقدير العظمة أنه سبيل الفداء في طريق النماء ، وكل ما تركنا كما نحن أو تحدَّر بنا دون ما نحن فيه فبينه وبين العظمة حجاب ، وليس له من ضمائر النفس برهان .

بهذا البرهان النفساني واجه أبو بكر مسالة الدعوة المحمدية من حيث تنبغي مواجهتها، ونظر إليها من جانبها الأصيل الذي تنحصر فيه النظرة الأولى ؛ أمحمد إمام خليق بالاتباع ؟ أهو بطل جدير بالإعجاب ؟ إن كان كذلك فهو مُعجَب به مُتبَّع إياه ، وإن لم يكنه فلا إعجاب ولا اتباع... وكل ما وراء ذلك فضول وانحراف عن الجانب الأصيل.

ومحمد بطل جدير بإعجابه ، إمام خليق بأتباعه ، فامتلأ به إعجاباً ولازمه اتباعاً ، وعرف طريق الخير من بداءة الأمر أنه أشق الطريقين ، وعوده كرم النَّحيزة من قبلُ أن المجد تكليف وجهد ، وأن الحق صبر

وجهاد ، فكانت سُنَّته فيهما أن يحمل المغارم وأن يأخذ بيد المهيض ، وأن يجور على نفسه وفاء بحق غيره ، فلم تطرقه الدعوة الاسلامية من باب غريب ، ولم يصادفه الجهاد للدين على غير تأهيب وتدريب ، بل زاده يقيناً من طبعه واستواء على نهجه ، وجعله في صدر هذه الدعوة مثل الاعجاب والايمان ، وأبرزه للأجيال عنواناً « للشخصية » التي يبلغ بها الولاء للبطولة ذروة مجدها وغاية تمامها ، ويستخرج منها كوامن قواها وأحاسن مزاياها ، ويستقيم بها على سوائها ، ويرتقي بها إلى سمائها ، فهو هو أبو بكر في تصديقه وولائه على أحسن ما يكون .

وهو هو الصدّيق .

برهانه في تصديق الغيب كبرهانه في تصديق الشهادة لأن المرجع فيه إلى شخص القائل لا إلى الشيء الذي يقال .

فلما ارتد بعض المسلمين من حيث الإسراء بالنبي إلى بيت المقدس قال أبو بكر قولته تلك : إني آمنت به في أمر السماء فلم لا أومن به فيما دون ذلك ؟

ولما تشاور المسلمون في صلح الحديبية رضي مَن رضِيَ وأبى من أبى ، وظهر هنا منطقان متقابلان : منطق أبي بكر يقول : إني أشهد أنه رسول الله فلم لا أتبعه فيما ارتضاه ؟

ولما اختلف المختلفون في بعثة أسامة كان أمام أبي بكر خطط

متعددات يختار منها ما يشاء : منهـا أن يحتفظ بالجيش لحراسة المدينة ، وأن يحتفظ به لحرب أهل الردة ،وأن يبعث به إلى العراق ترّصداً للفرس المنذرين بالاغارة ، وأن يبعث بـه حيث أراد رسول الله ، وإن قال بعض القائلين : إن الحال قد تبدّل ، وان المقـام يُؤْذِن بالمراجعة فيما أراد . فشاء أبو بكر الخطة التي شاءهـا محمد ، وأبى أن يأذن فيهـا بمراجعة أو تبديل .

ولما جاءوا بالأعطية يقسمونها كانت التفرقة بين الأقدار أدنى إلى التصرف ، وكانت التسوية بين الاقدار أدنى إلى الاتّـباع . وكان عمر يقول : أنعطي من حارب الرسول كما نعطي من حارب مع الرسول ؟ وكان أبو بكر يقول : أنؤجرهم على إيمانهم فنعطيهم بمقدار ذلك الايمان؟ فكان عمر عنوان التصرف وكان أبو بكر عنوان الاقتداء .

ومن أصالة الاعجاب بالبطولة فيه أنه كان مثلاً في أدب الملازمة وقدرة في أصول المصالحة ،وكان بفطرته خبيراً بالمراسم التي نسميها اليوم « بالبروتوكول » لأن أدبه في توقير العظمة أدب الطبع الذي يهتدي من نفسه بدليل .

انظر إليه وهو يستأذن أسامة في استبقاء عمر بن الخطاب !

انظر إليه وهو يأبى إلا أن يركب أسامـة وهو يشيعه سائراً على قدميه !

انظر إليه وهو ينادي بنته عائشة : يا أم المؤمنين !

هو في كل أولئك المعجَب المؤدَّب بادب المصاحبة الخبير براسم المعاملة ، الذي يدري بوحي نفسه كيف يكون التعظيم . وكيف يكون السلوك ، وكيف تصان حقوق المراتب والدرجات .

قيل : إنه كان إذا قدم على الرسول وفود القبائل علمتهم كيف يُسَلمون وكيف يتكلمون بين يديه عليه السلام .

وكان عليه السلام يوماً في المسجد قد أطاف به أصحابه إذ أقبل عليّ ابن أبي طالب فوقف فسلم ثم نظر مجلساً . والتفت عليه السلام يرى أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر على يمينه فأسرع فتزحزح عن مجلسه وهو يقول : ها هنا يا أبا الحسن ! فبدا السرور في وجه النبي ، وقال : « يا أبا بكر . إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل » .

وكانما خلق أميناً لسر ، فما تعوزه صفة واحدة من صفات الامناء للعظماء الذين يعجبون بهم ويغارون عليهم . ومنها هذا الأدب ، ومنها قلة الكلام ، ومنها الكتمان عنهم في خاصة شئونهم ، وكان أبو بكر في كتمانه عن النبي يتصدى للملام ولا يبوح بكلام .

تأيمت حفصة بنت عمر فعرضها على عثمان ، ثم على أبي بكر ، ثم خطبها النبي عليه السلام .

قال عمر : « فقال عثمان : سانظر في أمرى ، فلبث ليالي ثم لقيني

فقال : قـــد بدا لي ألا أتزوج يومي هـــذا . ولم يرجع إليَّ أبو بكر شيئاً ، فكنت أوْجَد عليه مني على عثمان ، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكحتها إياه... فلقيني أبو بكر فقال: لقد وجدْت عليّ حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ؟ قلت : نعم ! قال : لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أنني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ولو تركها رسول الله قبلتها »

فهو في هذا الكتمان قـد جرى على خير سنة يجري عليها أمنـــاء الأسرار ! أشفق أن يذيع سر الرسول عليه السلام فيبدو له في العدول ، فتكون في ذلك ملامة، فآثر هو أن يُلام على أن يُعرض صاحبه للملام.

ومع هذا الكتمان وهذا الكلام النزر كانت له خبرة بكياسة القول هي القدوة العليا لمن جبلوا على مخاطبـة العظماء . فسأل رجـلاً يحمل ثوباً: أتبيعه ؟ فأجابه : لا عافاك الله ... قال : هلا قلت وعافاك الله !!

تلك نفس ملكتها شمائل الوقار والتوقير، وامتزجت بها سليقة الاعجاب والتعظيم، حتى فاضت على جوارحها ، وسرت مرتجلة إلى جميع حالاتها ، فهي هنالك تستشفها في بواطن الضمير وتلمسها فيما ظهر من الأعمال والمعاملات ، وتتلقاها من خلجات الذهن وبوادر اللسان ، وهي هنالـك مفتاح الشخصية كلها تنفذ بنا إلى خفاياهـــا ، وتفتح لنا ما استغلق من أسرارها ، وتميز لنا بين خصائصها وخصائص الأنفس التي تناظرهـا في المقام ، وتخالفها في المزاج والتركيب .

لقد كان عمر بن الخطاب معجباً بمحمد غاية إعجابه محبـاً له غاية محبته ولكن « الإعجاب بالبطولة ، كان صفة من صفاته ولم يكن صفته الأولى التي تغلب على جميـع الصفات ، وخليقته الشاملة التي تنطوي فيها جميع الخلائق . فإذا قضى حق الاعجـاب بقيت له بقية للمناقشـة والمراجعة ، واستطـاع أن يجمع بين التوقـير والاستفسار والتفسير ، فكانت له طريق إلى الايمان تصاحب طريق الاعجـاب وتنتهي معها إلى مثل نهايتها آخر المطاف .

أما أبو بكر فقد كان الاعجاب أقرب طرقه إلى الإيمان ، وأكبرها على السواء . وهما بعد هذا وذاك ملتقيان .

فإذا كان عمر ثاني المتصرفين بعد نبيّه وأستاذه وهاديه ، فأبو بكر أول المقتدين بغير سابق ، وبغير نظير .

وهما بعدُ قرينان يتقابلان في كل حركة من حركات التاريخ ، وكل ظاهرة من ظواهر الأمم ، ولا سيما في إبّان الدعوات .

نَمُوذَجَـان

النموذجان المتقابلان في المَلكات والأخلاق ظـاهرة معهودة في كل أمة ، ولاسيما خلال النهضات التي تبرز فيها كوامن الملكات وتمتحن فيها حقائق الأخلاق .

وعهدُ التاريخ بها في شؤون الضمير كعهده بهـــا في شؤون المعرفة والحكمة ، أو في شؤون السياسة والتشريع ، أو في كل شأن له أثر بيّن في أعمال الناس .

فاصطلح النقاد على تسمية هـــذين النموذجين في المعرفة والحكمة بالنموذج الأفلاطوني نسبة إلى أفلاطون ، والنموذج الأرسطي نسبة إلى أرسطاطاليس ، أو النموذج الذي يتمثل في النظريات ويتعلق بمـا وراء الطبيعة ، والنموذج الذي يتمثل في التجربة والمشاهدة ويتعلق بالطبيعة وظواهرها المحسوسة .

وفي الأدب والفن يوجـد المثاليون عشاق المثل الأعلى ، والواقعيون

طلاب الواقع الذين يأخذون الدنيا كما هي ويصفون الناس على ما هم عليه .

وفي السياسة محافظون ومجددون ، وفي التشريع حرفيون ومعنويون ، وفي العقيدة أو فِقـــه العقيدة مقتدون ومجتهدون ، وفي ميول الناس ومشاربهم عاطفيون وعقليون ، وأصحاب أثرة أو أصحاب إيثار .

وليس المقصود بالنموذجين المتقابلين هنا تقابل الضدين اللذين يتناقضان كما يتناقض الصواب والخطأ ، والخير والشر ، والعلم والجهل ، والهدى والضلال .

ولكن المقصود هو التقابل الذي يتمم فريقاً بمزايا فريق ، ويُعين قوة نافعة بقوة أخرى تكافئها ، ويزدوج في عناصر الأمة كما يزدوج الجناحان اللذان يستقل بهما الطائر ، ولا يستقل بفرد جناح .

هذان النموذجان معهودان ، لازمان .

معهودان على الخصوص حيثما نهضت أمـــة من الأمم بجميع قواها وجميع مزاياها ، وجميع ما فيها من عُدد الأهبة والحيطة وبواعث الاقدام والإحجام .

ولازمان في النهضات على الخصوص حيثما تقدمت النهضة في طريقها واحتجب عنها إمامها وهاديها ، وأصبح لزاماً بعـده أن تتقابل القوى ، وتتعاون الجهود .

ومن تمام الدعوة المحمدية أنها كشفت هـــذه النماذج المتقابلة في الأمة

العربية بين عشية وضحاها، فإذا الأمة العربية كلها كانما هي حشد مستعد بكل عدة ، متزوّد بكل زاد .

ظهر فيها أقطاب الشجاعة وأقطاب الدهاء ، وظهر فيها المقدمون والمتحذرون ، وظهر فيها الخياليون والعمليون ، وظهر فيها كلُّ طرف وما يقابله من طرف يوازنه ويستند إليه .

وبين هذه النماذج كلها نموذجان من الطراز الأول ، يوشك أن يجتمع فيهما كل ما تفرق في غيرهما من الملكات والشمائل والميول .

نموذجان كبيران تغيب في أطوائهما جميع النماذج الصغار .

وهما نموذج الصدّيق ونموذج الفاروق .

بين هذين الرجلين العظيمين تَقابُل كثير الشعب متعدد الأنحاء : تقابل ينتهي الى التجاذب والإخاء ولا ينتهي الى التدافع والنفار ، لأنهما كانا يحومان معاً في نطاق كوكب واحد ، أو نظام كوكبي واحد كما تحوم السيارات والأقمار حول شمس واحدة، هي لها جميعاً مركز أصيل لا تنفصل عنه .

وربما دخل في وجوه التقابل بين هذين الرجلين العظيمين أكثر ما أجملناه من الفوارق التي تختلف بها نماذج الناس : العقل والعاطفة ، والمحافظة والتجديد ، والواقع والمثل الأعلى ، وما لا يحصى من الألوان والشيات ، والأطراف والحدود .

ولكنها على تعددها واختلافها فوارق متناسبة متوافقة تقبل التلخيص في فارق واحد يطويها من معظم نواحيها، وهو الفارق بين نموذج الاقتداء ونموذج الاجتهاد .

كان أبو بكر نموذج الاقتداء في صدر الاسلام غير مدافع .

وكان عمر في تلك الفترة نموذج الاجتهاد دون مِراء .

وكلاهما كان يحب النبي ويطيعه ويحرص على سنته ويعجب به غاية ما في وسعه من إعجاب ..

ولكنهما في ذلك طريقان يتوازيان ، وإن كانا لا يتناقضان ولا يتحدان .

وإن بينهما في ذلك لفرقاً لطيف المأخذ عسير التمييز ، نحاول الايضاح عنه جاهدين ، ونرجو أن نُبرزه باوفى ما يستطاع له من إبراز ، ونحسب أننا موفّقون حين نقول ؟ إن تقديم وصف على موصوف يكفي في الابانة عن هذا الفرق الدقيق الذي لا ينفسح حتى يتسع لأكثر من هذا التفريق .

فابو بكر كان يعجب بمحمد النبي .

وعمر كان يعجب بالنبي محمد .

ونزيد القول إيضاحاً فنقول : إن حبّ أبي بكر لشخص محمد هو الذي هداه إلى الايمان بنبوته وتصديق وحيه .

وإن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هـــداه الى حبه والولاء له

والحرص على سنته ، وعلى رضاه .

ولهذا كان أبو بكر صاحباً آمن بصاحبه الذي يطمئن إليـــه ويحمد خصاله ، وكان عمر عدوّا رده الاقتناع إلى مودة الرجل الذي كان ينكره ويعاديه .

ولهـذا كان أبو بكر يطيع محمداً فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمداً حتى يثُوب الى الفهم الصحيح .

هما قريبان جِدّ قريبين .

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب .

أو هما كما قلنا في ختام الفصل السابق : أبو بكر أول المقتدين ، وعمر ثاني المجتهدين ، وبذلك يتكافآن ولا نقول يتفاضلان .

نعم يتكافآن ويتعادلان ، وهذا الذي نريد أن نؤكده ونجتنب فيه سوء الفهم والتفسير .

فليست المقابلة بين هذين الرجلين العظيمين مقابلة بين قوة وضعف وقدرة وعجز عن قدرة .

كلا . هذا أبعد ما يخطر على بال أحد يدرك فضائل الرجلـــين العظيمين ويعرف ما لكل منهما من خلق مكين وعمل جليل .

فإن الضعف « سلبي » لا يُجنى منه عمل عظيم .

وصلابة أبي بكر في حرب الردة لم تكن صلابة « سلبية » تقول «لا» في موضع « نعم » ولا تزيد .

ولكنها كانت صلابة تثوب إلى قوة لا شك فيها : قوة مصدرها الاقتداء . هذا لا يهم في وصفها بالقوة وإبعادها من صفة الضعف والعجز عن القدرة . . . وإنما المهم أنها قوة فعالة ، وأنها قوة عظيمة لا مِراء .

ليست المقابلة إذن بين هذين الرجلين مقابلة بين قوة وضعف ، وقدرة وعجز عن القدرة .

ولكنها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر ، وكلتاهما فعالة ، وكلتاهما ذات أثر في الإسلام ، وفي العالم، جليل .

وليس من الضروري اللازم أن يكون كل مقتد أقل في الشان والأثر من كل مجتهد برأيه ، فقد يكون من المقتدين من هو أكبر وأقدر من المجتهدين ، وقد يكون الاقتداء وكله خير ، ويكون الاجتهاد ولا خير فيه .

ولعلنا نوضح هذه الحقيقة بالمثل المحسوس ، لأنه أقرب إلى المشاهدة والإقناع .

فالمصابيح الكهربائية منها ما هو أمٌ مستقل بمفتاحه ، ومنها ما هو تابع موصول بمفتاح غيره .

ويتفق مع هـذا أن يكون « المصباح الأم » أصغر حجماً وأضعف نوراً من المصباح الذي يتبع غيره ويضيء بمفتاحه ، وهما أقرب مثل محسوس للاجتهاد والاقتداء.

كذلك الكوكب الثابت والسيارات التي تدور حول غيرها : لا يلزم أن يكون كل كوكب ثابت أصغر من كل سيار دائر ، وإن تكرر هذا في العيان وسبق إلى الأذهان .

وعلى هذا النحو كان الفرق بين الصدّيق والفاروق ، بين أول المقتدين وثاني المجتهدين . فهو بين قوة من نوع ، وقوة من نوع آخر ، ولا محل للضعف في الموازنة بين هاتين القوتين.

***

وهناك مقابلة أخرى بين الصدّيق والفاروق لا تفوتنا الإشارة إليها لأنها مقابلة أصيلة فيما تؤول إليه من الصفات والآثار .

ونعني بها المقابلة بينهما في تكوين البِنْيَة وتركيب المزاج ، وهي أيضاً مثل عجيب من أمثلة التقابل بين هذين الرجلين العظيمين .

فكان أبو بكر نموذج القوة في الرجل الدقيق .

وكان عمر نموذج القوة في الرجل الجسيم .

ومن عجيب المصادفات أن هذا كان غزير الشعر بيِّن الغزارة فيه ، وهذا كان أصلع ، بيِّن النزارة فيه، ليتم بينهما التقابل حتى في الصفة التي

لا يقتضيها اختلاف البنية بين الرجل الدقيق والرجل الجسيم .

قلنا في كتابنا عبقرية عمر: « إن العالم الإيطالي لومبروزو ومدرسته التي تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور في أحد من أهلها . وهي علامات تتفق وتتناقض ولكنها في جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة. فيكون العبقري طويلاً بائن الطول ، أو قصيراً بيّن القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزاره شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود في سائر الناس ، ويكثر بين العبقريين من طراز جَيّشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارىء فيكون فيهم من تفرُط سورته كما يكون فيهم من يفرط هدوءه ، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يُلحظ تارة ، في الزكانة[1] والفراسة ، وتارة في النظر على البعد أو الشعور على البعد ، وتارة في الحماسة الدينية او في الخشوع لله ».

تلك جملة الخصائص العبقرية التي أجملناها من كلام لومبروزو وأشياعه، فكأنما شاء القدر أن يتفق الصاحبان في جوهر العبقرية ويختلفا في أعراضها اختلاف المقابلة ، حتى في غزارة الشعر ونزارته على غير ما يقتضيه هذا الاختلاف .

والمقابلة بين الصدّيق والفاروق في تكوين البنية وتركيب المزاج

١ - الزكانة : الفطنة والفهم .

كان لها أثر كبير في المقابلة بين الرجلين العظيمين في الخلائق والجهود ؛ فعمر ، بما نشأ عليه من الجسامة والهيبـــة ، لم ينشأ وله منبه من البنية ينبهه أبداً إلى وجوب التهدئة والترويض ، فمضى بتلك البنية كما يمضي راكب الفرس الجموح غير متوجس من جماحه ، لأنه مطمئن آخر الأمر الى العنان .

وابو بكر . بما نشأ عليه من الدقة والنحول ، قد نشأ وله منبه إلى غوائل الحدّة التي تعهد من أصحاب هذا التركيب ولا تؤمَن غوائلهـا عليهم ، فراض نفسه على التهدئة والترويض ، ومضى بتلك البنيـة كما يمضي راكب الفرس الجموح عوّدهـــا قبل الدخول في المضمار أن تدَع الجماح ، وأن تشعر بالعِـنان القابض عليها في كل حين .

وهنا لا تكون التفرقة أيضاً من قبيل التفرقـة بين القوة والضعف ، وبين القدرة والعجز عنها ، ولكنها على ما قدمنا تفرقة بين قوة وقوة تكافئها ، أو بين طرازين من القدرة يتقابلان .

فلو كان أبو بكر ضعيفاً قليلاً لجمحت به الحدة ، ولم يعتصم من عزمه إلى كابح قدير على الكبح ، فتحطم كما يتحطم الضعفاء .

ولو كان شعوره بنفسه شعور ضعف وقلة لاستقر على هذا الشعور واستكان إليه ، ولم يأخـذ نفسه بالسّمت والوقار ، ولا بمناقب السيادة والمروءة ، ورضي له ولذويه بما يرضى به الضعفاء .

ولكنه شعر من نفسه بقوة يعتصم بها ويقوى على رياضتها ، فـكان

مثلاً للقدرة الرائضة والنفس المُرَوّضة كما تكون في الرجل الدقيق النحيل.

***

في حياة الصاحبين موقف من المواقف النادرة التي يظهر فيها الرجل كله، ولا يتفق في التجارب النفسية أن يواجهها الإنسان مرتين في حياته، وهو الموقف الذي فاجأهما بموت النبي عليه السلام.

ليس للصاحبين غير صديق واحد بمنزلة محمد عندهما من المحبة والتّجلّة، وهما لا يروّعان كل يوم بنبأ فاجع يسوءهما كما يسوءهما نبأ موته وانقضاء عشرته والأنس بقربه. فالموقف نادر، والبليّة به خليقة أن تَبتلي الرجل في كل ما ينطوي عليه من بديهة وروية..

وابتلي به عمر فغضب غضبته المرهوبة وثار بالنّعاة يتوعدهم ليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن محمداً قد مات.

غضب غضبة الرجل المملوء بقوته وحميته، الذي لم ينبهه منبه قط إلى ترويض غضبه والمبالاة بعواقب ثوراته، وكأنما قام في دخيلة نفسه أنه يستكثر حتى على الموت أن يجترىء على الصديق الذي يحبه ذلك الحب، ويجله تلك التجلة، ويعتقد فيه تلك العقيدة، وينتظر حتى من الموت أن يتحامى جانب ذلك الصديق، ويرعى له حرمة لا يرعاها لسائر الأحياء.

وأبو بكر يحب محمداً كما يحبه عمر ، ويأسى لفراقه كما يأسى ، ويرفعه مثله درجات فوق مقام الأحياء من قبله ومن بعده ، ولكنه رجل راض نفسه وقمع حدة طبعه ، وعرف الصبر على ما ليس يدفعه دافع ولا تغني فيه حيلة ، فإن كان تسليمٌ فهذا أحق المواقف بالتسليم وأولاها بطول ما ارتاض عليه من صبر ، وما تاهب له من أُسوة .

بذلك أدى كل من الرجلين ضريبة طبعه ومزاجه الذي لا معدًى له عن مطاوعته والاستجابة لدواعيه .

ثم زالت الغاشية الأولى . فظهر الرجلان في حالة القرار كما ظهرا في حالة المفاجأة : ظهر أن عمر لم يكن ثورة كله ، بل كانت فيه إلى جانب الثورة رويّة تفرغ للأمر في أحرج أوقاته ، وظهر أن أبا بكر لم يكن روية كله ، بل كانت فيه إلى جانب الروية مطاوعة لسليقة الحب والألفة قد تشغله عن العواقب إلى حين .

فبينا هو مشتغل بتجهيز رسول الله إذا بالأنصار يجتمعون في سقيفة بني ساعدة ليتخذوا لهم أميراً دون إخوانهم من المهاجرين ، واذا عمر يتاهب للأمر أهبته ، ويعاجل الخَطْب قبل استفحاله ، ويأخذ أبا بكر من بيت رسول الله إلى سقيفة بني ساعدة ليبايعه هناك بالخلافة . . . ويتقي الحدة من أبي بكر فيهيىء في نفسه كلاماً يصلح لذلك المقام يمهد به لكلامه . وفي بعض الروايات أنه فكر في أمر المبايعة قبل ذلك حين لم يفكر فيها أحد من المهاجرين وأنه شاور أناساً وشاوروه فيما يكون

بعد وفاة رسول الله . فما كانت غضبته الثائرة الا ريثما قبض على العنان بكلتا يديه ، ثم كان عنانه ذلك أطوع عنان .

كلا الرجلين العظيمين فيه روية وفيه حدة : تأتي الروية أولاً أو تأتي الحدة أولاً ذلك هو موضع الفارق من بوادر المزاج والتركيب ، ولكن الروية هناك قائمة في المزاجين حين تراد .

* * *

وقد نلمس هذه الجوانب المتقابلة من مزاج الصاحبين في كل مسألة ذهبا فيها مذهبين ونزعا فيها إلى رأيين مختلفين .

من ذلك مسألة الرِّدة ، ومسألة خالد بن الوليد ، ومسألة الأعطية والنوافل للمؤلفة قلوبهم ولغيرهم من عامة المسلمين.

في كل مسألة من هذه المسائل كان كل من الصاحبين عند طبعه ومزاجه ، أو عند المعهود من وصفه واستقصاء أحواله ؛ دليل أصدق دليل على خلوص الرأي وصراحة الضمير والتوجه إلى الأمر بما يستدعيه عندهما من مقدماته وموجباته ، في غير حيد ولا انحراف عن سواء السبيل .

ففي مسألة الرِّدة جنح أبو بكر إلى الصرامة وجنح عمر الى الهوادة ، وفي ظاهر الأمر أن هذا اختلاف على غير المنظور من طبيعة الرجلين ولكن الواقع أنه لا يخالف المعهود إذا مضينا فيه إلى ما وراء الظاهر القريب

فقد كان ابو بكر عند طبعه حين أبى أن يترك عقالاً مما كان ياخذه رسول الله من فريضة الزكاة ، وكان كذلك عند طبعه حين استثاره الاستخفاف به والجرأة عليه ، كأنهم يستصغرونه ويتقحّمونه ، وهو الذي توقّر طول حياته من مكانة من يُستصغر ويتقحم ، لدقة في تكوينه وقوة في نفسه تعاف أن تُحسب عليه الدقة في التكوين صغراً في المقام .

وقد كان عمر عند طبعه حين أخذ بالتصرف والاجتهاد على حسب اختلاف الأحوال ، ووثق من مصير الأمور إلى الخير بأية حال .

* * *

أما مسالة خالد بن الوليد فقد كان السؤال فيها : هل يحاسب أو لا يحاسب ؟ فكان جواب الصاحبين على حسب المعهود فيهما من مزاج وخليقة ، ولم يكن منظوراً أن يقضي أحد منهما بغير ما قضاه .

قتل خالد مالكَ بن نويرة وبَنى بامرأته في ميدان القتال على غير ما تالفه العرب في جاهلية وإسلام ، وعلى غير ما يالفه المسلمون وتأمر به الشريعة .

أفيحاسَب على هذا أو لا يحاسب عليه ؟

أول جواب يبدر إلى عمر عن هذا السؤال هو المحاسبة بَغير ونَاء . ولِم لا ؟ ما الذي يُتّقى ؟ ما الذي يكون ؟ إن المبالاة بعقبى حسابه ليست

مما يروع عمر ويثنيه، بل لعلها مما يحفزه الى التحدي والإسراع فيه .

أما أبو بكر فقد استشار هنا طبيعة الاقتداء ، وطبيعة الإعجاب بالبطولة وطبيعة اللين والإغضاء ، وهي تشير عليه بالإعفاء من الحساب أو بالإمهال به إلى حين .

فهو لا يعزل قائداً من قواد رسول الله وسيفاً من سيوفه ، وهو لا ينسى بطولة خالد وإن زل أو أخطأ التأويل، كما قال، وهو يؤثر اللين لأنه في عامة أحواله مطبوع عليه ما لم يمسه الأمر فيما يثير .

***

وجاءت مسألة الأعطية فأبى أبو بكر أن يتصرف في تمييز الأقدار وأقدم عمر على التصرف والاجتهاد .

وجاءت مسألة المؤلفة قلوبهم فأعطاهم أبو بكر متبعاً سابقة الرسول وأنكر عمر عطاءهم لأنهم كانوا يأخذون ما أخذوه والإسلام ضعيف..

فأما الآن فماذا عساهم أن يصنعوا إن لم يأخذوا ؟ ما يصنعونه كائناً ما كان لا يكرثه ولا يثنيه .

***

وهكذا نستقصي علل الخلاف بين الصاحبين في كل مسألة من المسائل فإذا هي في مردها خـــلاف بين قوتين من نوعين ، أو خلاف في تناول

الأمور على طريقتين ، ولم تكن قط خلافاً بين قـــوة وضعف ، أو بين حرص وتفريط ، أو بين أثَـرة وإيثار .

ومن المسلـّم أن القوة ضروب ، وأن العظمة صنوف ، وأن الليِّن لا يلين أبداً والشديد لا يشتد أبداً، فلا بد من اختلاف بين العظيم والعظيم ، ولا بد من اختلاف بين عمل العظيم الواحد في أوقات . وليس العجب أن يجري كل منهم على خطته وأسلوبه ، وإنما العجب أن تتعدد ضروب القوة وتتعدد صنوف العظمة ثم تتوحـّـد الخطة والأسلوب .

وموضع العبرة ــ بل موضع الإعجاز فيما تقدم ــ هو تلك الدعوة التي شملت هذه القوة كلها في طيـّة واحدة ، وضمت هؤلاء الرجال جميعاً حول رجل واحد ، وجذبت إليهـــا أكرم العناصر التي تأتي بالعظائم وتصلح للخير و تُقـْدم على الفداء .

فأوجز ما يقال في تلك الدعوة أنها خاطبت خير ما في الإنسان فلبـّاها أمثال الصديق والفاروق ، وأقبل عليها الأقوياء المخلصون من كل طراز فليست هي بالدعـــوة التي تخاطب الضعف والضعة ، ولا بالدعوة التي تخاطب الطمع والأثرة ، ولا بالدعوة التي قوامها الترهيب والترغيب ، ولكنها الدعوة التي يجيبها أكرم سامعيها ، ويتخلف عنها أقلهم سعياً إلى الخير واقتداراً عليه .

والصديق والفاروق خير نماذج الرجال في الجزيرة العربية ، ففي خلائق هذين العظيمين دليل على السرّ الذي من أجله نادى محمد قومه ومن أجله أجيب ، ومن قال من المكابرين والمتعنتين : إن دعوة محمد

لم تكن بالدعوة الصالحة فليْقل : أيّ صلاح كان يَلقى في الجزيرة العربية مجيبين أكرم وأقدر من هؤلاء المجيبين؟ وأي هداية بين الناس أشرف من الهداية التي تجمع إليها أقوى الأقوياء وأطيب الطيبين ، على ما بينهم من تقابل في المزاج والرأي كأعجب ما يكون التقابل بين المختلفين المتفاوتين؟ وأي إقناع أقنع الصديق ؟ وأي إقناع أقنع الفاروق؟ الخشية ؟ المتعة ؟ الشر؟ الطمع؟ لقد كانا إذن آخر من يجيب، وكان خصومهما إذن أسرع المجيبين وأسبق المؤمنين !

***

إسلامُهُ

قيل إن أبا بكر رضي الله عنه كان أول من أسلم ، واتفقت الأقوال على أنه كان أول من أسلم من الرجال ، وأن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت أول من أسلم من النساء ، وكان عليٌّ رضي الله عنه أول من أسلم من الصبيان ، وكان زيد بن حارثة أول المسلمين من الموالي ، وهو الذي تبناه النبي عليه السلام .

وقال النبي عليه السلام : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت منه عنده كِبْرة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر ، ما عكم [1] عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه » . فلمَ سهل إسلام الصدّيق هذه السهولة التي لم تُؤثَر عن أحد غيره كما جاء في ذلك الحديث الشريف ؟

لعلنا نختصر الطريق إلى جواب هذا السؤال إذا نحن سألنا عن الموانع دون الإسلام ، قبل أن نسأل عن الموجبات ..

---

(١) عكم عنه : تأخر .

لأننا إذا بحثنا عن العقبات فلم نجدها ، أو بحثنا عنها فوجدناها قليلة العدد هينة التذليل ، بدت لنا سهولة الطريق من غير جهد كبير في البحث عن الموجبات ، وعرفنا أنه « لا مانع » فعرفنا أنــه لا صعوبة ولا محل للتردد والمقاومة فما الذي كان يمنع أبا بكر أن يجيب دعوة الإسلام ؟

بل ما الذي يمنع إنساناً من الناس ــ كائناً من كان ــ أن يجيب الدعوة إلى عقيدة جديدة ؟

موانع شتى

ومن الحقائق الملحوظة أن هذه الموانع كانت أقل ما تكون في أبي بكر الصديق ، فلا نعرف أحــداً في عصر النبي كانت موانعه دون إجابة الدعوة الجديدة أقل من موانع هذا الرجل الصادق المصدق ، المستعد لإجابة النبي إلى هدايته كأنما كان معه على ميعاد .

يمنع الإنسان أن يصغي إلى دعوة العقـائد الجديدة موانع شتى من آفات العقل والخلق والبيئة ، تجتمع وتتفرق ، ويُبتلى الرجل الواحد بها جميعاً ، وقد يبتلى بمانع واحد منها فيحول بينه وبين الاصغاء والاجابة.

يمنعه أن يجيب الدعوة إلى المصلحين غطرسة ، أو سيادة مهـددة ، أو مصلحة في بقـــاء القديم ومحاربة الجديد ، أو ذهن مغلق لا يتفتح للفهم والتفكير ، أو مغامسة للشهوات تحبب إليه أن يستنيم إلى العرف الذي يبيحها ويَعزف عن الهداية التي تحظُرها وتقف في سبيلها ، أو تعصب

غضوب للعقيدة التي درج عليها ، أو شعور بقوة سلطان تلك العقيدة في أبناء قومه ، سواء منهم المتعصبون لها والقابلون لها على المجاراة والمداراة ، أو جبن ينهاه أن يخرج على المألوف ويتصدى لسخط الساخطين وإن تبين طريق الاستقامة والسداد ، أو إيغال في الشيخوخة يصد الانسان عن كل تغيير ويميل به إلى كل تواكل ومتابعة وتقليد ، أو حداثة سن تجعله تابعاً لغيره في الرأي والخليقة وتجعل له شرة تحجبه عن التروية والمراجعة ، أو ذلة مطبوعة تلحقه بمن أذله وبسط سلطانه عليه .

فالغطرسة خلة تأبى على صاحبها أن يستمع إلى قول أو يصيخ إلى دعوة ، أو يتنزل إلى متابعة إنسان ، ترفعاً عن الإصغاء قبل أن يهديه الإصغاء إلى موافقة أو إنكار .

والسيادة المهددة توحي إلى صاحبها كراهـة التجديد ، لأنه يحس بالبداهة أن صاحب الجديد أولى منه بالسيادة إن شاع مـا جدده بين الناس ، فتبطل سيادته ببطلان القديم الذي قامت عليه ، وقيام الجديد الذي نسَخه وعفاه .

والمصلحة في حالة من الحالات المستقرة تجعل الرجل محبّاً لتلك الحالة حبه للمنفعة ، كارهاً لتبديلها كراهته للخسارة ، ميالاً إلى محاربة الدعوة الجديدة قبل أن يبحث فيها ويتعرف وجوه الخير الذي قد يصيبه منها .

والذهن المغلق يجهل ما يقال ، ويعادي ما يجهل ، وينفر من كل ما

يشق عليه ، وأول ما يشق عليـــه أن يفهم شيئاً على وجهه السوي ، أو يتهيأ للفهم بأية حال .

ومغامسة الشهوات تُبغّض إلى المرء سلوانها والاقلاع عنها، وتقرن عنده دعوات الاصلاح والاستقامة بشؤم التنغيص والتكدير ، فيتبرّم بها وينزعج لها، كما ينزعج النائم المستغرق أيقظته من نومـــة لذيذة قد استراح إليها .

والتعصب الغضوب لما اعتقده المرء يثيره أن تمس عقيدته كما يثور لحماية الحوزة أو الذود عن الآباء والأجداد ، لأنه يحسب عقيدته ملكاً له ولآبائه يرد عنها من يهجم عليها ، كما يرد صاحب البيت من يهجم عليه.

والعقيدة إذا كانت قوية السلطان غلبتْ عزتها على عزة العقـــل والفؤاد ، فاصر عليها من كان خليقاً أن يعافها ويعرف عيبها لو دعي إلى تركها وهي تتداعى وتتزعزع وتؤذن بالزوال .

والجبن يخيف صاحبه أن يجهر بالحق ويبتعد به عن طريق المخافة ، فلا يدنو إلى الصوت الذي عسى أن يقوده إلى الإصغـاء فالإيمان فالجهر بما يضير .

والشيخوخة عدو لكل طارق ، والحداثة بين طيش يدعو إلى التمرد وطاعة تدعو الى متابعة الأولياء، والذلة حجاب بين الذليل ونفسه يحجبه وراء مَن أذلّـه ، فلا تصل إليه الدعوة إلا من تلك الطريق .

هذه موانع الاصغاء إلى كل دعاء جديد .

أو هذه أعم الموانع التي تحول بين معظم الأسماع والإصغاء إلى ذلك الدعاء .

ومن الحقائق الملحوظة ـ كما أسلفنا ـ أن أبا بكر كان براء منها جميعاً ، أو كان كأبرأ الناس منها في عهد الدعوة المحمدية.

فلم يكن متغطرساً ، بل كان مشهوراً بالدعة والتواضع ، مألفاً لقومه كما قال واصفوه « محبباً سهلاً ... » وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته .

ولم يكن مهدداً في سيادة مضروبة على أعناق الناس ، فكان من ذوي الشرف في قريش ، ولكنه لم يكن من قبائلها الساطية التي تستطيل بالبغي والطغيان . كان من (تيم) وهي بيت قرشي معدود ، ولكنه لم يمنع أبا سفيان أن يقول كما قال لعلي بن أبي طالب يستثيره حين بويع أبو بكر بالخلافة : « ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ »ولم تكن « تيم » أذل قبيلة في قريش كما قال أبو سفيان ، ولكنها على أية حال لم تكن بمقام السطوة والسيادة التي تطمس الضمائر والألباب .

ولم تكن لأبي بكر مصلحة في دوام الجاهلية ، لأن عمله فيها كان ضمان المغارم والديات ، وربما كان هذا العمل أدنى إلى الخسارة منه إلى المنفعة

والغنيمة ، فلا راحة ولا أسف عليه . أما التجارة فلا خوف عليهـا من الدعوة الجديدة ، وصاحبها الداعي إليهـــا تاجر يبيحها ويزاولها ويحض عليها .

ولم يكن مغلق الذهن ولا وَصَفه أحـــد بهذه الصفة من محبيه أو شانئيه ، بل كان معروف الذكاء يَلمح اللحن البعيـد فيدركه ويسبق الحاضرين إلى فهمه والفطنة لموضع الاشارة فيـــه، كما حدث غير مرة والنبي عليه السلام يتحدث أو يعظ الناس .

ولم يكن مغامساً للشهوات ، بل كان يكره ما شاع منها بين الجاهليين من ذوي الأقدار والأخطـــار ، فلم يشرب الخمر ولم يركب الدنس ولم يشتهر قط بوصمة يعيبه بها من أسرعوا إلى معَابته يوم هجر عقيـدة الجاهلية وجنح الى عقيدة الاسلام .

ولم تكن عبادة الأوثان عقيدة مكينة السلطان في عهـــد الدعوة المحمدية ، بل كان أناس يهملونها وأناس يبحثون عن غيرها ، وأناس يؤثرون عليها المسيحية واليهودية، فلا يصابون بمكروه في أكثر ما سمعنا من أخبار أولئك المتمسحين أو المتهودين .

وعلى هذا لم يكن أبو بكر متعصباً للجاهلية وعباداتها ، بل لعله كان مزدرياً لها مستخفاً بالأصنام وباحلام عابديها ، وإذا صح مـــا جاء في « أنباء نجباء الأبناء » فهو لم يسجد لصنم قط. وقال « لما ناهزت

الحُلُم أخذ أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مَخدع فيه الأصنام فقال : هذه آلهتك الشم العوالي ، وخلاّني وذهب ، فدنوت من الصنم وقلت : إني جائع فاطعمني ! فلم يجبني . فقلت : إني عارٍ فاكسني ! فلم يجبني . فالقيت عليه صخرة فخر لوجهه » .

ولم يكن الصديق بالجبان ، ولا بالشجاع الذي نَصيبه من الشجاعة قليل ، بل كانت شجاعته تفوق شجاعة الأبطال المعدودين في الجاهلية والاسلام فثبت مع النبي في كل وقعة حين ولّى من ولى وأبطأ من أبطأ ، وغامر بحياته في حروب الردة وله مندوحة عن خوضها ، ولم يُذكر في أخباره قط خبرُ نكول أو خوف على حياة ومال ..

ولم يكن شيخاً فانياً متابعاً لكل قديم ، ولا حدثاً صغيراً تطيش به شرة الشباب حين دعاه محمد إلى دينه وهداه ، بل كان رجلاً ناضجاً في بسطة الرجولة ، يفقه الأمور ويعتدل بين الصبا الباكر والكهولة المولية ، ويزن القول بفهم نافذ وحكم صادق ، وعقل راجح يعرف الترجيح .

***

تلك جملة الموانع التي تحول بين الانسان وقبول الدعوات الجديدة إلى الاصلاح ، وكلها هنا غائبة على الأقل إن لم نقل إن جانب الدواعي في مكانها أوضح من جانب الموانع ، ومعنى ذلك أن الصديق لم تكن بينه وبين الاسلام عقبات تصده عن وروده ، وأن طريقه إليه كانت

ممهدة مفتوحة يخطو فيها خطوته الأولى فلا يلبث أن يُتبعها بخطوات .

على أن الأمر لم يقتصر على قلة الموانع في طريق الصديق إلى الاسلام. فقد كانت هناك الدواعي التي أشرنا إليها في مكان تلك الموانع ، وكانت للصديق خلائق عاملة تقربه من العقائد القوية ، وتجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا حاجة به إلى أكثر من ذلك ليفرق بين سنن الجاهلية وسنن الاسلام ، ويميز بين ما هو حقيق بالترك والاعتراض ، وما هو حقيق بالحرص عليه والايفاض [1] إليه .

كان الرجل صادق الطبع مستقيم الضمير ، لا يلتوي به ، عما يعلم أنه الحق ، عوج ولا سوء دخْلة ، وعُرف باسم الصديق إذ عرف الناس فيه الصدق من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالاسلام ، لأنه كان يضمن المغارم والديات فيصدقونه ويعتمدون على وعده ويركنون إلى وفائه ، وقيل : إنه سمي بالصدّيق لتصديقه النبي في كل ما أنباه به من المغيّبات والبشائر ولكنهم لم يختلفوا في تصديق ضمانه والاعتماد على وعده ، وإن اختلفوا في سبب التسمية وفي ميقاتها من الجاهلية أو الاسلام .

ومن كان على هذا الصدق في الخليقة فلا حجاز بينه وبين دعوة إصلاح ، وليس من شأنه أن يصمّ أذنيه عن قول صادق ودعاء مستقيم ولا أن يعادي الحق ويلجّ في عدائه ، شنشنة المكابرين المستكبرين .

---

١ — الإيفاض: الإسراع .

وكان مطبوعاً على الحماسة لما يعتقد فيـــه الخير والصلاح، يطلب العقيدة ويطلب المعتقدين بها والمهتدين إليـها . يبدو ذلك من إسراعه إلى التبشير بالإسلام ساعة أن اهتدى إليه ، فدخل في الدين على يديه نخبة من أسبق الصحابة وأخلصهم للنبي عليه السلام وأعظمهم أثراً بعد ذلك في قيام الدولة الاسلامية ، كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله ، وجعل لا يهـــدأ ولا يستريح حتى أدخل في دينه أمه وأباه وذويه .

وتبدو حماسته لاعتقاده من إلحاحه على النبي أن يظهر بالمسلمين في نواحي المسجد وهم دون الأربعين عدداً ، ومن قيامه بينهم خطيباً يجهر بالدعوة إلى الله ، والمشركون متربصون ثائرون ، حتى أصابه من ذلك أذى شديد خيف عليه الموت منه ، وتركه المشركون وهم لا يشكون في أنه مات أو أنه مائت عما قريب .

وتبدو هذه الحماسة من اتخـــاذه مسجداً لصلاته وتلاوته على قارعة الطريق ، يسمعه حين يقرأ كل عابر ، ويتوعده المشركون فلا يفزع من وعيد . ولما جاءه الرجل الذي أجاره من المشركين على أن يكتم إسلامه فخيره بين الكتمان أو رجع الذمّة إليه ، لم يتردد في رد ذمته وقال له : فإني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل .

ورجل مطبوع على سماع الحق وتصديقه والدعوة إليه والحماسة له غير عجيب أن يسرع إلى العقيدة الجديدة هذا الاسراع .

وإلى هـــذا كان قريباً من السليقة الدينية التي تتراءى في مكاشفة الغيب واستطلاع الرُّؤى والهواتف وانفتاح النفس لإشارات الايحـــاء والاستيحاء ، ويُروى عنه أنه رأى قبل البعثة وهو بالشام رؤيا تُنبىء بقرب ظهور النبوة في البلاد العربية ، ويُعرف عنه على التحقيق أنه كان يعبّر الرؤيا بين يدي النبي عليه السلام ويستأذنه في تفسيرها ، ويحتفل هو بما يراه في منامه .

وإلى هذه القربى من الايمان بالغيب كان لطيف الحِس خاشع النفس عظيم الرفق والمودة ، لا ترِينّ على قلبه تلك الغلظـــة التي تغلق أبواب القلوب وإن تفتحت الأذهـــان ، فكان خشوعه يبكيه وفرحه يبكيه ، وسليقته الدينية كاملة لا يعوزها إلا القبس الذي يلمسها ، فتضيء ثم لا ينطفىء لها ضياء .

وكان مع الصدق وحماسة العقيدة ومقاربة الغيب وموحياته ونجاواه بليغاً متذوقاً للبلاغة ، كثير الرواية للشعر والاسترواح للكلام الحسن الفصيح ، فكان في ازدرائه لكلام المتنبئين غضب تلمح فيه عيفان[1] الذوق البليغ كما تلمح فيه عيفان المؤمن الناقم على الضلال . سمع فقرات من قرآن مسيلمة الكذاب فما عـــتم أن ابتدر قارئيه مشمئزّاً من سخفه وإسفافه : « ويحكم إن هذا لم يخرج من إل[2] ولا بر ! »

١ – العيفان : النفور والكراهية .

٢ – الالّ : العهد والحلف .

ولا جرم يكون هذا الذوق المستقيم سبباً قريباً بين صاحبه وبلاغة القرآن وبلاغة النبي عليه السلام.

إلا أن سبب الأسباب جميعاً في التقريب بين الصديق وبين الدعوة المحمدية هو ذلك السبب الغالب على كل مـا ذكرناه ، لأنه يمتزج بأطواء نفسه ويصبغها بصبغته وينحو بها أبداً في منحاه ، ونعني به الإعجـــاب بالبطولة ، ذلك الاعجاب الذي نحسبه مِلاكاً لأخلاقه ومفتاحاً لشخصيته كما فصلناه في غير هذا الباب .

فالرجل المعجب بالبطولة يعرف بطله ، ثم يثق به ، ثم يرتقي بالثقة إلى ما فوقها وما هو أمكن منها ، لأن الثقة استناد إلى وثيقة تدعو إليها على حسب ما فيها من بيناتها وبراهينها ؛ أمـــا الاعجاب فهو الرغبة في الثقة وكراهة التحول عنها، هو البحث عن الثقـــة والتماسها إذا وقف الواثقون عند الانتظار ، أو مجرد التأمين والموافقة بعد الانتظار .

وقد تواترت أنباء مختلفة بصداقة أبي بكر للنبي عليه السلام قبـــل الدعوة المحمدية بسنين ، وذكر المؤرخون الثقات أنه كان معه عليه السلام حين ذهب في صحبة عمه إلى الشام واجتمع بالراهب بحيرا وسمع منه ما سمع عن الدين والبشارة بالنبوة . وقد شك بعض المؤرخين من الأوربيين في اتصال المودة بين الصفيين قبل الدعوة المحمدية بزمن طويل ، إلا أن الدليل الذي يُغني عن وثائق التاريخ أن أبا بكر كان باتفاق الأقوال أول المستجيبين لدعوة محمد من غير أهله ، ولن يكون ذلك بغير معرفـة

سابقة بين الرجلين حببت إلى النبي عليه السلام أن يبدأ به ويترقب منه الاصغاء إليه ، وأيسر ما يستلزمه ذلك السبق إلى الإسلام أن يكون أبو بكر معروفاً بصفاته لمحمد وأن يكون محمد معروفاً بصفاته لأبي بكر . فلما سمع دعوته سارع إلى تصديقه وهو معجب به وباستقامة طبعه ونقاء سيرته وبلاغة حديثه، وأعانه على التفرقة بينه وبين خصومه، والتمييز بينه وبين منكريه أنه كان نسّابة قريش لا يفوتـــه مغمز من مغامزهم قديمها وحديثها في الانساب والأخلاق ، ومحمد عنده مطهر من كل ذلك براء .

***

من جملة ما تقدم تتبين لنا سهولة اتجاه الصديق الى الدعوة المحمدية، سواء من ضعف العقبات في طريقه أو من قوة الدواعي التي تجذبه اليه ، فقد اجتمعت هـــذه وتلك على تفسير تلك الأعجوبة النادرة في تاريخ الدعوات الجديدة : أعجوبة رجل في سمت الرجولة يقال له: تعال الى دين جديد غير دين آبائك وأجدادك، فلا يتوانى ولا يتردد في إجابة الدعوة ، وما هو إلا أن يسمعها حتى يلبيها وينقطع لها ، ويصبح من أقوى دعاتهـا بعد صاحبها .

ومن تمام الجلاء في تفسير تلك الأعجوبة أن نفهمها على حقيقتها في جميع أحوالها وملابساتها ، وأن نفهم الفارق بينهـــا وبين نظائرها لو جرَت في عصرنا الحاضر ، أو في بيئة أخرى غير البيئة التي جرت فيها .

فنحن نسمع بقصة أبي بكر وتصديقه السريع للدعوة المحمدية فنُحضر في أخلادنا رجلاً من المسلمين أو المسيحيين أو الاسرائيليين في عصرنا الحاضر يقال له : تعال الى دين غير دينك ودين آبائك وأجدادك فيجيب الداعي لِتوّه وساعته كأنها تحية وجوابها .

وهي أعجوبة عندنا يوشك أن يأباها العقل وأن تمتنع على التصديق .

ولكن اسلام أبي بكر لم يكن من هذا القبيل ، ولم يكن الدين الذي تحول عنه كالدين الذي يؤمن به المسلم في هذه الأيام .

لم يكن دين المشركين من قريش ديناً من أديان الروح وعقيدة من عقائد الضمير .

لم يكن له شان بالحياة الصالحة ولا بالحياة الباقية ولا بالنظر الى الكون في أسرار خلقه ولا بالجماعة الانسانية في قِوام أمرها ومناط الخير والشر فيها والصلاح والفساد بين رجالها ونسائها .

ولم يكن التابعون له ينظرون إليه هذه النظرة أو ينظرون هذه النظرة الى دين آخر أو عقيدة أخرى .

ولكنهم كانوا ينظرون إلى عقائدهم نظرتهم الى الموروثات المألوفة والعرف المتفق عليه ، أو نظرتهم الى العادات التي ترتبط بها مصالح العيش ومصالح السيادة والجاه ، وكان يعز عليهم أن يقال لهم : إن آباءهم وأجدادهم هالكون ، وإن الدين الذي نشأوا عليه وماتوا دين سخف ومهانة

وضلال . فكانوا في ثورتهم على الدعوة الجديدة أشبه الناس بأبناء القرى والمدن الذين يثورون على رجل يبتدع في الولائم والأفراح والجنائز بدعة تخالف المألوف وتهدد مصالح الوجهاء أو ما يسمونه «شرف الأسرة» وسير البلدة وعادات الناس ، وتهدد مع تهديدها الوجهاء مصالح العاملين في شئون الزواج وشعائر الوفاة ، وما إلى ذلك من الرسوم والعادات .

وكان المشركون لا يبالون أن يخرج على دينهم من يخرج عليه ناجياً بروحه خالياً بنفسه بينه وبين ربه ، فعاش بينهم اليهود والمسيحيون والمتهودون والمتنصرون وهم في دعة وأمان إلا من أذى الأقارب المخالفين لهم في قليل من الأحيان ، وإنما كانوا يثورون على الدعوة العامة التي تبدّل العرف كله وتُخرج الجماعة من مألوفاتها وقواعدها التي استقرت عليها . فكان الثائرون في وجه الدعوة المحمدية من مشركي قريش بين رجل من ثلاثة لا يعدوهم إلى رابع : رجل صاحب سيادة تتصل سيادته ببقاء الأمور على ما هي عليه ، ورجل من الأذناب الذين لا يعقلون ولا يُحسون الظلم والفساد ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به السادة المسيطرون ، ورجل لم يصغ إلى الدعوة الجديدة حق الإصغاء ، ولم يتسع له الوقت للتفرقة بينها وبين العرف القديم .

وما عدا هؤلاء جميعاً فهو قريب من الدعوة المحمدية لا يمنعه مانع أن يتجه إليها متى أصاب الوجهة التي تهديه في طريقه ، وليس معنى ذلك أن التغلّب على العرف الجاهلي كان من الهنات الهيّنات أو كان أهون من

التغلب على سائر العقائد والأديان ، فليس أصعب ولا أعضل في الحقيقة من التغلب على عرف ترتبط بـه مصالح السيادة وغباوة الدهماء وتراث الأجداد والآباء ، وإنما معناه أن الأمر لا يعم جميـع المشركين ما لم يكن واحداً من أولئك الثلاثة ، وهم ألوف وألوف .

وأبو بكر رضي الله لم يكن واحداً من هؤلاء.

وكان مع هذا رجلاً يحس بالروح والضمير ، ويحس الخواء الذي تتركه العقائد الجاهلية في حياة الروح والضمير .

وقد عافاه الله من سبب قوي من أسباب الثورة على الدعوة المحمدية بين المشركين المعتزين بالآباء والأمهات ..

« أأبي على ضلال ؟ أأمي مـع الهالكات ؟ » .. تلـك خاطرة كانت تهجس في نفس المشرك من قريش فيغضب ويثور ويحسب الدعـــوة الجديدة في عداد السباب الموجه إلى أقرب الناس وأعزهم عليه .

أما أبو بكر فقد عافاه الله من ذلك في إبّان الدعوة المحمدية ، لأنهـــا ظهرت وأبوه وأمه بقيد الحياة مفتوح لهما باب النجاة ، فما زال بهما حتى دخلا معه في دينه ، واطمأنت نفسه على أبيه وأمه وبنيه .

وفيما عدا هذا قيل له : دع هـذه البقايا الفاسدة وأقبـل ومن تحب على دين جديد فيه الخير والصلاح والهداية إلى خالق الأرض والسماء .

فلمَ لا يترك تلك البقايا الفاسدة ؟ ولم لا يقبل على الدين الجديد؟

إنه لا يحب بقايا الجاهلية ، ولا يربطه بها شُحّ ولا كبرياء ولا ذلة ولا غباء ، وإنه ليفهم ويعقل ويحب الخير والصلاح ويحس في قلبه جيشان الروح والضمير ، وإن الذي يدعوه لكريم حليم صادق قويم حبيب إلى النفس مبرّأ من العيب يحق له أن يجاب ، وإنه لا يخاف لأنه شجاع ، ولا يقابل الأمر بفتور المستخِف لأنه رجل حي الفؤاد مطبوع على الحماسة لما يؤمن به والإعجاب بمن يستحق عنده الإعجاب .

فالعجب أن يُدعى إلى تلك الدعوة فلا يجيبها أسرع ما يكون الجواب ، وليس العجب أن يسرع إلى إجابتها كما أسرع فأجاب .

وهكذا يبين لنا في إسلام أبي بكر كما بان لنا في إسلام كل رجل ذي ذي بال من السابقين إلى الدعوة المحمدية أنها دعتهم إليها بأسبابها المعقولة فاستجابوا إليها بأسبابهم المعقولة التي تُوائم كلاً منهم أصدق المواءمة ، ولا تحوج أحداً من المعللين والمفسرين إلى الخوارق المكذوبة ، أو إلى تفسير الأمر بالوعد والوعيد ورغبة الجنة ورهبة السيف .

وكما قلنا في كتابنا « عبقرية محمد » إن الأقوياء لم يُسْلموا خوفاً لأنهم أقوياء ، وإن الضعفاء لم يُسلموا خوفاً لأن الإسلام عرضهم للقتل والعذاب ولسيوف المشركين الذين لهم عليهم سيادة وطغيان ، « وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال : إن الذين سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة ، ولكنهم

اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور . فمن كان أقرب إلى هذه الطلْبَة من غني أو فقير ومن سيد أو مستعبَد فقد أسلم . ومن كان به زيغ عنها فقد أبى ، وهـــذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه ، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف ، وما يقسّم الطائفتين أحـــد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف ، ويضع الطغاة من قريش في جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون له هوى كهوى الكفار ... »

* * *

كان الصديق إذن أول رجل من شرفاء العرب دان بالإسلام بعـــد نبيه عليه السلام . دان به سريعاً إلى دعوته لتلك الأسباب التي تليق بـه وتليق بالدعوة المحمدية ، وكتب له في اللحظـــة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبي هو أول الاثنين . فكان ثاني اثنين في الإسلام ، وثاني اثنين في غار الهجرة ، وثاني اثنين في الظُّـلة التي أوى إليهـا النبي يوم بـدر الذي لا يوم مثله ، وثاني اثنين في كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب إلى النبي في شدة الإسلام ورخائه ، وفي سره وجهره ، وفي شئون نفسه وشئون المسلمين .

ومن اللحظة الأولى وهب للإسلام كل ما يملك إنسان أن يهب من نفسه وآله وبنيه . فأخذ أمه إلى النبي لتسلم على يديه وهي بين الحيـاة والموت ، وجاءه بأبيه بعد فتح مكة ليسلم على يديه وقـد جلَّلَه الشيب

وابيض رأسه كأنه ثُغَامة [١] ، وحمل ماله كله وهو يهاجر في صحبة النبي يؤثر به الدين على الآل والبنين .

والروايات في توجيه الدعوة إليه مختلفات: منها ما يؤخذ منه أن النبي عليه السلام وجه الدعوة إليه خاصة فلباها ، ومنها ما يؤخذ منه أنه عليه السلام قصد الناس في المسجد بالدعوة العامة فاتصل نبؤها بأبي بكر فجاءه يسأله :

يا أبا القاسم ! ما الذي بلغني عنك ؟

فسأله النبي : وما بلغك عني يا أبا بكر ؟

قال : بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله ، وزعمت أنك رسول الله .

قال : نعم يا أبا بكر . إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً ، وجعلني دعوة إبراهيم ، وأرسلني إلى الناس جميعاً .

فما أبطأ أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذباً وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمك وحسن فعالك . مُدّ يدك فإني مبايعك .

والصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الفعال صفات يفهمها أبو بكر لأنه يحبها ويتصف بها ويحب أهلها. فهو صادق أمين رحيم حسن الفعال ،

---

١ — الثغام : نبت جبلي ورقه كورق الزنجبيل ، إذا يبس شبه الشيب به .

وتلك أقرب الآيات إلى لُبّه وقلبه ، وهي أولى الآيات بالتصديق عند الصادقين المصدقين ، فمن الجائز أن تخدعنا الخوارق وليس من الجائز أن يخدعنا من يصدُق ويبَر ويؤدي الأمانة ، ويستقيم على سواء الطريق في فعاله وخصاله .

وأصبح الإسلام منذ تلك اللحظة ديناً عند أبي بكر يقابل الدنيا بما وسعت من خيرات وطيبات . أصبح عنده غنيمة يفتديها بكل غنيمة يضن بها المرء من حياة أو آل أو ذرية ومال ،ولو قاسه بمقياس دنيا . لقد كان الإسلام بليّة عليه لا يطلبها عاقل ، ولكنه قاسه بمقياس دين فعلم أنه أربح الرابحين وأرشد الراشدين .

طلبه ديناً وكفى . فصبر فيه على ما يجزع منه طالب الدنيا ، ويابى أن يستهدف له أو يشارفه من بعيد .

كان المسلمون دون الأربعين يوم أشار على النبي أن يجتمعوا في المسجد ويجهروا بالدعاء . فلما وقف بينهم في المسجد يدعو إلى الله ورسوله وثب عليهم المشركون يضربونهم ويؤذونهم ويوسعونهم إهانة مع الضرب والإيذاء ، وتصدى عتبة بن أبي ربيعة لأبي بكر فجعل يضربه بنعلين مخصوفين حتى ورم وجهه ، وخفي على الناظر إليه مكان أنفه . وتسامع أهله من بني تيم فاقبلوا يتعادون ويُجلْون المشركين عنه . ثم حملوه في ثوب إلى بيته وما يشكون في موته . وصاح منهم صائحون في المسجد : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة .

ثم أحاطوا به يكلمونه حتى أفاق وأجاب ، فكان أول ما فاه به وهو في تلك الحال : ما فعل رسول الله ؟

فلاموه وعنفوه ، وسالوا أمه أن تطعمه أو تسقيه شيئاً يرد إليه نفسه فابى أن يا كل أو يشرب حتى يعلم ما فعل رسول الله .

قالت : والله ما أعلم بصاحبك .

قال : فاذهبي إلى بنت الخطاب فاساليها عنه .

فلما جاءتها أنكرتها وأشفقت أن تكون عيناً من عيون المشركين عليها وعلى رسول الله . فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله !. ثم عرضت عليها أن تذهب إلى أبي بكر لتسمع منه وتطمئن إلى مقاله . فوجدته صريعاً دَنِفاً قد برَّح به الألم ، فغلبها الإشفاق فاعلنت بالصياح وهي تقول : إن قوماً نالوا منك لأهل فسق . وإني لأرجو أن ينتقم الله لك .

فما زاد على أن كرر سؤاله الذي لزمه مذ أفاق من غشيته : ما فعل رسول الله ؟

قالت وهي لا تزال حَذِرَة من أمه: هذه أمك تسمع !

قال : لا عين عليك منها .

قالت : سالم صالح !

فلم يكفه ذلك حتى يراه بعينه ، وسالها : أنَّى هو ؟.. فاعلمته بمكانه

من دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وأحب أن يذهب إليـه ، وكأنه أحس من أمه ممانعة في خروجه وهو بتلك الحال ، حتى يتبلغ بشيء ويذوق شراباً يرويه ويقويه ، فاقسم لا يذوقنّ طعاماً ولا شرابـاً أو يرى رسول الله.

وأكبرت المرأتان العطوفان حبه لصديقه ونبيه، فأمهلتاه حتى هدأت الرِّجْل وسكن الناس، وخرجتا به يتكىء عليهما ولا يقدر على حمـل نفسه . ثم دخلتا به على رسول الله وهو بتلك الحالة فانكب عليه يقبله ، ورق الرسول لصديقه وصفيه رقة شديدة ، فقال الصديق الصفي : بأبي أنت وأمي ! ليس بي إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهـذه أمي برة بوالديها فادعها إلى الله ! وادع لها عسى أن يستنقذها بك من النار .

ولبث بين المشركين يستهين بالخطر على نفسه ، ولا يستهين بخطر يصيب النبي قل أو كثر حيثما رآه واستطاع أن يذود عنه العادين عليه ، وإنه ليراهم آخذين بتلابيبه فيدخل بينهم وبينه وهو يصيح بهم : « ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ » فينصرفون عن النبي وينحون عليه يضربونه ويجذبونه من شعره فلا يدعونه إلا وهو صديع .

ولما أذن له النبي في الهجرة إلى الحبشة بعد ما ابتلي به من عنت المشركين غضب لرحلته الأكرمون من القوم ولحـق به ربيعة بن فهيم المعروف بابن الدُّغُنة فقال له : إن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج. إنك تُكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار . ارجع واعبد ربك ببلدك.

وطاف ابن الدُّغنَـة عشية في أشراف قريش يبلغهم أنه أجار أبا بكر فعرفوا له جواره وقالوا له : مره فليعبد ربه في داره يصلي فيها ويقرأ ما يشاء ، ولا يؤذينا ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .

إلا أن أبا بكر بنى بفناء الدار مسجداً يصلي فيه ويرتل القرآن ، ويستمع له النساء والأطفال فيجتمعون إليه . منهم من يسخر ومنهم من يعجب ويسأل عن الخبر . ففزع المشركون وطلبـــوا إلى ابن الدغنة أن ينهاه أو يسترد منه ذمته ، فأبى أبو بكر أن ينتهي عن الجهر بالصلاة والقراءة ، وقال لابن الدغنة : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل !

وبقي بمكة طوال مقامه بها يعمل لدينه ولنبيه ولا يعمل لنفسه إلا ما ليس عنه غنى من طلب المعاش ، يدعو وجوه الناس ويعرض الأمر على القبائل ، ويُغْني في الدعوة بصلاح سيرته ورجاحة قدره ويقين الناس باستقامة قصده ، ما قل أن يغنيه دليل العقل أو نقاش الجدل والملاحاة . وكان يتعرض للأذى فـــلا يعنيه أن يتقيه كما يعنيه أن يَقِيَ منه النبي وسائر المسلمين.فكان يُعين الفقراء ويُعتق الموالي الذين يُسامون العذاب في سبيل الله ، أو يحمـــل المغارم ويهيىء لمن أراد الهجرة وسائلها ، ولا يكون عمل من الأعمال ينفـــع الدين الجديد وينفع أهله إلا وله سهم فيه .

ثم كانت هجرته إلى المدينة فكانت أخطر هجرة أقدم عليها مسلم

من أهل مكة . إذ كان كفار قريش يقيمون لكـل مهاجر من الأرصاد والعيون كَفَاء قدره ، وكانت أرصادهم وعيونهم على النبي أكثر مـا استطاعوا من عُدة وكيد وحَيْطـة . فكانت الهجرة في صحبة النبي شرفاً من شرفين ، لا يدري المرّجح بينهما أيهما أحق بالإعظام : إما مجازفة بالحياة ، وإما يقين لا يخامره الريب أن النبي ناج في حمـاية ربه ، ولو كان في الهجرة ما فيها من فراق الوطن أو الهجوم على فراق أرهب منه وأقسى ، وهو فراق الدنيا .

فتلقى أبو بكر الإذن بهذه الهجرة كما يتلقى البشارة بالسلامة . قالت بنته عائشة رضي الله عنها : « ما شعرت قبل ذلك أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي حين أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحبته » .

وقالت بنته أسماء رضي الله عنها : « لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهاجر أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله خمسة آلاف درهم أو ستة . فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره . وقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه . قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، وأخـذت أحجاراً فوضعتها في كُوّة البيت الذي كان أبي يضع فيه ماله ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده وقلت: يا أبت ، ضع يدك على هذا المال . فوضع يده عليه وقال : لا باس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . ولا والله مـا ترك لنا

شيئاً ، ولكني أردت أن أسكّن الشيخ » .

***

وكذلك أقبل الصديق على الإسلام وهو عالم بالذي هو مقبل عليه . لم يقل له أحد ولا قال هو لنفسه إن الأمر أهون مما توقع ، وإن البلاء بعقيدته التي تحوّل إليها أخف مما وجد ، فلم يجد نَصَباً وكان يرجو الراحة ، ولم يجد غُرْماً وكان يرجو المنفعة ، ولم يجد عداء من قومه وكان يرجو منهم المودة ، ولم يجد خطراً وكان يرجو السلامة ، وإنما دخل في شيء يتوقع ما هو ملاقيه فيه ، ويراه دون حقه من المصابرة والحفاظ والاحتمال ؛ لأنه الدين . لأنه الحياة الفانية والحياة الباقية . لأنه الحق ودونه الباطل ، والهدى ودونه الضلال .

فما أقبل إنسان قط أصدق من هذا الإقبال ، وما تأهب إنسان قط لبلاء في سبيل ضميره وربه أعظم من هذه الأُهْبَة ، وما نَفُس الصدق عند إنسان قط أغلى من هذه النفاسة . فهي سلامة النفس وسلامة الآباء والأبناء وسلامة المال والعتاد وسلامة الدنيا بأسرها يعلقها بكلمة صدق من رجل صادق ، وإن أناساً ليصدقون غاية التصديق ثم لا يخاطرون في سبيل الصدق برزق يوم ولا براحة ساعة .

إنه الصدّيق .

وما وصف بكلمة واحدة هي أجمع لخلائقه من كلمة الصدّيق .

ولقد رأينا أناساً من الناقدين يستنكرون على عربي في الجاهلية أن يُقَوِّم الهداية الدينية بهذه القيمة التي لا تعلوها قيمة.

ولكنهم مخطئون.

لأن العربي الجاهلي عرف «الحق» وعرف بيع الحياة في سبيل «الحق» كما يراه: حق الجوار أو حق العرض أو حق الشرف والذمار.

وأبو بكر خاصة كان ممن يرعَوْن الحقوق ويكْفلونها لأهلها، وكان ممن يكرهون البغي ويَنْقِمونه على أهله.

فإذا عرف «الحق» الأكبر فغير عجيب أن يرعاه هذه الرعاية وأن يكفله هذه الكفالة، وهو مهيأ لعِرْفانه بكرم الخَليقة وطيب النَّحيزة واستقامة الفطرة وصفاء القريحة.

وقد عاش أبو بكر في زمن كان عقلاؤه في كل أرض يتطلعون إلى هداية من السماء، ويخيل إلينا أن انتظار الهداية من السماء لم يطل في زمن من الأزمان، ولا سيما الزمن الذي يعم فيه الفساد وتَعْيا به حيلة الإنسان، وحسبنا أننا بعد الإسلام رأينا أناساً يترقبون «المهدي» الذي ينشر العدل كلما عم الجَوْر، ويأمر بالعرف كلما فشا المنكر، ويهدي إلى سواء السبيل كلما استحكم الضلال.

وقبل البعثة المحمدية كان أناس ينتظرون الهدى من نسل داود أو ينتظرونه من نسل إسماعيل بن إبراهيم.

وسمع أبو بكر ما سمع من هذا في رحلته إلى اليمن ، ورحلتـــه إلى الشام ، وفي حديثه مع وَرَقَة بن نَوْفل ، وحديثه مع المنكرين لظلام الجاهلية والمستشرفين إلى كل نور جديد .

وهذا محمد بن عبدالله يدعوه دعوة إبراهيم: دعوة الأب الأكبر الذي يشمل العرب جميعاً ، ومن فوقها دعوة الله التي تعم جميع الناس .

فمَن أولى منه بالدعوة ، ومن أولى منه بالتصديق ؟

إنه استشار خُلقَه القويم فهداه ، وإن مشورة العقل وحدها لتهديه هذه الهداية ، حيثما وازن وقابل فأحسن الموازنة والمقابلة بين جميع ما ينتظم فيها من شئون ذلك الزمان .

كان أبو بكر في اهتدائه إلى الإسلام هو أبو بكر في نشأته وسليقته وجملة أحواله وأحوال قومه وعهده .

وكان أبو بكر في إسلامـــه هو أبو بكر فيما وصف به وفيما جد عليه من إيمان المصدق بدينه ، وحماسة المعجب ببطله .

كان إسلامه إسلام الرجل الكريم السمح الودود . يستمسك بالصدق والتصديق ويُخلص في الإعجاب بالبطل الذي هداه إخلاصاً لاشِيَةَ فيه . فهو يلين في كل حالة ويشتد في حالة واحدة هو فيها أشد الأشداء : مرجعها إلى كل ما اتصل عنده بقوة التصديق وقوة الإعجاب .

قال بعد مبايعته بالخلافة : « إنما أنا متَّبع ولست بمبتدع » فجمع إسلامه أجمع صفة وأحسنها في هذه الكلمات .

وربما عرض له من الأمر ما ليس يتضح فيه طريق الاتباع ، فيخرج إلى الناس يسألهم ثم يقول : « الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا سنة نبينا » .

فلا يبتدع إلا بعد استقصائه كل مرجع من مراجع الاتباع .

وفي هذا هو شديد غاية الشدة ، بعيد من اللين والهوادة غاية البعد ، وهو الرجل الذى اتسم في حياته كلها باللين والهوادة .

فتصديق المؤمن وإعجاب المعجب ببطله العزيز عليه ، هما تفسير كل شدة يشتدها الصديق الحليم الودود .

هو شديد في تسيير جيش أسامة لأن النبي عليه السلام ولاه وأمر بتسييره ، وما يكون له أن ينزع رجلاً استعمله رسول الله « ولو تخطفته الذئاب ولم يبق في القرى أحد غيره » .

وهو شديد في حرب الردة ، لأنه لا يترك عِقالا كان رسول الله يأخذه من المرتدين .

وإذا رأيناه يتردد بين الهوادة والشدة في محاسبة بعض الناس فالشدة التي مرجعها التزام جادة الرسول والاقتداء بقدوته في كل شيء هي أقرب

النفـيرين إلى فهم عمله ، وهي أغلب في طبعـه من اللين والهوادة ، على اشتهاره بهما في كل ما عدا ذاك .

فالهوادة ليست هي التي تفسر لنا عمله في ترك جزاء خالد بن الوليد على البناء بامرأة مالك بن نويرة ، والبناء ببنت مجاعـة في حرب بني حنيفة ، وتوزيع الأموال وتأخير الحساب ، وإنما الذي يفسر لنا هوادته معه أنه سيف من سيوف الله ، ولا يعزل أبو بكر من استعمله الرسول وله مندوحة عن عزله .

ويتبين لنا مناط الشدة واللين عنده في جناية واحـدة استصغر فيها العقوبة على امرأة واستكبر العقوبة نفسها على امرأة آخرى ، وذلك إذ كتب إليـه المهاجر بن أبي أميـة المخزومي يقول له : إن مغنيتين تغنت إحداهما بثلب رسول الله ، وتغنت الأخرى بثلب المسلمين ، فقطع يديهما ونزع ثناياهما لتكفا عن الغناء . فخطاه أبو بكر لأن الأولى كانت أحق بالقتل ، وأن الثانية كانت أحق بالصفح . . . وأوصاه أن يقبل الدعة وأن يحذر المُثلة « فإنها مأثم ومُنَـفِّرة إلا في قصاص » .

ففي تعظيم النبي كل شدة قليلة ، وفي أمر غـيره كل صفح جائز بل مستحَب محمود ، وليست هي المحبة التي يعوزها التفكير قد فرقت هـذه التفرقة بين العقابين ، لأن هجو النبي قدح في لباب الدين وأُس النظام ، وهجو المسلمين وزر قد يأتيه المسلم في خلاف بينه وبين قومه ، ولكنها على هذا حادثة قد عرضت لنا طبع أبي بكر في حالتيـه : لين وهوادة ،

وإعظام لا لين فيه ولا هوادة ، وإنما هي الشدة كأشد ما تكون.

* * *

وربما تهيب الأمر فيه نفع لا شك فيه إذا لم يسبقه النبي عليه السلام إلى صنعه أو صنع مثله، لفرط اتقائه أن يصنع ما ترك أو يترك ما صنع، كما تهيب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر ، فقال : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » ثم استصوب جمعه لما فيه من خير .

فسماحة أبي بكر كانت طبيعة فيه لأنه طبع على الرفق والأناة والأخذ بالحيطة واستبقاء المودة .

وشدة أبي بكر كانت طبيعة فيه ، لأنه طبع على تصديق من هو أهل لتصديقه ، والإعجاب بمن هو أهل لإعجابه ، ولن ترى شدة في إنسان كشدة الرجل السمح في تنزيه صفيه وحبيبه وموضع إعجابه ، ولا حرصاً في إنسان كحرصه على القدوة بذلك الصفي الحبيب المعجب به ، واجتناب التخلف عنه والحيد عن طريقه

وفيما عدا هذه الشدة لم يكن أبو بكر إلا حلماً غالباً ورحمة غالبة؛ ولم تنفرج أمامه طريقان : إحداهما إلى العفو ، والأخرى إلى البطش إلا أخذ بالأولى وأعرض عن الثانية .

شاوره النبي عليه السلام في أسرى بدر فقال : « يا نبي الله ، هؤلاء بنو

العم والعشيرة والإخوان ، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عَضُداً ».

وشاوره حين اجتمعت قريش لصدّه وصد المسلمين عن البيت فنادى بالناس : « أشيروا أيها الناس عليّ. أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن فاتونا كان الله قد قطع علينا من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين ؟ »

فقال أبو بكر : « يا رسول الله ؛ خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتال أحد ولا حرباً ، فتوجّه له فمن صدّنا قاتلناه » ... يقاتل من صده عن البيت ولا يقاتل من لم يصده .

وشيع جيش أسامة فلم ينس أن يوصيه بالضعفاء وهو ذاهب إلى القتال : « لا تخونوا ولا تَغُلّوا ، ولا تغدروا ، ولا تُمَثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تَعْقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله » .

وليس أكثر من الشواهد التي تشهدنا على قوة الدين في نفوس من

آمن به . إلا أننا لا نعلم بينها شاهداً أصدق في الدلالة على تلك القوة من من أن يدين المرء نفسه بالدين أمام أعدائه ، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده . ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المُثلة بأعدى الأعداء في ميدان القتال ، فلما بعث اليه عمرو بن العاص برأس بُنان بطريق الشام أنكر فعله أشد إنكار ، ولم يخفف من إنكاره قول عقبة بن عامر له : إنهم يصنعون ذلك بنا، بل قال: أيَستنُّون بفارس والروم ؟ لا يحمَل إليّ رأس . إنما يكفي الكتاب والخبر .

فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال . وهذا بلاغ الدين القويم في نفس إنسان .

***

وهكذا كان مسلكه مع إخوانه وأعدائه ، وفي لينه وشدته ، وفي مفترق كل طريقين : إحداهما الى الشدة وأخراهما الى اللين . فقال النبي عليه السلام يصفه ويصف عمر : « .. إن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم،ومثلك يا أبابكر مثل عيسى قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »...و «إن مثلك يا عمر مثل نوح قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً . ومثلك مثل موسى قال : ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يرَوا العذاب الأليم ».

ولم يكن عمل من أعماله في قضاء حقوق دينه وآداء فرائضه إلا يدل

على هذه الخليقة التي اتصف بها في جملة حياتـه الإسلامية ، وهي المبادرة في كل ما فيه قدوة بالنبي عليه السلام ، والأخذ بالحيطة في كل ما يحتمل التعجيل والتأجيل .

سأله النبي : متى توتر ؟ قال : من أول الليل .

وسأل عمر ، متى توتر ؟ قال : من آخر الليل .

فقال لأبي بكر : أخذتَ بالحزم ، وقال لعمر : أخذت بالعزم .

وصلاة الوتر كما لا يخفى تقضى من بعد العشاء إلى ما قبل الفجر ، ويرى بعض الأئمة أنها فريضة ، ويرى بعضهم أنها سنة يقتدى فيها بالنبي .

فأبو بكر يبادر إلى أدائها ويأخذ بالحيطة مخافة أن يفوته أوانها إذا أجّلها ، وعمر الشديد على نفسه الواثق من عزيمته يعلم أنها لن تفوتـه وأنه لن يغلبه عليها غالب من النوم ، فيؤجلها إلى ما قبل الفجر ، وهو واثق من أدائها في أوانها .

لهذا قال النبي لأبي بكر : إنه أخذ بالحزم وهـو الأحوط ، وقال لعمر إنه أخذ بالعزم وهو الأقوى ، وعرف صاحبيه في هذه الفارقـة الصغيرة كما عرفهما في كبار الأمور وصغارها .

وإن العقيدة التي تتسع لهذين الرجلين ولهذين الخلقين ولهذين العقلين، ثم يكون كلاهما إماماً فيها عظيماً في اتباعها، لهي عقيدة تتسع لكثير .

الصِّدِّيقُ وَالدَّوْلَةُ الإِسْلَامِيَّةُ

قلنا في كتابنا «عبقرية عمر» إن الدولة الإسلامية «تأسست في خلافة أبي بكر رضي الله عنه لأنه وطّد العقيدة وسيّر البعوث. فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الرّدة، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح. فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين».

«إلا أننا نسمي عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة. لأننا «أولاً» لا نجد مكاناً في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام، ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح. وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه وأعزها بهيبته وعنفوانه ...»

إلى أن قلنا « ... إنه كان في يوم إسلامه آخذاً في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء » .

والذي قلناه عن عمر في تأسيسه بناء الدولة الإسلامية قبل خلافته يصدق على أبي بكر بهذا المعنى منذ يوم إسلامه قبل سائر الصحابة وسائر الخلفاء .

ويكفي من ذلك أن نذكر الذين أسلموا على يديه من عظماء القوم وضعفائهم على السواء . فقد كان لإسلامه أثر بالغ بين السادة ، كما كان له أثر بالغ بين العبيد والأتباع ، وما هو إلا أن علم الوجوه والعِلْية من فُضلاء قريش أن أبا بكر رضي الإسلام ديناً حتى كان للقدوة به حُجة عندهم أقوى من حجة البيان والإقناع : إن الدين الذي يرتضيه رجل كأبي بكر في مروءته وصلاحه وشرفه واستغنائه واستقامة قصده وسلامة صدره لدينٌ جدير بالاستماع إليه والنظر في دعوته ، وإن النظر في دعوته وفيما بينها وبين العقائد الجاهلية من البَوْن الشاسع لكاف وحده لكسب القلوب وتحويل الأذهان ، ولا سيما عند من خلا من الغرض في دوام العقائد الجاهلية وإحباط الدعوة الجديدة أو كل دعوة جديدة كائناً ما كان حظها من الخير والفلاح .

فأسلم على يديه رهط من أكبر السادة وأكبر القادة في الإسلام ، أسلم على يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ،

وعبدالرحمن بن عوف، وعبدالله بن عبد الأسد أبو سلمة، وخالد بن سعيد، ومنهم من أسلم وهو يفع أو شاب ناشىء كسعد والزبير ، فكانا فتوةً للإسلام حين جد الجد واشتدت سواعده بسواعد فتيانه الأبرار .

واشترى نفراً من العبيد المرهقين : منهم بلال بن رباح مؤذن النبي عليه السلام . وكان سيده يخرجه في حمّارة القيظ فيطرحه على ظهره في بطْحاء مكة ويلقي بصخرة عظيمة على صلبه ويدَعهُ وهو يقول : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد . فلا يزيـــد على أن يقول : أحـد . أحـد ، ويرددها حتى يوشك أن يغيب عن وعيه من ألم العذاب. اشتراه أبو بكر أو استبدله بما يساوي خمس أواق ذهباً فقيـل له : لو أبيت إلا أوقية لبعناك ! وقال : ولو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذتـــه ، ومضى في شراء العبيد والإماء بما يطلبه سادتهم من ثمن يغالون فيـــه ليعجزوه ويدخلوا الندم على نفسه ، وهو لا يبالي ما يبذل من ماله وجهده لينقذ أولئك المساكين من أيدي المشركين ويريحـــهم من قسوة السادة المتجبرين . فكان كسبه لقلوب الضعفاء أربح للإسلام وأجدر بسمعته ورحمته من كسبه قلوب العِلْية الأعلام ، وأبلغ في التدين والفضيلة من إقناع بنافذ الحجة وإبلاغ بصادق الكلام . ولعل الدعوة الجديدة كسبت بين الأمم بهذه الرحمة أضعاف ما كسبته بهداية الشرفـــاء الذين اقتدوا به وذهبوا إلى النبي من طريقه .

ولم يزل في كل عمل من أعماله منذ أسلم إلى أن تولى الخلافـة مؤسساً لهذا البناء الشامخ الذي كان هو أول من قام عليه بعد بانيه . فالدعـــوة

الصريحة إلى الإسلام في المسجد بمسمع من قريش ، والهجرة مع النبي من داره ، وبذل المال في البعوث وغير البعوث ، وتيسير القدوة للمقتدين بإسراعه إلى التلبية والتصديق كلما التبس الأمر واضطربت الأفكار ، ومحاربته قريشاً بعلمه واطلاعه على الأنساب كما حاربهم بماله وسلاحه ومشورته ورأيه – بل كل ما عمل منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة ، فهو في جملته ركن من أركان الدولة الإسلامية يجعله بالحق مؤسساً لها مشاركاً في بنائها ، بسلطان العقيدة قبل سلطان الحكومة والكلمة المسموعة .

* * *

ثم كانت البيعة بالخلافة . .

وكانت بعثة أسامة بن زيد ، وكانت حروب الردة ، وكانت بعوث العراق والشام ، فقام على هذه المآثر الثلاث التي لا يقضي حقها من الإكبار كلّ ما قام بعد ذلك من بناء .

بعثة أسامة وما بعثة أسامة ؟ . . . يستصغرها بعض المؤرخين المحدَثين ويقولون إنها من نوافل البعثات ، لأنها بدأت وانتهت بغير فتح وبغير ..رة وبغير حظ كبير من الغنائم تلجىء إليه ضرورة من الضرورات .

وإنهم لمخطئون .

وإن الصديق لعلى صواب .

ولقد يكون في صوابه إلهام أو تكون فيه روية وقصد مرسوم ،

ولكنه سداد على كل حال ، ووجهة قويمة هي أدنى الوجهتين إلى النفع والصلاح .

بعثة أسامة كانت العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية هي في ذلك الحين خير السياسات .

كان قِوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله .

وكانت الطاعة ـــ جد الطاعة ـ مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطأ الأكبر في ذلك الحين .

وحيث يكون التمرد هو الخطأ الأكبر فالطاعة ـ بل الطاعة الصارمة ـ هي العصمة التي ليس من ورائها اعتصام .

وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك الحين لا مِراء :

كان النفاق يُطْلع رأسه في مكة والمدينة ، وكانت القبائل البادية تتسابق إلى الردَّة في أنحاء الجزيرة ، وكان جند أسامة نفسه يود لو استبدل به أميراً غيره ، وكان أسامة أول من يشك في طاعة القوم إياه ويترقب أن يخلفه على البعثة أمير سواه .

تمردٌ ، أو نذير بتمرد ، في كل مكان .

وطاعة واجبة هنا حيث نبع التمرد ، أوْ لا سبيل إلى واجب بعد ذلك يطاع .

طاعة أو لا شيء .

فإن بقيت الطاعة فقد بقي كل شيء .

وهنا تسعف الصدّيق طبيعة هي أعمق الطبائع فيه ، أو هي العبقرية الصدّيقية في أوانها ، وعلى أحسن حال تكون .

هنا تسعفه القدوة القويمة بالبطل المحبوب .

وهنا يقول وقد خوفه الخطر على المدينة والجيش يفارقها :

« والله لا أُحلّ عقدة عقدها رسول الله ! ولو أن الطير تخطفتنا ، والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزنّ جيش أسامة ! »

كلمة لو قالها غير أبي بكر لكانت كبيرة ، ولكن الذي يقولها أبو بكر وبنته أعز أمهات المؤمنين .

فلا خطر إذن أكبر من خطر الاجتراء على حق الطاعة في تلك الآونة ، ولو جرت الكلاب بأرجل البنات والأمهات .

ومن المؤرخين المحدثين من قال ما فحواه : إن بعثة أسامة انما أرسلت ثاراً لأبيه زيد الذي قتل في معركة مؤتة ، وإن قاتله في تلك المعركة قد مات لتوه ، أفما كان إرجاء البعثة من المستطاع وقد أدرك ثأر القائد القتيل ؟

ومن المهاجرين والأنصار من كان يرى الرأي في بقاء البعثة بالمدينة بعد موت النبي عليه السلام ، وفي مقدمتهم أسامة .

ومنهم من كان يرى أن يتقدم للقيادة من هو أسنّ منه وأخبر

بفنون القتال ، ومنهم عمر بن الخطاب .

أما أبو بكر فقد رأى العصمة ـ حق العصمة ـ في رأي واحد لا رأي قبله ولا بعدها ، وهو الطاعة في غير ليّ ولا هوادة ولا إبطاء ، ولو لم يكن التمرد هو الآفة المحذورة في تلك الآونة لقد كان غير الرأي أصوب ، ولكنه كان آفتها التي لا آفة مثلها ، ثم لا خطر إن سلمت الدولة من شرها ، فلتكن الطاعة إذن هي الصواب ، وهي الملاذ.

وقد ضرب المثل الأول في الطاعة التي أرادها . فشيّع البعثة وهو ماش على قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره. فقال أسامة: يا خليفة رسول الله . والله لتركبن أو لأنزلن . فقال : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب . وما عليّ أن أغبّر قدمي في سبيل الله ساعة .

ثم استأذن أسامة قائلاً : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فعاد عمر بإذنه : بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة هناك، حتى على الخليفة وعلى أكبر الصحابة من بعده .

ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله

أفكان المؤرخون المحدثون على صواب في أمر هذه البعثة حين قالوا إنها من النوافل بعد مقتل القاتل لزيد أبي أسامة ؟

إنهم لعلى خطأ في كل تقدير قدروه ولو جاريناهم فحصرنا أغراض البعثة في ذلك الغرض الوحيد ، لأن مقتل قائد في معركة ليس بالجريمة

الفردية التي يعاقب عليها القاتل وحده ، وإنما المسألة هنا مسألة الجيش كله ، وهيبة الأمة التي أرسلت ذلك الجيش وتمثلت فيه بقوتها ومناعة حوزتها ، فإن لم يقع في روع الأعداء المقاتلين أن ذلك الجيش قوة تهاب وتنال حقها من الثار فقد بطل الغرض كله من القتال .

وفي هذه البعثة بعينها ، ماذا كان يحدث لو أن قبائل غسان وقضاعة استضعفت شان المسلمين وفي أيديها الطريق بين بلاد العرب وبلاد الروم ؟

كل شيء جائز أن يكون

وأوله إغراء الروم بالهجوم ولهم عون من تلك القبائل ومن يجتمع إليها من المجترئين والمتحفزين ، ولما تقعدهم عن الاجتراء والتحفز هيبة جيوش الإسلام .

ولقد أدرك أناس في عصر أبي بكر صواب الرأي في إنفاذ تلك البعثة بعد إنفاذها وعودتها . فشاع في الجزيرة العربية خبرها ، وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا : وقالوا فيما بينهم : لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء .

فإذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزاً لدفع خطر ، فإرساله كذلك جائز لدفع خطر مثله ، وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة ، وهو يومئذ ألزم الدروس .

***

ثم تكرر هذا الدرس في أوسع نطاق لأنه نطـاق الدولة الإسلامية كلهـا في ذلك الحين ، وجاءت حروب الردّة التي هي مفخرة أبي بكر الكبرى غير مدافع ، أو هي مفخرته الخاصة التي انفرد بهـــا في تاريخ الدعوة الإسلامية بغير شريك . فكان « هو نفسه » كما يقول الغربيون في تعبيراتهم حين يذكرون الأعمال التي تـدل على صاحبها بجميع خصائصه ولُباب شعوره وتفكيره ، وتُبرزه على حقيقته التي لا ممـــاراة فيها ، خلافاً لأعمال أخرى قد تكون فيها هذه « الحقيقة » موضع التباس أو اختلاف .

ففي حروب الردّة كان أبو بكر رضي الله عنه هو أبا بكر على سوائه وجلائه ، ولم يكن موقفه فيها غريباً كما يسبق إلى الذهن للوهلة الأولى حيثما يخطر للذهن أنه الرجل الوديع الرفيق، وذلك الموقف أولى المواقف بالصلابة الصارمة والبأس الشديد .

غضب الصديق رضي الله عنه في حروب الردة غضبته التي لا بد أن يغضبها وإلا فما هو بغاضب .

أثارته ردة المرتدين لأنها مسته في كل ما يُثيره ، وأصابته في كل مـا يُعزّه ويغار عليه .

فهنالك الصديق المحب لصديقه ، والمعجب الغيور على ذكرى بطله ، يثيره أن يغدر الغادرون بعهـد ذلك الصديق وذكرى ذلك البطل ، ولّما تمض له في قبره أيام أو أسابيع .

وهنالك المسلم « الصدّيق » الذي آمن ببشارة النصر ولو كره الكافرون ، كما آمن من قبل بانتصار الروم على الفرس بعد بشارة القرآن فخاطر على ذلك النصر بالمال والميثاق ، ولم يخامره الشك لحظة أنه الرابح لا محالة في ذلك الخطار . وكذلك غضب في حرب الردة غضبة الواثق من الحق ، الواثق من الغلَبة ، الواثق من العاقبة ، لأنه سمع البشارة السماوية لينصرن الله الإسلام على الدين كله ، فإذا حارب في سبيل الإسلام فهو لا محالة على حق وهو لا محالة منصور .

وهنالك الرجل « الدقيق التكوين » يقابَل بالاستخفاف في أول خلافته وقد راض نفسه طوال حياته على المروءة والكرامة والوقار ، أنفةً من الاستخفاف وكراهة للصغر والاستصغار ، فإذا بهم يستقبلونه بما أشاح عنه طوال حياته ، وإذا بالأمر صريح بالمقال فضلاً عن صراحته بلسان الحال : هم يستكثرون عليه كنيته أبا بكر فيكنونه أبا الفصيل ؟ وأعوانه يردون عليهم ذلك الاستهزاء متوعّدين : لتروَنّه غداً أبا الفحول .

وهنالك الرجل الذي فيه من وثاقة العزم ما قمع به ثورة الحدّة وهي أصيلة في تركيبه ، ومن كان له ذلك العزم فهو مُنجده حين يحتاج إليه ، وما كان محتاجاً إليه قط لو انه استغنى عنه في فتنة الردة ، وهي تفاجئه بالغضب المثير .

وهنالك الرجل الذي كان مثلاً في الاقتداء بالرسول حيثما سبقت سابقةٌ يُقاس عليها ، وقد سبقت هذه السابقة في فريضة من فرائض

الإسلام وإن لم تكن فريضة الزكاة : سبقت في فريضة الصلاة ، وذهب أناس من المثقفين يعرضون على النبي إسلامهم على أن يعفيهم من الصلاة ، فقال عليه السلام : « إنه لا خير في دين لا صلاة فيه » . وكذلك لا خير في دين لا زكاة فيه ، فإذا جاء المرتدون يزعمون أنهم مسلمون يقبلون فرائض الإسلام ولا يقبلون الزكاة فليس أبو بكر بالذي يقبل منهم ما يزعمون .

إنما كان أبو بكر إذن أصدق ما كان لنفسه وسرائر مزاجه يوم قابل الردة بدرس الطاعة التي لا هوادة فيها ، ولم يكن في باطن الأمر غريباً عن المعهود فيه ، وإن لاح في ظاهر الأمر أنه جاء بالغريب من رجل وديع رفيق .

ولقد أكثر المؤرخون من الكتابة عن حروب الردة ما لم يكثروا قط في حادث من حوادث صدر الإسلام ، وكانوا على حق حين وازنوا بين دعوة الإسلام الأولى في مقاومة الشرك ودعوة الإسلام الثانية في مقاومة الارتداد فإنما كانت الغلبة على فتنة المرتدين فتحاً جديداً لهذا الدين الناشيء ، كأنما استأنفت الدعوة إليه من جديد .

ولكنهم لم يكونوا على حق حين حاولوا أن يصبغوا الردة بغير صبغتها وأن يفهموها على غير وجهها ، ولا سيما النقاد المغرضين الذين انحرفوا بها عمداً ليتسللوا منها إلى الطعن في نشأة الإسلام . فقالوا : إن ارتداد الأعراب إنما كان دليلاً على أنهم قد أسلموا مكرهين ، فما عتموا أن وجدوا سبيلاً إلى النكصة على أعقابهم حتى نكصوا مسرعين .

والمسالة أوضح من هذا لو أراد أولئك النقاد طريق الوضوح .

المسالة أقرب شيء إلى طبائع الأمور في أشباه هذه الأطوار من كل دين ومن كل مذهب ومن كل دعوة تتناول الناس عامة وخاصة ، بل من كل فكرة تُخامر الأذهان والقلوب حتى ما كان من قبيل الحكمة والفلسفة والدراسات العلمية التي يُعنى بها خاصة الباحثين ولا تتسرب دعوتها إلى السواد . فماذا حدث في الحكمة بعد سقراط ؟ وماذا حدث في مذهب النشوء بعد داروين؟ وماذا حدث في علم الأخلاق بعد كانْت أو بعد بنتام أو بعد برجسون ؟

فالذي حدث من ردة العرب هو الطبيعي المنظور أن يحدث، والذي تَخَيَّله النقاد المغرضون واجباً مقرراً هو الغريب الذي لم يحدث قط في دعوة من الدعوات .

وإلا فما هو ذاك الذي كان يتخيله أولئك النقاد المغرضون ؟ . . أكانوا يتخيلون أن ديناً جديداً يملك النـاس جميعاً في الجزيرة العربية فيسري إلى كل نفس ، ثم يسري من كل نفس إلى جميع بواطنها وخفاياها فلا يُبقي فيها بقية للنكسة والارتداد؟ أكانوا يتخيلون ذلك الدين مقتلعاً في مدى تلك السنوات القليلة كل أثر لأطماع الخليقة الآدمية وكل حنين في قلوب الزعماء إلى الجاه القديم ، وكل فضلة من فضلات الجاهلية ، وكل باب من أبواب الدسائس التي تنفذ إلى جزيرة العرب من طريق الدول الأجنبية والعُصب الداخلية ؟ ... أكانوا يريدون من الأعراب بعد بضع

سنوات أن يوغلوا في الإسلام أشد من إيغال قبائل نجران أو الغساسنة في الدين المسيحي بعد بضعة قرون ؟

إن تخيلوا ذلك فاللوم على الخيال المضلل وليس على الواقع ولا على العقل السليم ولا على الإسلام .

وما من شيء أحرى أن يدل على النشأة الطبيعية في الإسلام من هذه العوارض الطبيعية التي عرضت له في حياة نبيه وبعد موته ، وأولها حرب الردة وما اقترن بها من عوامل النكسة والاضطراب .

لقد كان النبي مناط الاستقرار في الجزيرة العربية بعد نجاح دعوته ودخول العامة والخاصة في دينه ، أو كان كما قال الشاعر :

فإنك موضع القسطاس منها فتمنع جانبيها أن يميلا

وإذا غاب «مناط الاستقرار» أو موضع القسطاس فماذا يكون ؟ بل ماذا يمكن أن يكون ؟

يكون نقيض الاستقرار لا جرَم .

أو يكون الميل هنا والميل هناك ، ولو كان العارض الذي طرأ قد عرض لأجسام من المادة لا تعرف الدين باختيار ، ولا تعرفه باضطرار .

فلما غاب « مناط الاستقرار » أول مرة حدث ما لا بد أن يحدث ، وطرأ التقلقل الذي لا مناص منه في كل بيئة ريثما يزول الأثر الطارىء وترجع الأمور إلى نِصَاب .

فعرض لكل طائفة من الناس تقلقلٌ يناسبها ويجري في مجراها .

تقلقل الأنصار وهم مسلمون حق مسلمين ، واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يبتون بتهم في مصير الخلافة ، لأنه مصير لا بد لهم من البت فيه.

وتقلقل المهاجرون من بايع منهم أبا بكر ومن لم يبايعوه ، ومنهم عِترة النبي وأقربهم إليه وأعظمهم إيماناً بدينه والغيرة عليه .

وتقلقل في مكة أناس قريبو عهد بالنفاق ، فهموا بالعصيان لولا نذير من وليّ السلطان .

أما القبائل فيما وراء ذلك فكان لكل منها نصيب من التقلقل يناسب نصيبها من القرب والبعد والمودة والجفاء .

فاقربهم إلى مهد الإسلام كانوا يخلصون للنبي ويخرجون على من ولي الحكم بعده .

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر ؟

وأناس منهم آمنوا بالزكاة ولم يؤمنوا بمن يؤدونها إليه ، واحتجوا بآيات من القرآن الكريم حرفوها إلى المعنى الذي أرادوه ، ومنها : «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم » ... قالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا ! وأبوا أن يدفعوها وإن علموا أن دفعها فريضة من فرائض الدين ، فهم لم ينكروا الفريضة ولكنهم أنكروا الجُباة .

أما الأبعدون من مهد الإسلام فكان لهم تقلقلهم الذى يعرض لكل بعيد لم يسكن قط إلى قرار ، وإنما هو في اضطراب مستور يتربص أن

يثب إلى الجهر ما تهيأ له وثوب .

فأبناء اليمن كان لهم مُلك قديم ، وكانت لهم أُسَر معرقات في الحكم تتداوله تارة بسلطان الحبشة ، وتارة بسلطان فارس ، وحيناً بين هذا وذاك بسلطان أهل البلاد ، وكانت لهم كهانة تمتزج بكل عقيدة من العقائد الكتابية وغير الكتابية . فلما اضطرب بينهم ميزان الأمور برز كل عامل من هذه العوامل في الفتنة بأثر من آثاره ، ونجح بينهم الأسود العنسي صاحب النبوة فيهم ــ وهو مسخ مشوّه ــ لأن التشويه كان من آلات الكهنة والسحر عندهم ولم يكن من عوائق النجاح في أمثال هذه الدعوات . فكان وفاقاً لشروط الكهانة اليمنية على شبه من كاهنهم « سطيح » الذي قيل فيه إنه كان لحماً بغير عظم ، أو كان من لين العظام بحيث يدرج جسمه كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه ، وهي مع هذا تمس باليد فيؤثر فيها المس الخفيف لفرط لينها ، وعلى شبه من كاهنهم « شق » الذي سمي بهذا الاسم لأنه أشبه بنصف إنسان مشقوق لنحافته وانسلاخ أعضائه . فكانت حقارة الأسود العنسي آلة من آلات نجاحه تبطل العجب ولا تدعو إليه ، كلما استعظم أحد أن يظفر مثله بما ظفر به من الفوز العاجل في بداية الفتنة اليمنية .

وحينما رجعت الفتنة إلى مطامع العنسي وأمثاله من المشعوذين الطامحين إلى الصولة فقد بدأت طلائعها من أيام النبي عليه السلام في أنحاء متفرقات من الجزيرة ، لأن هؤلاء المشعوذين لم يفهموا الإسلام ولم يعقلوا قط أنه دعوة إصلاح لخير الناس ، وكل ما عقلوه أنه حيلة كاهن

أفلحت فحق لهم أن يطمعوا في الفلاح لأنهم كهان لا تعوزهم وسائل السحر وحبائل الخديعة . فتطلعت رءوس الفتنة من هنا وهناك والنبي عليه السلام بقيد الحياة ، إلا أنها لم تتفاقم ولم تبلغ مداها من الانتشار في حياته عليه السلام .

ولكنها تجمعت إلى يوم الرجّة التي ارتجتها الجزيرة العربية بعد فراقه هذه الدنيا . وهي رجّة لا محيص عنها . فما كان معقولاً ولا منظوراً أن يحدث هذا الحادث الجلل بغير رجته التي تقترن به لا محالة ، وإذا وقعت الرجة فما كان معقولاً ولا منظوراً أن تقع على غير هذا المثال .

وغاية ما يفهم من هذه الرجة التي لا غرابة فيها أنها الأثر المعقول المنظور لمطامع الطامعين وخلائق الأعراب وذوي الجهالة من أهل البادية في كل جيل. فما عرف التاريخ قط أناساً منقطعين للبداوة الأولى إلا عرف منهم الاستعداد لأمثال هذا الانتقاض كائناً ما كان الدين الذي ينتحلونه والزمن الذي قضوه في انتحاله . وربما مضت مئات السنين على قبيلة من البادية المغرقة في البداوة وهي تدين بالمسيحية أو الإسرائيلية ثم تنقلب مثل انقلاب الردة في رجة من الرجات النفسية أو الاجتماعية التي تشبهها ، ولا يستغرب العالمون بطبائع الناس هذا الانقلاب بعد مئات السنين كما استغرب أناس أن ينقلب بعض أهل البادية على الإسلام أو على دولة الإسلام ، ولمّا ينقض على دخولهم فيه عشر سنين .

على هذه الحقيقة أن تُفهم فتنة الردة إنصافاً للتاريخ إن لم يكن

إنصاف الدعوة المحمدية مما يعني أولئك المستغربين .

ولإنصاف التاريخ ينبغي أن تفهم هذه الفتنة على أنها أصدق امتحان للدعوة المحمدية خرجت منه دعوة من الدعوات .

فإذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الزائغين وريبة المرتابين فهي قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والفداء السمح واليقين المبين فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية تشرق بها صفحات الأديان ، وجاءت الشهادة الأولى على لسان رجل من أصحاب طليحة سأله : ويلكم ما يهزمكم ؟ فقال له : أنا أحدثك ما يهزمنا . إنه ليس رجل منا الا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وإنا لنلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه !

وقد امتحنت دعوة الإسلام وامتحنت جميع الدعوات التي نهضت لمنافسته بقوة السلاح وقوة الدهاء وقوة العصبية فقضت له بالبقاء وقضت عليها بالفناء . ولو كان نجاح الدعوة الإسلامية نجاح سلاح أو دهاء أو عصبية لقد كان أصغر مُتَنَبِّىء من أدعياء الردة خليقاً أن يطمع في ذلك النجاح ، لأنهم بدأوا دعوتهم ومعهم من جموع القبائل التي تعتز بعصبياتها ما لم يتهيأ لصاحب الدعوة المحمدية قبل عدة سنين ، وصدقهم أناس كانوا يقولون إن نبيّاً كاذباً منهم خير من نبي صادق من مضر أو قريش .

وأصدق من هذا كله في امتحان الدعوة المحمدية أنها خرجت من

فتنة الردة وهي بشهادة الواقع والحق بِنْيَة حية تسير على سَنَن الحياة الصحيحة التي لا زيف فيها ولا اصطناع: يعرض لها الخطر من أسبابه، وتعرض لها السلامة من أسبابها، وتنجو كما تنجو البنية الحية القوية حيثما تجمعت فيها عناصر النجاة.

فليست هي جسماً محجباً بالأوهام كما زعم طليحة الكذاب لجسمه أنه لا يعمل فيه السيف ولا تصيبه السهام. ولكنها جسم صحيح يعمل فيه السيف وله مع ذلك ما يدفع الطعن ويبرىء من الجراح.

ولا شك أن المسلمين لم يواجهوا جوانب الخطر كلها في حروب الردة دون المرتدين الذين أشعلوا الفتنة وصُلُوا بنارها. فقد كانت حروب الردة فتنة كجميع الفتن التي لا يؤمن خطرها على الفريقين المشتركين فيها فكان فيها جانبها الخطر على أهل الردة كما كان فيها جانبها الخطر على الإسلام وما كان منها خطراً على فريق فقد كان فيه للفريق الآخر أمان.

وقد كان أمانها على الإسلام أن المرتدين متفرقون لا تؤلف بينهم وحدة معلومة المقاصد في السياسة ولا في الدين، وأنهم هددوا المدينة بجموع البادية فأثاروا فيها سليقة الدفاع ووحدوا بين صفوفها وهي موشكة أن تتصدع بين الشيَع والأهواء. فعلم أهل المدينة كما علم أهل مكة أنهم مهددون بجائحة من البادية لا يطمئنون بعدها إلى مصير، وهبوا يتعاونون ويتكاتفون لاتقاء تلك الجائحة سواء من بايع الخليفة ومن تثاقل عن البيعة في أوائلها. وتقدم على رءوس المدافعين أناس كانوا في يوم البيعة متخلفين،

وجرى القضاء بوقوع أهل الردة في خطأ من أخطاء العجلة كان فيه نفع ـ أي نفع ـ للمسلمين . فهجموا على المدينة مغترين بكثرتهم وقلة المدافعين عنها ، ولم يحسنوا الأهبة للهجوم كما أحسن المسلمون الأهبة للدفاع . فثارت حمية الأنصار والمهاجرين معاً للدين الذي آمنوا به ، وثارت حميتهم معاً للجوار الذي رُوّعوا فيه ، وكانت هذه الهجمة وبالاً على الردة وفاتحة من فواتح الهزيمة ، ولو أنهم قنعوا بالبقاء في باديتهم والتوغل في صحرائهم لقد كان ذلك أدنى إلى الحزم من ناحيتهم ، وإن لم يكن حتماً لزاماً أن يفضي بهم آخر الأمر إلى نجاح .

وزاد في بواعث الطمأنينة إلى جانب المسلمين أن عاد جيش أسامة سالماً موفوراً ولمّا ينقض على مبعثه شهران على أرجح الأقوال : عاد بالأسلاب والغنائم من تُخوم الروم ولم يُقتل منه أحد ولا بدا عليه عناء أو مشقة مما كان فيه .

ولا تجهل قبائل البادية ما هي دولة الروم التي اجترأ الجيش على تخومها في غير مبالاة. إنهم يعلمون ما هي دولة الروم بالعيان أو يعلمون ما هي دولة الروم بتهويل السماع ، وجيش يذهب إلى تخوم تلك الدولة ثم يعود غير مسحوق ولا منقوص بل يعود بالغنائم والأسلاب ، كيف تستخف به قبيلة هائمة في عرض صحراء ؟ وكيف تخفى دلالة هذا الحادث على أناس اشتهروا بتنسم الأخبار كما اشتهروا باستطلاع الدلائل على القوة والضعف وعلى الخطر والأمان ؟

إن جيش أسامة قوة ذات بال في الجزيرة العربية ، ولكنه فعل

بسمعته ومعناه مالم يفعله بقوته وعَدَده . فأحجم من المرتدين من أقدم . وتفرق من اجتمع، وهادن المسلمين من أوشك أن ينقلب عليهم، وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال وقبل أن يصنع السلاح .

***

تلك فتنة الردة بجملتها ، وبجانِبَي الخطر والسلامة فيها .

قابلها أبو بكر رضي الله عنه بأحزم ما تقابل به من مبدئها إلى منتهاها ، وعالجها علاجها في كل خطوة من خطواتها وكل ناحية من نواحيها

فبادرها بالحزم من صيحتها الأولى ، وتعقبها بالحزم يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى أسلمت مقادها وثابت إلى قرارها .

وأحزم الحزم في تلك الفتنة عقابه للمرتدين الذين مَرَدوا على العصيان ولم يستجيبوا نصيح المودة ولا استجابوا نذير الجزاء ؛ فقد كان العقاب أليق شيء بالوزْر الذي اجترموه ومردوا عليه : أناس قد استوهنوا سلطان الدين وبخلوا بالمال فبلغ من شحهم به أنهم أنكروا حقوق الدين كله في سبيل حصة من الزكاة ، فجزاؤهم أن يشهدوا من بأس ذلك السلطان ما يعتبرون به ولا ينسونه مدى الحياة ، وأن يفقدوا المال الذي من أجله تبادروا إلى الفتنة واسْتَبَقُوا إلى العصيان . فاستبيحت ديارهم ومراعيهم ومساقيهم ووهبت عطايا للمجاهدين ، ولأن خالد في بعض المواقع وأبو بكر الوديع الرفيق لا يلين ، ووضع القصاص فيمن

تجاوزوا منع الزكاة إلى قتل المسلمين بين ظهرانيهم ، فلم تأخذه فيهم هوادة بعد إصرارهم على العصيان واعتدائهم بالقتل وإعراضهم عن النصيح والنذير .

جزاء حق لأنه من جنس العمل .

استهانة يقابلها بأس ، وبخل بالمال يقابله ضياع للمال ، ونفس بنفس ، ومجاهدون مخلصون يُؤْثِرون الإيمان على عروض الدنيا أخذاً بثأرهم من عصاة غادرين يؤثرون عرُوض الدنيا على الإيمان .

***

قال أبو رجاء البصري : « دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلاً يقبّل رأس رجل ويقول له: أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا، قلت : من المقبّل ومن المقبَّل ؟ قالوا : هو عمر يقبل رأس أبي بكر في قتال أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوْا بها صاغرين » .

وأبو رجاء من ثِقات الرواة : وكلا الرجلين جدير بما رُوِي عنه من مودة وإكبار ، عمر جدير بإكبار أبي بكر ، وأبو بكر جدير بإكبار عمر إياه ، فالخبر صحيح أو هو كالصحيح ، إن لم يكن فهو حريّ أن يكون. هنالك ولا ريب أعظم رجلين واجها حروب الردة بين عظماء المسلمين في ذلك الحين .

وما كان اثنان قط أقرب منهما في القصد ، ولا كان اثنان قط أبعد منهما في الرأي بما أشارا أول الأمر في شأن أهل الردة.

ولا ينتهي العجب في موقفهما هــذا عند فرط الاقتراب وفرط الابتعاد، ولكنه عجب عاجب من غير ناحية فيه، فإذا قُدّر لهما أن يتفقا مقصداً ويختلفا رأياً فقد كان المظنون أن يتجــه عمر إلى جانب الشدة، وأن يتجه أبو بكر إلى جانب اللين، فجاء اختلافهما يومئذ على غير المظنون.

ومهما يكن من حق الدراسة التاريخية في هذا الموضوع فحق الدراسة النفسية يساويه إن لم يزد عليه، أو ربما كان حــق الدراسة التاريخية مطلوباً لما ينتهي إليه من هذه العجيبة النفسية التي هي غاية العلم الذي نصبو إليه. إذ ليس للتاريخ ولا لغيره من العلوم غاية أشرف ولا أنفس من تعريف الإنسان بالإنسان.

كان عمر يقول لصاحبه: يا خليفة رسول الله؛ تألّف النــاس وارفُق بهم! ... كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُمِرْت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسَه ومالَه إلا بحقه؟

وكان أبو بكر يقول: «والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً [1] لقاتلتهم على منعها» ... ويملكه الغضب فيصيح بصاحبه: «يا ابن الخطاب، رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك؟ أجبّار في الجاهلية وخوّار في الإسلام؟ إنه قد انقطع

---

(١) الأنثى من أولاد المعز.

الوحي وتم الدين، أوَ ينقص وأنا حي » ؟

فكيف اختلف الصاحبان هذا الاختلاف ؟

أما أن يختلفا فلا عجب ، وأما أن يتصارحا بالاختلاف فلا عجب فيه كذلك .

وإنما العجب — عند النظرة الأولى — أن يجيء منهما الاختلاف على هذا النحو الذي خالف المنظور كما خالف المعهود من طبائع الرجلين ، وهذا الذي يستوقف النظر في طليعة ما يستوقف الأنظار من حروب الردة ، ومن جميع ما أعقب وفاة النبي عليه السلام وقيام الخلافة الأولى .

وصفوة ما يقال في تفسير هذه العجيبة حقيقتان غير عجيبتين : أولاهما أن المعهود من أخلاق الإنسان ليس هو الإنسان كله ، بل في الإنسان شيء كثير مما ليس يعهده الناس منه في عامة أحواله . والحقيقة الثانية أن الخلق المعهود قد يفسر على وجوه كثيرة بعضها موافق للمتبادر إلى الذهن وبعضها لا يوافق المتبادر إلى الذهن إلا بعد إنعام واستقصاء .

فالشدة في أبي بكر موجودة تظهر في مناسباتها

واللين في عمر موجود يظهر في مناسباته

وأولى المواقف أن يظهر فيها هذان الخلقان هو الموقف العصيب، لأنه موقف المراجعة الذي لا يذهب فيه الإنسان مع الخاطرة الأولى .

فالموقف العصيب هو الموقف الذي يراجع فيه الإنسان نفسه ويثوب إلى المكنون من أخلاقه فيصل منها إلى القرار الذي يخفى على الناس في عامـــة الأحوال ولا يظهر لهم للوهلة الأولى فيشتد اللين أو يبدو كل منهما على الحالين بجميـع ما فيه من شدة ولين .

ومن ثمّ يبدو ما لم يكن بمعهود في عامة الأحوال ..

على أن الموقف الذي وقفه عمر في حرب الردة معهود فيه إذا علمنا أن الخلق الإنساني يفسر نفسه على عدّة وجوه .

فعمر متصرف، بالرأي

وعمر جريء فيما يرى

وعمر وثيق الإيمان

وعمر عادل متحرج في عدله .

وهل كان موقفه من المرتدين خلواً من خلق من هذه الأخلاق ؟

ألم يكن فيه تصرف حين أراد أن يؤجل أمر الزكاة إلى يوم تتبدل فيه الأحوال ؟

ألم يكن فيه جرأة حين جهر بهذا الرأي ولم يحفل بمداراته ؟

ألم يكن فيه ثقة بان المصير إلى ثبـــات الإسلام ، وإن ضل من ضل وزاغ في الطريق من زاغ؟

ألم يكن فيه تحرج من قصاص لم يتضح له حقه فيه حتى وضح له ذلك الحق فبطل الحرج ووافق صاحبه في كل ما ارتآه ؟

فهذا هو عمر المعهود ، ولكن بعد إنعام واستقصاء .

أما أبو بكر المعهود فنحسب أننا قد بيناه فيما تقدم، فبينا أن ما صنع من قتال أهل الردة كان أقرب الأعمال إلى « الصديقيات » المطبوعة ، وإن بدا في النظرة الأولى على غير ذلك ، ونحن لا نفهم الإنسان حقًّا إذا فهمنا أنه يعيش حياته كلها ولا يأتي بشيء يخالف ما عهدناه وانتظرناه. ونحن لا نستغرب الموقفين من أبي بكر وعمر إذا أحضرنا هذه الحقيقة التي هي أقْمَن شيء بالإحضار في دراسة النفوس الإنسانية ، وبخاصة نفوس العظماء .

وقد وضح كل الوضوح أن أبا بكر كان على صواب عظيم .

ولكن لم يتضح كل الوضوح أن عمر كان على خطأ عظيم .

فنحن يخيل إلينا اليوم ، أننا لو كنا في عصر الردة لوضح لنا يومئذ ما يتضح لنا اليوم ، ولم نتردد في متابعة أبي بكر إلى القتال على يقين أنه الصواب كل الصواب أو أنه الواجب الذي لا مثنوية فيه .

ولكننا لو حضرنا ذلك العصر لجاز كثيراً أن يميل منا الألوف — بل ألوف الألوف — إلى القول بالمسالمة والمتاركة حتى حين ، وجاز أن يعتقد منا الكثيرون أن التربص بالمرتدين حتى يعود جيش أسامة ويثوبوا إلى الحسنى أسلم وأحزم، فإن لم يثوبوا إلى الحسنى فعُدة القتال يومئذ أوفى وأعظم ، وقد يجنح بنا إلى هذا الرأي أن الخطر من نكسة المنافقين في مكة والمدينة غير بعيد ، وأن الخطر من غلبة المرتدين غير مستحيل ، وأن القبائل إن بقيت في باديتها فأمرها مستدرك حتى تعالج

بالهوادة أو بالنذير أو بالقتال آخر الأمر على ثقة من الغلبة فيه .

ذلك جائز واضح الجواز ، وما كان كذلك فالقول به ليس بالخطأ العظيم ، وإن بينت الحوادث أن القول بغيره كان صواباً جدّ صواب .

وإنما الخلاف في أهل الردة من ضروب الخلاف التي يفضها الفقهاء لأن الرأي وحده لا يكفي ولن يكفي يوماً لفض خلاف في مسألة حاسمة من مسائل التاريخ .

وقد شاء القضاء أن يكون أبو بكر بطل الإسلام في حروب الردة غير مدافع . فهو صاحب الشرف الأول بين ذوي الرأي وذوي العمل في تلك الحروب . وكأنما عمر قد وضع بشفتيه شفاه المسلمين جميعاً على ذلك الرأس الجليل يوم انحنى عليه بالتكريم والتقبيل . وحسب المؤرخ والنفساني عبرة أن يلحظ هذه الثروة النفسية في صدر الدعوة الإسلامية : دعوة فيها لكل موقف أبطال ، وفي كل بطل منها أهبة لكل حادث طارىء تختلف فيه الأهَبُ والآراء ، وفيهم جميعاً التعاون والإخلاص مختلفين ومتفقين .

* * *

وما انتهت حروب الردة حتى بدأت في تاريخ الإسلام مرحلة أخرى أجل وأعظم ، تصدى لها الصدّيق بذلك العزم الذي تصدى به لكل ما عقد النيّة عليه وآمن بصوابه : إقدام كأنه لا يعرف المبالاة والتدبير ، ومبالاة وتدبير ، كأنهما لا يعرفان الإقدام .

كانت المرحلة الأولى تأمين الإسلام في عُقر داره .

وكانت المرحلة الثانية تأمين الإسلام في حدوده وتُخومه ، ودفع الخطر من هجوم الأعداء عليه .

ونقول تأمين الحدود ولا نزيد ، لأننا نعتقد أن الصديق رضي الله عنه أخذ في تسيير البعوث إلى حدود العراق والشام وهو على هذه النية دون نية الفتح بالسلاح، وأنه رضي الله عنه قد التزم في سياسته الخارجية خطة النبي عليه السلام في تلك السياسة، وهي الخطة التي ظهرت في بعثة تبوك ثم في بعثة أسامة بن زيد، وأصدق ما يقال فيها أنها خطة لا هجوم فيها ولا تهجُّم ، ولا باعث لها إلا دفع الأذى ، وحماية الطريق ،والتمهيد لنشر الدين بالحسنى والبرهان إن تيسر نشره بالحسنى والبرهان ، فإن قامت العقَبَة من قوة طاغية تحول دون ذلك فعلى القوة الطاغية حساب تلك العقبة ، حيثما حان أوان الحساب .

ففي غزوة تبوك ـ كما قلنا في عبقرية محمد ـ « عاد الجيش الإسلامي آدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة ، وكان قد سرى إلى النبي نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامي عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة في تجهيزه وسفره » .

أو كما قلنا في عبقرية عمر إن دولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم الجزيرة وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبي عليه السلام، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها ، يدل

عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول : « ... وكنا تحدثنا أن غسان تَنْتَعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابي ضرباً شديداً وقال : أثمّ هو ! ففزعت فخرجت إليه ، وقال ، : حدث أمر عظيم ... قلت : مــا هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول . طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه ! »

وهو حديث يتبين منه مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار .

فلما تولى الصديق رضي الله عنه الخلافة أنفذ بعثة أسامة التي يصح أن تسمى بلغة العصر الحاضر بعثة تأديبية لردع القبائـل التي تعيث في الطريق بين الحجاز والشام تأميناً لتلك الطريق وتوطيداً لهيبة الإسلام في نفوس تلك القبائل . فلم تجاوز البعثة هذا الغرض المحدود ولم تلبث أن قفلت إلى المدينة بعد أربعين يوماً في قول بعض المؤرخين وسبعين في قول آخرين .

أما غزوة فارس فقد كانت استطراداً لحروب الردة في أطراف البحرين ، فكانت القبائل التي تدين لسلطان فارس توالي الإغــارة على أرض المسلمين فيدفعونها ويقتصون منها ويتعقبونها في بلادها ، وكان الصديق رضي الله عنه يجهل اسم القائد المقدام الذي كان يتولى الدفاع والتعقيب في تلك الأنحاء ، فسأل عنه في شيء من العجب : من هــذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفــة نسبه ؟ فعرّفه به قيس بن عاصم قائلاً : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد : هــذا

المُثنّى بن حارثة الشيباني !

فكان هذا الاستطراد في حرب الردة بداءة الاشتباك بفارس ومن والاها من قبائل البحرين والسّواد ، ومضت الحوادث شوطاً قبل أن تنقلب إلى الحرب الضروس بين العرب وفارس في أوسع نطاق ، فلما أرسل الصدّيق خالداً لنجدة المثنى أمره أن « يتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم » . وتقدم خالد في تأمين الطريق فصالح أهل الحيرَة وغيرهم على « أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدُلوهم على عورات المسلمين ... فإن هم خالفوهم فلا ذمة ولا أمان وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمُعاهد ، وعلى المسلمين المنع لهم ... وأيما رجل منهم وُجِد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك، فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب ... »

فمن طلائع الغزوة الفارسية يلوح للمتتبع أنها غزوة فرضتها الحوادث على الخليفة الأول ، فاستجاب لها بما ينبغي أن يستجيب ،وقَبِل المناجزة حين لم يكن له من قبولها مناص ولا متحوَّل ، ولم ينس مع هذا أن يتألف الأمم ويسالم الأمراء ويدعوهم إلى السلام والإسلام ، ويُشْخِص إليهم من يعلمهم ما هو وَصْف الدين الذي يدعوهم إليه . فإن أصاخوا إليه فلا حرب ولا عداء ، وإن جردوا له السيف رجع معهم إلى حُكْمه الذي نزلوا عليه .

***

وهكذا قدر للخليفة الأول أن تتوطد على يديه دعائم الدولة الإسلامية الناشئة في سياستها الداخلية وسياستها الخارجية ، فما صنعه فقد استمر فيه على خطة النبي عليه السلام ، وما صنعه الذين لحقوا به فإنما هو نتيجة لازمة لما بدأ فيه.

وشاء الله أن يشهد سداد رأيه بعينه وهو حظ لا يتاح للكثيرين ممن يفتتحون الدول العظام ولاسيما الشيوخ. فشهد سداد رأيه فيما تم من أعماله وفيما هو آخذ في التمام، وفارق الدنيا وهو يعلم أنه قارن التوفيق في حرب فارس كما قارنه في حرب الردة، وليس بينهما تفاوت في الإقدام ولا في ثقة الإيمان.

ويحق لمن يؤرخ تلك الحوادث ، ولمن يبحث في صفات الصديق ومناقبه ، أن يسأل : ما مبلغ تلك الثقة من الإيمان ؟ وما مبلغها من الحساب ؟

إنه سير البعوث لإخضاع الجزيرة العربية وهي ترتجّ رجّتها الكبرى وليس معه من الجند إلا قلة محدودة من أهل تلك الجزيرة.

وإنه سير البعوث إلى تخوم فارس والروم وليس معه من قوة غير المسلمين من العرب ، مستثنى منهم في أول الأمر كل من تابوا بعد ردة ، وإنه لتفاوت بين القوتين أعظم من التفاوت بين جيش الخليفة وجيوش المرتدين.

أفكانت مجازفة ؟

أفكانت يقيناً لا تصحبه الروية وهي في الدين الإسلامي مطلوبة مع اليقين ؟

لا ريب أن اليقين كان أكبر العُدد التي تقدّم بها الصديـــق في بعوث الردة وفي بعوث فارس والروم على السواء .

ولا ريب أنه أقصى المسلمين الذين تابوا بعد ردة فلم يلحقهم بالجند الموجهين إلى تخوم الدولتين ، لأنه علم أن العُـدة الكبرى في أولئك الجند هي عدة اليقين الذي لا يتزعزع ولا يدركه الوهن والطمع .

ولا ريب أن يقين الصدّيق بنصرة الإسلام على الدين كله في يوم من الأيام قد كان أقوى يقين سكن في قلب إنسان أو سكن إليه قلب إنسان .

فكل وعد من وعود القرآن قد كان عنده حقيقة عيان ، بل أ مكن من حقيقة العيان .

وكل كلمة سمعها من النبي بخبر من أخبار الغد المجهول فهي عنـده شاهد على شواهد الحاضر الملموس باليدين . .

نزل القرآن الكريم بغَلبَة الروم على الفرس في بضع سنـــين فذهب الصديق إلى مشركي قريش يُكبْتهم بنبأ هذا النصر القريب لأنهم كرهوه كراهةً منهم في كل أهل كتاب ، وأحبوا نصر فارس حبًّا منهم لكل عابد وثن، وقال لهم : ليظهرَنّ الروم على فارس ! أخبرنا بذلك نبينا . . فصاح به أُبَـيّ بن خلف الجُـمحي : كذبت يا أبا فيصل ! قال الصـديق : أنت أكذب يا عدو الله ، ودعاه أبيّ أن يراهنه على عشر قلائص . فعـــاد اليه يقول : بل على مائـــة إلى تسع سنين . لأنه سمـع وعْـد القرآن ، ووعد القرآن حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة العيان .

ولما تعقب جاسوس المشركين سُراقة بن جعشم رَكْبَ النبي عليه السلام في الهجرة سمعه الصديق يقول لسُراقة : كيف بك إذا لبست سوارَيْ كسرى ؟

فما شك الصديق أن الإسلام غالب الأكاسرة في يوم من الأيام ، وأنه منصور على الدين كله كما جاء في الكتاب وفي حديث صديقه الرسول الأمين .

ذلك كله لا ريب فيه ..

سيُنصر الإسلام على الدين كله في يوم من الأيام . ذلك خبر عيان بل أَمْكَن من خبر العيان .

ولكن أي يوم ؟ ومتى يحين الأوان ؟

هنا تبدأ الرويّة إلى جانب اليقين ، بل تجب الروية على ولي الأمر في الإسلام كما يجب اليقين .

ونعتقد نحن أن الخليفة الأول قد أعطى الروية حقها كما أعطى اليقين حقه ، فما كان أبو بكر بالرجل الذي ينسى الحيطة كلما وجبت الحيطة على ولي الأمر ، وهي هنا كأوجب ما تكون .

وحسبنا من ذلك حيطته في حراسة المدينة وتبييت الجند بالمسجد حين تجرد لكفاح أهل الردة ، ثم وصيته لخالد بن الوليد ـ وقد علم حُنْكته في فنون الحرب وقدرته على قيادة الجيوش ـ فلم يُنسه هذا العلم

أن يزوده بالنصح حين خرج لحرب المرتدين ، فيدير هذا النصح كله على الحيطة او اليقظة كما قال من كلام رصين وجيز : « إذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة فإني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بأفراد ، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن في العرب غرّة ... وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك ، وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك ، متربص دائرة السوء ينتظر لمن تكون الدّبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة ، سر على بركة الله » .

وأدلّ من هذه الوصية على الحيطة والاحتراس في كفاح الأجانب وصيته ليزيد بن ابي سفيان في فتوح الشام حين يقول : « .. وإذا قدم عليك رسل عدوك فاكرمهم وأقلل لُبْثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا تُرَيّنْهم فيروا خَللكَ ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكرك ، وامنع من قِبلكَ من محادثتهم ، وكن أنت المتولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيختلط أمرك ... وأكثر حرسك ، وبددهم في عسكرك ، وأكثر مفاجآتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن مَحْرسه فاحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط ، وأعقب

بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار .. » .

ولم ينس قط ما بين جنده وجند العدو الأجنبي من فروق العدة . فكان يعمل في تدارك هذا الفرق ورأب هذا الصدع ما استطاع . فذهب يوماً يتفقد جنده الذين هموا بالخروج لغزو الشام فلم تعجبه عدّتهم وسأل من حوله : ما ترون في هؤلاء إن أرسلتهم إلى الشام في هذه العدّة ؟ فقال عمر : ما أرضى هذه العدّة لجموع بني الأصفر ، وقال بقية أصحابه : نحن نرى ما رأى عمر ، فكتب إلى أهل اليمن يستكمل العدّة ويستنهضهم إلى الجهاد ليخفوا إليه بما يسد هذا النقص من جند وسلاح .

فالرجل الذي لا تفوته فائتة من شأن القبائل التي يرسل اليها بعوثه ، والرجل الذي يختار القائد فيحسن اختياره ثم لا ينسى مع ذلك وصيته وتحذيره وإتمام عدته بما يقارب عدّة عدوه ، والرجل الذي يقرن ذلك كله بالحيطة في مدينته بما في وسعه ــ ليس هو الرجل الذي يزجي البعوث إلى تخوم فارس ولم يأخذ للأمر مثل هذه الحيطة ولم يعمل فيه مثل هذه الروية ، وليس بالذي يجازف وله مندوحة عن المجازفة من إرجاء أو مسالمة إلى حين . وإنما يرجو الغلبة بالقليل على الكثير لأنه يعتمد على « عدّة الإيمان » ويعلم كما قال ليزيد بن أبي سفيان : « قد نبأنا الله ان الفئة القليلة مما تغلب الفئة الكثيرة باذن الله ، وأنا مع ذلك ممدكم بالرجال في أثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا الى زيادة إنسان » .

وإننا لنعلم اليوم أن الصدّيق لم يجازف قط بتجريـــد البعوث الى تخوم فارس والروم ، ونعلم أن عوامل النصر كانت كلها أو معظمها في صفوفه ، وأن عوامل الهزيمة كانت كلها أو معظمها في صفوف أعدائه .

نعلم اليوم أن الفرس قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العـــرب عن دولة حطمتها الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباخت نارهـا التي تعبدها في قلوب أهلها قبل أن تبوخ في معابدها ومشاعلها ، وشاع فيهم الخوف من الثبات في القتال حتى قيدوا بعضهم الى بعض بالسلاســـل ليحولوا بين هارب وهربه ، وقلت الدربة في قادتهم حتى تخيروا أسوأ المواقع وأسوأ الأوقات للهجوم في معارك كثيرة .

ونعلم ان الروم قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطّمها ما قد حطم الفرس من الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباخت عقائدها في صدورها لفرط ما أرّثها من الجدل العقيم والمحال الدميم ، واستكانت إلى الذلة زمناً حتى رضيت بالجزية تؤديها لبرابرة الهون والأبارة ، واشتملت على أمم كثيرة تعاديها وتتربص بها الدوائر كلما طمع الطامعون فيها .

نعلم اليوم ذلك من الواقع الذي وقع وبطل الشك فيه ، ومن التاريخ الذي تفتحت أمامنا صفحاته وقد زال عنها الحجاب .

ولكنّ الصديق لم يكن قد رأى هذا الذي رأيناه ، ولا تصفّح هذا الذي تصفحناه ، فهل معنى ذلك أنه أقدم بغير علم ، وأنه نسي ما طبع

عليه من الحيطة والحزم ، وأنه سها عن واجب الروية وقد تهيأ له واجب اليقين ؟!

لا . فإن الذي كان يعلمه الصدّيق قد كان يكفيه ويغنيه عن هذا الذي علمناه .

كان يعلم أن الفرس قد خسروا قبل الإسلام وقعة ذي قار وهم أقوى صولة والعرب أضعف شأناً من شأنهم بعد الإسلام .

وكان يعلم أن الروم قد صبروا على بعثتين عربيتين بلغتا من بلادهم إلى التخوم وأوغلتا في بعض الأطراف ثم فترت همتهم عن مقابلة ذلك بالقمع والقصاص السريع .

وكان يعلم أن العرب إن طلبوا الدِّين حاربوا صادقين في القتال ، وإن طلبوا الدنيا حاربوا صادقين في القتال ، وأنهم موعودون بالنصر ومؤمنون بصدق الوعد ومقبلون بنفوس تحب الموت كما يحب أعداؤها الحياة ، وأنهم خِفاف لا تثقلهم العُدد، محميون من وراء ظهورهم بالصحراء إن وجبت الرجعة ، مُقْدِمون على أرض خبرتها طلائعهم وهوّنت عليه خَطبهم ، وأبلغته من أخبار فِتَنها ومفاسدها ما يملي له في الإيمان بالقدرة عليها .

فإذا علم هذا فهو حسبه من الروية مقروناً بذلك اليقين الذي لو سها عن كل روية لكان له بعض العذر ، وكان به جُل الغَنَاء .

* * *

وفي أقل من ثلاث سنوات قصار أنجز ما أنجز من تلك المآثر الطوال..

وفي أقل من ثلاث سنوات أنفذ بعثة أسامة وفي سبيلها ما فيه من صعاب، وقمع الردة وحولها ما حولها من خطر، ووطىء حدود فارس والروم ولها ما لها من هيبة ومنعة: ثلاثة أركان للدولة الإسلامية لم يكن ليقوم لها ركن قبل أن تقوم، ولو أنها حسبت لثلاثين سنة — ولم تحسب لثلاث سنوات قصار — لجلّلتها جميعاً بالثناء والفخار.

ولم يتسع الزمن لإقامة نظام للدولة الإسلامية في عهد أبي بكر على مثال النظم السياسية والإدارية التي تقام للدول الكبار في حداثة نشأتها. أو لعل المسألة هنا ليست مسألة اتساع الوقت وضيقه في عهد الخلافة الأولى، ولكنها مسألة الحاجة إلى تلك النظم وقلة الحاجة إليها، ففي عهد الخليفة الأول بعد النبي عليه السلام لم يطرأ على إدارة الدولة الإسلامية ما يدعو إلى نظام جديد غير النظام الذي كانت تجري عليه في عهده عليه السلام. لأن الجزيرة العربية عادت بعد حروب الردة إلى مثل ما كانت عليه في أيام النبوة، ولأن الأرجاء الأجنبية التي زحفت عليها بعوث المسلمين لم تزل إلى آخر خلافة الصدّيق في دور الغزو والفتح ولم تبلغ بعد إلى دور التوطيد والتنظيم، فكل ما جرى عليه النظام في أيام النبوة فقد كان صالحاً للاتباع في أيام الخلافة الأولى، وههنا تتجلى حكمة النبي عليه السلام في إسناد الخلافة الأولى إلى أصلح الناس لمتابعة العهد النبوي على حاله الذي كان عليه. حتى إذا حان وقت التوسع والتصرف وجد الوقت من هو أصلح وأقدر عليه، وكأنه كان معروفاً من قبل موكولاً

إلى حينه الذي يترقبه ويستدعيه ، ولن يكون إلا عمر بن الخطاب كما سماه عليه السلام حيث قال : « أُريتُ في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب[1] فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً[2] أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غَرْباً ، فلم أر عبقريًّا يفري فريه حتى روي الناس وضربوا بعطن[3] » .

***

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الأداة الحكومة — أو الإدارية — لم تكن في عهد الصديق محتاجة إلى نظام غير النظام الذي اتخذه النبي عليه السلام ، واكتفى به في إدارة الشؤون العامة بمكة والمدينة والجزيرة العربية ، مع التعديل الذي اقتضاه توزيع العمل وتفرقة العبء الكبير بعد وفاة النبي ، وغياب المرجع الأعلى الذي ترتفع إليه جميع الأمور .

فتولى بيت المال رجل سماه النبي عليه السلام « أمين الأمة » وهو أبو عبيدة بن الجراح ، وتولى القضاء رجل لم يشتهر أحد بالعدل اشتهاره وهو عمر بن الخطاب ، وتولى الكتابة كاتب النبي عليه السلام زيد بن ثابت ، وكانت ولاياتهم أقرب إلى الارتجال والتداول منها إلى التكليف الدائم والعمل المرسوم .

---

(٢) دلواً (٣) مربط الإبل حول الماء

وكان قادة الجند يفتحون البلدان ويقيمون فيها الولاة والقضاة على النحو الذي ألفوه في الجزيرة العربيـــة ، ومن عرضت له مشكلة من مشكلات الإدارة في بلد أجنبي تركها على النحو الذي كان مألوفاً في ذلك البلد ، إلا ما كان فيه خلاف للدين .

وكل من ولاّه النبي عليه السلام في حياته عملاً من الأعمال العامة أبقاه الصديق في مكانه ، أو ردّه إليه إن كان قد تحول عنه ، أو استأذنـــه في تحويله عنه إن بدا له من مصلحة المسلمين ما أوجب تحويله ، كما كتب إلى عمرو بن العاص « إني كنت قد رددتك الى العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاّكه مرة وسماه لك أخرى : مبعثك إلى عمان ، إنجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد وليته ثم وليته ، وقد أحببت — أبا عبد الله — أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك . »

وأشار عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد بعد أن قتل مالك بن نويرة على غير بيّنة قاطعة في رأي عمر ، وتزوج بامرأته في ميدان القتال وهو أمر تكرهه العرب قبل الإسلام وبعد الاسلام . فاختلف الفاروق والصديق اختلافهما الذي يرجع من كل منهما إلى أصل أصيل في الطباع والنظر الى الأشياء والرجال : والفاروق وديدنـــه أن يوقع الجزاء بمن يستحقه كائناً من كان ، والصديق وديدنه أن يتألف ويستبقي ولا يبتدىء شيئاً بغير سابقة ، وساعده على إبقاء خالد سابقة للنبي عليه السلام معه في

حرب بني جذيمة . فإنه تعجل يومئذ في قتل بعض الأسرى فوداهم النبي عليه السلام حتى رد إليهم مَيْلغَةَ الكلب ، ورفع يديه يبرأ إلى الله مما صنع خالد ، ولكنه لم يعزله من الإمرة أو القيادة . فكانت هذه السابقة أمام الصديق يومَ لامَ خالداً على ما بدر عنه ثم أبقاه .

وما من شيء يدل على تكافؤ العظمة بين الرجلين كما تدل عليه الحجة التي يعتمد عليها كل منهما حين يختلفان . فما اختلفا قط بحجة تضعف من ناحية وحجة تقوى من الناحيـــة الأخرى ، بل كان لكل منهما حجته الناهضة فيما يجنح إليه ، وإن كانت هذه حجة اقتداء ، وهذه حجة ابتداء . .

جاءت الغنائم والأنفال إلى بيت المال لتوزيعها بين من يستحقونها من الرجال والنساء . فكان الفاروق يجنح إلى تمييز الأنصبة على حسب المآثر والأقدار ، وحجته أنه لا يُسوِّي بين من قاتل رسول الله ومن قاتل مع رسول الله ، وكان الصديق يجنح إلى التسوية بين الأنصبة بغير تمييز ، وحجته أن « الأعمال شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثَـرة » .

وما اختلفت حجة الابتداء وحجة الاقتداء — أو ترك الابتداء — كما اختلفت هاتان الحجتان على مساواة في النهوض والإقناع .

وقد جرى الصديق في سياسة الدولة على سنة النبي عليه الســـلام من مشاورة ذوي الرأي والثقة في كل ما جلّ أو دعا إلى السؤال ، ولكنه

كان يستقل بالرأي حين تكون التبعة فيه تبعته دون غيره ، كما استقل بالرأي في اختيار الخليفة من بعده ، واستقام له بعد المشاورة والروية أن يعهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب .

فخلاصة ما يقال في سياسة الصديق للدولة الاسلامية على عهده أنها كانت سياسة المقتدي المقتدر الفعال الذي يصغي إلى النصح ممن يرون التصرف والتمييز والابتداء ، ولم يكن قط مقتدياً على ضعف وتواكل وإلقاء بالتبعة على غيره ، بل ربما اقتدى ليعمل ما هو أصعب وأعضل وأنهض بالتبعة من أعمال المتصرفين .

***

وإذا حُسبت لأبي بكر بعوث أسامة وبعوث الردة وبعوث فارس والروم ، فلا بد أن يحسب له عمل آخر لا يدخل في باب البعوث ،ولكنه أقوم للدولة الإسلامية من جميع هذه البعوث، لأنه دستور هذه الأمة التي لم تقم لها قائمة بغيره ، وهو جمع القرآن .

وقد كانت سُنتّه في جمع القرآن سنته الواضحة التي لا مَحيد عنها : وهي سنة الاقتداء والإصغاء إلى القويم من الآراء . فلمّا مات من مات من حُفّاظ القرآن في حروب الردة وخيف على من بقي منهم أن تأتي عليهم حروب فارس والروم كَبُر الأمر على عمر فاشار على الخليفة بجمع القرآن . فاحجم بادىء الرأي ، وهو يقول : كيف أفعل شيئاً لم يفعله

رسول الله ؟ ثم انشرح صدره لما أشار به عمر فتجرد له بجميع عزمه ، وانقضت خلافته على القول الأشهر والقرآن مجموع مفروغ من كتابته في المصاحف كما نقرؤه الآن .

وكانت الدولة الإسلامية بهذه المثابة أمانة أعْظِمْ بها من أمانة تنوء بها كواهل الرجال . يقول من شاء ما شاء في دراسة هذه الفترة الخالدة ، إلا شيئاً واحداً لا يقول عارف بما يقول، وهو أن أحداً كان يتلقى تلك الأمانة خيراً من تلقيه أو يسلمها خيراً من إسلامه ، منذ ان تلقاها بيد من النبي عليه السلام حتى أسلمها بيد إلى عمر بن الخطاب .

الصِّدِّيق والحُكُومَة العَصْرِيَّة

قلنا في الفصل السابق عن الصديق والدولة الإسلامية إن الحاجة لم تَدْع في عهده إلى نظام غير النظام الذي سنه النبي عليه السلام لسياسة الجزيرة العربية ، وإنه - رضي الله عنه - قد توفي ولما تستقر الأمور في البلاد المفتوحة على حال تدعو إلى اتباع نظام شامل لكل قطر من أقطار الدولة الإسلامية .

إلا أن الصديق كان أول خليفة قام بالحكم الإسلامي بعد عهد النبوة فمن الطبيعي أن نسأل عن نوع الحُكْم الذي توصف به حكومته وحكومة الخلفاء من بعده ، وأن نعرف وجه المشابهة بين تلك الحكومة وحكومة العصر التي قامت على المبادىء الدستورية الحديثة . فأي حكومة هي حكومة الصديق أو حكومة الإسلام في عهده ؟ وأي العناوين هو أقرب إليها من عناوين الحكم في هذا العصر الحديث ؟

الديمقراطية - ولاريب - هي أقرب النظم إلى نظام الحكم في عهد الصديق.

ولكن الديمقراطية أشكال تختلف في العصر الواحد بين أمة وأمة ، ولها قواعد دستورية ومقدمات تاريخية من العسير أن نوحّد بينها وبين قواعد الخلافة ومقدماتها ، ومن السهل جداً مع هذا أن نصدُف عن هذا التوحيد دون أن نُغِض من نوع الحكومة في صدر الاسلام .

فليس من المحقق أن حكومة الاسلام يومئذ توصف بالديمقراطية على المعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة في هذه الايام .

ولكن من المحقق أن الحكومة الاسلامية على النحو الذي جاء به القرآن الكريم واتفق عليه المسلمون كانت بعيدة كل البعد من جميع أنواع الحكومة المعيبة أو جميع المبادىء التي تستند في تقرير حكم الشعوب على أساس معيب ..

فإذا كانت حكومة الخلافة لم تقرر الديمقراطية على أساسها العصري المعروف بيننا فهي – بلا ريب – قد أبعدت مبادىء الاوتوقراطية ، ومبادىء الثيوقراطية ، ومبادىء الأليجاركية ، ومبادىء حكومة الغوغاء ، وسائر المبادىء التي لا تستقيم مع حرية الفرد ومع الفطرة السليمة .

فالأتوقراطية وهي حكومة الفرد المستبد ممنوعة في الاسلام ، لأن القرآن الكريم يامر النبي أن يشاورهم في الأمر وينص على أن « أمرهم

شُورَى بينهم» . وإذا كان النبي الذي يتلقى الوحي الإلهي لا يَجِلِ عن مشاورة أتباعه والرجوع إلى رأيهم في سياسته ، فغيره من ولاة الأمر أولى أن يتقيد بالشورى ويتجنب حكومة الطغيان .

والثيوقراطية وهي الحكومة التي يدعي فيها الحاكمون صفة إلهية ممنوعة كذلك في الإسلام ، لأن القرآن الكريم يعلّم المسلمين أن النبي بشر مثلهم و يُبطِل الكهانة والوساطة بين الانسان وربه ، وقد نهى النبي ولاته وأمراء جيشه أن يُبرموا العهود باسم الله أو باسم رسوله ، فكان يقول لمن ولاه : « . . . لا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تَخْفِرُوا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله » .

ولما قيل للصديق : يا خليفة الله ، أنكر ذلك وقال : إنما أنا خليفة رسول الله ، وسأل الناس أن يُقوِّموه ويرشدوه .

والأليجاركية وهي حكومة الفئة القليلة من الأعيان والسروات ممنوعة كذلك من المسلمين ، لأن بيعة الخاصة في الإسلام لا تُغني عن بيعة العامة وليس في الاسلام سيادة نسب كما جاء في الحديث الشريف : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

وحكومة الأهواء سواء كانت أهواء الوجوه أو أهواء السواد ممنوعة كما منعت الحكومات التي أسلفناها . فليست أهواء المحكومين مُغنية عن أصول الحق والعدل ودستور الشريعة والنظام ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « فاحْكُمْ بينَهم بما أَنْزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُم عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ ،

لِكُـلٍ جَعَلْنا منكم شِرْعَةً ومِنْهَاجاً»...

وإذا امتنعت كل هـذه المبادىء المعيبة في حكم الناس فقد صلحت الحكومة بما شئت من الصفات والعناوين . إذ الحكومة على تعدد أنواعها إنما تنحصر في نوعين اثنين همـا النوعان اللذان فرق بينهما أرسطو في أصول السياسة : أو هما الحكومة الصالحة لمصلحة المحكومين ، والحكومة الفاسدة لمصلحة الحاكمين . وكل ما عدا ذلك من الصفات والعناوين فهو داخل في أحد هذين النوعين .

فإذا لم تكن حكومة الصديق ديمقراطية حديثة فالديمقراطية لا تتوخى من الحكم غاية أفضل من الغـاية التي تتوخاها حكومة الخلافة ، ولا تُبْعِد من المبادىء شيئاً غير المبادىء التي أبعدتها الحكومة الاسلامية بما نص عليه القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو اتفاق المسلمين .

***

أما الحكومة من حيث علاقتها بشخص الخليفة وخلائقـه النفسية فخلائق أبي بكر التي عرفناها دليل عليها : عفة وصدق ودعة وحزم وأناة وكيس ، وكل ما يعهده من هذه الخلائق فهو معهود من الخليفة الأول في جميع ما حكم به وتولاه .

ولي الخلافة فاصبح ذات يوم وعلى ساعده أبراد يذهب بها إلى السوق ، فلقيه عمر فسأله : أين تريد ؟ قال : إلى السوق . قال : تصنع ماذا وقـد

وُليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ فأشار عليه أن يذهبا إلى أبي عبيدة أمين بيت المال ليفرض له قوته وقوت عياله . ففرضت له ستة آلاف درهم في السنة .

وكان يقيم بالسنح على مقربة من المدينة فتعود أن يحلب للضعفاء أغنامهم كرماً منه ورفقاً بهم . فسمع جارية تقول بعد مبايعته بالخلافة : اليوم لا تحلب لنا مفاتح دار . فسمعها فقال : بلى لعَمري لأحلبنها لكم . فكان يحلبها وربما سال صاحبتها : يا جارية ! أتحبين أن أرغي لك أو أصرح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت صرح . فأي ذلك قالته فعل .

ثم تكاثرت أعمال الحكومة فانتقل إلى المدينة ورأى أن يعين نفسه على النفقة بالتجارة حيثما استطاعها . فلما حضرته الوفاة أمر أن يُحصَى ما أخذه من بيت المال فيرَد من ماله وأرضه وقال لعائشة رضي الله عنها : « فإذا أنا مت فردي إليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما فوقي اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتي اتقيت بها نزّ الأرض . كان حشوها قطع السعف »

ومما روي عن عفته وزهده أن امرأته اشتهت حلواً واستفضلت من نفقتها في عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى .

وما كان صديق النبي وصفيه ليبيح لنفسه ما لم يبحه النبي وإن استطاع من خاصة ماله ، فضلاً عن بيت مال المسلمين .

وكان حكمه إلى الرفق والأناة والكياسة ، غير غافل عن اليقظة والحزم حيثما وجبت يقظة وحزم .

فكان يتقصى أخبار الولاة ويسأل الرعية : هل من أحد يتشكى ظُلامة ؟ فإن وجد ظلامة أنصف المظلوم على سنته التي استنها ، وهي أن الكبير صغير حتى يأخذ الحق منه .

وكان يوصي قائده : « ألّا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم » . أو يقول : اقبل علانيتهم وكلهم إلى سرائرهم ، ويأمره مع مع ذلك ألا يغفل عن استطلاع أمرهم لإصلاح ما فسد منه .

وإلى كياسته يرجع الفضل في تغليب مبدأ مِنْ أسْلم مبادىء القضاء قديمها وحديثها ، أخذ به رجال المسلمين في قضائهم واتبعته الحكومات العصرية جميعاً في قضائها ، ونعني به المبدأ الذي يحرّم على القاضي أن يحكم بعلمه في إقامة الحدود ، وقد آثره الصديق رضي الله عنه فقال « لو رأيت رجلاً على حدٍّ من حدود الله لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري » .

***

وما حفظت له وصية قط إلا ظهر فيها خُلقاه الغالبان ، الكياسة والصدق ، فإذا حذر الولاة أن يكشفوا عن أسرار الناس لم ينس قط تحذيرهم من إخلاف الوعد والوعيد ، وجماع ذلك قوله لعكرمة : « مهما

قلت إني فاعل فافعله ، ولا تجعل قولك لغواً في عقوبة ولا عفو ، ولا ترج إذا أمنت ولا تخافن إذا خوفت ، ولكن انظر ماذا تقول وما تقول ، ولا تعدن معصية بأكثر من عقوبتها ، فإن فعلت أثمت وإن تركت كذبت».

جرى حكمه كله على هذه السنة من الرفق والصدق ومن اليقظة والحزم ، ومن الكيس والفطنة ، لم تؤخذ عليه إلا بادرة واحدة هي إحراقه الفجاءة في ساعة من ساعات الحدة التي كان يغالبها جهده ، حتى غلبته مرة في عقاب هذا اللص الخاتل السفاح .

وكان الفُجاءة هذا — أو إياس بن عبد يا ليل — قد جاء الصديق فاستعانه بالسلاح لقتال المرتدين ، فلما أعطاه السلاح أخذه ليقطع الطريق ويعيث في الأرض ويثخن فيمن صادفه قتلاً ونهباً من المسلمين كان أو المرتدين ، وتفاقم شره وعظم بغيه حتى وقع في الأسر وجيء به إلى الخليفة وهو يرى أنه قد استحق جزاء أكبر من جزاء القتل لأن جرمه أكبر من جرم قاتل . وقد استثاره هذا الرجل بكل ما يثيره ويُذهب بحلمه ورفقه : استثاره بكذبه عليه وهو يمقت الكذب ، واستثاره بخداعه إياه وهو يكره أن يعبث به أحد ، واستثاره بتسخيره في قتل المسلمين بما أعطاه من سلاح وعدة ، فاكبر جرمه بمقدار ما يكبر عنده الصدق والكرامة والغيرة على دماء المسلمين ، وأمر به أن يلقى في نار توقد له في مُصلى البقيع .

خطأ ولا ريب ..

ولكنه خطأ له عذره ، وخطأ في رأي أبي بكر نفسه قد ندم عليه بعد

فورة الغضب التي ذهبت بحلمه ورفقه ، وقد ظل يذكر هذا الخطأ ويأسف له إلى أن قال وهو يجود بنفسه : « وددت أني لم أكن حرقت الفجاءة السُّلمي وأني كنت قتلته سريحاً أو خليته نجيحاً ... » .

ومهما يكن من رأي الأقدمين أو المحدثين في هذا الحادث فالخطأ الذي لا جدال فيه أن ندين به الإسلام كله أو ندين به أبا بكر كله في جميع حالاته . ففي كل عصر تقع الحوادث من اشباه هذا الحادث المفرد ولا تحسب على دين او دولة سواء في العصر القديم او العصر الحديث .. إنما يحسب على الإسلام ما هو قاعدة من قواعده ، ويحسب على أبي بكر ما هو سنة مطردة في حكومته ، وما عدا ذلك فهو نَبْوَة عارضة عذره فيها فداحة الجرم وشفيعه فيها طول الندم ، فمن غلا في المؤاخذة حتى فتح من هذا الحادث المفرد باباً للمقارنة بين عصر وعصر ، وبين حاكم وحاكم فقد أضاف إلى سوء النية جهله بالعصر الحديث .

وعلى هذا يثبت من شاء هذا الحادث لحكومة أبي بكر ويحذفه من شاء منها ، فلا تزال على الحالين قدوة لأصلح الحكومات العصرية في مزيتين جامعتين: إحداهما إبطال المبادىء الضارة التي تفسد الحكومة على اختلاف صفاتها وعناوينها ودعاواها ، والثانية تقرير الغاية التي لا تفضلها غاية لحكومة إنسانية : وهي حرية الفرد ومصلحة المحكومين .

الصِّدِّيق وَالنَّبِيُّ وَصَحْبُه

سئل النبي عليه السلام : يا رسول الله ! أي الناس أحب إليك ؟

قال : عائشة .

قالوا : إنما نعني من الرجال ..

قال : أبوها .

وكان عليه السلام يقول : ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر ، فان له يداً يكافيه الله بها يوم القيامة .

ويفسر ذلك قوله عليه السلام : ما أحدٌ أعظم عندي يداً من أبي بكر : واساني بنفسه وماله ، وأنكحني ابنته .

وكان عمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه حقيقة لو لم يؤيدها لسان المقال لأيدها ما يسمونه بلسان الحال. فإن أبا بكر كان ألزم الناس للنبي وأعرفهم بسره وجهره وأقربهم إلى

ثقته وحسن رأيه ، وكان النبي عليه السلام يسمر عنده في شئون المسلمين ويركن إلى مشورته في كثير من الأحايين ، وإذا بلغ من شأن رجل أن يكون أحب النـاس إلى النبي عليه السلام فهو أهل لحبه وأهل لثقته لا مراء ، لأن هذا الحب في النفوس العظيمة قرين الثقة والتقدير لا يخـــلو منهما ولا ينفصل عنهما — فمن استحق منهـــا الحب الراجح فقد استحق عندها الثقة الراجحة في آن .

فلم يكن حب النبي أبا بكر حب الرجل يجزي به من يحبه ويخلص له ويوليه الجميل من ذات نفسه وماله ثم لا مزيد . ولكنه كان كذلك حب الرجل من يستحق منه الحب لفضيلته وكفايته واقتداره على معونته فيما تجرد له من عمل عظيم لا يضطلع به كل معين .

وحين قدمه للإمامة من بعده لم تكن وسيلته إليها حب الإخـــلاص والجزاء ، بل كانت وسيلته إليها حب الثقة والروية وحب الدعوة التي تجرد لها وحب المسلمين الذين آمنوا بتلك الدعوة . فإن نبيّاً كمحمد عليه السلام لا يجعل مستقبل دينه مكافأة لصداقة إنسان ، وإنمـــا يَكِلُ هذا المستقبل لمن هو أهل لأمانته وأقدر على صيانته ، وهو من أجْل ذلك أهل للحب وأهل للبُقيا والادخار .

أما حب أبي بكر محمداً فهو كما قدمناه حب الإيمان والإعجـــاب والولاء ، وهو الحب الذي تهون فيه على المرء نفسه وماله وذووه ، وينزعه من ماضيه ليستولي على حاضره كله وما هو أعز عليـه من الحاضر وما

فيه ، وهو الأمل فيما يشهد والأمل فيما وراء الغيب ، بل الأمل في حياة لن تبيد .

فمنذ اللحظة التي انعقدت فيها الصداقة بينهما رضي الصديق الأمين أن يسخو في سبيل هذه الصداقة بكل نفيس عنده وكل أثير لديه وأنفق ماله وفارق وطنه وأبناءه وهاجر من مكة مخاطراً بحياته ، فما همّه وهو محفوف بالخطر في طريقه إلا صاحبه الذي معه يفديه بما وسعه من فداء : ليسبقه تارة ويخلفه تارة أخرى ليدرأ عنه الشر من حيثما توقعه واتقاه ، ثم يقيم على هـذا العهد ما أقام في دنياه ، غير باخل بعزيز ، ولا ناكص عن محذور ولا نادم على مبذول أو مفقود .

ومن فضول القول أن يقال إنه أقام على عهده هذا بعد موت النبي ، كما أقام عليه طوال حياته ، فكل حركة تحركها وكل كلمة قالها شهيد بذلك له عند من ينصف ويعقل ، بل عند من يعقل ولو لم يكن من المنصفين .

إذ ليس من العقل أن يقدح قادح في ولاء الصديق للنبي بما حرَم فاطمة رضي الله عنها من ميراث أبيها . فلئن حرمها لقد حرم عائشة مثلها ، لأن الأنبياء في شرعة محمد لا يورثون ، وما أراد أبو بكر أن يضن بميراث محمد على وارثيه ومنهم بنته وأحب الناس إليه ، ولكنه أراد أن يضن بدينه ويضن بوصاياه ، وهي أولى أن تصان من المال ومن البنين ، كذلك لا يقال إنه حرم عليّاً رضي الله عنه حقاً في الخلافة ، فما كان في وسعه أن يحرمه شيئاً لو كان عليه السلام قد وصّى له بشيء ، وما كانت فاطمة بغائبة

عن سرير أبيها في مرض موته فيقال إنهم قد كتموا عن النبي بعض ما قال، ولا كان عليٌّ بالذي يعوزه المنطق لو أنه أراد البرهان من القرآن الكريم أو أراد الحجة من الحديث الشريف . ومن أين لأبي بكر تلك القوة التي ينتزع بها الخلافة انتزاعاً من آل النبي ومن الأنصار والمهاجرين بغير حجة وبغير برهان ؟ لئن استطاع ذلك غير محتال ولا مغتال ولا سافك دم لكفى بذلك آية له أنه أحق المسلمين بولاية أمر الإسلام وأقدرهم عليها . وما استطاعه بعد ذلك من تثبيت الدين وقمع الفتنة وافتتاح الدولة لهو الآية بعد الآية والتمكين فوق التمكين .

لقد حدث بعد النبي ما لا بد أن يحدث ، وما ليس بكثير أن يحدث في موقف مقتضب لم يُمهَّد له بسابق متبوع ولا بقدوة مأمومة ، فتأخر عليٌّ على المبايعة أشهراً وقيل إنه لم يتأخر غير أيام بل ساعات ، فلا هو ولا أبو بكر صنعا ما يعاب في هذه الفترة طالت أو قصرت ، لأن أبا بكر كان يندب عليّاً للمهمات في حراسة المدينة وعليٌّ كان يلبي ندبة أبي بكر تلبية الصدق والنجدة . ولو صح أن أبا بكر أخفى حقّاً يشينه إخفاؤه لما أقرّ عليٌّ له ببيعة ، ولا رضي له ولا لمن بعده بصحبة ، فكيف لو صح ما تهوّس به بعض المتهوسين من إخفاء آيات من القرآن أو كلمات من الحديث ؟

جهد ما يقال في أحداث تلك الفترة أنها مدعاة أسف لا يؤسى عليه ، لأنها أقل ما يؤسف له إلى جانب الغبطة التي يغتبط بها من أحاط بالموقف

وأحاط بدواعي الخطر فيه ودواعي السلامة منه .

أما عهده لعمر من بعده فلا محل هنا للموازنة بين استخلاف عمر واستخلاف علي في تلك الآونة، ولكننا نقول إن الصديق قد جهد في مسألة العهد جهد رأيه ، وإنه كان يود أن يكل الأمر الى المسلمين يختارون من يشاءون ، فجمع إليه نخبة من أهل الرأي وقال لهم فيما قال : « ... قد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ، وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي » .

فلم يستقم لهم أمر كما جاء في رواية الحسن البصري ، ورجعوا اليه يقولون : « إن الرأي يا خليفة رسول الله رأيك » فاستمهلهم حتى « ينظر لله ولدينه ولعباده » .

ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن الحضير .

وسأل علياً فقال : « عمر عند ظنك به ورأيك فيه ، إن وليته — مع أنه كان والياً معك — نحظى برأيه ونأخذ منه ، فامض لما تريد ، ودع مخاطبة الرجل ، فان يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت ، وإن يكن ما لا تظن لم ترد إلا الخير » .

وأملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان بن عفان فكتبه وختمه وخرج به مختوماً ونادى في الناس : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟... وقيل إن

أبا بكر أشرف من كُوّته فقال : « يأيها الناس ! إني قد عهدت عهداً أفترضونه ؟ » فقالوا : رضينا يا خليفة رسول الله . وقام عليٌّ فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر .

ثم كانت البيعة التي أجمع عليها المسلمون .

* * *

فالمسألتان اللتان حسبتا من قبيل الخلاف بين الصديق وعِترَة النبي عليه السلام هما هاتان المسألتان : الميراث والخلافة .

ففي مسألة الميراث ما كان له أن يُبرم فيها غير ما أبرم وقد علم أن النبي لا يورث كما قال عليه السلام ، وكان حكم عائشة في هذا كحكم فاطمة رضي الله عنها ، وقد حضرته الوفاة وهو يوصي عائشة أن تنزل للمسلمين عما وهب لها من ماله ، وإنه لحلٌّ لها بالهبة والميراث .

وفي مسألة الخلافة لا تحمد المجاملة حيث تكون المجاملة إخلالاً بالذمة التي بينه وبين ربه ، وإخلالاً بالوحدة الإسلامية ومصالح المسلمين مجتمعين .

وفيما عدا هاتين المسألتين لم يكن من أبي بكر في حق فاطمة إلا أحسن المجاملة والإجمال ، ولم يكن منه تقصير قط في تعهد البيت النبوي بما يصون وقاره ، ويحمي جواره ، بل كان منه في حق أهل البيت كل ما يُرضي ويريح .

* * *

وجرى أبو بكر في معاملته لصحابة النبي على طبعه الذي فطر عليه، وهو الرفق والمروءة والحياء . فأحسن صحبتهم وأثبت لهم ما أثبته النبي لهم في حياته ، ولم يكن منه في حقهم ما يشكونه إلا ما شكا منه بعضهم حين التسوية بينهم وبين العبيد والنساء في حصة بيت المال ، وذلك رأي له قدمنا حجته فيه ، فأقدارهم عند الله يجزيهم عليها الله ، وهذا معاش تحسن فيه المساواة بين الناس .

وكان أقربهم اليه وأجمعهم لثقته وحسن ظنه عمر بن الخطاب : عرفه على حقيقته التي جهلها بعض الصحابة ، وعرف ما في باطن نفسه من رحمة تخفيها خشونة ملمسه وشدته في عمله . فلما سأل عنه عبد الرحمن ابن عوف أجابه : « إنه أفضل من رأيك فيه . ولكن فيه غلظة » فقال عن خبرة به : « هو كذلك لأنه يراني رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه » .

وقد آثر أبو بكر أن يبقي عنده نخبة الصحابة في المدينة فلا يقصيهم في الولايات ولا يفرقهم بين الأقطار ، لأنهم أحق الناس ان يستشيرهم ويرجع إليهم ويشركهم معه في رقابة العمال والولاة ، وسئل في أهل بدر: لم لا يوليهم عملاً فقال : أكره ان أدنسهم بالدنيا ، ولعله يريد بالتدنيس تعريضهم لفتنة الدنيا وشهوة الحكم وغواية المال والمتاع .

ولا ندري على التحقيق أي الصاحبين كان صاحب الفكرة الأولى في هذه السياسة التي اتفقا عليها ولم ينحرفا عنها قط في عهديهما إلا لضرورة

نادرة . ونعني بها سياسة الإقلال من إسناد الأعمال إلى كبار الصحابة .

فعمر كان مشتدّاً في اتباع هذه السياسة حتى ليخطر على البال أنه هو صاحب الفكرة السابقة فيها ، وكان ابو بكر يخالفها حيناً فيحاول عمر ان يرده اليها . قال « لما خرج معاذ بن جبل إلى الشـام أخلّ خروجه بالمدينة واهلها في الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس إليه ، فابى عليّ ، وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أحبسه ، فقلت : والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه » .

إلا أن أبا بكر كان يحاذر انطلاق بعض الصحابة محاذرة الرجل الذي امتلأ بيقين رأيه ولم يستمده من مشورة غيره . فلم ينس ان يحذر عمر هذا التحذير في وصيته إياه بعد استخلافه حيث قال :

« واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرىء منهم لنفسه، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فإياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ... »

وفاض هذا الرأي من لسانه حين أحس من بعض المهاجرين طمعاً في الاستخلاف دون عمر بن الخطاب، فقال لعبد الرحمن بن عوف وقد دخل عليه يعوده :

« ... ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشدّ عليّ من وجعي، إني وليت

أمركم خيركم في نفسي، فكلكم وَرِمَ أنفُه أن يكون له الأمر دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ، ولمّا تقبل ، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي [1] كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان . والذي نفسي بيده لأن يقدم احدكم فيضرب عنقه في غير حد خير له من ان يخوض غمرات الدنيا . ثم أنتم غداً اول ضالٍّ بالناس يميناً وشمالاً، لا تضيعوهم عن الطريق . يا هاديَ الطريق جُرْتَ ! ».

فهذا كلام رجل ممتلىء النفس باليقين مما يقول ، فليس هو برأي انتقل إليه من غيره استحسنه وارتضاه ، ولكنه — فيما نرجح — رأي اتفقا عليه وقلباه بينهما فازداد كل منهما يقيناً به فوق يقين .

***

على أن هذه النصائح القوية بين يدي الموت تكشف من حياة أبي بكر ما ليست تكشفه الأخبار المطولة والأقوال المستفيضة ، فهي تشهد له أنه قد سار في حياته تلك السيرة التي يريدها من الصحابة ويحث عليها أناساً في منزلة عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب ، وان تلك السيرة كانت من البدائه المعروفة التي يصدر عن صاحبها النصح فيسمعه أمثال هؤلاء الصحابيين الكبيرين . وقد كانت هذه في الواقع منزلة ابي بكر بين الصحابة عامة وخاصة : استحقها بينهم بسابق إسلامه وقديم صحبته

---

(١) منسوب إلى أذربيجان .

للنبي صلوات الله عليه ، واستحقها برياضة نفسه على الكرامة والوقار حتى امتلأت النفوس حوله بكرامتـه ووقاره ، ولم يكن أحد غير أبي بكر يسكت عمر بن الخطاب وقد ثار ثورته بعد موت النبي ، او يسكته وقد نهض للكلام أول مرة في سقيفة بني ساعدة ، وما أسكته يومئذ لأنه خليفة فما كان يومئذ بالخليفة ولا كان عمر بالذي تسكته هيبة منصب او سطوة سلطان ، ولكنه رجل وقور يستمع له رجل حق. وناهيك بمن يهابه عمر ابن الخطاب ! إنه لأحق امرىء بين الصحابة أن يهاب .

ثقافة

تُعرف ثقافة الرجل المثقف بعلامات كثيرة ، ولو لم تكن لها بالفكر والاطلاع صلة ظاهرة .

وندَر أن يظهر من الإنسان أثر محسوس إلا كان فيه علامة من العلامات على نصيبه من ثقافة زمانه .

على أن هذه العلامات تتفاوت في الدلالة كما تتفاوت في القيمة ، وأدلها وأقومها — فيما نرى — كلام الإنسان ورأيه في كلام غيره . لأن الكلام صورة نفسية وقدرة عقلية في وقت واحد . فهو يكشف عن نفس قائله كما يكشف عن قدرة عقله ومبلغ عرفانه بتصوير خلجات قلبه وخطرات ذهنه ، فتقديره لكلامه وكلام الناس ميزان صادق لتقدير الرجل في جملة أحواله وأفعاله ، وعلامة على الثقافة الروحية والفكرية قلما تضارعها علامة أخرى .

وتقدير الكلام من أصدق العلامات على ثقافة الصدّيق ، سواء نظرنا

في وزنه لكلامـه أو في وزنه لكلام غيره ، أو في وزنـه للكلام عامة من حيث هو جزء من « الشخصية الانسانيـة » يحرص عليه المرء كما يحرص على مقومات نفسه .

فالصديق كان أحرص الناس على كلام يبدر من لسانه ، وكان أعلم الناس بموضع كلام الرجل من مروءته وشرفه، فكان قوله نزراً، ووصيته بالإقلال من المقال أسبق وصاياه إلى ولاته وعمـاله . قال لخالد بن الوليد : « أقل من الكلام فإنما لك ما وعي عنك » . وقال ليزيـد بن أبي سفيان : « إذا وعظتهم فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً » ، وكان يقول : « إن البلاء موكل بالمنطق » ويجتنب التزيد في المقال كما يجتنب التعرض للبلاء .

كان أقرب الصحابة إلى النبي عليه السلام وألزمهم له في نهاره وليله ، ولكنه على هذه الملازمة لم يرو من الأحاديث النبوية إلا نيفاً ومائة وأربعين حديثاً لم يتجاوز ما أثبته البخاري ومسلم نحو سبعها . وقيـل في تعليـل ذلك إنه رضي الله عنه مات قبل تدوين الأحاديث ، وهو تعليل يرد عليه أن كثيراً ممن سمعوا الأحاديث النبوية ماتوا كذلك قبل الاشتغال بتدوينها، وإنما هي قلة كلامه فيما نرى أقلّت ما سمع الناس عنه فحرروه ونقلوه .

ذلك وزنه للكلام عامة من حيث هو ملكة نفسية وجـــزء من الشخصية الإنسانية .

أما كلامه هو فمن أرجح ما قيل في موازين الكلام ، سواء في ذلك موازين البلاغة أو موازين الخلق والحكمة ، وله من جوامع الكلم أمثلة

نادرة تدل الواحدة منها على ملكة صاحبها فيغني القليل منها عن الكثير كما تغني السنبلة الواحدة عن الجرين الحافل، حين تكون المسالة مسالة الدلالة على المنبت والنبات .

فحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلمة كقوله : « احرص على الموت توهب لك الحياة » ، أو قوله : « أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة » ، أو قـــوله : « خير الخصلتين أبغضهما إليك » ، أو قوله « الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمـان كله » أو قوله : « إذا فاتك خير فأدركه وإن أدركك فاسبقه » ، أو قوله : « لا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك » أو قولـه : « ليست مع العزاء مصيبة » فهي وما أثر عنه من أمثالها كلمات تتسم بالقصد والسداد ، كما تتسم بالبلاغة وحسن التعبير ، وتنبىء عن المعـدن الذي نجمت منه فتغني عن علامات التثقيف التي يستكثر منها المستكثرون ، لأن هذا الفهم الأصيل هو اللُّباب المقصود من التثقيف .

وكانت له ــ رضي الله عنه ــ لباقة في الخطاب إلى جانب هذه البلاغة في الكلام ، وهذا الجد في وزن المقال .

عزّى عمرَ في طفل احتسبه فقال له : « عوضك الله منه ما عوضه منك » وسال رجلاً يحمل ثوباً : أتبيع هذا الثوب ؟ فأجـــابه : لا ... عافاك الله ! قال : هلا قلت لا وعافاك الله !

وهذا تمام البصر بالكلام ، قصد في العبارة ، ووزن للكلام ، وذوق في الخطاب ، ولا تتعرف النفس المثقفة إلى الناس بآية هي أقرب من هذه الآية وأحق منها بالتصديق .

ومن السهل على من يملك هذا البيان في كلامه أن يتتبع شواهد البيان في كلام الآخرين . ولعل الصديق قد ملك هذا البيان لأنه طبع عليه وطبع على حبه فتتبعه في كلام البلغاء من الخطباء والشعراء . فكان يروي الشعر ويحفظ الأمثال ويراجع النبي عليه السلام في الأبيات التي يبدل مواضع كلماتها ليخرجها عن وزنها ، ومنه – لا ريب – قبست السيدة عائشة ذلك القبس من ماثورات الشعر والخطب – فيما كانت تتمثله وترويه ، واليه ترجع السليقة التي ظهرت في ذريته ومنهم ولداه عبدالله وعبدالرحمن وكانا ينظمان الأبيات بعد الأبيات . وهو نفسه لم ينظم الشعر فيما أجمع عليه الثقات ، ولكنه – وإن لم ينظم – قريب السليقة ممن قالوه ولو بالتذوق والحفظ والرواية .

ولهذه الثقافة مراجعها التي ترجع إليها أفضل ثقافات زمانه في الجزيرة العربية : طبع سليم وملاحظة صادقة وخبرة بالدنيا من طريق المعاملة والسياحة ، وإصغاء إلى الحسن من القول ، والوثيق من الأخبار ، وعلم بالأنساب والتواريخ مشهور بين المشهورين من أربابه ، واستيعاب للقرآن كله ولفقه الدين كله ، ودراية بما استوعب من معانيه عن فهم وعن سماع ممن نزل عليه القرآن الكريم صلوات الله عليه .

قرأ يوماً : « يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ» فقال : إن الناس يضعون هذه الآية في غير موضعها ، ألا وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إن القوم اذا رأوا الظالم فلم ياخذوا على يديه ، والمنكر فلم يغيروه ، عمهم الله بعقابه » .

وسال أصحابه يوماً : ما تقولون في هاتين الآيتين : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » و « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » ؟ قالوا : لم يلبسوا إيمانهم بظلم الخطيئة . فقال : لقد حملتموها على غير المحمل : استقاموا فلم يلبسوا إيمانهم بشرك .

وإن فقه القرآن لينبوع يستمد منه الصديق في سلامة طبعه وصفاء ذهنه مدداً يرجع بأمداد .

فثقافته في زمانه هي ثقافة الفقيه الأديب المؤرخ بما اصطلحوا عليه من معنى التاريخ في ذلك الزمان..

ولا يتشابه معنى التاريخ عندهم ومعنى التاريخ عندنا كما نتوسع فيه اليوم ، ولكنّ النسب الذي كان يعلمه الصديق كان هو النسب المحيط بالمحامد و المثالب في القبائل العربية كافة ، وهو أنفع ما في علم التاريخ حين يراد بعلمه الطموح إلى منزلة الحمد والسمعة الرفيعة والتنزه عن معارض الذم و قالَةِ السوء ، وكذلك كان علم الصديق بأنساب العرب أجمعين ..

لما خرج النبي عليه السلام ليـَعرض نفسه على القبائل في أول الدعوة الإسلامية كان معه أبو بكر وعلي بن أبي طالب أسبق النـــاس إلى الإسلام .

قال عليٌ رضي الله عنه : « فرفعنـا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر فسلَّم ، وكان مقدماً في كل خير ، وكان رجلاً نسـَّابة فقال: ممن القوم : قالوا : من ربيعة ، قال : وأيّ ربيعـة أنتم ؟ أمن هاماتها أو من لهازِمها ؟ قالوا : من هاماتها العظمى . قال : وأي هـاماتها العظمى أنتم ؟ قالوا من ذُهل الأكبر . قال : فمنكم عوف بن مُحلـّم الذي يقـــال فيه : لا حرّ بوادي عوف ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحيـــاء ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم جَسَّاس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا . قال : فمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالب أنفسها . قالوا : لا . قال : فمنكم أصهار الملوك من كنْدة ؟ قـــالوا : لا . قال : فمنكم أصهار الملوك من لخمْ ؟ قالوا : لا . قال ابو بكر : فلستم ذهـــلاً الأكبر . إنما انتم ذهل الأصغر » .

وكان هذا علمـَه بأنساب كل قبيلة ومحامد السابقين منهـــا ومثالبهم ولا سيما قريش ومن جاورها . ولهذا كانوا يقولون كلما سمعوا أبياتاً من الشعراء المسلمين يردون بها الهجاء على المشركين : هذا تلقين ابن أبي قحافة وما عداه . لأنه كان في هذا العلم بين قريش علامة بغير نظير .

ونحن لا ننتظر بداهة من كل رجل تيسرت له هذه المراجع ان يبلغ من الثقافة مبلغ ابي بكر الذي تدل عليه اقواله واعماله وخلائقه وسجاياه. ولكننا إذا علمنا أن تلك مراجعه وأن ذلك مبلغه فقد علمنا شيئاً آخر نقصده ونتحراه، وهو أنه رجل خلق من معدن العظمة والامتياز ، ولم يخلق رجلاً كسائر الرجال .

***

الصِّدّيق في بَيْته

من السهل بعد مراجعة يسيرة لحياة الصديق في جملتها أن نعلم أنه « رجل بيت » أو « رجل أسرة » وأن أواصره البيتية لا تستند إلى الشعور بالواجب وحده ، ولكنها تستند مع الشعور بالواجب إلى الشعور بغبطة القرابة ومودّة الرحم ونعمة الألفة والمصاحبة ، فلم يكن ولداً بارّاً لأن البر بالآباء واجب وكفى ، ولا أباً رحيماً لأن الرحمة بالأبناء غريزة وكفى ، ولا زوجاً وفيّاً لأن الوفاء للأهل واجب وكفى ، ولكنه كان كذلك كما كان في جميع أواصره وعلاقاته : رجلاً يشعر بالغبطة في جوار أبناء جنسه ، ويأنس للصحبة في جو الشعراء والأصدقاء ، ويتجلى فيه خلق الإنسان « الاجتماعي بطبعه » على أخلصه وأوفاه .

عُرف بره بأبويه في الجاهلية ، فلما أسلم وصاحب النبي عليه السلام جمع بين بر الفطرة والحنان وبر الواجب والفريضة ، واطمأن إلى هذا البر كما يطمئن صاحب الخير الذي لا جزاء عليه أن يصبح وله من الحظوة الإلهية أجمل جزاء .

وعرف عطفه على أبنائه طوال حياته ، فما داخلته في عطفه عليهم قسوة أو شدّة إلا أن يكون ذلك بدافع من العقيدة أو وازع من التأديب.

قال له بعض أبنائه — وقد كان يقاتل مع المشركين — إنني كنت أراك فاتحاماك . فقال له : لكنني لو رأيتك لما تحاميتك .

وكان بين عائشة والنبي كلام . فسألها : من ترضين أن يكون بيني وبينك ؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح ! قالت : لا . ذلك رجل هيّن ليّن يقضي لك . قال أترضين بأبيك ؟ قالت : نعم .

فلما جاء أبو بكر قال رسول الله : اقصصي !

فقالت : بل اقصص أنت .

فاخذ رسول الله في إعادة ما جرى بينهما من كلام ، وبدرت من عائشة كلمة لا تعنيها فقالت : اقصد ، أي التزم القصد ولا تزد في الرواية، فرفع أبو بكر يده فلطمها وانتهرها مغضباً : تقولين يا بنت أم رومان اقصد ! من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ! وجعل الدم يسيل من أنفها ورسول الله يحجز بينهما ويقول لصديقه : إنا لم نرد هذا . حتى انصرف برضى رسول الله . فقال لها ما معناه : رأيت كيف أبعدك الله منه ! أو قال لمثل هذه المناسبة : « رأيت كيف أنقذتك من الرجل ! » .

ففي هذا وأمثاله يشتد ابو بكر على بنيه وهي شدة قد تقترن بالرحمة ولا تحجبها إلا إلى حين .

وكان لصدق شعوره بالأبوة يحس مايحتاج إليه الوليدفي نشأة الطفولة ويزوّده بتلك الحاجة ولو أغضب الآباء وهم عنده أصدق الأصدقاء .

فلما أخذ عمر بن الخطاب ابنه عاصماً من أمه المطلقة تخاصما إليه فقضى بالوليد لأمه وقال لعمر : « ريحها وشمها ولطفها خير له منك » . فكان غاية الرحمة وغاية العدل في آن ، وإن رجلا يعدل حين يَهم بالجور عمر لهو من العدل بمكان لا يُسامى .

وكادت الصداقة عنده أن تكون أخوّة أو بنوّة . فكان يتحدث عن عمر يوماً فإذا هو يقول كأنما يتحدث إلى نفسه : « والله إن عمر لأحب الناس إليّ ... » ثم خشي أن يكون في قوله ما يمس الصدق الذي فطر عليه فسأل من معه وفيهم عائشة : كيف قلت ؟ فاعادت له عائشة ما جرى به لسانه ، فاستدرك قائلاً : اللهم أعز والولد ألوط ، أي ألصق بالقلب وأدنى .

***

وقد بنى أبو بكر بزوجتين في الجاهلية وزوجتين في الإسلام، منهن أم رومان وهي أم ولديه عبدالرحمن وعائشة رضي الله عنها ، ومنهن حبيبة بنت خارجة التي مات عنها وهي حامل ، فولدت بعد موته أم كلثوم .

ومن أولاده غير عبدالرحمن وعائشة ـ عبدالله الذي كان يأتيه بأخبار قريش حين هاجر مع النبي إلى المدينة . وقد جرح بالطائف ومات بجرحه بعد انتقاضه . وكانت فيه شجاعة وأدب ورقة ، وله شعر حسن يروي بعضه في زوجته المطلقة عاتكة بنت زيد وقصته معها من أدل أخبار هذه الأسرة على شعور أبي بكر بالأبوة والزوجية والواجب في وقت واحد ، وأن المغالبة بين الرحمة والواجب في نفسه كانت مغالبة سجال .

وقد كانت عاتكة من أشهر نساء عصرها بالجمال والعقل والفطنة ، ففتن بها عبدالله وشغل بها عن مصالحه وشئونه ، فنصح له أبوه بطلاقها فطلقها ، فما زال حتى ندم وألح به الندم على فراقها ، وقال من شعره فيها :

أعاتك ، لا أنساك ما ذر شارق	وما لاح نجم في السماء محلّق
أعاتك ، قلبي كل يوم وليلة	لديك بما تخفي النفوس معلّق
لها خلق جزل ورأي ومنصب	وخلق سويٌّ في الحياء مصدق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها	ولا مثلها في غير شيء تطلّق

فرحمه أبوه وأمره بمراجعتها ، فراجعها . فكان أبو بكر في هذا نموذجاً مقابلاً لنموذج عمر في هذه الناحية من الخلائق والوشائج القلبية ، كما كان نموذجاً مقابلاً له في خلائل شتى ووشائج أخرى . إذ كان عمر ينعي على ولده أنه عجز عن طلاق امرأته ، ويعد ذلك من مآخذه حين رشحه بعضهم للخلافة بعده .

ولم يكن لزوجات أبي بكر ما يشتكينه منه غير الإقلال من النفقة

والقصد في المعيشة ، ففي اليوم الذي اجتمعت فيه نساء النبي عليه السلام يطالبنه بالمزيد من النفقة كانت بنت خارجة زوجة أبي بكر تطالبه هذه المطالبة ، فيغضب منها ، ويلوي عنقها ، ويذهب إلى النبي فيحدثه بحديثها ليسري عنه وقد رآه بين أمهات المسلمين على مثل تلك الحالة . فكأنما كنّ جميعاً على ميعاد .

ولم يكن أبو بكر مقلاً من المال ، ولا عاجزاً عن كسبه قبل الخلافة ولا بعدها ، فقد أنفق في سبيل الإسلام أربعين ألف درهم ، وما زال ينفق من ماله في شراء الأكسية والأطعمة وتوزيعها على الفقراء ولاسيما في الشتاء ، ولكنه آثر متاع روحه على متاع جسده وكره أن يعيش في بيته خيراً من نبيه وصفيه ، وكان يبغض السرف فيقول : « إني لأبغض أهــــل البيت ينفقون رزق الأيام في يوم » . . . فلو بقي له من المال ما يجاوز به حظه من النفقة لما جاوزه وهو يرى أمامه مثل النبي ويجب أن يكون مثـــلاً لمن معه ومن بعده من خلفاء الإسلام وعامة أتباعه .

وقد تعددت الروايات عما قسم له من الرزق بعد الخلافة وكيف قسم بمشورة من حضر من جلّة الصحابة ومنهم عمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة . ولكن الروايات متفقــة على قصده في بيته واجتنابـه للسرف في معيشته ، وأنه كما قال : « لم يعد سد الجَوْعة ووَرْي العورة وقواتَــةَ القِوام » . ومات وليس عنده مدخر يذكر . فقال عمر : « رحمه الله . لقد أتعب من بعده » . يريد أنه ألزمهم قدوة تتعب ولا تريح.

***

ونحسب أن النشأة في حياة أبي بكر البيتية لا تتمثل في شيء كما تتمثل في نشأة بنتيه عائشة وأسماء رضي الله عنهما . فأما عائشة فقد فارقت بيت أبيهـا وهي في نحو العاشرة أو اكبر من ذلك بقليل كما استخلص بعض المؤرخين من مراجعة التواريخ الكثيرة ، فإذا هي في تلك السن قد وعت ما وعته من الشعر البليغ والأمثال السائرة والأخبار النادرة، وقد نضجت لمصاحبة النبي والوعي عنه و الدراية بالماثور من كلامه ، وكانت بعد ذلك مرجعاً من مراجع الفقه والسنة خليقاً باعتماد الثقات الأجلاء .

ومن الناس من تعود أن يتخيل عائشة رضي الله عنها جارية صغيرة حظيت عند زوجها عليه السلام لجمالها وصغرها وصداقة أبيها ، ولكنهـا ــ ولا ريب ــ لم تبلغ هذه الحظوة عنده صلوات الله عليه إلا لأنها الزوجة الكفء لبلوغها والمحافظة عليها ، وكانت تعرف من أدب الزواج ما يجمل بمكانها ، وتعرف من ملاطفة الزوج مداخل قلبه ومواطن رضاه ، وربما دللت زوجها ولم تترك له وحده مسرة تدليلهـــا . فمن ذلك في روايات تختلف في النقل وتتفق في هذا المعنى أنه كان عليه السلام يصلح نعله في يوم قائظ فتندى جبينه وتحدر العرق على خده ، وهي تلحظه من قريب وكأن بها وجداً عليه . فسألها :

ما لك بُهتّ ؟

فقالت : لو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بقوله .

فعاد يسألها : أي قوله ؟

فأجابته : حين يقول :

ومبرّإ من كل غبّر حيضة وفساد مرضعة وداء مُغيل
وإذا نظرت إلى أسرّة وجهه برقت بروق العارض المتهلل

فقام النبي إليها يقبل ما بين عينيها ، ويقول لها : سررتني يا عائشة سرك الله .

فهي أبعد شيء عما يتصوره النقاد الأوربيون حين يصوزونها لقرائهم لعبة صغيرة بين يدي رجل كبير يدللها ولا تفاهم بينه وبينها ، ولكنها الزوجة التي تكافىء الزوج في حياته المنزلية ، والمرأة التي تبادل الرجل ما عنده من شعور ، والتلميذة التي تتلقى عن أستاذ عظيم فتحسن التلقي عنه ، وهي من جميع هذه الجوانب مثل صالح للنشأة البيتية في أسرة الصديق .

***

أما أسماء — ذات النطاقين — فما حمد الناس فضيلة للمرأة بنتاً وزوجاً ووالدة إلا كانت فيها على أجملها وأسماها وأحقها بالتمجيد والإكبار .

أسلمت مع أبيها ، وكانت تخاطر بنفسها لإخفاء هجرته مع رسول الله وتزويدهما بالطعام والميرة في تلك الهجرة ، ولم تجد ما تشد به طعامها فشقت نطاقها وشدته به ، فسميت لذلك ذات النطاقين .

وتزوجت الزبير بن العوام وليس له مال ولا مورد ، فكانت تعلف فرسه وتدق النوى لناضحه[1] وتستقي له الماء وتخرز[2] له غربه[3] وتنقل

(١) البعير الذي يستقى عليه الماء .
(٢) تخرز : تثقب .
(٣) الدلو من الجلد .

النوى على رأسها من الأرض التي أقطعه إياها رسول الله على مسيرة ميلين . وما زالت كذلك حتى علم أبوها بمشقتها في خدمة زوجها اتفاقاً فأعانها بخادمة ، بعد أن قضت زمناً تخدم بيتها وهي بنت أبي بكر وزوج الزبير وأم عبد الله من أعظم أبطال الإسلام .

وحوصر ابنها عبد الله في مكة فخذله الناس حتى أهله وولده ، وعرض عليه بنو أمية الأمان والولاية والمال . فذهب إليها يعرض عليها أمره ، وهو يقول : « ... لم يبق معي إلا اليسير ومن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار ، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فما ضعفت من الهول ضعف النساء ، ولا ضعف الأمهات ، وإن الأبطال الصناديد ليضعفون في مكانها ، فلا يعدمون المعذرة الناهضة والشفاعة المقبولة ، بل ملكت جاشها وملكته جاشه وأقبلت عليه تقول: « يا ولدي ؛ إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيتلعبوا بك ، وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل الأحرار ، ولا فعل من فيه خير . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقنع به يا بن الزبير . والله لضربة بسيف في عز أحب إليّ من ضربة بسوط في ذل» .

والتفتت تدعو الله كأنما تناجي نفسها : « اللهم ارحم طول ذاك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبره بأمه ! اللهم إني قد سلمت فيه لأمرك ، ورضيت فيه بقضائك ، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين » .

مقالة أم جاوزت المائة واصطلحت عليها الملمات وكف بصرهـــا من الحزن ويئست من نصرة ابنها ومن حياته في جهاده ، فناهضت من السن والمرض والخوف والثكل في أحرج الساعات ما تنوء به عزائم الاقيـــال وتنهد له أركان الجبال .

ثم غلب القوم ابنها المقدام فصلبوه ورفعوا جثته للتمثيل والتشهير ، فآلمها أن يصاب في كرامة موته كما آلمها من قبل أن يصاب في كرامـة حياته . وذهبت إلى الحجاج تسأله في ذلك سؤال الأعزاء ، فقادها الدليل إليه حتى وقفت على مقربة منه تقول : أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ قال في غير رفق ولا حياء : المنافق ؟ فما همها وهو صاحب طلبتها أن يجيبها أو لا يجيبها ، وإنما همها ان تدفع عن ولدها وان تجزي الشاتم بشتمه ، وقالت مغضبة : والله ما كان منافقاً ، والله ما كان منافقـــاً ، وقد كان صواماً قواماً ... »

فعاجلها مغيظاً من ردها عليه : اذهبي فإنك عجوز قد خرفت ...

قالت: لا والله! ما خرفت. ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يخرج من ثقيف كذاب ومبير [1] . فأما الكذاب فرأينـاه ، وأما المبير فأنت هو .

وهذه هي الأم التي يشرف بها الأبناء والآباء ، وتشرف بها سلالة آدم وحواء ..

---

١ – مبير : مهلك .

هذه أسماء بنت أبي بكر .

وتلك عائشة بنت أبي بكر .

فما عسى أن يقول القائل وان يثني المثني على بيت ينجب هاتين العقيلتين الكريمتين ؟

لقد كان لأبي بكر أبناء من خيرة الرجال .

ولكن البيت تدل عليه بناته قبل أن يدل عليه أبناؤه ، لأن الفضل في نشأتهن كلها للبيت ، من حيث يحسب لغير البيت الفضل في نشأة الأبناء .

وذلك هو بيت الصديق ، أكرم به من بيت بين ما حملت الأرض كلها من بيوت .

***

صُورَةٌ مُجْمَلَة

قالت السيدة عائشة في وصف أبيها وقد تناوله بعضهم بما أغضبها :

« ... سبق إذ ونيتم سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأمد ، فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلاً ، يفك عانيها ويريش مملقها ، ويرأب شعبها ويلم شعثها ، حتى حلته قلوبها ، ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل ... »

وكان نفر من المهاجرين والأنصار يتذاكرون فضائل أهل الفضل عند باب النبي عليه السلام ، فخرج عليهم النبي فسألهم : فيم أنتم ؟ قالوا : نتذاكر الفضائل ... فقال : « لا تقدموا على أبي بكر أحداً فإنه أفضلكم في الدنيا والآخرة » .

ومن قوله فيه عليه السلام: « أبو بكر خير الناس إلا أن يكون نبي .. »

وقال علي رضي الله عنه في تأبينه : « ... كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف : كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله ، متواضعاً في نفسك عظيماً

عند الله ، جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا اللّه أجرك ، ولا أضلنا بعدك ... »

وفي هذا الثناء كفاية إذا عمدنا إلى الثناء الذي قاله فيه عارفوه .

ولكننا في أمر أبي بكر وأمثاله نستطيع أن نتجاوز الثناء إلى مقالة الأعداء الألداء ، ونحن آمنون أن نسمع فيه ما يغض من فضله وينقص شيئاً من حقه . إذ ليس على عظيم من العظماء غضاضة أن يختلف فيه مختلفون ، وأن يتأول أعماله متأولون ، فكل عظيم من عظماء الدنيا قيل له وقيل عليه ، وحسنت نيات قوم نحوه وساءت نيات آخرين ، فليس هذا بضائره ، وليس هذا بعجيب ، وإنما الميزان العادل في الحكم له أو عليه دليل القائل وليس مقال القائل . فلمن شاء أن يزعم ما يشاء فيمن يشاء ، ولكنه لا يوضع في الميزان إلا بدليل تؤيده الوقائع والأعمال . فهذا الذي يحسب من مقال القائلين ومن خلاف المختلفين .

فليست فضيلة أبي بكر أنه ظفر من الناس جميعاً بالثناء الذي لا معقب عليه ، إذ ليس هذا بممكن وليس هذا بمعقول ولا بمطلوب ..

وإنما فضيلته أنه قد ظفر بالثناء ممن في ثنائه صدق ولثنائه قيمة وأن خلاف المخالفين لم يقم قط على دليل ولم يأت قط من أناس يحسنون ما يقولون .

وكل حكم على أبي بكر مؤيد بدليل معتمد على واقع ، فهو مصور له

في صورة عامة واحدة لا شك فيها ، وهي صورة أمين ، وأكثر من أمين، لأنه لم يتهم قط بخيانة في الجاهلية أو في الإسلام .

وأكثر من الأمين ، لأن الأمين هو الذي يعطي حق غيره ، فأما الذي يعطي الأمانة ويزيد عليها ، أو يعطي حق غيره ويعطي من حقه الذي لا يطلب منه ، فذلك هو المفضل الذي جاوز قدر الأمانة ، فهو أكثر من أمين .

وكان أبو بكر يؤدي الأمانات في الجاهلية ويزيد عليها من عنده فضل المفضل وإحسان المحسن وإغاثة المغيث .

ثم تسلم الأمانة الكبرى بعد الخلافة فترك الدنيا وقد أداها كما هي وزاد عليها .

ولسنا غالين في المجاز حين نقول إنه صنع مثل ذلك في أمانة الخلق أو أمانة الحياة ، فمات خيراً مما ولد ، ونشأ ضعيفاً في بدنه كما قال رسول الله ، فإذا هو يستمد من قوة باطنه لقوة ظاهره ، ويلقي من مروءته على مرآه ، حتى أنشأ من نفسه ما لم ينشأ من بدنه ، وبلغ من المهابة بالقوة التي زادها على تكوينه الظاهر فوق ما يؤتاه أمثاله في أمثال هذا التكوين.

للناس أن يعطوه وهم على ثقة ان يستردوا ما أعطوه وزيادة، وللحياة أن تعطيه وهي على ثقة ألا ينقص عطاؤها وألا يزال معه في ازدياد ،وعلى كل أمانة عنده كائناً ما كان معطيها حق مصون ، ومزيد مضمون .

صورته الجملة أنه الأمين وأكثر من الأمين . .

الأمين في الصداقة ، والأمين في الحكومة ، والأمين في السيرة ،

والأمين في المال ، والأمين في الإيمان ، ثم هو في كل أولئك أكثر من الأمين.

عصمته العواصم من فتنة الغواية فولد كريماً تعنيه العزة بين الأقوياء، ولا يعنيه الطغيان على الضعفاء .

وكبر وليس له مارب في سيادة باغيـة ، ولا في صولة دائمـة على من لا يريدها ولا يطمئن إليها .

وكبر في تكوينه حدة الشعور وحماسة اليقين ، وسليقة الإعجاب ، وعصمة المروءة والوقار .

وكبر وكل فضيلة فيه تكبر إلى آمادها ، فلما مات كان أكبر ما كان ، وأكبر ما يتأتى أن يكون ..

مات وهو صاحب الدعوة الثانية في الإسلام، فكان الثاني حقاً بعد النبي عليه السلام في كل شيء ، من قبول الإسلام إلى ولاية أمر الإسلام إلى تجديد دعوة الإسلام ، بعد أن نقضت الردة دعوته الأولى وأوشكت أن ترجع بها إلى الجاهلية الجهلاء .

ثاني اثنين ، وأول مقتد وأول مجيب ..

ذلك موضعه في تلك الدعوة الإنسانية التي نشأت في أمـة واحـدة ثم غيرت ما بعدها في جميع الأمم ، سواء منها من علم بهـا ومن لم يعلم ، وهي دعوة صديقه وصفيـّـه ونبيه محمد صلوات الله عليه .

***

قيل إنه مات بالسم في أكلة أكلها قبل عـام من وفاتـه ، وليس لهذا

القول مرجع يميل الباحث إلى تصديقه .

وقيل إنه مات بالحمى لأنه استحم في يوم بارد ، وقد مات في شهر قائظ كما يظهر من مضاهاة الشهور العربية على الشهور الشمسية ، فليس لهذا القول سند صحيح .

وأغلب الظن أنها حمى المستنقعات « الملاريا » التي أصيب بها بعد الهجرة إلى المدينة ، ثم عاودته في أوانها مرة أخرى وهو شيخ ضعيف ، فجددت الإصابة الثانية عقابيل الإصابة الأولى ، وانتهت حياة بلغت نهايتها في حيز الجسد ، وفي حيز المجد ، وفي حيز التاريخ .

***

عباس محمود

العقاد

عبقرية عمر

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

تمّ تأليف هذا الكتاب فى أحوال عجيبة هى أحوال بأس وخطر . فلا غرابة بينها وبين موضوع الكتاب الذى أدرته عليه ، لأننا لانتكلم عن عمر بن الخطاب إلا وجدنا أننا على مقربة من البأس ومن الخطر فى آن .

فما شرعت فى تحضيره وبدأت فى الصفحات الأولى منه حتى رأيتنى على سفر بغير أهبة إلى السودان . فوصلت إليه وليس معى من مراجع الكتاب إلا القليل ، وكانت الصفحات الأولى التى كتبتها فى القاهرة مما تركته مع المراجع الكثيرة فيها . فأعدت كتابتها فى الخرطوم ومضيت فيه هنالك حتى انتهيت من أكبر شطريه . واستغنيت بمراجع الخرطوم عن المراجع التى أعجلنى السفر عن نقلها . لأن أدباء السودان وفضلاءه يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع ، ويجودون بها أسخياء مبادرين إلى الجود ، فلا أذكر أننى طلبت كتابا فى المساء الا كان عندى فى بكرة الصباح .

وإنى لأتوفر على كتابته وأحسبنى منتهيا منه فى السودان إذ رأيتنى مرة أخرى على سفر بغير أهبة إلى القاهرة ، فعدت إليها بالطائرة ألتمس العلاج السريع ، لأن يدىّ أوشكتا أن تعجزا عن تناول القلم بما عراهما من ثآليل « الخريف »

فعدت وما يشغلنى عن إتمامه شاغل فى السفر والمقام ، ولم أحسب هذا البأس فى الحالتين من موانعه وعراقيله ، لأننى ألفت بعض كتبى الكبار فى أحوال تشبه هذه الأحوال . فألفت كتابى عن « ابن الرومى » بين السجن ونذره ومقدماته ، وألفت كتابى عن « سعد زغلول » وأنا غير مستريح من كفاحه ، وكلاهما من آثر الكتب عندى وأكبرها فى الموضوع وفى عدد الصفحات .

انما خسبت هذا البأس من مطابقاته وموافقاته ، ومن وضع الشيء فى موضعه على نحو من الأنحاء ، ولم أعدده من حرج التأليف كما عددته من مهيآت جو ّه ، ولاسيما حين ألفيتنى ادرس آثار الحركة المهدية وأتقلب بين مشاهدها وميادينها ، وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين والفيلة فى مواقع فارس ، ومن القتال بين الراجلين والسفن المسلحة فى مواقع الخرطوم وأم درمان . فهذه عقيدة وتلك عقيدة ، ولكن العقيدة التى ظفرت كان معها حليف" من الغد المأمول ، ولم تكن العقيدة التى فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل .

ولكن الحرج كل الحرج فى التأليف انما كان فى محاسبة عمر بن الخطاب أو ليس الحرج فى الحساب أيضا من العمريات المأثورات ؟!

فالناس قد تعو ّدوا ممن يسمونهم بالكتّاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا وأن يقرنوا بين الثناء والملام ، وأن يسترسلوا فى الحسنات بقدر لينقلبوا من كل حسنة الى عيب يكافئها ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها ، فان لم يفعلوا ذلك فهم اذن مظنة المغالاة والاعجاب المتحيز ، وهم اذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون ، ولايعجبون الا وهم متحفزون للملام .

عرض لى هذا الخاطر فذكرت قصة العاهل الذى تحاكم الى قاضيه مع بعض السوقة فى عقار يختلفان على ملكه فحكم القاضى للسوقة بغير الحق ليغنم سمعة العدل فى محاسبة الملوك ، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يبتغى الرياء بظلمه . فكان أعدل عادل حين بدا كأنه يحرص على مال مغصوب ويجور على تابع جسور .. لأنه أنصف وهو مستهدَف لتهمة الظلم ، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالانصاف .

قلت لنفسى : ان كنت قد أفدت شيئا من مصاحبة عمر بن الخطاب فى سيرته وأخباره فلا يحرجنك أن تزكى عملا له كلما رأيته أهلا للتزكية ، وان زعم زاعم أنها المغالاة ، وأنه فرط الاعجاب .

وهذه هى الأسوة العمرية فى الحساب .

فالحق أننى ما عرضت لمسألة من مسائله التى لغط بها الناقدون الا وجدته على حجة ناهضة فيها ، ولو أخطأه الصواب .

وان أعسر شيء أن تحاسب رجلا كان أشد أعدائه لايبلغون من عسر محاسبته بعض ما كان يبلغه هو فى محاسبة نفسه ، وأحب الناس اليه .

ذلك رجل قل أن يجور عن القصد وهو عالم بجوره ، وقل أن يتيح لأحد أن يكسب دعوى الانصاف على حسابه ، الا أن يكسبها أيضا على حساب الحق والنقد الأمين .

فاذا عرفت منحاه من الخلق والرأى ، وسلمت له مزاجه ووجهة تفكيره ، فكن على يقين أنه لن يتجافى عن النهج السوى ولن يتعلق بأمر يعدوه الصلاح ويشوبه السوء .

وذاك أحرج الحرج الذى عانيته فى نقد هذا الرجل العظيم ، وتلك حيطة معه ان لم يستفدها الكاتب وهو مشغول بعمر ونهج عمر فشغله عبث ذاهب فى الهواء .

وعلم الله لو وجدت شططا فى أعماله الكبار لكان أحبّ شيء الىّ أن أحصيه وأطنب فيه وأنا ضامن بذلك أن أرضى الأثرة وأرضى الحقيقة ، ولكنى أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه فى مقدورى : ان هذا الرجل العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقدا ومؤاخذة ، ومن فريد مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الاعجاب فى الحكم له أو عليه يلتقيان .

وكتابى هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التى تقصد بها الحوادث والأنباء ، ولكنه وصف له ودراسةٌ لأطواره ودلالةٌ على خصائص عظمته واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة ، فلا قيمة للحادث التاريخى جل أو دقّ الا من حيث أفاد فى هذه الدراسة ، ولا يمنعنى صِغَرُ الحادث أن أقدّمه بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث ، ان كان أوفى تعريفا بعمر وأصدق دلالة عليه .

وعمر بعدُ رجل المناسبة الحاضرة فى العصر الذى نحن فيه ، لأنه العصر الذى شاعت فيه عبادة القوّة الطاغية وزعم الهاتفون بدينها أن البـأس والحق نقيضان . فاذا فهمنا عظيما واحدا كعمر بن الخطاب فقد هدمنا دين القوّة الطاغية من أساسه ، لأننا سنفهم رجلا كان غاية فى البأس وغاية فى العدل وغاية فى الرحمة .. وفى هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفى به من ليس بميئوس الشفاء .

وانه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب ، يطيب لنا أن نوجزه فى كتاب .

عباس محمود العقاد

عَبْقَـرِيّ

« ... لم أر عبقريا يَفرِى فَرِيَّه (١) ... »

كلمة قالها النبى عليه السلام فى عمر رضى الله عنه ، وهى كلمة لايقولها الا عظيمٌ عظماء ، خُلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال

فمن علامات العظمة التى تُحيى مَوَاتَ الأمم أن تختص بقــدرتين لاتـُعهدان فى غيرها ، أولاهما أن تَبتعث كوامنَ الحياة ودوافع العمل فى الأمّة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها ، والأخرى أن تنفذَ ببصيرتها الى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة والوحى الصادق فيم تكون عظمةُ العظيم ، ولأىّ المواقف يصلح ، وبأى الأعمال يضطلع ، ومتى يحين أوانه وتجب نَدبتُه (٢) ومتى ينبغى التريثُ فى أمره الى حين .

كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر فى سيرة عمر بن الخطاب

فأين ـــ لولا الدعوةُ المحمدية التى بعثت كوامن العظمة فى أمة العرب ـــ كنا نسمع بابن الخطاب ؟ وأى موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمى الذى يزخر بكبار الأسماء ؟

انه الآن اسم يقترن بدولة الاسلام ودولة الفرس ودولةُ الروم وكل دولة لها نصيب فى التاريخ . فأين كنا نســمع باسم عمر لولا البعثــة المحمدية ؟

لقد كان ولا ريب خليقا أن يستوى على مكان الزعامة بين بنى عدى آله الأقربين ، أو بين قريش قبيلته الكبرى ، ثم ينتهى شأنه هناك كما انتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخبر . لأنهم عظموا أو لم يعظموا ، يعطون البيئة كِفاءَ ماتطلب من جهد ودراية ، وهى تطلب منهم ما يُذكرون

---

(١) فرى الجلد : قطعه ليصلحه ، وفرى الفرى أتى بالعجب . والمعنى أن عمر عبقرى منفرد فى عمله فلا يقدر احد على أن يصنع مثل صنيعه .

(٢) اسم من ندبه الامر أى دعاه .

به فى بيئتهم ، ولكنها لاتطلب منهم مايذكرون به فى أقطار العالم البعيد .

وقد كان عمر قوىّ النفس بالغا فى القوّة النفسية ، ولكنه على قوّته البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والاقتحام ، ولم يكن ممن يندفعون الى الغَلَبة والتوسع فى الجاه والسلطان بغير دافع يحفزه اليه وهو كاره . لأنه كان مفطورا على العدل واعطاء الحقوق والتزام الحرُمات ما التزمها الناس من حوله . وكان من الجائز أن يهيجه خطرٌ على قبيلته أو على الحجاز ومحارمه المقدّسة فى الجاهلية فينبرى لدفعه ويُبْلى فى ذلك بلاء يتسامع به العرب فى جيله وبعد جيله ، ولكنه لايعــدو ذاك النطاق ، ولا هو يبالى أن يمعن فى بلائه حتى يعدوَه .

بل كان من الجائز غير هذا وعلى نقيضه .

كان من الجائز أن تَفسُدَ تلك القوّة بمعاقرة الخمرِ والانصرافِ اليها . فانه كان فى الجاهلية كما قال « صاحب خمر يشربها ويحبها » وهى موبقة (١) لا تؤمَنُ حتى على الأقوياء اذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجر الدين أو الحوادث ما يصرفُهم عنها ، ويكفّهم عن الافراط فى معاطاتها .

فعمر بن الخطاب الذى عرفه تاريخ العالم وليدُ الدعوة المحمدية دون سواها . بها عَرِفَ وبغيرها لم يكن ليُعرَفَ فى غير الحجاز أو الجزيرةِ العربيةِ .

أما القدرةُ الأخرى التى يمتــاز بها العظيمُ الذى خُلِقَ لتوجيهِ العظماءِ فقد أبان عنها النبى عليه السلام فى كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى ، أى من اللحظة التى سأل اللهَ فيها أن يُعزّ به الاسلامَ ، الى اللحظة التى نَدَبَ فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو ــ عليه السلام ــ فى مرض الوفاة .

سبَرَ غَوْرَه واستَكْنَه عظمته ، وعرَفه فى أصلح مواقفه فعرف الموقف الذى يتقدّم فيه على غيره والموقف الذى هو أولى بتقديم غيره عليه .

---

(١) موبقة : مهلكة .

وليست هى مفاضلةً بين رجلين ولا موازنة بين قدرتين .. ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذى ينبغى أن يوضع فيه ، والمهمة التى ينبغى أن يُنتدَبَ لها ، والوقت الذى يحين فيه أوانه .

وربما رأينا فى زماننا هذا رئيسا يوصى لنصيرٍ من أنصاره بالوزارة ويوصى لغيره بقيادة الجيش ، فلا نقول انه يفاضل بين النصيرين أو أنه يُرجِّحُ أحدَهُما على الآخر فى ميزان الكفاءة . وانما يختار كلا منهما لموضعه فى الوقت الذى يحتاج اليه ، ولا غضاضة على أحد منهما فى هذا الاختيار .

فالنبى عليه السلام كان يعلم من هو أبو بكر ومن هو عمر . وقد عادل بينهما أجل معــادلة حين قال : (ان الله عَزَّ وجَلَّ لَيُلَيِّن قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ ألين من اللين ، وان الله ليُشَدِّدُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ أشــدَّ من الحجــارة ، وان مَثَلَكَ يا أبا بكر مَثَلُ ابراهيم قال : « من تَبعنى فانه منى ، ومن عَصَانى فانك غفورٌ رحيم ، ومَثَلَك يا أبا بكر مثل عيسى قال : « ان تعذِّبْهم فانهم عبادُكَ وان تغفرْ لهم فانك أنت العزيزُ الحكيم » ومثلك يا عمر مثل نوح قال : « ربِّ لا تَذرْ على الأرضِ من الكافرين دَيَّارا » ومثلك كمثلِ موسى قال : « ربنا اطمِسْ على أموالهم واشدُدْ على قلوبِهم فلا يؤمنوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليم »)

كان النبى عليه السلام يعلم ــ كما قال ــ ان عمرَ أشــدُّ المسلمين فى الله ، ويعلم أن فى أبى بكر لينا وهَوادة . فجمع للإسلام المَزيَّتين حين اختار أبا بكر للصلاة وضَمَّن هذا الاختيارَ معنى من معانى الاستخلاف .. أو كما جاء فى بعض الروايات أنه نص على استخلاف أبى بكر بالقول الصريح .

فتعزيز الاسلام بعد نبيه كان فى حاجة الى كثير من الهَوادة والمجاوزة وكان كذلك فى حاجة الى كثير من الشدة والصرامة . ولن تذهب شدة عمر

اذا احتاج اليها أبو بكر فى محنة يشتد فيهـا الليِّن الوديع . انما الخوف من أن يلين عمـر وأبو بكر شـديد . فان الموقف اذا اسـتنفد حجج الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر الى البـأس ويصر عليـه فأقرب شىء أن يعدل عمر عن لينه وأن يثوبَ الى المعهود من صرامته ولَدَدِه (١)

وكان النبى عليه السلام يعلم أن احتمال التبعة أو « المسئولية » خليق أن يبدل أطوار النفوس فى بعض المواقف والأزمات ، فيجنح الليِّنُ الى الشدَّة ويجنح الشديد الى اللين . لأننا اذا قلنا أن رئيسا أصبح يشعر بالمسئولية فمعنَى ذلك أنه أصبح يراجع رأيه فلا يستسلم لأول عارض يمليه عليه طبعُه ، ولا يقنع باللين أولَ وهلة اذا كان من دأبه اللين ، ولا بالشدَّة أول وهلة اذا كان من دأبه الشدَّة . ومن هنا ينشأ الاختلاف بين موقف الرجل وهو مسئول وموقفه وهو غير مسئول .

وهذا الذى ظهر أعجب ظهور فى موقفى الصاحبين من حرب الردَّة . فان عمر الشديدَ قد آثر الهَوادَة وأبا بكر الرفيقَ قد آثر القتال وأصرَّ عليه . وكان عمر يقول : « ان رسول الله كان يقاتل العـربَ بالوحى والملائكة يُمدُّه الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم » ، ثم يقول للخليفة : « الزمْ بيتك ومسجدَك فانه لا طاقةَ لك بقتال العرب » . وكان أبوبكر يقول متسائلا : « أئن كَثُرَ أعداؤكم وقل عددكم رَكِبَ الشيطان منكم هذا المركب ؟ والله ليُظهِرَنَّ الله هذا الدينَ على الأديان كلِّها ولو كره المشركون ، قوله الحق ووعده الصدق ، « بل نقذفُ بالحقِّ على الباطِل فيدمغُه فاذا هو زاهق » .. « كم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرة باذن اللهِ واللهُ مع الصابرين » . واللهِ أيها الناسُ لو منعونى عقالاً لجاهدتُهم عليه واستَعنتُ عليهم بالله وهو خير معين ! »

هُنالك بلغت التبصرةُ بوجوه الرأى المختلفات غايةَ مداها ، وجاء عمر بقُصَارى ماعنده من حُجَج الرأى الآخر حتى وضحتْ المناهج

(١) اللدد : شدة الخصومة .

واستقرّ العزمُ والتقى الصاحبان عليه ، فكانت شدّتهما في الحق شدّتين .

وهَبْ الأمرَ مع هذا قد اختلف في موقف الصاحبين فمال أبو بكر الى السلم والمسامحة ، فأين كانت شدّة عمرَ ذاهبةً عنه في هذه الحال ؟ أغلب الظن إنه هو الذى كان يتولى يومئذ أن يبسُطَ وجه الشدّة في معاملة المرتدين . لأنه يعلم أنه المسئول عن بسط هذا الوجه دونَ غيره ، فلا تفوت الاسلامَ مزيةٌ من مزايا الصاحبين .

ان محمدا عليه السلام قد عرفَ منْ هم رجالُه وماهو الموقف الذى هم مقبلون عليه بعد وفاته . فعرف الموضعَ الذى يضع فيه كلا منهم والعملَ الذى يتولاه خير ولاية في ذلك الموضع . ولم يفتْه أن يحسبَ حساب التبعة وما في احتمالها من ضمانٍ للأخلاق الصالحة والعقول الراجحة ، وأبو بكر وعمر من خِيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه العقول .

ولا يحسبنّ حاسبٌ أننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ولم يكن مقصودا في النيّات قبل ذلك . فان الذى يحسب هذا الحسبانَ يخطىء تلك الخطأة الشائعةَ التى لا تثبت على أقل نصيب من الروية والمراجعة : يخطىء في وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه السياساتِ العاليةَ من بِدْع الزمن الأخير وليست هي من البدع في زمن كان . لأن العظمة لم تكن قط وقفا على العصر الحديث ، ولا سيما العظمة التى ترجع الى الفطرة القويمة والبديهة النافذة والنظر السديد .

فكلّ هذا التقدير الذى أجملنا شرحه كان تقديرَ قصد وتدبير ، وكان مفهوما على البداهة بين ولاة الأمر في تلك الآونة ، ملحوظا بينهم في مناجاة النيات قبل أن نلحظه نحن في عصرنا هذا من تفسير حوادث التاريخ .

والى ذلك أشار عمر في قول صريح حين قال لمن هابوه وتحدّثوا

يخوف الناس منه : « بلغني أن الناس هابوا شدتي وخافوا غلظتي وقالوا : قد كان عمرُ يشتدُّ علينا ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أظهُرِنا ، ثم اشتدَّ علينا وأبو بكر والينا دونَه ، فكيف وقد صارت الأمورُ اليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق ، فقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبدَه وخادمَه . وكان من لا يبلغ أحدٌ صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله : بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يُغْمِدَني أو يَدَعَني فأمضي . فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه اللهُ وهو عني راضٍ ، والحمدُ لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد . ثم وليَ أمرَ المسلمين أبو بكر فكان من لاينكرون دَعَته وكرمَه ولينه ، فكنت خادمَه وعَونَه ، أخلِطُ شدَّتي بلينه ، فأكون سيفا مسلولا حتى يُغمدني أو يدَعني فأمضي ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد ، ثم اني قد وليتُ أمورَكم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدَّة قد أضعفت (١) ، ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدّي على المسلمين : فأما أهلُ السلامة والدين والقصد فأنا ألْيَن لهم من بعضٍ لبعض ... »

بل ظهرت آثار الشعور بالتبعة بُعيد موت النبي والحالُ على أشُده في يوم السقيفة ، والمسلمون مختلفون على من يلي الأمرَ بعد محمد حتى قيل فيما قيل : من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير !

ففي تلك المحنة التي تشخص فيها الأبصار وتعظم التبعات وتودي زلة الساعة فيها بالكثير الذي لا تستدركه الأعوام ، كان عمر الحادُّ الشديد يخشى بوادر الحدَّة من أبي بكر ويهيىء الكلام الليِّن ليعالج الأمر بالرفق والتؤدة ، ويقول فيما رواه عن محنته ذلك اليوم : « وكنت أداري منه بعض الحدِّ ـ أي الحِدَّة ـ فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر :

---

(١) اضعفت : زادت اضعافا .

على رِسلِك ! فكرهت أن أغضبه . فتكلم أبو بكر فكان هو أحلمَ منى وأوقر » .

عمر الحاد الشديد يحاذر من بوادر أبى بكر ،و أبو بكر الحليم الوديع يكفكف عمرَ عن الكلام ، فيطيع !

هؤلاء رجال يعرفهم صاحبهم ، وهذه مواقف يعرفها صاحبها ، وهذه مسألة فَصَل فيها الزمن ولم يبق لنا نحن الذين نعود اليها ونستخلص عبرتها الا أن نراقب مافيها من آيات الاعجاز ، وسوابق النظر البعيد .

ما وُضع أبو بكر خيرا من موضعه وهو يلى الاسلامَ والخطرُ من داخل أهله ، والطب الذى يطبهم به هو طب التآلف والاحجام عن السطوة ما كان الى الاحجام عنها سبيل .

وما وُضع عمرُ خيرا من موضعه وهو يلى الاسلام والخطرُ عليه من أعدائه المحدقين به ، والطب الذى يطبهم به هو طب الصلابة والحزم الذى لا ينكُل (١) عن صراع .

وكأنما توقع النبى أن أيام أبى بكر معدودات ولكنها الأيام التى تحتاج اليه وتكفى لانجاز عمله . وتوقع أن يأتى عمل عمر فى حينه المقدور فلا يفوت الاسلام أن ينتفع بمقدرته فى عهد أبى بكر ولا فى عهده ، نقول هذا على الترجيح ومن حقنا أن نقوله على التوكيد ، لأن حديث النبى فيه غنى عن التخمين والتأويل . قال عليه السلام : « أُريتُ فى المنام أنى أنزِع بدلو بكرةٍ على قليب (٢) فجاء أبو بكر فنزع ذَنوبا (٣) أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غَرْبا (٤) فلم أر عبقريا يَفْرِى فَرِيَّه حتى رَوِىَ الناسُ وضربوا بعَطَن (٥) »

وفهم فقهاء الاسلام أن ضَعْفَ النزع هو قِصَرُ المدّة وانصراف العزم الى حرب الردّة ، وأن فيض الرى على يد عمر هو فيضُ العبقرية

(١) ينكل : يجبن . (٢) قليب : بئر
(٣) ذنوبا : دلوا . (٤) الغرب : الدلو العظيمة .
(٥) عطن : مبرك الابل حول الماء .

التى ينفسح لها الأجل وتنفسح أمامها منادحُ العمل ، ويؤتَى لها من السبق مالايؤتى لغير العبقريين .

ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذى يفهمه الأقدمون أو بمعناها الذى نفهمه نحن المحدثين ، فكلا المعنيين مستقيم فى وصف عمر بن الخطاب ... أتراها على كلا المعنيين شيئا غير التفرُّد والسبق والابتكار ؟ كلا . ما للعبقرية مدلول يخرج عن صفة من هذه الصفات . ومن يكتب تاريخ عمر فقد يجد فى النهاية أنه يكتب تاريخا « لأول من صنع كذا وأول من أوصى بكذا » حتى ينتهى بسرد هذه « الأوليات » الى عداد العشرات .

وتلك هى العبقرية التى لا يفرى فَرِيَّها أحد" كما قال صاحبه وأعرف الناس به ، صلوات الله عليه .

رَجُلٌ مُمْتَاز

يوصف عمر بالعبقرية اذا نظرنا الى أعماله ، ويوصف بها اذا نظرنا الى تكوينه الذى جعله مستعدا لتلك الأعمال مضطلعا بتلك القدرة ، وان لم يكن من اللازم اللازب أن تقترن القدرة بالعمل الذى تستطيعه ، لما يتفق أحيانا من وقوف العوائق بينها وبين الانجاز أو الاتجاه الى ذلك العمل .

الا أن عمر كان رجلا ممتازا بعمله ، ممتازا بتكوينه ، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد فى عرف الأقدمين والمحدثين ، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين .

اذا وصفته للأقدمين الذين يقيسون العبقرية بالفراسة والخبرة عرفوا من صفته أن الذى يوصف لهم رجلٌ ممتاز أو رجل نسيج وَحْدِه (١) .

واذا وصفته للمحدثين الذين يقيسون العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز ، أو رجل موهوب .

كانت نظرة اليه — قبل السماع بعمل من أعماله — توقع فى الرُّوع (٢) أنه من معدن فى الرجال غير معدن السواد (٣) ، وأنه جدير بالهيبة والاعظام ، خليق أن يحسب له كل حساب .

كان مَهيبا رائع المحضر حتى فى حضرة النبى الذى تتطامن عنده الجباه، وأولها جبهة عمر .

أذن النبى يوما لجارية سوداء ، أن تفى بنذرها « لتضربنَّ بدُفها فَرحا ان ردَّه الله سالما » فأذن لها عليه السلام أنْ تضرب بالدف بين يديه .

ودخل أبو بكر وهى تضرب ، ثم دخل علىٌّ وهى تضرب ، ثم دخل عثمان وهى تضرب ، والصحابة مجتمعون .

---

(١) نسيج وحده : لا نظير له .
(٢) الروع : العقل أو القلب .
(٣) سواد الناس : عوامهم .

فما هو الا أن دخل عمر حتى وجمت الجارية وأسرعت الى دُفها تخفيه ، والنبى عليه السلام يقول : « ان الشيطان ليخافُ منك ياعمر ! » .

وروت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها طبخت له عليه السلام حريرة (١) ودعت سودة أن تأكل منها فأبت ، فعزمت عليها لتأكلنّ أو لتلطخنّ وجهها ، فلم تأكل ، فوضعت يدها فى الحريرة ولطختها بها . وضحك النبى عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها : لطّخى أنت وجهها . ففعلت .

ومرّ عمرفناداه النبى : يا عبد الله ! وقد ظن أنه سيدخل فقال لهما : قوما فاغسلا وجهيكما !

قالت السيدة عائشة : فمازلتُ أهابُ عمر لهيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه .

ومن تلك الهيبة أنها كانت رضى الله عنها تتحفظ فى زيارة قبره بعد موته ، وحكت ذلك فقالت : « مازلت أضع خمارى وأتفضّل (٢) فى ثيابى وأقول : انما زوجى وأبى ، حتى دفن عمر بن الخطاب ، فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جدارا فتفضلت بعد » .

وان من أدب الرسول عليه السلام أنه كان يرعى تلك الهيبة رضىً عنها واغتباطا بأثرها فى نصرة الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخير والصدق واخافة أهل البغى والبهتان .

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيَب له من الذين يجهلونه .. وتلك علامة على أن هيبته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار . فربما اجترأ عليه من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه عن الخيلاء وقلة اكتراثه للمظهر والثياب . أما الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعهم على المفاجآة روعة لاتذهبها الأُلفة وطول المعاشرة ، ومن ذلك أنه كان يمشى ذات يوم وخلفه عدةٌ من أصحاب رسول الله إذ بدا له فالتفت ، فلم يبق منهم

---

(١) الحريرة هنا : دقيق يطبخ بلبن فيكون حساء .
(٢) التفضل : لبس الفضال وهو الثوب يلبس فى البيت للخدمة أو النوم .

احد الا وحَبْل ركبتيه ساقط !

وتنحنح عمر والحجّام يقص له شَعْره فذهل الحجام عن نفسه وكاد أن يغشى عليه ، فأمر له بأربعين درهما .

فهى هيبة" من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد . الا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعا يهول من يراه ، ولا يُذهب الخوف منه الا الثقة بعدله وتقواه .

كان طويلا بائن الطول يُرى ماشيا كأنه راكب ، جسيما صلبا يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب ، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق مارأى من نفاذ قول وفصل خطاب .

تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة ، أو معدن العبقرية والامتياز بين بنى الانسان ، وللمحدثين علامات" فى العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخِلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال .

فالعالم الايطالى « لومبروزو » ومدرسته التى تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لاتخطئها على صورة من الصور فى أحد من أهلها ... وهى علامات تتفق وتتناقض ولكنها فى جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة .

فيكون العبقرى طويلا بائن الطول ، أو قصيرا بيّن القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود فى سائر الناس . ويكثر بين العبقريين من كل طراز جَيَشَان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارىء ، فيكون فيهم من تفرط سورته (١) كما يكون فيهم من يفرط هدوؤه ، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يُلحظ تارة فى الزكانة (٢) والفراسة ، وتارة فى النظر على البعد ، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله .

(١) سورة السلطان : سطوته واعتداؤه .
(٢) الزكانة والفراسة : أن يظن الشخص فيصيب .

ومهما يكن من الشك فى استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهى بلا ريب صادقة في حالات ، مقاربة في حالات ، غير أهل فى كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام ، ولا سيما عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور .

وفى عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير .

كان كما تقدم طويلا يمشى كأنه راكب ، وكان أعسرَ (١) يَسَرا يعمل بكلتا يديه ، وكان أصلع خفيف العارضين ، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال : كيف تجدون عمر ؟ فقال : خير الناس ، الا أنه اذا غضب فهو أمر عظيم .

وكان سريع البكاء اذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدى الله ، وأثر البكاء فى صفحتى وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان .

ومن فرط حسه وتوفر شعوره أنه كان يميز بين بعض المذوقات والمشمومات التى لا يسهل التمييز بينها . سقاه غلامه ذات يوم لبنا فأنكره ، فسأله : ويحك ! من أين هذا اللبن ؟ قال الغلام ان الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله .

وقد عرفْنا أهلَ البادية وعرفنا أنهم جميعا أصحابُ ابل وألبان ، ولكننا لم نجد منهم الا قليلا يَدَّعُون أنهم يفرِّقون بين لبن الناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة ، ولا سيما فى المناخ الواحد والمرعى المتقارب .

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن « من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه » ... وتروى له فى أمر هذه الفراسة روايات قد يَصْدُق منها القليلُ وتتسرب المبالغة الى كثير ، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها، وهى أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة ، فمن ذلك أنه كان جالسا فمرَّ به رجل جميل فقال مامعناه : أحسبه كان كاهنهم فى الجاهلية .. فكان كذلك .

(١) الاعسر اليسر : الذى يعمل بكلتا يديه .

وأنه أبصر أعرابيا نازلا من جبل فقال : هذا رجل مصاب بولده ، قد نظم فيه شعرا لو شاء لأسمعكم . ثم سأل الاعرابى : من أين أقبلت ؟ فقال : من أعلى الجبل . فسأله : وما صنعت فيه ؟ قال : أودعته وديعة لى . قال : وما وديعتك ؟ قال : بنىٌّ لى هلك فدفنته قال : فأسمعنا مرثيتك فيه . فقال : وما يدريك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ما تفوّهت بذلك ، وانما حدَّثت به نفسى ، ثم أنشد أبياتا ختمها بقوله :

فالحمد لله لا شريك لهُ في حكمه كان ذا وفى قَدَرِه
قدَّرَ موتا على العباد فما يقدر خلقٌ يزيد فى عُمُره

فبكى عمر حتى بلَّ لحيته ، ثم قال : صدقت يا أعرابى .

وكان عمير بن وهب الجمحى وصفوان بن أمية يذكران مصاب أهل بدر فقال صفوان : والله ما انَّ فى العيش بعدهم خير . فوافقه عمير وهو يقول كالمعتذر من تخلفه عن الثأر : أما والله لولا دَين عليَّ ليس له عندى قضاء ، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت الى محمد حتى أقتله .

فقال صفوان يحرّضه : عليَّ دَينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقوا ، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم .

فوقع كلامه من نفس عمير ، فأسرَّ اليه بعزمه على الغدر بالنبى وشحذ سيفه وسَمَّه ، ثم انطلق حتى قدم المدينة .

فما نظر عُمَر اليه متوشحا بالسيف حتى أوجس منه وهمس لمن معه : هذا الكلب عدوُّ الله عمير بن وهب ، ماجاء الا لشرٍّ ، وهو الذى حرّش بيننا وحزرَنا (١) للقوم يوم بدر . ثم دخل على النبى فأخبره خبره وعاد الى عمير فأخذ بحِمَالة سيفه فى عنقه فلبَّبه (٢) بها ، وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فانه غير مأمون . ثم دخل به على رسول

(١) حزر الشىء : قدره بالتخمين (٢) لببه : جمع ثيابه عند نحره ثم جره .

الله فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، قال : أرسله ياعمر ! أدنُ ياعُمير !

وجعل رسول الله يسأل عميرا وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الانكار فباح بسره ، وأعلن الاسلام والتوبة .

هذه الفراسة وشبيهاتها هى ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقب . وما من عجب أن تكون هذه الخَصلة قرينة من قرائن العبقرية فى حاشية من حواشيها ... اذ ما هى العبقرية فى لبابها كائنا ما كان عملُ المتصف بها ؟ ما هى الحكمة العبقرية ؟ ما هو الفن العبقرى ؟ ما هو دهاء السياسة فى الدهاة العبقريين ؟ من هو :

الألمعىُّ الذى يظن بك الظنّ كأنْ قد رأى وقد سمعا ؟

كل أولئك يلتقى فى هبة واحدة هى كشف الخفايا واستيضاح البواطن واستخراج المعانى التى تدق عن الألباب ... فاتصالها بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه ، ولا انحراف به عن النحو الذى تنتحيه .

والذى يعنينا من الفراسة وشبيهاتها فى صدد الكلام عن عمرَ رضوان الله عليه أن نحصى الخصال الأخرى التى هى كالفراسة فى هذا الاعتبار ، وهى التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو « التلباثى » كما يسميه النفسانيون المعاصرون . ولكل أولئك شواهدُ شتى مما روى عن عمر فى جاهليته وبعد اسلامه الى أن أدركته الوفاة .

جاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله : ما اسمك ؟ قال قريب . وسأله مرة أخرى : ابن من ؟ فقال ابن ظَفَر ! فتفاءل وقال : ظَفَرٌ قريب ان شاء الله ، ولا قوة الا بالله .

وروى يحيى بن سعيد أن عمر سأل رجلا : ما اسمك ؟ قال : جمرة ! فسأله : ابن من ؟ قال : ابن شهاب . فسأله : ممن ؟ قال من الحرقة ، وعاد يسأله : ثم ممَّن ؟ قال : من بنى ضرام ، وهكذا فى أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه ، والرجل يجيب بما فيه معنى النار ومرادفاتها حتى

استوفاه . فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا .

وقد يكون التأليف ظاهرا فى هذه القصة ولكنها مع تأليفها لا تخلو من الدلالة على اشتهار عمر باستكناه الألفاظ فى معرض التفاؤل أو الانذار .

أما الرؤيا فآخر ما روى عنه من أخبارها أنه رأى قُبَيْل مقتله كأن ديكا نقره نقرتين فقال : يسوق الله الىَّ الشهادة ويقتلنى أعجمى ، فان الديك فى الرؤيا يفسر برجل من العجم .

على أن المكاشفة أو الرؤية Vision كما يسميها النفسانيون المحدثون انما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيرا فى قصة سارية المشهورة ، وهى مما يلحقه أولئك النفسـانيون بهبة التلباثى Telepathy أو الشعور البعيد .

كان رضى الله عنه يخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من الخطبة ونادى، يا سارية بن حصن ! الجبل .. الجبل .. ! ومن استرعى الذئب ظلَم .

فلم يفهم السامعون مراده ، وقضى صلاته فسأله علىٌّ رضى الله عنه ، ما هذا الذى ناديت به ؟ قال : أو سمعته ؟ قال : نعم .. أنا وكل مَنْ فى المسجد .

فقال : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا اخواننا وركبوا أكتافهم ، وانهم يمرّون بجبل . فان عدلوا اليه قاتلوا من وجدوه وظفروا ، وان جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام .

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول : يا سارية بن حصن ! الجبل الجبل . فعدلنا اليه ففتح الله علينا .

ولا داعى للجزم بنفى هذه القصة استنادا الى العقل أو الى العلم أو الى التجربة الشائعة . فان العقل لا يمنعها . والعلماء النفسانيون فى عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفى أمثالها ، بل منهم من مارسوا «التلباثى» وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين .

الا أن المهم من نقل هذه القصة فى هذا الصدد أن عمر كان مشهورا بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية إما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد ، وهى الهبات التى يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الانسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها .

فهو رجل نادر بما تراه منه العين ، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق ، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين .

أو هو رجل ممتاز ، وعبقرى موهوب فى جميع الآراء .

صفات

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال ! رجل عبقرى ، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدون فى الزمن الواحد بأكثر من الآحاد .

أنقول رجل قوى ؟ نعم هو رجل قوى لا مِراء . وكل عظيم فهو قوى بمعنى من معانى القوة . نعلم هذا فنعلم الشيء المهم عنه ، ولكننا بعد هذا لا نعلم شيئا مهما عن صفاته وأخلاقه . لأن الناس من حيث القوة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون الى هنا تارةً والى هناك تارة أخرى . أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوفٌ وألوف ، وهم فى قوتهم أو ضعفهم أنماطٌ لا تُحصَى من المناقب والعيوب ، وأحرى بنا أن نقول أن القوة صفة تستفاد من جملة مناقب الانسان وعيوبه . فهى حالةٌ تدل عليها المناقب والعيوب أو تدل عليها الصفات والأخلاق ، وليست هى بالحالة التى تدلنا على مناقب الانسان وعيوبه وتهدينا بغير هاد الى صفاته وأخلاقه .

فاذا قلت ان عمر بن الخطاب رجلٌ قوى فما زدتَ على أن تقول انه رجل عبقرى أو انه رجل عظيم .

وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير ، لأنه نمطٌ لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس الى أمثاله الكثيرين . وقد يكون الرجل العظيم نَمطًا وحيدا فى التاريخ كلّه لا نظير له فى تفصيل أخلاقه وصفاته ، وان ساواه فى القدر أندادٌ وقرناء .

وعمر بن الخطاب مثلٌ فذٌّ من أمثلة هذا الطراز الفريد . تفهم سرَّه فاذا هو على وفاق مع جَهْره ، وتنفذ الى باطنه فاذا هو مصدِّق للظاهر من سيماه (١) .

(١) سيماه : علامته ، والمراد ما اشتهر به .

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسريرة؟ كلا . ولا تقدّمنا بعيدا فى طريق حلها ، لأننا لانعرف هذا التقارب إلا بعد معرفة السريرة التى نبحث عنها ، فلا بدّ اذا من البحث ولا بد اذا من المعرفة . فاذا وصلنا الى الغوْر البعيد عرفنا ساعتئذ أنه لا يناقض الظاهر المكشوف . ولكن لابدّ من الوصول الى الغورْ البعيد قبل ذاك .

لا تناقض فى خلائق عمر بن الخطاب ، ولكن ليس معنى ذلك أنه أيسر فهما من المتناقضين ، بل لعله أعضــل فهما منهم فى كثــير من الأحوال . فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه ، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ الى صميمه ويحتويه .

انما الأمر الميسور فى التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جدا لا يسترها حجاب . فما من قارىء ألمّ بفذلكة صالحة من ترجمته الا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلا ، وكان رحيما ، وكان غيورا ، وكان فطنا ، وكان وثيقَ الايمان ، عظيم الاستعداد للنخوة الدينية .

فالعدل والرحمة والغيرة والفِطنة والايمان الوثيق صفاتٌ مكينة فيه لا تخفى على ناظر ، ويبقى عليــه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجــه هــذه الصفات الى وجهة واحدة ولا تتشعب فى اتجاهها طرائق قِددا (١) كما يتفق فى صفات بعض العظماء . بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتمم بعضُ هذه الصفات بعضا حتى كأنها صفةٌ واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان .

وأعجب من هذا فى التوافق بين صــفاته أن الصــفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدها من ينبوع واحد . ثم هى مع ذلك متفقة لا تتناقض ، متساندة لا تتخاذل ، كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر فى شىء .

(١) طرائق قدد : فرق مختلفة .

خذ لذلك مثلا عدله المشهور الذى اتسم به كما لم يتسم قط بفضيلة من فضائله الكبرى . فكم رافِدة (١) لهذا الخلق الجميل فى نفس ذلك الرجل العظيم ؟

روافِد شتى : بعضها من وراثة أهله ، وبعضها من تكوين شخصه ، وبعضها من عِبَر أيامه ، وبعضها من تعليم دينه ، وكلها بعد ذلك تمضى فى اتجاه قويم الى غاية واحدة لا تَنِم على افتراق .

لم يكن عمر عادلا لسبب واحد بل لجملة أسباب :

كان عادلا لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه ، فهو من أنبه بيوت بنى عدى الذين تولوا السفارة والتحكيم فى الجاهلية ، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلا بعد جيل على الانصاف وفصل الخطاب ، وجده نفيل بن عبد العزى هو الذى قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا اليه وتنافسا على الزعامة . فهو عادل من عادلين ، وناشىء فى مهد الحكم والموازنة بين الأقوياء .

وكان عادلا لأنه قوى مستقيم بتكوين طبعه ، وان شئت فقل أيضا بتكوينه الموروث . اذ كان أبوه الخطاب وجده نفيل من أهل الشدة والبأس ، وكانت أمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة قائد قريش فى كل نضال . فهو على خليقة الرجل الذى لا يحابى لأنه لا يخاف والذى يخجل من الميل الى القوى لأنه جُبْن ، ومن الجور على الضعيف لأنه عِوج يُزرى بنخوته وشَممه .

وكان عادلا لأن آله من بنى عدى قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لعَقَة (٢) الدم ، ولكنهم غُلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس الى عدد أقربائهم ، فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وحبه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه ،

---

(١) رافدة : الرافد ما يمد النهر بالماء من قناة او نهير .

(٢) لعقة الدم : سموا كذلك لانهم تحالفوا مع غيرهم فنحروا جزورا فلعقوا دمها او غمسوا ايديهم فيه .

وساعدت عبر الأيام على تمكين خليقة العدل في خلاصة هذه الأسرة أو خلاصة هذه القبيلة ، ونعنى به عمر بن الخطاب .

وكان عادلا بتعليم الدين الذى استمسك به وهو من أهله بمقدار ما حاربه وهو عدوه . فكان أقوى العادلين كما كان أقوى المتقين والمؤمنين .

وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة الشعبية ، والقوة الفردية ، وعِبَر الحوادث وعقيدة الدين في صفة العدل التى أوشكت أن تستولى فيه على جميع الصفات .

كان عادلا لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلة التناقض فيه . وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض في آثارها . لأنه منحها القوة التى تشدها كما يشد الحبلُ المبرم فلا تتفكك ولا تتوزع ، فكان عمر في جميع أحكامه عادلا على وتيرة واحدة لا تفاوت بينها . فلو تفرقت بين يديه مائة قضية في أعوام متباعدات لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا .. كأنه يطبعها بطابَع واحد لا يتغير .

الا أن الصفات اذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة لم تكد تسلمُ من طروء التناقض عليها وان سلمت منه بطبيعتها . لأنها تدخل في صفات البطولة التى تثير الاعجاب والمبالغة ، وكل بطولة فهى عرضة للمبالغات والاضافات ، ومن ثم لا تسلم من تناقض الأقاويل .

وصفات عمر كلها صفات لها طابع البطولة وفيها دواعى الاغراء بالاعجاب والمبالغة . وممن ؟ من الأصدقاء المصدّقين لأنهم لا يتهمون بقصد السوء وهم في الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين .. فمن هنا يجيء التناقض لا من طبيعة الصفات التى تأباه .

فالعدل مثلا هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم في قضاء الحقوق واقامة الحدود .

وليس أقرب الى الحاكم من ابنه .

فاذا سوّى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية فذلك عدل مأثور يقتدى به الحاكمون .

ولقد سوّى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين فبلغ بذلك مبلغ البطولة فى هذه الصفة النادرة بين الحكام .

وذلك كاف فى تعظيم قدره ، لا حاجة بعده إلى مزيد .

الا أنها صفة من صفات البطولة التى تَروع وتُعجِب وتملأ النفس بالرغبة فى التحدث بها والاطناب فى أحاديثها . فهى لا تكفى المبالغين حتى يجعلوا عمر مقيما للحد على ابنه ، مشتدا فى عقوبته اشتدادا لا يسوى فيه بينه وبين غيره . ثم لا يكتفى المبالغون بهذا حتى يموت الولد قبل استيفاء العقوبة ، فيمضى عمر فى جلده وهو ميت" لا تقام عليه الحدود ! ومن اعتدل من المبالغين لم يذكر الموت واتمام العقوبة وذكر لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر من مرض الضرب الذى ثقل عليه ، وعجز عن احتماله.

نعنى بما نقدم قصة عبد الرحمن بن عمر فى مصر وهى كما رواها عمرو ابن العاص والى مصر يومئذ حيث يقول : « .. دخلا ــ عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة ــ وهما منكسران ، فقالا : أقم علينا حد الله ، فانا قد أصَبْنا البارحَة شرابا فسكرنا . فزبرتهما (١) وطردتهما ، فقال عبد الرحمن : ان لم تفعل أخبرت أبى اذا قدمت عليه . فحضرنى رأى" وعلمت أنى ان لم أقِم عليهما الحد غضب علىَّ عمر فى ذلك وعزلنى وخالفه ما صنعت ، فنحن على ما نحن عليه اذ دخل عبد الله بن عمر ، فقمت اليه فرحَّبت به وأردت أن أجلسَه فى صدر مجلسى فأبى علىَّ وقال : أبى نهانى أن أدخل عليك الا أن لا أجد من ذلك بدًّا . ان أخى لا يَحْلق على رؤوس الناس . فأما الضرب فاصنع ما بدا لك » .

قال عمرو بن العاص : « وكانوا يحلقون مع الحد ، فأخرجتهما الى صحن الدار فضربتهما الحد ، ودخل ابن عمر بأخيه الى بيت من الدار

---

(١) زبرتهما : زجرتهما ونهرتهما .

فحلق رأسه ورأس أبى سروعة ، فوالله ما كتبت الى عمر بشىء مما كان حتى اذا تحيّنت كتابه اذا هو نظم فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين عمر الى العاصى ابن العاص .

« عجبت لك يا ابن العاص ولجرأتك علىّ وخلاف عهدى .. فما أرانى إلا عازلك فمسىء عزلك . تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك وقد عرفت أن هذا يخالفنى ؟ انما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ماتصنع بغيره من المسلمين ، ولكن قلت هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب لله عليه . فاذا جاءك كتابى هذا فابعث به فى عباءة على قتب (١) حتى يعرف سوء ما صنع » .

قال : « فبعثت به كما قال أبوه وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه ، وكتبت الى عمر كتابا أعتذر فيه وأخبره أنى ضربته فى صحن دارى ، وبالله الذى لا يحلف بأعظم منه انى لأقيم الحدود فى صحن دارى على الذمى والمسلم ، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر .

قال أسلم : « فقدم عبد الرحمن على أبيه فدخل عليه ، وعليه عباءة ولا يستطيع المشى من مركبه . فقال : يا عبد الرحمن فعلت كذا ؟ فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال : يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة . فلم يلتفت الى هذا عمر وزبره . فجعل عبد الرحمن يصيح : أنا مريض وأنت قاتلى ! فضربه وحبسه ، ثم مرض فمات رحمه الله » .

فهذه قصة تتوافق أخبارها ومن رويت عنهم ، فلا نستغربها فى جميع تفصيلاتها الا حين تطرأ عليها المبالغة التى تتسرب الى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة ، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التى لا يوجبها الدين ولا تقبلها الفطرة الانسانية ، فيقيم عليه الحد وهو ميت،

(١) القتب : الرحل الصغير على قدر سنام البعير .

أو يعرّضه للموت من أجل حدّ أُقيم .

هذا هو الغريب الذى استوقفنا فأنكرناه ، ومضينا فى تمحيصه فطابق التمحيصُ ماقدّرناه . أما سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه ، بل هو من القصص التى يستبعد فيهـا التلفيق والاختراع .. الا أن يكون الملفّق من حُذاق الرواة ومَهَرَة الوضّاع .

ولو كان المصدر واحدا معروفا بالحذق فى القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه . ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به ، فهى أقرب الى الواقع فيما يشبهه ويجرى مجراه .

فعبد الرحمن بن عمر يذهب الى الوالي لانه شرب شيئا ظنــه غير مُسْكِر فاذا هو قد سكِر منه ، ولا مناص من اقامة الحد عليه والا رفع الأمر الى أبيه .. هى شنشنة (١) عمرية" لا لبْسَ فيها ، وهو ابن عمر لا مِراء .

والوالى . ومَن الوالى ؟ عمرو بن العاص الذى لا خفاء بدهائه ولا يبعد حسابه ، فهو يتريث بادىء الأمر ويحاول أن يصرف الفتى اذا طاب له الانصراف دون أن يقيم الحدّ عليه .. وهى أيضا شنشنة لا غرابة فيها . فمن يدرى ؟ ألا يجوز أن يصبح هذا الفتى أخا للخليفة أو مدبّرا للسلطان معه فى يوم غير بعيد ؟

والخليفة يدرى بالأمر فيهوله ويستكبر أن يخفيه عنه واليه فلا يصل اليه نبؤه من قِبَله ، وهو ماهو فى تحرّجه من تبِعة يحملها غافلا عنها ، لحرص الولاة على تحرّى هواه وابتغاء رضاه . فيشفق أن يقع ابنه فى معصية ثم ينجو من الحدّ الذى شرعه الدين ، وهو مسئول عن الولاة والحدود ، ومسئول عن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين .

كل أولئك كما قلنا سائغ" لا غرابة فيه .

أما الغريب من عمر حقا فى معدلته وعلمه بالدين وكراهته رياء الناس

(١) الشنشنة : الخلق والطبيعة .

فهو أن يُتِمّ على ابنه الحدّ وهو ميت ، أو يشتد فى اقامة الحد على ابنه حتى يتلفُ أو يصاب بما يتلفه بعد أيام .

فلا موجِب لذلك من حكم دين ولا اتقاء تبعَة .

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر فى اقامة الحدود خاصة وفى مثل هذه العقوبة بعينها .

فقد جيىء له يوما بشارب سكران ، وأراد أن يشتدّ عليه فقال له : لأبعثنك الى رجل لا تأخذه فيك هَوادة . فبعث به الى مطيع بن الأسود العبدى ليقيم عليه الحدّ فى غده . ثم حضره وهو يضربه ضربا شديدا فصاح به : قتَلت الرجل . كم ضربته ؟ قال : ستين ، قال : أقِصّ (١) عنه بعشرين . أى ارفع عنه عشرين ضربة من أجل شدّتك عليه فيما تقدم من الضربات .

وقد كان من دأبه أن يتريث فى اقامة الحدود ، حتى ليؤثر — كما قال — تعطيلها فى الشبُهات على أن يقيمها فى الشبهات .

ومرّ بقوم يتبعون رجلا قد أخِذ فى ريبة فقال : « لا مرحبا بهذه الوجوه التى لا تُرى الا فى الشر » .

وربما غضب على الوالى من كبار الولاة لغلوّه فى تقاضى الحدود على المعاصى كما فعل فى انذاره الشديد لأبى موسى الأشعرى حين جلد شاربا وحلق شعره وسوّد وجهه ونادى فى الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه . فأعطى الشاكى مائتى درهم وكتب الى أبى موسى « لئن عدت لأسوّدنّ وجهك ولأطوفنّ بك فى الناس » وأمره أن يدعوَ المسلمين الى مجالسته ومؤاكلته وأن يُمهله ليتوبَ ويقبلَ شهادته ان تاب .

وتفقّد رجلا يعرفه فقيل له انه يتابع الشراب . فكتب اليه : انى أحمَد اليك الله الذى لا اله الا هو « غافِر الذنب وقابِل التّوب شديد العقاب

(١) اقص : خذ له بقصاصه — أى اقم القصاص عليه بحذف عشرين . ولعل الاصل اقص منه عشرين أى أنقص منه عشرين ، وزيادة الباء من تحريف الرواة .

ذى الطوْل لا اله الا هو اليه المصير » (١) فلم يزل الرجل يرددها ويبكى حتى صحَّتْ توبته وأحسن النزع (٢) ، وبلغت توبته عمر فقال لمن حضروا مجلسه : هكذا فاصنعوا . اذا رأيتم أخا لكم زلَّ زلَّة فسددوه وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه .

وقد تكرر منه اعفاءُ الزانيات من الحدّ لشبهة القهر والعجز عن المقاومة ، وتكرر منه الاعفاء لمثل هذا العذر فى غير ذلك من الحدود .

فلم يكن عمر بالسريع المتعطش الى اقامة الحدّ ، ولم يُعْرفْ عنه قطُّ انه أقام حدًّا وله مندوحةٌ عنه .

وفى قصة ولده مئادح شتى ترضيه على شدّة تحرّجه وتحرّيه . ثم لا حاجة بمثله الى رياء العدل فيجور على ابنه ويُسرف فى القسوة عليه ، ليقال انه سوّى بينه وبين غيره .

وأصح من ذلك أن نأخذ برواية عبد الله بن عمر وهو أحَق الناس بالمبالغة فى عدل أبيه لو كانت مما يجمل بمثله . فقد روى هذه القصة فقال ما خلاصته : ان أخاه عبد الرحمن وأبا سروعة عتبة بن الحارث سكرا فلما أصبحا انطلقا الى عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا : طهرنا فانا قد سكرنا من شراب شربناه .. ! ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص ، فقلت : والله لا يحلْق اليوم على رؤوس الأشهاد . ادخل أحلقك ! .. وكانوا اذ ذاك يحلقون مع الحد ، فدخل معى الدار فحلقت أخى بيدى ، ثم جلدهما عمرو بن العاص ، فسمع عمر بن الخطاب فكتب الى عمرو أن ابعث اليّ بعبد الرحمن بن عمر على قتب .. ففعل ذلك عمرو . فلما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه من أجل مكانه منه . ثم أرسله فلبث شهرا صحيحا ثم أصابه قَدَرُه ، فتحسَّب (٣) عامةُ الناس أنه مات من الجلد ولم يمت منه .

---

(١) آية ٢ من سورة غافر .
(٢) احسن النزع : كف عما كان فيه وانتهى .
(٣) تحسب : ظن .

هذه رواية عبد الله عن أبيه وأخيه ، ولو كان الأمر مبالغة فى عدل عمر لكان الابنُ أحقَّ الناس بهذه المبالغة ، أو كان الأمر رحمةً بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة . ولكنه أمرُ صدق لا نَقْصَ فيه ولا زيادة .

فالذى يجوز لنا أن نقبله من هذه القصة هو الجانب الذى يستقيم مع خلائق عمر ولا يناقضها . وهو العدل الصحيح فى محاسبة ولده على ذنبه ولا زيادة ، ولا سيما الزيادة التى لا تستقيم مع عدله ورحمته على السواء . وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه .

نعم كانت الرحمة من صفاته التى وازنت فيه العدلَ أحسن موازنة ... فما عُهِد فيه أنه أحب العدل لغضّة من الأقوياء المعتدين ، كما كان يحبه لنجدته الضعيفَ المعتدَى عليه .

ولا يمنعنَّ ذلك أنه كان خشنَ الملمس صعبَ الشكيمة جافيا فى القول اذا استُغضِب واستثير ، فليست الخشونة نقيضا للرحمة ، وليست النعومة نقيضا للقسوة . وليس الذين لايستثارون ولا يستغضَبون بأرحم الناس . فقد يكون الرجل ناعما وهو منطو على العنف والبغضاء ، ويكون الرجل خشنا وهو أعطفُ خلق الله على الضعفاء ، بل كثيرا ماتكون الخشونة الظاهرة نقابا يستتر به الرجل القوى فرارا من مَظِنّةِ الضعف الذى يساوره من قِبَل الرحمة . فلا يكون مداراةُ الرقة الا علامةً على وجودها وحذرا من ظهورها .

ومن المألوف فى الطبائع أن الرجل الذى يقسو وهو معتصم بالواجب قلما ينطبع على القسوة ، ولا سيما اذا كان الواجب عنده شيئا عظيما يزيل كلَّ عقبة ويبطل كل حجة ، ويقطع كل ذريعة . فهو انما يعتصم بالواجب فى هذه الحالة كما يعتصم الانسان بالحصن المنيع كلما خَشِيَ أن تَقْتَحِم عليه طريقَه ، ولولا خوفُ الرحمة أن تغلبه لما كانت به حاجةٌ الى ذلك الحصن المنيع ، ولا سيما حين يكون حصنا بالغا فى المنعة كما

كان الواجب عند عمر بن الخطاب .

أرأيت هذا الرجلَ الصارمَ الحازم قاسيا قط الا باسم واجب أو فى سبيل واجب ؟ كلا . وما نذكر أننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدته الا لمَحْنا الواجبَ قائما الى جانبها يزكيها ويسو غها . ومن كانت القسوة طبعا فيه فما هو بحاجة الى واجب يُغريه بالقسوة ، بل هو فى حاجة الى واجبات عدَّة تنهاه عنها وتُغريه باجتنابها .

وليس قصاراه فى هذا الخُلُق أنه غير قاسٍ أو أن الرحمةَ كانت تنفذ الى قلبه كلما طرقته واتخذت سبيلَها اليه ، فان نصيبه من الرحمة قد كان أوفى جدا من ذاك ، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصيلة فيه لا تكاد تفارقه فى عامَّة حياته ، حتى ليصحُّ أن تُضْرب الأمثالُ برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله . وأن يُقرَنَ معه لقبُ العادل بلقب الرحيم .

وفى صدد الكلام عن الخليفة الاسلامى الكبير قد يهمنا خلق الرحمة فيه خاصة ، لأن شأنها فى التقريب بينه وبين الاسلام غير قليل .

فمن المحقق أن رقته للمسلمين وللدين الذى يدينون به كانت مقرونة فى أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما فى حالة من الشكوى تُلين القلبَ وتكف الغرب (١) وتمسح جفوةَ العناد والبغضاء .

قالت أم عبد الله بنت حنتمة : لما كنا نرتحل مهاجرين الى الحبشة أقبل عمر حتى وقف على ، وكنا نَلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا ، فقال لى : انه الانطلاق يا أمَّ عبد الله ! قلت : نعم . والله لنخرجنَّ فى أرض الله ... آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا فرجا . فقال : صَحِبكم الله ، ورأيت منه رقةً لم أرَهَا قط .

وحديثه مع أختِه فاطمةَ فى سبب اسلامه مشهورٌ متواتر فى أوثق الروايات . فانه ضربها حين علم باسلامها فأدمى وجهَها ، فأدركتها الثورة الخطَّابية التى فيها منها بعضُ مافيه وقالت وهى غضبى : ياعدوَّ الله !

(١) تكف الغرب : تخفف الحدة أى تلين الشديد القاسى .

أتضربنى على أن أوحّدَ الله ؟ قال غيرَ متريّث : نعم ! فقالت : ما كنتَ فاعلا فافعل . أشهدُ أن لا اله الا اللهُ وأن محمدا رسول الله . لقد أسلمنا على رغم أنفِك .

ويذكر لنا رواةُ القصة التى اتفقت عليها رواياتٌ كثيرة أنه ندم وخلّى عن زوجها ــ بعد أن صَرَعه وقعد على صدره ــ ثم انتحى ناحيةً من المنزل وطلب الصحيفةَ التى كُتبت فيها آيات القرآن ، وخرج من ثمةَ الى حيث لقى النبىَّ فأعلن شهادةَ الاسلام على يديه .

وغير عسير علينا أن نرقب طويةَ عمر ونرى كيف كانت تتمشى فيها الخوالج والخطرات وهو يتحدث الى المرأتين : بنتِ حنتمة ، وبنت الخطاب .

فهذا بطل مناضل يشحذه النضال اذا لقى أنداده من الأبطال وأقرانه من الرجال : الاساءة تتبعها الاساءة والتحدّى يعقبه التحدى ، وكلما قوبل البطش بمثله تضرّمت سورةُ الغضب وثارت نحيزة القتال (١) ، ومضى العداء شططا لا اعتدال فيه ولا نكوص عنه حتى ينكسر عدوٌ من العدوين . فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها الى ظهور . وتتمادى الشِرّة (٢) على ذلك شهورا وسنينا وكأن الرحمة لم تخلق فى النفس ولم يسمع لها فى حنايا الصدور صوت .

أما المرأة الشاكية أو المرأة الدامية اذا واجهت ذلك البطل القوىّ فما حاجته الى قوّته ونضاله ؟ وما أحرى تلك القوّة أن تهدأ فى مكانها كأنها هى الخليقة الخفية التى لم تخلق وليس لها صوت مسموع ! وما أقربها اذا الى أن تخجل من ايذائها وتندم على قسوتها وتثوبَ الى التوبة والخشوع ، وهما من لباب الدين .

ان العرب يشتقون الرحمة من الرَحِم أو القرابة ، وهو اشتقاق عميق المغزى يهدينا الى نشأة هذه الفضيلة الانسانية العالية ، ومودّة عمر

(١) النحيزة : الطبيعة والغريزة .

(٢) الشرة : الشر .

ابن الخطاب لرحمه وذوى قرباه لا تنحصر دلائلها فى رحمته لأخته الشاكية الثائرة . فان المرأة قد ترحمُ لضعفها فى موقف شكواها ويأسها ولو كانت بعيدة الآصرة منقطعةالنسب . انما يدل على مودَّته لذوى قرباه ذلك الحبُّ الذى كان يُضمره لأبيه بعد موته مع شدَّته عليه وغلظته فى زجره وتأديبه . فكان يطيل الحديث عنه وينقل أخباره ويُقسم باسمه . وظل يقسم باسمه وهو كهل الى أن نُهى المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية .

وندر بين الناس من أحب أخوته كما كان عمرُ يحب أخاه زيدا فى حياته وبعد مماته ، فما شاء أحد أن يُبكيه الا ذكره له ففاضت شئونه (١)، وجعل بعد قتله يتأسَّى بمن أصيب مثلَ مصابه ولا يرى أحدا فقد أخا له الا التمس الأسوة عنده .

حكى أحمد بن عمران العبدى عن أبيه عن جده قال : « صلَّيتُ مع عمر بن الخطاب الصبح ، فلما انفتل من صلاته اذا هو برجل قصير أعورَ متنكبا قوسه وبيده هراوة فسأل : من هذا ؟ فقيل : متمم بن نويرة . فاستنشده رثاءه لأخيه ، فأنشده حتى بلغ الى قوله :

وكنا كندْمانَىْ جذيمةَ حقبةً ... من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعا
فلما تفرقْنا كأنى ومالكا ... لطولِ افتراق لم نبتْ ليلةً معا

فقال عمر : هذا والله التأبين ، يرحم الله زيد بن الخطاب ! انى لأحسب أنى لو كنت أقدرُ على أن أقول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك . ثم سأله : ما أشدُّ مالقيت على أخيك من الحزن ؟ فقال : كانت عينى هذه قد ذهبت فبكيتُ بالصحيحة فأكثرت البكاء حتى أسعدتْها العين الذاهبة وجرتْ بالدمع . فقال عمر : ان هذا لحزن شديد . مايحزن هكذا أحدٌ على هالك . قال متمم : لو قتل أخى يوم اليمامة كما قتل أخوك مابكيت أبدا . فصبر عمر وتعزَّى عن أخيه وقال : ما عزَّانى أحدٌ عنه بأحسنَ

(١) الشئون : الدموع .

مما عزيتنى ... »

هذا هو عمر من وراء النقاب .

فما كان أحوجَه رضى الله عنه الى ذلك النقاب ، وما أقل الغرابةَ فى ذلك النقاب من الشدة والهيبة حين يَنْفُذ الناظر الى ماوراءه فيرى مكان الحاجة اليه .

وقد يرحم الرجل أهل الرحم والقرابة ويجفو غَيرهم من الناس ، ولكن الرحمة الأصيلة فى الطباع تسوِّى فى المودّة ولا تفرِّق ، وتخلق هى سبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القرابةُ بأسبابها . فكان عمر كما روى « الحسن » يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقول : ياطولها من ليلة ! فاذا صلى الغداة غدا اليه ، فاذا لقيه التزمه أو اعتنقه .

وكان بكاءُ طفل يزعجه ويقطع عليه صلاتَه وينغِّصُ عليه ليلَه . قدمت رُفقة من التجار فنزلوا المصلَّى ، فاقترح على عبد الرحمن بن عوف أن يذهبا ليحرساهم من السَرَق ، ثم باتا يحرسان ويصليان ، فسمع بكاء صبىٍّ ، فتوجه نحوه وقال لأمه : اتقى الله وأحسنى الى صبيك . ثم عاد الى مكانه فسمع بكاءه فرجع الى أمِّه كرّة أخرى ، ثم سمع بكاءه آخر الليل فقال لأمِّه : ويحك ! انى لأراك أم سَوء . مالى أرى ابنَك لا يقرُّ منذ الليلة ؟ قالت : ياعبد الله قد أضجَرْتنى منذ الليلة . انى أرْبِعهُ عن الفطام (١) فسألها : ولم ؟ فقالت : لأن عمر لايفرض الا للفطيم ! فسألها : وكم له ؟ فلما علم أنها فطمته دون سن الفطام أمر مناديا فنادى ألا تَعْجلوا صبيانكم عن الرضاع فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام .

وقصته مع الصبية الجياع مشهورة ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن تعاد

قال أسلم : خرجنا مع عمر رضى الله عنه الى حرّة واقم حتى اذا كنا بِصِرَار (٢) اذا نارٌ تؤرث (٣) فقال : يا أسلم انى أرى ها هنا ركبانا قصَّر بهم الليل والبرد . انطلق بنا !

---

(١) اربعه عن الفطام : المقصود انى احبسه على الفطام واعوده ..

(٢) مكان على مقربة من المدينة . (٣) تؤرث : توقد

« فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فاذا بامرأة معها صبيان وقِدْرٌ منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغَون (١) . فقال عمر : السلام عليكم يا أهل الضوء . وكره أن يقول : يا أصحاب النار . فأجابته امرأة : وعليكم السلام ! فقال : أأدنو ؟ فقالت : ادنُ بخير أو دَعْ . فدنا منها فقال : مابالُكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد .قال : وما بالُ هؤلاء الصبيةِ يتضاغَوْن ؟ قالت : الجوع ! قال : وأيّ شيء فى هذه القدر ؟ قالت : ماء أُسكتهم به حتى يناموا .. واللهُ بيننا وبين عمر ! فقال : أى رحمك الله . وما يُدرى عمرَ بكم ؟ فقالت : يتولى أمرَنا ثم يغفُل عنا ؟ فأقبل علىّ فقال : انطلق بنا .

« فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق . فأخرج عِدْلا (٢) من دقيق وكُبَّةً (٣) من شحم ، وقال : احمله علىّ ! قلت : أنا أحمله عنك . قال : أنت تحمل وزرى يوم القيامة ! .. لا أُمّ لك !

« فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه اليها نهرول ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا فجعل يقول لها : ذُرّى علىّ وأنا أحرّ لك (٤)

« وجعل ينفخ تحت القدر . وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم . ثم أنزلها وأفرغ الحريرة فى صحفة وهو يقول لها : أطعميهم وأنا أسْطَحُ لهم — أى أبرّده — ولم يزل حتى شبعوا وهى تقول له : جزاك الله خيرا ، كنتَ بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين .. »

وأمثال هذه القصة فى سيرة عمر كثير ، لا يقال انها هى ومثيلاتها من الشعور بالتبعة وليست من الرحمة ، لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتى من الرحمة ، وليس العهد بالرحمة أن تأتى من الشعور بالتبعة !

كذلك لا يقال انه قد كان يطيع أمرا سماويا تحركت له نفسه أو لم تتحرك . فان النفس التى تتحرك للامر السماوى هى النفس التى فيها

---

(١) يتضاغون : يتصايحون .
(٢) العدل : الجوالق .
(٣) كبة من شحم : مقدار منه .
(٤) أحر لك : أى اتخذ لك حريرة ، وهى الحساء من الدقيق والدسم .

الخير ولها رغبة فيه ، وقلما تشفق من عقاب السماء الا أن تشعرَ بألم الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب .

على أن عمر كان يرحم فى أمورٍ يحول فيها النفور الدينى دون الرحمة عند كثيرين .

فمن ذلك أنه رأى شيخا ضريرا يسأل على باب ، فلما علم أنه يهودى قال له : ما ألجأك الى ما أرى ؟ قال : اسأل الجزية والحاجة والسن ! فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله ، فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل الى خازن بيت المال يقول : انظر هذا وضُرَبَاءه (١) فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . انما الصدقات للفقراء والمساكين . والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ... ووضع عنه الجزيةَ وعن ضُرَبائه .

فهنا علَّمَته الرحمة كيف يطيع الدين ، ولن يطيع الدين هكذا الا رحيم

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال كما فرض لكل مولود من زوجين ، وهى رحمةٌ قد يحجبها النفور من الزنا وثمراتِه فى نفوس أناس ينفِرون فلا يرحمون .

بل كان يرحم كل مخلوق حىٍّ حتى البهيم الذى لا يُبين بشكاية ، فروى المسيَّب بن دارم أنه رآه يضرب رجلا ويلاحقه بالزجر لأنه يحمِّل جمله مالا يطيق .

وكان يُدخل يده فى عقرَةِ البعير الأدبر (٢) ليداويه وهو يقول : انى لخائف أن أُسأل عما بك . ومن كلامه فى هذا المعنى : لو ماتَ جَدْىٌ بِطَفٍّ (٣) الفراتِ لخشيتُ أن يحاسبَ به اللهُ عمرَ ، وانه لشعور بالتبعة عظيم .

لكنه كما أسلفنا لن ينبت فى قلب كلِّ أمير عليه تبعة ، الا أن يكون

---

(١) ضرباؤه : نظراؤه وأمثاله .
(٢) البعير الادبر : المصاب بالدبر وهو مرض يصيب الدواب كالقرحة .
(٣) ب « طف » الفرات : ب . شاطئه » .

به منبت للرحمة عظيم .

فنحن اذا بازاء صفة كبيرة الى جانب صفة كبيرة : الرحمة الى جانب العدل ، وكلتاهما من البروز والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذى يدل على صاحبه ، أو بمثابة العنصر الأصيل الذى يلازمه ويلابسه ولا يفارقه فى جمله أعماله .

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن فى جميع صفاته المشهورة ، خلافا للمعهود فى الصفات الغالبة بين الناس من المحامد كانت أو العيوب . اذ قلّما يتّوسم انسان بأكثرَ من صفة غالبة بهذه المثابة من التأصل والبروز فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثيق الايمان ، ثم تطغى احدى هذه الصفات على سائرها فلا تعطيها الى جانبها مكانةَ رسوخ واستقرار .

***

وعلى غير هذا العهد كان عمر فى جميع صفاته الكبيرة التى ذكرناها ، فكانت كل صفة منها فى قوّتها ورسوخها تكفى للغلبة على شخصية تتسم بها ولا تذْكر بغيرها ، وانه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعالمه مايخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة فى أبناء جلدته جميعا ، فيخيل اليك أنها سمة مميِّزة له لم توجد فى غيره .

فأحرار العرب كلهم غيور . ولكنك اذا قلت « العربى الغيور » فكأنما سميتَ عمرَ بن الخطاب . لأنه طبع هذه الصفةَ القوميةَ بطابعه الذى لا يشبهه فيه غيره ، فكان الغيور بين الغيورين .

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام : « ان الله غيور يحب الغيور ، وان عمر غيور »

وتحدّث الى صحبه يوما وعمر فيهم فقال : « بينا أنا نائمٌ رأيتنى فى الجنة ، فاذا امرأةٌ تتوضأ الى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر . فذكرتُ غيرَته فوليتُ مدبرا ... فبكى عمر وقال كالمعتذر : أعليك أغارُ يارسول الله ؟ »

وكانت هذه الغيرة معروفةً مخشيَّةً بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطباعه ، والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قطُّ من غيره .

استأذن على النبى يوما وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عاليةً أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجابَ .

فدخل والنبى يضحك .

قال عمر : أضحك الله سِنَّكَ يارسول الله ... كأنه يسأله عن سبب ضحكه . فقال عليه السلام : عجبت من هؤلاء اللاتى كنَّ عندى لما سمِعْن صوتَك ابتدرْنَ الحجاب .

قال عمر : فأنت يارسول الله كنت أحقَّ أن يَهَبْنَ . ثم التفت اليهنَّ يقول: أى عدوَّاتِ أنفسهن ! أتهبنني ولا تَهَبْنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قلن — ولا يخذلُ المرأة لسانها فى هذا المقام : نعم أنت أغلظُ وأفظُّ من رسول الله !

وحسبك من غيرته أنه هو الذى أشار على النبى صلى الله عليه وسلم بحجاب أمهات المسلمين ، وكان يرى احداهن فى الظلام ذاهبةً لبعض شأنها فيقول لها : عرفتُك يا فلانة ! ليريَها أنها فى حاجة الى مزيد من التحجب . وقد ضجرتْ احداهن منه لهذا فقالت له : وانك علينا ياابن الخطاب والوحيُ ينزل فى بيوتنا ؟

على أن الغيرة فى ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى . بل غيرته على المرأة لم تكن الا شَطْرا من غيرته على كل حَرَم وحوْزة. فمن هذه الغيرة العامة سياسته العربيةُ التى كانت تصدُّ الغرباء عن جزيرة العرب كأنها الحَرَمُ الموصد ، ومنها غيرته على الزى العربى والشمائل العربية ، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة ، وغيرته على كل حق يحميهِ غيور .

والأحاديث عنه فى هذه الخصلة تتعدّد فى معارض شتى كما تعدّدت أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه . فشأن هذه الصفات أن يظهرن أبدا حيث ظهر له قول أو عمل ، لأنهن أصيلات" مطبوعات" يختلطن بكل ماعمل وقال .

الا أنك تقرؤها جميعا فتخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه .

ذلك أن عمر كان يغار على حق ولا يغار من أحد ولا ينْفِس على ذى نعمة .

فاذا قيل لك إن عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل : ممن كانت غيرته ؟ وانما يخطر لك أن تسأل فى كل مرة : علام غار ؟ ولأىّ شىء كان يغار ؟

فهو يغار على حق ، أو يغار على عِرْض ، أو يغار على دين ، أو يغار على صديق أو صاحب حرْمة ، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك .

انما كان يغار على شىء يحميه ويعلم من نفسه القدرة على حمايته ، فهى غيرة من يريد الحماية لغيره ، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه أو غَلَبة انسان على حظه .

رجل قوى ، جيّاش الطبع ، شديد الشكيمة ، مؤمن" بالحق وحرماته ، قادر على تقويم من يَحيد عنها ويجترىء عليها . فان لم يكن هذا غيورا فمن يكون الغيور ؟

وقُلْ فى ذكائه وفطنته وألمعيّة ذهنِه ماتقول فيما اشتهِر به من صفات العدل والرحمة والغيرة ، وان كانت هذه الصفة أحوج منهن الى الشرح والتحليل .

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره فوصفوه بأنه محدود التفكير ، أو أنه يأخذ الأمور بقياس واحد .

ونحن لا نقول ان عمر رضى الله عنه خُلق بذهن عالم بحّاثة منقطع

للكشف والتنقيب ، ولا انه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر فى مناحى الظنون والفروض ، ولا انه خلق بذهن منطيق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين . فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه ، وأنه كان معنيا بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير ، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود والنظر الذى يقيس الأمور بقياس واحد .

فعمر كانت له فطنة الرجل العليم بنقائض الأخلاق وخبايا النفوس ، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر اليها من جانب واحد أو يطبعها فى تفكيره بطابع واحد . بل علم الدنيا وعلم كيف يتقلب الانسان ، وراح فى علمه هذا يراقب الناس مراقبة الحذور ، ويقيم عليهم الأرصاد اقامة الرجل الذى لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خير وشر وقوة وضعف وصلاح وفساد .

وكفى من كلماته الدالة عليه أن نذكر أنه كان يحب أن يَعرفَ الشر كما يَعرف الخير ، لأن « الذى لا يَعرف الشر أحرى أن يَقعَ فيه » وأنه كان يُحب أن يعرف الأعذار كما يعرفُ الذنوب حيث يقول : « أعقلُ الناس أعذرُهم للناس » ، وأنه هو القائل : « احترسُوا من الناس بسوء الظن » ، وهو القائل مع ذلك : « أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر » .. يوفق فى هذين القولين بين سهر الحاكم الذى لاينبغى أن تخفى عليه خافية ، وبين عدل القاضى الذى لاينبغى أن يحكم بغير بيّنة ظاهرة .

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر الى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد ، وأن للامور وجوها لاتنحصر فى الوجه الذى يراه . وكثيرا ماقال : « أخوفُ ما أخاف عليكم اعجابُ المرء برأيه» وليس استطلاعُ الآراء ولا الخوفُ من الاعجاب بالرأى شيمة رجل

محصور التفكير ضيق المنافذ الى الحقيقة .

وقد عاشره أناس من الدهاة فخبَرُوه وحَذِرُوه ! .. وقال المغيرة بن شعبة لعمرو بن العاص : أأنت كنت تفعل أو تُوهم عمر شيئا فَيَلْقَنَه عنك ؟ والله مارأيت عمر مستخليا بأحد الا رحمته كائنا من كان ذلك الرجل . كان عمر والله أعقل من أن يُخْدع وأفضل من أن يَخْدع .. »

انما كان عمر كما وصف نفسه « ليس بالخِب ولكن الخِبَّ (١) لا يخدعه » . وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود والدهاء المذموم ، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح . فهناك فِطنةٌ تسيء الظنَّ لأنها تعرف الشرورَ التى فى طبائع الناس ، وفِطْنةٌ تسيء الظنَّ لأنها تشعر شعور السوء ، والفرقُ بينهما عظيم كالفرق بين الخير والشر والمحمدة والمذمَّة . فالفطنة الأولى معرفةٌ حسنةٌ والفطنة الثانية خلق ردىء ، وانما كان عمر بالفطنة الأولى معصوما من أن يَخْدع غيره أو يَنخَدِعَ لغيره ، وهذا هو الحد القوام الذى لانقص فيه من جانبيه .

وكانت له فى استيحاء الخفايا قدرةٌ تقرب من مكاشفة الغيب لولا أنها تستند الى التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة ، وحكاية واحدة من هذا القبيل تغنى عن حكايات ، وهى حكايته مع المغيرة الذى استكثر على عمرو بن العاص أن يوحِي الى عمر بمراده ويَتَداهَى عليه .

فقد همَّ عمر رضى الله عنه بأن يَعْزل المغيرةَ عن العراق ويولِّى جُبير ابن مطعم مكانه ، وأوصى جبيرا أن يكتم ذلك ويتجهز للسفر . فأحس المغيرة وسأل جليسا له أن يَدُسَّ امرأته وهى مشهورةٌ بلقط الأخبار حتى سميت « لقاطة الحصا » لتستطلع النبأ من بيت جبير . وذهبت الى بيته فاذا امرأته تصلح أمرَه فسألتها : الى أين يخرج زوجك ؟ قالت : الى العُمرَة ! قالت لقاطة الحصا : بل كتَمَك ، ولو كانت لك عندهُ منزلةٌ لأطلعك على أمره ! فجلست امرأة جبير متغضبةً ودخل عليها وهى

(١) الخب : الخداع .

كذلك ، فلم تزل حتى أخبرها وأخبرت لقاطة الحصا . وذهب المغيرة إلى عمر ففاتحه بما علِم وهو يقول له : بارك الله لأمير المؤمنين فى رأيه وتوليته جبيرا ! فلم يعْجَب عمر من وقوفه على السر بل قال : كأنى بك يا مغيرة قد فعلت كَيْت وكيت ، كأنما سمع ورأى .. وأنشدُك الله هل كان كذلك ؟ قال المغيرة : اللهم نعم . ثم صَعِد عمر الى المنبر ونادى فى الناس: أيها الناس ! من يَدلنى على المخلَط المزْيَل (١) النسيج وحده ؟ فقام المغيرة فقال : ما يعرف ذلك فى أمتك أحدٌ غيرك !.. فأبقاه على ولايته ولم يزل واليَه على العراق حتى مات .

وانما كانت مجاراته للداهية من هذا القبيل اعجابا بحصافته لا انخداعا بمكره ، وقد يتغابى ويعمل مايريده المتداهى عليه لأنه أدرك مرمى كلامه وفهم مافيه من صواب ، كما صنع مع عمرو بن العاص فى خطبة أم كلثوم بنت على رضى الله عنهما .. وسيأتى الكلام عنها فى فصل تال .

على أن القدرةَ الذهنيةَ التى امتاز بها عمر فى غنىً عن الاستدلال عليها بما قال وما قيل فيه ومادار بينه وبين بعض القوم من المساجلات والمحاورات . انه عمل مالم يعمله الا القليل من أقدر الحكام فى تاريخ بنى الانسان ، وكفى بذلك دليلا على قدرته الذهنية لا حاجة بعده الى دليل . ساس شعوبا بينها من الاختلاف مثل مابين العرب والفرس وبين الفرس والقبط والسوريين ، ونَصَب ولاةً وانتدب قوادا وسيَّر بعوثا وأشرف على ميادين قتال وأقام نظما فى الحكومة وراقب رعاةً ورعية فيما يعلنون وما يبطنون ، ونجح فى كل ماعمل نجاحا منقطع النظير غير مردود الى المصادفة ولا الى ارتجال المغامرين ، وليس هذا كلُّه مما يضطلع به رجلٌ محدود الفكر ضيِّق الأفق قليل الخبرة بالجماعات والأفراد . فاذا استوفى هذا الحظَّ الوافىَ من القدْرة الذهنية فذلك حسبُه منها وحسبُ كل من تصدى لمثل عمله ونهض بمثل وقره (٢) . ولا عليه بعد ذلك أنه لم

---

(١) رجل مخلط مزيل : يجمع بين الاشياء ، ويميل بينها لقوة فكره .
(٢) وقره : حمله ومسئوليته .

يفكر على نمط الفلاسفة وأقطاب العلم وأساطين المنطق والرياضة ، فان الدنيا لم تخرج لنـا عمر ليزيدنا أفلاطون آخر أو إقليـدس ثانيا أو « فارداى » سابقا فى الزمن القديم ، بل أخرجته للناس ليكون مؤسس عهد ومحول تاريخ . فاذا تأدَّى به عقله الى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذى خُلق له ويبلغ القصد الذى رمى اليه . وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن تسلِكه بين قرنائه وأنداده .

انما طرأت شبهةُ العقل المحدود على المستشرقين الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة ، وهى ناحية العدل الذى لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ، والقضاء الذى يكيل الجزاء دقَّةً بدقة ولا يبالى بالنقائض والمفارقات .

ونظروا الى جملة آرائه فى المسائل الجُلَّى فاذا هى من الآراء التى يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق الى غرض ماثل لا تنحرف عنه قيْد شعرة ، كأنه قد جهل ما فى الدنيا من نقائض وخفايا ومن عِوَج وتعريج ، أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه الى هدفه المحدود ولا يلتفت الى شىء فى نفاذه أو يعوقه عائقٌ دونه .

فخطر لهم أن فطنته انما كانت فِطنَة فراسَة فطرية كالغريزة التى تهتدى على استقامة واحدة ، ولكنها لاتنحرف ولا تتصرف ولا تخالف ما جُبِلت عليه ، وأنها فِطنة العقل المحـدود والبصر الموكَّل بجانب واحد ينفذ فيه ولا يحيط به أو يتشعَّب فى نواحيه .

والفكر المحدود هنا هو فكرُ أولئك المستشرقين لا فكرُ عمر بن الخطاب .

فالرجل الذى يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه ، هو واحد من رجلين :

فإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه لايرى غيره ولا يحيط بما حوله .

واما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قادر على اختراق العقبات عالم" أنها تنثنى اليه حيث كان دون أن ينثنى اليها حيث كانت .

واستقامة عمر بن الخطاب على وجهه من هذا القبيل وليست من ذلك القبيل ..

هى استقامة قدرة وليست باستقامة عجز ، وهى استقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجوز مقيّد ، يأبى أن يدور لأنه قد أعياه أن يدور .

هى استقامة حياة غلاّبة ، وليست باستقامة أداة كالموازين تسوّى بين التّبر والتراب لأنها لاتميز بين التّبر والتراب .

فالرجل الذى يجتنب التصرف فى العدل عجزا عن الفهم والتزاما للحرف المكتوب ونزولا الى مرتبة الموازين التى لا تعى ولا تغضب ولا تغار انما هو آلة فقيرة فى مادة الحياة .

أما الذى يجتنب التصرف فى العدل غيْرةً على الضعيف وقدرةً على القوى ، وعلما بالتبعة واضطلاعا بجرائرها فذلك حيٌّ غنى بالحياة يعدل لفرط السليقة الانسانية والقدرة الحيوية ، ولا يعدل لأنه آلة" تشبه الميزان الذى لا حس فيه .

وشتان بين هذا وذاك . انهما لنقيضان وان كانا فى ظاهر الأمر شبيهين متقاربين .

والاعتماد على الأمثلة الخاصة أولى بنا فى هذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقريرات النظرية .

فهذه أمثلة" ثلاثة" من أمثلة العدل الذى يبدو لأول وهلة كأنه عدل الموازين الآلية حين تسوّى بين الأوزان وان اختلفت القِيَم والأقدار ، وتفصل فى الانصباء بغير نظر الى فوارق الدنيا ومقتضيات السياسة وتبدل الأحوال .. ونختارها من أجهر الأمثلة وأدناها الى تأييد شبهات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود ، لنرى على قدر ضخامة هذه الأمثلة ضخامة الخطأ فى استخراج ماتدل عليه .

كان عمرو بن العاص واليا لمصر وكان ابنه يُجْرى الخيل فى ميدان السباق ، فنازعه بعض المصريين السبق واختلفا بينهما لمن يكون الفرس السابق . وغضب ابن الوالى فضرب المصرىَّ وهو يقول : أنا ابن الأكرمين ! فاستدعى عمر الوالى وابنه حين رفع اليه المصرى أمره ، ونادى بالمصرى فى جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلا له : اضرب ابن الأكرمين ! ثم أمره أن يضرب الوالىَ لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس الا بسلطانه ، وصاح بالوالى مغضبا : بم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ فما نجا من يده الا برضىً من صاحب الشكوى واعتذار مقبول .

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الاسلام فى زمانه فأحصى عليه عمر بعض المآخذ ومنها انفاقه من بيت المال فى غير مايرضاه . فأمر به أن يحاكم فى مجلس عام كما يحاكم أصغر الجند ، وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع .

وكان جَبَلة بن الأيهم أميرا نصرانيا فأسلم وأسلمت طائفة من قومه ، ثم وطىء أعرابى ازاره فلطمه جبلة على ملأ من حجّاج بيت الله . فقضى عمر للأعرابى أن يلطم الأمير على ذلك الملأ ، لأن الاسلام لايفرّق بين سوقة وأمير .

هذه أمثلة العدل الذى لايتصرف ولا يلتفت الى الدنيا وما فيها من فوارق وتعريجات تتأبى على القِصاص المستقيم ، وهى من أقوى الشبهات على النظر المحدود فى تقدير الجزاء بالحرف المكتوب ، دون التفات الى الأحوال والمقتضيات .

فهل هى فى الواقع كذلك ؟ وهل كان على عمر أن « يتصرف » فى هذه الأقضية بلباقة الساسة الدهاة فى جميع الأزمان اذ يحتالون على حرف الشريعة ويدورون حول حدود القانون ؟

نعم ، كان عليه ذلك لو عجز عن سنة المساواة واحتاج الى الحيلة . فانما

يعاب على الوالى عدل الموازين ويُحْمَــد منه التصرف والدوران لأن المساواة تعييه ، أو لأن المساواة تعرّضه لعاقبةٍ شر وأظلم من الإجحاف ، فاذا نظر إلى عاقبة المساواة فى المعاملة فرآها شرا وأظلم من عاقبة التفرقة والتمييز فقد وجب عليه اذا أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصا بغير انحراف .

ولكن أين هذا من عمر وأين عمر من هذا ؟ انه كان قويا قادرا على العواقب ، وكان شديد الألم من ظلم الظالم شديد الخجل من خِذلان المظلوم ، وكان وثيق الايمان بنصر الله فى الحق وفى النجــدة . فلماذا ينحرف ؟ ولماذا يتصرف ؟ ولماذا يدور ؟

كان قويا بطبعه قويا بايمانه . فلماذا يهاب قويا جار على ضعيف ؟ ولماذا يروغ من صرامة القاضى الى دهاء الســياسى الذى يدور حول الحقوق والحدود ؟

للمستشرقين المتحدثين بالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار الولاة ويثبتوا به كل ماقالوه عن ذلك التفكير المحــدود الذى ينسى الفوارق ولا يحتال على المحظورات ، ولكن بشرط واحد .

ذلك الشرط هو أن يتوقعوا ولو من بعيد أن يثور ابن العاص ونظراؤه على هذا القِصاص ، فيختلّ حكم الدولة وينتشر الأمر على الخليفة ويقع من المحظور أضعاف ما كان واقعــا لو بطلت المساواة بين الســوقة والولاة .

أما أن يكون ابن العاص ونظراؤه لايثورون ويعلمون من هو عمر وما هى عقباهم اذا ثاروا عليه .

وأما أن يكون عمر لايخشى تلك الثورة ولا يَعْيَا بها إذا هى فاجأته أو جاءته على انتظار .

وأما أن يكون الأمر فى ضميره وفى ضمائرهم يجرى على البديهة التى لا خفاء بها ولاشك فيها ــ فكيف يقال إذن إن تفكيرَ عمر فى قصاصٍ

الولاة كبارا وصغارا تفكير" محدود ؟ وأين هو فى هذه الحالة موضع التفكير المحدود ؟

انه فى موضع واحد ، وهو كما أسلفنا موضع الناقد الذى يصف عمر بغير وصفه ، لأنه هو محدود الفكر فى قياس الرجال بمقياس واحد ، أو فى اعتقاده أن الخطوب تبقى كما هى ولا تتغير كلما تغيرت عليها أيدى الرجال .

لقد كان عمرو بن العاص خطرا على الخليفة الذى يَغْضَ منه لو كان غير عمر ، ولكنه هو ــ والذين كانوا أجرأ منه على الفتك وأسرع منه الى الغضب ــ لم يكن لهم من خطر اذا كان عمر هو الذى أمر بالعزل وهو الذى قضى بالقصاص .

فأجرأ منه ولا ريب كان خالد بن الوليد ، وأشهر منه بين سيوف الاسلام لو عمد إلى السيف . ومع هذا نَقم خالد" عَزلَه فخطب الناس ومضى يقول : ان أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى اذا كانت بَثْنِيةً ــ أى حنطة ــ وعسلاً عزلنى وآثر بها غيرى . فما أتمها حتى نهض له رجل من السامعين فقال له : صبرا أيها الأمير فانها الفتنة . فما تردد خالد أن قال : أمّا وابنُ الخطاب حىٌ فلا ..

نعم ، لا فتنة وابنُ الخطاب حىٌ ولو كان الغاضب خالدا الغضوب ، ومن هنا حق له أن يشكو ولا جُناح عليه .

وأطرف من هذا فى هيبة عمر بين ولاته وقواده أنه كتب الى أبى عبيدة يأمره أن يقاسم خالدا ماله نصفين ، فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : ان هذا لايصلح الا بهذا .. فأبى خالد أن يخالف أمر عمر وأعطاه احداهما وأخذ الأخرى .

لقد نظرنا الى عمر مستقيما ولم ننظر الى الخطوب ، ولو نظرنا اليها لرأينا أنها انثنت لتنقاد له وتتقى مصادمته وتستقيم على منهاجه .. فعلمنا لِمَ استقام دون أن يقدح ذلك فى صدق نظره الى الدنيا وصدق

فراسته فى خلائق الناس .

وندعُ قضايا الولاة وننظرُ فى قضية الأمير الذى ارتدَّ عن الاسلام هو وقومه لأن عمــر أجبره على قصاص المســاواة بينه وبين رجل من السوقة . فماذا كان ينبغى أن يفعل عمر غير مافعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب ؟

لعل داهيةً من دهاة السياسة الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثرُ ارضاء الأمير واستبقاء أتباعه فى الاســلام والاحتيال على الشاكى بما يواسيه ويغنيه عن أن يسوِّى بين الخصمين ، ويمكِّن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه .

فهل معنى ذلك أن عمر كان يعوزه دهاءُ أولئك الساسة وما عندهم من بعد نظر مزعوم ؟

كلا . بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السَخطُ على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والايمان بمناعة الاسلام أن يصــيبه غضبُ أمير صابىء بما يضيره ، ولو كثر أتباعه والصابئون فى ركابه .

معناه أنهم احتاجوا الى التصرف وعمر لم يحتج اليه .

وهاهى ذى السنون قد مضت وتلتها الأحقاب والقرون فبدا لنا اليوم أن النظرَ البعيد والعدل الشديد فى هذه القضية يلتقيان ، وان عمر كان أحسن المتصرفين فيها لأنه اجتنب التصرف الذى يهواه الدهاة . فقــد أفاد الاسلامَ ما لم يُفِدْه بقاءُ جبلة وأتباعِه على دينه ، ووقاه ضررا أضخم وأوخَم من نكوص أولئك الصابئين عنه . أفاده ثقَةَ أهله باقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء إلى كنَفه ورهبة الأقوياء من بأسه ، وسمعتَه فى الدنيا برعاية الحق وانجاز الوعد وتصديق معنى الدين ، ولا معنى له ان كان أضعفَ بأسا من أمير وجب العقاب عليه .

ويجوز أن الفاروق لم ينظرْ الى عواقبِ القــرون كما ننظر اليها الآن ، بعد أن برزت من حَيِّز الفرض الى حَيِّز العيان . غير أن الأمر

الذى لايجوز فى اعتقادنا أنه عَدْل فى قضية جبلة ونظائرها عَدْل آلة أو عدلُ ميزان . ان الميزان لأقلُّ من مخلوق له حياة . أما الفاروق فى هذه القضية فقد كان أكبَر من الحياة الفانية ، كان بطلا يؤمن ويعمل بايمانه ، وهكذا يعلو الانسان ببطولة الايمان .

والعبرة التى نخرج بها من هذا أن النظرة الأولى فى أخلاق عمر بن الخطاب حسنةٌ ولكن النظرة الثانية هى على الأغلب الأعم أحسن من الأولى .

فالناقدون الأوربيون الذين فسّروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدود لم يفهموه ولم ينصِفوه ، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادةٌ فى القدرة وليس بِنقْص فى الفطنة ، أو أنه زيادة فى قوة الثقة وقوة الايمان وليس بنقص فى العلم والبداهة ، ولم يكن عسيرا عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وتريثوا فى حكمهم ، لأن قوة الثقة وقوة الايمان لا تَخْفيان فى خُلقٍ من أخلاقه ولا عملٍ من أعماله ، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل اقدام وبكل احجام . فكان يَتقْدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهينات تحرجا منها وتنزها عنها ، اذا اقتضى ذلك وازعٌ من قوة الايمان .

فلم يكن يمضى قدما لأنه يَغْفُل عما حوله من النواتىء والمنعرجات والسدود ، بل كان يمضى بينها قدما لأنه لا يباليها ويؤمن أصدق الايمان أنها تنثنى له اذا مضى فيها ، فلا حاجة به أن ينثنى اليها .

انه ليعلم العِوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه ، لأنه يؤمن بحقه ايمان القوى الوثيق ، فله من قوته ومن ايمانه قدرتان .

انه ليرفع العبء الى كاهله وهو قائمٌ لايطأطىء للنهوض به ، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه يجهل العبء الذى يعرفونه ، أو ينسى العواقب التى يذكرونها ، أو يتحلّل من المصاعب التى يتحرّجون منها .. كلا ! انما الفرق بينه وبينهم أنهم يَنْثَنُونَ للخطوب ، وأن الخطوب هى التى

تَنثنى اليه ..

هذه القوّة فى ايمانه كانت هى المسيطرَ الأكبرَ على كل خُلق من أخلاقه ، وكل رأى من آرائه ، بل كانت هى المسيطرَ الأكبرَ على ماهو أصعبُ مقاداً من الأخلاق والآراء ، وأشدّ عُراماً (١) من العقائد والشبهات ، وهى دوافع الطبع وسورات الغريزة ، وقلما خلا منها طبع قوى عزوف غيور .

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الانسانية قابلان للضوابط والقيود ، ولكن ما القول فى الدوافع والسورات ؟

مَثَلُ الفكر كمثل السفينةِ الطافيةِ على وجه النهر لها شِراع ولها سكان، وعليهما معا رقيب من النواتية (٢) والرُّبّان (٣)

ومثل الخلق كمثل النهر المتدفع تحبسه الشواطىء والقناطر ويفيض فى موعد ويُعرف له مجرى ، ويحسب له مقدار

ولكن ما القول فى السيل العرِم ؟

ما القول فى السورة الجامحة التى ليست بفكر يسوس ويساس ، ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه ؟

هنا تبدو لنا قوّة الضوابط والقيود .

وهنا أيضا كانت ضوابط الايمان القوى فى نفس عمر كأقوى ماتكون

ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به فى الجاهلية أو الاسلام سَوْرة أكبر من سورته يوم نُعى النبى إلى المسلمين : فأنكر أن يُنْعَى وأبى أن يسمع صوتا بين المسلمين يزعم أن محمدا قد مات ، وصاح والناس فى رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذ على الرءوس : « والله انى لأرجو أن تُقطَع أيدى رجال وأرجلُهم يزعمون أنه قد مات »

ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه ، فنزل فتمشى وئيدا صامتا

---

(١) اشد عراما : اشد شراسة وشدة .
(٢) النوتى : الملاح فى البحر خاصة جمعه النواتى .
(٣) الربان : (بضم الراء) من يجرى السفينة .

لايكلم أحدا ، وتيمم النبى وهو مغشىٌ بالثوب ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبّله ، وبكى .

ثم أحس صولة عمر وهو يكلم الناس ، فخرج اليهم فقال : اجلس ياعمر ! .. وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء : « أما بعد ، فمن كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد اللهَ فان اللهَ حىٌ لايموت ... وما محمدٌ الا رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِه الرُسُل ، أفإنْ ماتَ أو قُتِل انقلبْتم على أعْقَابِكم ، ومَن ينقلبْ على عَقِبَيْه فلن يَضُرَّ اللهَ شيئا وسيجْزِى اللهُ الشاكرين »

فأهوى عمرُ الى الأرض وأناب .

وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن أنزِلَتْ هذه الآيةُ حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعةَ .

يالَروعةِ الشلال الزاخر ؟

ويالروعةَ السابح القاهر الذى لَوى به لياً كأنمـا قُبِض منه على عُرْف ، وأُخِذَ له بعِنان !

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعا عاتيا هو أولى بالروعة من نفس عمر وهى متراوحة بين شعوره الزاخر وايمانه الوثيق .

لحظة هائلة من أهول ما تحس النفوس ، ثم انهزام كأسرع مايكون الانهزام ، وانتصار كأسرع مايكون الانتصار ، وغاشيةٌ تنجلى عن صاحب تلك النفس وهو مالكٌ لزِمامه ، ماض بشـعوره الى حيث يمضى به ايمانه ، فهما قوّتان غالبتان ، وليستا بعدُ بالعسكرين المتغالبين .

لقد كانت تلك سورتَه الكبرى ولكنها لم تكن أولى سوراتِه ولا أخراها .

فقد عَهِدَت هذه السوراتُ فى طبعه حتى عَرَفَ مَن عَهِدوها كيف يسُوسونها ويتّقونها ، وأوشكت أن تُحسَب فى عِداد الأنهار المحكومة لا فى عداد السيول الجارفة انطلقت من عِقالها .

ذهب اليه بلال مستأذنا فقال له الخادم انه نائم ، فسأله : كيف تجدون عمر ؟ قال : خير الناس الا أنه اذا غضب فهو أمر عظيم . قال بلال : لو كنت عنده اذا غضب قرأتُ عليه القرآن حتى يذهبَ غضبُه !

فهو الايمانُ ضابط كل شيء في تلك النفس حتى السورات التى ليس لها ضابط فى النفوس .

أو قل انها هى النفس القوية فى دفَعَاتها وفى ضوابطها على السواء .

ورب نفس من ضعف الدفعة بحيث يقمَعُها أهونُ ضابط يسيطر عليها ، فأما الدفعة التي لايقف فى طريقها الا ضابط أقوى منها فتلك هى الطبيعة الحيوية المضاعفة ، وليست هى الضعف الذى يتراجع لأهون مراجعة

نذكر هذا وينبغى أن نذكره ولا ننساه ، لأن الفرق بين الايمان الذى يكبح الهزيلَ المنزوفَ الحياة وبين الايمان الذى يكبح القوىَّ الجياش فرق عظيم .

ولم يكن عمر مُعرِضا عن زخارف الحياة لهزال كان فى دواعى الحياة فيه . وانما كان معرضاً عنها لأنه كان قادراً على الإعراض غير مُمتَحَنٍ به فى إرادة ولا عزيمة . وكان معرضاً عنها لأنه صاحب حيوية غيرِ الحيوية الجسدية الموكَّلة بالسرور والمتاع .

فمن الواجب اذا ذكرنا الحيويةَ وضعفَها وقوَّتَها أن نذكر أبدا أنها حيوياتٌ متعددةٌ وليست بحيوية واحدة .

حيويةَ الروح وحيوية الخُلق ، وحيوية الذوق ، وحيوية العقل وحيوية الجسد ، وغير ذلك كثيرٌ مما يتداخل بين هذه الحيويات .

فليس من الضرورى اذا رأيتَ رجلا قليلَ الاشتهاء لمتعة الأجساد أن تحكم عليه بضعف الحيوية ، فربما كانت له حيويةٌ أخرى تملأ ألوفاً من النفوس لا تجد متاعها فى أكلة أو شهوة وتجدُ المتاعَ خيرَ المتاع فى احقاق الحق وزجرِ الطغيان واقامة العدل والشريعة بين الناس .

وهكذا كانت حيويةُ عمر فيما يريده وفيما يَزْهد فيه .

لم تكن قلةُ الرغبة فى زخارف الدنيا هى مقياسَ حيويته العظمى وانما كان مقياسُ تلك الحيوية عظمَ الرغبة فى الاصلاح والتقويم ، وفى اجراء ماينبغى أن يجرى . غيرَ مبال مايكلفه ذلك من جهد تتضاءل دونه جهودُ الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد

***

تلك صورة مجملة للصفات الخلقية الكبيرة التى كانت غالبة على نفس عمر بن الخطاب ، وهى العدل والرحمة والغيرة والفطنة والايمان .

وأول مايلاحظ عليها تعدُّد الصفات الغالبة فى نفس واحدة ، وصفةٌ واحدة منها قد تغلب على النفس ـ وليست بصغيرة ـ فتنعتها بنعتها وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها .

ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته ، حتى كأنها لم تُعْهَد فى غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها .

الا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها فى هذا السياق ، وانما العجب العاجب حقا هذا التركيب الذى نَدَرَ مثيله جدا بين خصائص النفوس كائنا ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتياز .

وأحرى بنا أن نقول « هذه التركيبة » ولا نقول هذا التركيب ، لأن صفاته الكبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذى ينفع لغرض واحد مفهوم، والذى ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط

اذا نظرتَ الى تلك الصفات أجزاءً متفرقات فهى وسيلة بسيطة ليس فيها شىء عويص أو مكتنَفٌ بغموض .

ولكنك تنظر اليها مركبةً متناسقة فيبدو لك منها جانب الدهشة والاعجاز ، أو جانب النُدْرَةِ التى يعزُّ تكرارها فى طبائع النفوس ، لأنها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعا واستيفاء الغرض فى كل منها على حدة ، وهذا هو النادر جدًّ الندرة فى تركيب الأخلاق .

ما العدل مثلا بغير الرحمة التى تَمزُجُه بالاحسان ؟ وما العدل والرحمة معا بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التى تجعل كراهة المرء للظلم كأنها كراهة الضرر الذى يصيبه فى نفسه وآله وتجعل حبَّه للعدل كأنه حب هواه وقِبْلَةُ مناه ؟ وما العدل والرحمة والغيرة جميعا بغير فطنة تضع الأمور فى مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لايستحق ويغفل عمن يستحق وهو حَسَنُ القصد غيرُ متَّهَمِ الضمير ؟ وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الايمان الذى هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع ، والمرجع الذى لا مرجع بعده لطالب الانصاف ؟

كل صفة تتمة لجميع الصفات .

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخِذلان الباطل .

وكل خليقة فهى جزء لاينفصل من هذه « التركيبة » التى اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق ، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليقة منها على أتم قدرتها فى بلوغ كمالها وتحقيق غايتها .

فلا نقص فى العدل كالنقص فى كل عدل يعمى عن الطبيعة البشرية ويذهل عن ضعف الانسان .

ولا نقص فى الغيرة كالنقص فى كل غيرة ظالمة قاسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح .

ولا نقص فى أولئك كله كالنقص فى جميع الصفات بغير الفطنة التى تخرج بها من ظلام الى نور ، وبغير الايمان الذى يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين .

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد فى مرآها ، ولا تزال فى صورة البساطة بعيدةً عن التركيب ، فيخطىء النظر القصير فى التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشىء البسيط المحدود ، وانه لخطأٌ شائع ينساق اليه كثيرون ممن

يستسهلون بساطة عمر ، وهى أولى بالروعة من تركيب يختلط من كل مزيج ، ثم يزيد فى الألوان ولا يزيد فى الإتمام والتوحيد والاتقان .

ولو أن مخترعا من أهل القصص حاول أن يخترعَ سيرة عمر بن الخطاب لأعياه أن يخترع ذلك الشتيت المتفرّق من الأخبار والأحاديث والنوادر ليقرأه القارىء بعد ذلك فيقبل منه مايقبل ويسقط منه مايسقط ، ثم يبقى منه مايدل أصدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفات .

فلا اختراع فى جملة أخبار عمر وان جاز الشك فى بعضها أو جاز اسقاط الكثير منها ، ومن شاء فليشكّ فى هذا الخبر أو ذاك مابدا له الشك وليُسْقِط منها مابدا له الاسقاط ، فسيبقى بعد ذلك جميعِه خبرٌ يدل على عدله ولا سبيلَ الى نقضه ، وخبرٌ يدل على رحمته ولا سبيلَ الى نقضه ، وخبر يدل على غيرته ولا سبيل الى نقضه ، ويبقى ذلك التركيب العجيب الذى هو موضعُ الاعجازِ وموضع الدهشة وموضع التساؤل فى مصادر الأخبار .

هذه هى المعضلة التى عَنَيْنَاها حين قلنا فى صدر هذا الفصل ان سهولة عمر وخلوَّ طبائعه من التعقيد والغموض هى سهولةٌ أصعبُ من الصعوبة ، لأنها تنتهى بك الى صعوبة التركيبة التى هى أندر من التعقيد والغموض ، وتريك عناصرَ شتى قد تتناقض فى غير هذا التركيب ولكنها هنا لاتتناقض فى شىء ذى بال ، لأن التناقضَ أن يذهبَ كلُّ عنصر فى وجهة معارضة لسائر الوجهات ، فأما أن تكونَ كلها ذاهبةً فى وجهة واحدة فذلك عنصرٌ واحد متعدد الأجزاء والألوان .

ولهذا كانت دراسةُ عمر غنيمةً لكل علم يتصل بالحياة الانسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة ، ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى .

لأن كل نفس صغرت أو كبرت فهى انسان يضيف العلم به الى علم النفس بعض الاضافة .

ولكن ليست كل النفوس بالنفس التى تصحح أوهام الواهمين فى فضائل الأخلاق وفضائل الاجتماع ، وفى القدوة المثلى التى يقتدى بها طلاب الرفعة والسيادة .

ونحن فى عصر شاعت فيه فلسفات مسهبة تنكر الرحمة والعدل على الأقوياء الغيورين وتحسبهما حيلة من حيل الطبع فى خلائق الضعفاء لاستدامة البقاء . كأن رحمة الضعيف تنفعه اذا رحم ، وكأن عدل الضعيف ينفعه اذا عدل ، أو كأن القوى يخلق نفسه لنفسه ولا يتخلق قويا لتفيد قوته فائدتها فى خدمة المحتاجين اليها .

فعمر ذو البأس والعدل ، وعمر ذو الرحمة والغيرة ، أصدق تفنيد لذلك الوهم الأخرق البليد . اذ كانت رحمته وعدله لاتناقضان البأس والغيرة فيه ، بل كان بأسه معوانا لرحمته وكانت غيرته معوانا لعدله ، وكان هو قويا لينتفع الناس بقوته ، ولم يكن قويا ليطغى بقوته على الضعفاء .

ولِمَ يكونُ لزاماً أن يقسوَ ذو البأس ولا يرحم ؟

ألا يقسو الضعيف ؟ فلِمَ العجب اذن من رحمة القوى ؟ كل ماهنالك أن رحمةَ الضعفاءِ غيرُ رحمة الأقوياء . فأما العقلُ الذى يرى الرحمةَ غريبة فى الأقوياء ، ويرى القسوة غريبة فى الضعفاء فهو يرى غيرَ الواقع من هؤلاء وهؤلاء . اذ الواقع فى الدنيا أن القسوةَ لاتدل على القوة ، وأن الرحمة لاتدل على الضعف ، وأنْ ليس فى الدنيا أقسى من الأطفال وهم أضعفُ مَن فيها من الضعفاء .

وبغير امعانٍ طويل فى دقائق النفس الانسانية استطاعت امرأة محزونة أن تفرق الخصلتين وتجمع بينهما معا فى عمر بن الخطاب وتعني بها عاتكةَ بنت زيد حين قالت فى رثائه :

رؤوف على الأدنى غليظ على العِدَى أخى ثقة فى النائبات مُنيب

وهى تفرقة سهلة ولكنها صادقة جامعة ، فغير عجيب أن يكون انسان كذلك ، وانما هو أوفق شىء لطبائع الأشياء .

مفتاح شخصية

مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التى تَفتح أبوابَها ، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتـاح البيت فى كثـير من المشَابِه والأغراض . فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هـذه الأداة الصغيرة التى قد تحملها فى أصغر جيب ، فاذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق ! ..

وليس مفتاح البيت وصفاً له ولا تمثيلا لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تنفذ بك الى دخائلها ، ولا تزيد

ولكل شخصية انسانية مفتاح صادق يسهل الوصول اليه أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات ... وهنا أيضاً مقاربة فى الشكل والغرض من مفاتيح البيوت . فرب بيت شامخ عليـه بابٌ مكينٌ يعالجه مفتـاح صغير ، ورب بيت ضئيل عليه بابٌ مزعزع يحار فيه كلُّ مفتاح .

فليست السهولة والصعوبة هنا معلقتين بالكبر والصغر ، ولا بالحسن والدمامة ، ولا بالفضيلة والنقيصة ، فرب شخصية عظيمة سهلةُ المفتاح ، ورب شخصية هزيلة ومفتاحُها خفى أو عسير .

وقد يحيرنا الرجل الذى قيل فى وصفه مثل ماقيل فى ابن عباد :

لا تمدحنَّ ابن عبـاد وان هَطَلَتْ
يداه بالجـودِ حتى شـابَه الديَما (١)
فانهـا خَطَرَاتٌ من وسـاوسِـه
يُعطى ويمنـعُ لا بخـلاً ولا كـرَما

فاننا لا نستطيع أن ننفذ منه الى مواضع اللوم أو مواضع الثنـاء ،

(١) الديم : جمع ديمة ، وهى السحابة الممطرة .

ولا ندرى حقا أعمله من الكرم أم من البخل ، ومن الرفعة أم من الخسة ، ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن المذموم ؟ وغاية ماننتهى اليه أن نفض المشكلة بكلمة واحدة هى الوسواس ، وهى حيلة تلجئنا اليها قلة الحيلة ، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا فى تقدير صاحبها وتقدير أعمـاله وأخلاقه ، ولكنه تفسير له معنى واحد فى النهاية : وهو ترك التفسير .

قد تحيِّرنا هذه الشخصية المنقوصة ولا تحيِّرنا الشخصية الكاملة التى تَروعنا بفضائلها ومزاياها ، ثم لا نستغرب منها فضيلةً أو مزية بالقياس الى انتظام عملها واتصال أثرها ، كالشمس الطـالعة تروعنا باشراقها فى أوقاتها وبروجِها ، ثم لا تحيرنا لمحة عين كما تحيرنا الذبابة الضئيلة تومض لحظة وتختفى من بعيد .

وفى اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحا لمن يبحث عنه ، فليس فيهـا باب مُعْضِل الفتح وان اشتملت على أبواب ضِخَام .

وقد ذكرنا فى الفصل السابق أن ايمان عمر هو الضابط الذى يسيطر على أخلاقه وأفكاره كما يسيطر على دوافعه وسَوراته ، ولكن الذى نريده بمفتاح الشخصية شىء آخر غير معرفة الضابط الذى يسيطر عليها : نريد به السمة (١) التى تميزه بين العظماء حتى فى الايمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات ، فان الايمان ليَقتَوِى فى نفوسٍ كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس ، وهنا نبحث عن « مفتاح الشخصية » لنعرف به الفارق بين الايمان فى طبيعة عمر وبين الايمان فى طبائع غيره من الأقوياء .

والذى نراه أن « طبيعة الجندى » فى صفتها المثلى هى أصدق مفتـاح « للشخصية العمرية » فى جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم .

فأهم الخصائص التى تتجمع « لطبيعة الجنـدى » فى صـفتها المثلى

---

(١) السمة : العلامة والشارة المميزة .

الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغَيْرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والايمان بالحق وحب الانجاز فى حدود التبعات أو المسئوليات .

هذه الخصائص قد تجمعت بعد ألوف السنين من تجارب الأمم فى تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيرا أنها لازمة للجندى فى أمثل حالاته . فما من خاصة منها يستغنى عنها الجندى الكامل الذى تحلى بأجمل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده

فانظر الى هذه الخصائص جميعها هل تجدك محتاجاً الى التنقيب طويلا عن واحدة منها فى نفس عمر ؟ هل تجدك محتاجا الى تعمُّلٍ أو استقصاء بجمع أشتاتها والاهتداء الى شواهدها ومواقعها ؟

كل هذه الخصائص عمرية" لا شك فيها . فهو الشجاع ، الحازم الصريح ، الخشن ، المطيع ، الغيور على الشرف ، السريع النجدة ، المحب للنظام ، المؤمن بالواجب والحق ، المتوكل بالانجاز ، العارفُ بالتبعات والمسئوليات .

هذه الخصائص واضحة كلها فى عمر ، وعمر وحدَه واضح بين أمثاله فى جميع هذه الخصائص ، حتى ليخيَّل الينا لو ان أحدا مولعا بتأليف الألغاز سأل عن عظيم فى الاسلام والعروبة متصفٍ بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها لكان الجواب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب .

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص فى تفريعاتها الثانوية وأشكالها العارضة أبلغَ وأدلَّ على العمقِ والتأصلِ من توافرِ الخصائصِ الجليلةِ التى هى بمثابة الأصول الجامعةِ فى طبائع الجنود .

فالنظامُ مثلا ليس بالخُلُقِ الأصيلِ فى الجندى الباسل ، فقد ينساق اليه بطبعه وقد يحتاج الى تعوده وادمانه حتى يَكسبه بطول المَرَانة .

لكن النظام كان خلقا أصيلا فى طبيعة عمر حتى فيما يتفرَّع عليه ويدخل

منه فى عداد الأشكال والنوافل (١) .

أرأيته وهو يصلى بالناس فلا يكبِّر حتى يسوى الصفوف ويوكّل رجلا بذلك ؟ أرأيته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد فى شهر رمضان أوزاعا متفرّقين حول كل قارىء فيأمرهم أن يجتمعوا الى قارىء واحد ؟ أرأيته وهو يحمل الدرة لينبهَ المخالفين فى الطريق ويذكرَهم هيبة القانون ؟ أرأيته وهو يركب فى السوق فيكسرُ ما برزَ من الدكاكين ويخفقُ التجار بالدرّة اذا تكوفوا (٢) على الطعام وقطعوا طريق السابلة ؟ أرأيته وهو لايزال يأمر بالمثاعب (٣) والكُنُف (٤) ان تمطع عن طريق المسلمين ؟ أرأيته وهو ينهى الولاة عن الاتكاء فى مجالس الحكم ويكتب الى عمرو بن العاص « وقع اليّ أنك تتكىء فى مجلسك ، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكىء » !

بل أرأيته وهو يرعى المراتب فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبى بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم ؟

ذلك هو السمت العسكرى بالفطرة التى فطر عليها ، وليس هو السمت العسكرى بالأسوة والتعليم .

وبالفطرة التى فطر عليها كان يحب مايحسن بالجندى فى بدنه وطعامه ، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه ، فكان يقول : « إياكم والسمنة فانها عَقْلَةٌ (٥) » ، وكان يقول : « اياكم والبطنة فانها مكسلةٌ عن الصلاة ومفسدةٌ للجسم ومؤدية إلى السَّقم ، وعليكم بالقَصد فى قوتكم فهو أبعد من السَّرف وأصحُّ للبدن وأقوى على العبادة » ، وكان يأمر بالجد ويحذّر من المهازل لأن « من كثر ضحكه قلّت هيبته ، ومن كثر سقَطه (٦) قلّ وَرَعُه » . وكان يمشى « شديدَ الوطء على الأرض جَهْورِيّ

(١) النوافل : جمع نافلة ، وهى الزيادة .

(٢) تكوفوا على الطعام : اجتمعوا عليه . (٣) المثاعب : مسايل الماء .

(٤) الكنف : جمع كنيف وهو الحظيرة من الخشب او الشجر تتخذ للابل والغنام لتقيها الحر والبرد .

(٥) العقلة : القيد والعقال .

(٦) السقط : الخطأ من القول والفعل .

الصوت » كما يمشى الجنود وكما يتكلمون ، وكان يأمر بتعلم الرماية والسباحة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرَّب عليها الجندى وتتهذب بها الأبدان والأخلاق .

وإذا ارتقينا من هذا الى النظام الأشمل والتقسيم الأعم الأكمل فهناك عمـر بن الخطـاب الذى دوَّن الدواوين وأحصى كل نفس فى الـدولة الاسلامية كأدق إحصاء وعَاهُ الموكّلون بالتجنيد فى العالم الحديث . فما من رجل أو امرأة أو طفـل إلا عُرِف اسمُه وعرف مكانه وعرفت حصته من بيت مال المسلمين . وما من مجاهد إلا عُرِفت له رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التى يمتاز بها الجنود ... فالحاضرون فى وقعة « بدر » هم المقدَّمون بين المجاهدين ، والحاضرون فى «الحديبية» يأتون بعدهم فى التقديم ، والذين اشتركوا فى حرب الردَّة يأتون بعـد هؤلاء وهؤلاء ، والذين حاربوا فى معارك الروم والفرس ومعهم أبناء الغزاة فى بدر يلحقون بمراتب هؤلاء المتقدمين ، وقس على ذلك ما يليه من سائر المراتب فى حقوق التقديم والتقسيم .

ثم هناك عمر بن الخطـاب الذى عشَّر الجنـود أى جعـلهم عشرات عشرات ، ثم قسمهم الى كتائب وبنود .

وهناك عمر بن الخطاب الذى لم يدبر قط تدبيرا كبيرا أو صغيرا فى شئون الدولة إلا بنظام لا يختل أو على أساس لا يحيد .

وقد كانت له طريقة الجنـد فى التصريف السريع الذى يَنْفُذُ إلى الغرض من أقرب طريق ، فلما تشاور المسلمون ماذا يصنعون بسُهيْل بن عمرو ، خطيب المشركين يومئذ وأقدر الخائضين منهم فى الاسلام ، قال عمر بن الخطاب : « يارسول الله ! انزع ثَنِيَّتَيْه (١) السفلَيين فلا يقوم عليك خطيباً أبدا » . وكان سـهيل أعلم ــ أى مشقوقَ الشـفة السفلى ــ فإذا نُزِعت ثنيَّتاه فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة الى

(١) الثنية : من الاسنان ، جمعها ثنايا وثنيات ، وفى الفم أربع .

عهد أو تحذير أو شغل شاغل بإسكاته والرد عليه .

***

والقضاء لم يكن من لوازم «الطبيعة الجندية» وإن تولاه القادة والجند في أيام الفتن والأيام التي تقام فيها الدول الناشئة والنظم الجديدة .

ولكن كم من قضية لعمر بن الخطاب تذكرنا بالقضاء العسكري الذي يمنع الضرر من أقرب الطرق ويحمي الأكثرين بالحد من حقوق الأقلين ؟

هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه فأرسل اليه « فإذا هو أحسنُ الناس شَعَراً وأصبحُهم وجها . فأمره أن يَجِمَّ (١) شعره ، فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسنا ، ثم أمره أن يعتمّ فزادته العمامة زينة وغواية ، فقال : لا يسكن معي رجل تهتف به العواتق (٢) في خدورها ، وزوده بمال وأرسله الى البصرة ليعمل في تجارة تشغله عن النساء ، وتشغل النساء عنه .

وفي القضية جَوْرٌ على نصر بن حجاج لا جدال فيه ، ولكن في سبيل مصلحة أكبرَ وأبقى ، أو في سبيل مصلحة يرعاها « الحكم العسكري » في أزمنة كزمان عمر ، ويقضي فيها بما هو أعجب من إقصاء نصر بن حجاج ، يرعاها أحيانا بمنع الاقامة بمكان ، ومنع المرور من طريق ، وتحريم تجارةٍ لا حرامَ فيها ، ومراقبة إنسان يُخشى أن يقود الى جريمة ، وتقييد السهر بعد موعد من الليل .

ولسنا نقول إن هذا الحكم في قضية نصر بن حجاج كان حكما لِزاماً لا محيص عنه ولا مأخذ عليه ، ولكنا نقول إنه حكم فيه تلك الصبغة العمرية التي سميناها « مفتاح شخصيته » وهي المقصودة بما نكتبه الآن .

وقد كان له في قضائه ذلك الحزم الذي يقطع اللجاجةَ (٣) وينهض بالحجة على كل ذي خلاف كلما اشتجر (٤) الخلاف : كتب اليه أبو عبيدة من دمشق أن عمرو بن معد يكرب وأبا جندل وضِراراً وجماعةً من علية

---

(١) يجم شعره : يقصره .
(٢) العواتق : جمع عاتق وهي الشابة الصغيرة .
(٣) اللجاجة : تمادي الخصمين
(٤) اشتجر الناس : تنازعوا .

القوم والوجوه شربوا الخمر وسئلوا فأجابوا « اننا خُيِّرنا فاخترنا قال : « هل أنتم منتهون » ولم يعزم (١) » .. وكأن أبا عبيدة تحرَّجَ من عقاب هؤلاء العلية فرفع أمرهم الى الخليفة يستفتيه ، فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد اليه بأمره أن يدعوهم على رءوس الأشهاد ويسألهم سؤالا لا يزيد عليه ولا ينقص منه : أحلالٌ الخمر أم حرام ؟ فان قالوا حرام فليجْلدهم ، وإن قالوا حلال فليضربْ أعناقهم . فقالوا : بل حرام ، فجُلِدوا وتابوا .

***

وربما تجمَّع للرجل كلُّ مافى « طبيعة الجندى » من الخصائص وبقيت محبوسة فيه لا يدرى بها الناس الا أن يأتى بعمل يَنمُّ عليها ، فيدين نفسه بطبيعته تلك ولا يدين غيره ، ويكون مطبوعا على أن يطيع ولا يكون مطبوعاً على أن يطاع ، وإذا جاءته طاعة المطيعين له فإنما تجيئه من سلطان النظام وحكم الشرع وغلبة العادات ، لأن الشجاعة مثلا لا تلازم الهيبة فى كل حال ، فقد يكون الشجاع مهيباً ويكون غير مهيب ، بل يكون أحيانا ممن تقتحمهم الأنظار ويجترىء عليهم المستخِفّون .

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له « طبيعة الجندى » ظاهرة باطنة ، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار ، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه . فما يجترىء عليه مجترىءٌ الا أن يُطْمِعه هو ، ويسهوَ عن نفسه لحظة ليُغريَه بالاجتراء .

وهى فى موقف الأمر تخيف من لا يخاف ويَجْفِلُ منها من يحتمى بجاه أو كبرياء . شكا إليه رجل من بنى مخزوم أبا سفيان لظلمه اياه فى حدٍّ كان بينهما ، فدعا بأبى سفيان والمخزومى وذهبوا الى المكان الذى تنازعاه ، ونظر عمر فعرف صدق الشكوى ونادى بأبى سفيان : خذ يا أبا سفيانَ هذا الحجرَ من هنا فضعْه هنا ... فأبى وتردد ، فعَلاَه بالدِرّة

(١) لم يعزم : لم يحدد حكما قاطعا . وعزيمة الله ، فريضته التى افترضها

وهو يقول : خذه فضعه ها هنا فانك ما علمت قديمُ الظلم ، فأخذ أبو سفيان الحجرَ ووضعه حيث قال ، ولو غيرُ عمرَ أَمَرَه هذا الأمر لاستكبر أن يطيع ، أو شنَّها عليه شعواء لا تُؤْمَنُ جَرِيرَتُها .

كان يوما (١) فى مجلس عمر وزيادُ بنُ سُمَيَّة (٢) يتكلم وهو يومئذ شاب ، فأحسن كعادته فى مجال الخطابة والمشورة ، فأعجب به عمر وهتف به : لله هذا الغلام ! لو كان قرشيا لساق العربَ بعصاه .

وكان على بن أبى طالب الى جانب أبى سفيان ، فمال اليه هذا وهمس فى أذنه كلاما فحواه أنه يعرف مَنْ أبو ذلك الغلام من قريش . قال على : فمن ؟ قال : أنا ... قال : فما يمنعك من استلحاقه ؟ فهمس له : أخافُ هذا الجالسَ أن يخرق علىَّ إهابى ؟ (٣)

وخليقٌ بمثل هذا الرجل ألا يكونَ له شعارٌ غيرُ شعار الجند حيث كانوا : الأمر هو الأمر ، والطاعة هى الطاعة .

وخليق بالناس أن يفهموا ذلك عنه بغير بيان ، لا سيما اذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة كان هو أولَ من يطيع .

ذلك هو الجندى المطبوع .

جندىٌّ من جنود الله فى معترك الحق والايمان . وإذا استوفينا المثل إلى أقصاه فالقانون المطاع هو القرآن ، والقائد الأعلى هو النبى الذى يُوحَى اليه ، وليس أحدٌ بعد ذلك أكبر من أن يطيع .

يأمر اللهُ فالطاعة واجب لا هَوادة فيه .

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجعه مَنْ دونَه ويرتفعان معا الى القانون ، لأن الطاعة لا تمنع المراجعة والمشاورة ، ولكنها تمنع التمردَ على القائدِ الأعلى وإنكار سلطانه حيثما استقرَّ على قرار ، فإذا رجع القائد عن أمره

---

(١) اى ابو سفيان

(٢) اشتهر باسم « زياد بن أبيه » ولم يكن معروف الاب ، وفى عهد معاوية ، شهد ناس من المسلمين انه ابن أبى سفيان فاستلحقه معاوية « أى اعترف به أخا له » وولاه البصرة . اشتهر بالذكاء وسعة الحيلة والخطابة .

(٣) الاهاب : الجلد .

فحَسَن" ، والمراجعة إذن خير لا ضرر فيه ، واذا مضى فى أمره فلا خلاف إذن فيما يجب : فالذى يجب إذن واحد ، وهو أن يطاع .

كذلك راجع عمر النبىَّ فى مسائلَ شتى ، فأخذ النبى برأيه فى بعض هذه المسائل وخالفه فى بعضها ، فلم تكن طاعتهُ فيما خولف فيه أقلَّ ولا أضعفَ مما و وفق عليه .

وكذلك راجع الخليفة أبا بكر فى كبريات المسائل وصغارها ، فكان أبو بكر يثوب (١) إلى رأيه كثيراً ، ويُصر على ما بدا له اذا رأى الحسنى فى الاصرار ، فيطيعُ ، عمرُ أمرَه بعد ذلك كأن لم يكن خلاف .

وإذا امتنعت المراجعة فليس الرجل عند ذلك بواهنٍ عن احتمالِ التبعة ، وتصريف الرأى ، والاضطلاع بأعباء الموقف كيف كان .

اشتد المرض بالنبى عليه السلام فقال : ائتونى بكتابٍ أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده ... قال عمر : إن النبى صلى الله عليه وسلم غلبَه الوجع ، وعندنا كتابُ الله حَسْبُنا .

عندنا كتاب الله حسبنا .

عندنا القانون الأعلى .

أما القائد الأعلى فهو فى مر سه بحالٍ لا تستحب معها المراجعة ، وهو مع ذلك لم يصر على أمره ولم يعاودْ طلبَ الورق للكتابة ، وإنما قال حين كثر اللغط بين الصحابة : قوموا عنى . ولا ينبغى عندى التنازع ، ثم عاش عليه السلام أياما ولم يذكر الكتاب .

فالرجل يطيع اذا استقام الأمر واستقرت التبعة .

وكان يراجع اذا اتسع مجال المراجعة .

فإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع" بالتبعة التى يوجبها على نفسه ، وقمين أن يذهب إليها ولا يَنْكُلَ عنها .

وتلك سنَّة جرى عليها عمر عن علم وقصد ، ولم يجر عليها عن بداهة وإلهام وكَفَى ، وأشار اليها فى كلامه غيرَ مرة فقال فى خطبة من خطبه

(١) يثوب الى رأيه : يرجع اليه ويأخذ به .

ما فحواه : « ... كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه (١) ، وكان كما قال الله تعالى : « بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، وكنت بين يديه كالسيف المسلول ، إلا أن يُغمدني أو ينهاني عن أمر فأكُفَّ عنه ، وإلا أقدمتُ على الناس لمكان أمره ... » .

فهو جِلوازُ النبى وسيفُه المسلول كما وصف نفسه .

وهو على أقوم مثال للجندى الفاضل العليم بموقع الطاعة ، وموقع المراجعة ، وموقع المشاورة ، وهو مع التبعة حيث لا مهرب منها ، وتلك هى الجندية فى صورتها المثلى .

وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد ، وهو الوصول إلى الأمرِ الذى يحمل التبعة فيه .

فإذا أعفى نفسه من التبعة بمراجعة رؤسائه ، وأعفى نفسه من التبعة بمشاورة مرءوسيه ، فقد عرف كيف ينبغى أن يطيع ، وعرف كيف ينبغى أن يطاع ، وعرف ما يتوق كل جندى أن يعرفه حين يؤمَرُ وحين يأْمرُ وهو توضيح ما يُطلب منه وما يُطلب من غيره ، وتقرير مكان التبعات حين تقسّم التبعات .

ولقد كانت له مخالفاتٌ ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التى تعمل فيها الرويةُ عملَها ، أو تختلف مذاهبُ الآراء فيها .

كانت هذه أيضاً من مخالفات « الجندى » التى يندفع إليها كلما غلبتْه الحماسةُ وثارتْ به الحمية .

فلما كان يومُ أُحُد جاء أبو سفيانَ ينادى على مسمع من المسلمين : أفيكم محمد ؟ فقال رسول الله : لا تجيبوه !

فعاد ينادى مرتين : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه !

فسأل ثلاثا : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ (٢) فسكتوا .

ثم سأل : أفيكم ابنُ الخطاب ؟ وكررها ثلاثاً ... فلما لم يسمع جوابا

---

(١) الجلواز : الشرطى .

(٢) هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

قال لقومه : أما هؤلاء فقد كُفِيتموهم ! (١)

كثيرٌ على عمرَ أن يحتوىَ صبرُه فى هذا الموقف أكثر مما احتواه . فما قالها أبو سفيان حتى صاح به من مكانه : « كفرْتَ ياعدوَّ الله . هاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وأنا أحْياء ! ولك منا يومُ سوء ! » .

هذه مخالفةٌ لا مراجعة فيها ولا مشاورة .

لكنها من مخالفات الجند ، ولهم ولا شك مخالفاتٌ كما لهم طاعات .

***

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم ، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم التى هى أخصُّ بهم من سائر الفكاهات والأهواء .

فكانت تعجبه الفكاهةَ التى توحى إليه معنىً مضحكا فيه صراحةٌ وخشونة ، ومنها الفكاهة التى نسميها اليوم « بالنكات العملية » .

فرغ رسول الله يوما من بَيْعة الرجال وأخذ فى بيعة النساء ، فاجتمع اليه نساءٌ من قريش فيهنَّ هند بنت عُتْبَةَ متنقبة (٢) متنكرة ، لِمَا كان من صنيعها بحمزةَ (٣) رضى الله عنه ، فهى تخاف أن يأخذَها رسول الله بصنيعها . فلما دنوْنَ منه ليبايعنَه قال عليه السلام : تبايعننى على ألا تُشْرِكْنَ بالله شيئا .

قالت هند : والله إنك لتأخذُ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال ، وسنؤتيكه .

قال : ولا تَسْرقْنَ .

قالت : والله إن كنت لأصيبُ من مال أبى سفيان الهنةَ (٤) والهنةَ وما أدرى أكان ذلك حلالا لى أم لا .

---

(١) حدث هذا بعد نهاية المعركة . وقد ظن أبو سفيان أنهم ماتوا فى الموقعة .
(٢) اى تلبس النقاب وهو الحجاب .
(٣) هند : زوج ابى سفيان ، وهى التى مثلت بجثة حمزة بعد ان قتل فى أحد .
(٤) الهنة : مؤنثة الهن وهو الشىء .

قال أبو سفيان وكان شاهداً : أمَّا ما أصبْتِ فيما مضى فأنت منه فى حِلٍّ .

فقال رسول الله : وإنك لهندُ بنتُ عتبة !

قالت : أنا هندُ بنتُ عتبةَ فاعفُ عما سلَفَ ، عفا الله عنك . فمضى رسول الله فى أخذ البيعة وعاد يقول : ولا تَزْنين !

قالت : يا رسول الله هل تزنى الحرّة ؟

قال : ولا تقتلْن أولادَكنّ !

قالت : قد ربيناهم صغارا وقتلتَهم يوم بدر كبارا ، فأنت وهم أعلم .

فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب (١) ، وكان قليل الاغراب فى الضحك ، فإن استغرب ضاحكا بين حين وحين فإنما يُضحكه مثلُ هذه الفكاهة .

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمه أسلمَ وابنه عاصم : دخل عليهما وهما يغنيان غناءً يشبه الحُـداء فوقف يستمع ويستعيد . وشجعهما إصغاؤه واستعادتهُ فسألاه : أينا أحسن صَنْعةً ؟ قال : مثلكما كمثل حمارى العبادى . سُئِل : أيهما شر ؟ فقال : هذا ثم هذا !

ومن فكاهته القوية تلك المزحة المرعبة التى أطار بها لبَّ الحطيئة ليكفّ عن هجاء الناس . فدعا بكرسى وجلس عليه ودعا بالحطيئة فأجلسه بين يديه ، ودعا بإِشْفىَ (٢) — أى مثقب ، وشفرةٍ ، يوهمه أنه سيقطع لسانه ، فضج الحطيئة وتشفّع الحاضرون فيه ، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهداً لا يهجونَّ أحدا بعدها ، واشترى منه أعراضَ المسلمين بثلاثة آلاف درهم . فما هجا أحدا بعدها وعمرُ بقيد الحياة .

تلك أمثلة من فكاهته الخشنة التى تُعْهَد فى طبيعة الجند ، وهى فكاهةٌ لا يُطْمَع منه فى غيرها .

وشاءت الجاهلية أن تورطه فى بعض أهوائها فكان هواه منها معاقرةَ

(١) استغرب فى الضحك : بالغ فيه .
(٢) الاشفى : المثقب ، والشفرة ، والسكين العظيمة .

الخمر يحبها ويكثر منها . وقد نرى أنه هوىً قريب من مزاج الجند غيرُ نادرٍ فيهم ، إذ الخمرُ توافق مافيهم من سَوْرةٍ طبع وتشغلهم عن الخطر أو تـعينهم عليه ، وتصاحبها فى كثير من الأحيان ضَجَّةٌ يألفونها .

وقد أحب ضجة الدفوف وهى فى سياق هذا الهوى ، وظل يحبها بعد إسلامه وخلافته وإن كرهها فى غير الأعراس ... فسمع ضوضاءً فى دارٍ فسأل : ما هذا ؟ قيل له : عُرْس ! فقال : هلا حركوا غرابيلهم ؟ أى الدفوف !

على أنه كان يحب الغناء جملةً ويطيل الاصغاء اليه ما لم يشغله عن مُهِمٍّ من أمر دينه أو سياسته . فسمع صوت حادٍ وهم منطلقون الى مكة فى جوف الليل فما زال يُوضع راحلته (١) حتى دخل بين القوم يسمع إلى مطلع الفجر ، ثم قال للقوم : إيه ! قد طلع الفجر . اذكروا الله .

***

فطبيعة الجندى فى الفاروق تامة متكاملة بأصولها وفروعها . ويندر أن تتم طبيعـة شاملة فى رجل واحـد الا أن يكون كعمر فى أصـالة الطبع وصراحته وخلوصه واتساقه ، فلا يَخذُل منه جزءٌ جزءاً ، ولا تُقبِل منه وجهةٌ حيث تُدبِر أخرى ، وحينئذ لا عجب أن تتم له طبيعة واحدة بالغةً ما بلغتْ من تعدد العناصر والألوان والشيات . كما أنه لا عجب أن يشبه الولد أباه لأنه أصيل صريح النسب ، بالغا مابلغ التعدد فى مشابه الأخلاق والجوارح والأعمال .

ولهذه الطبيعة أثرها فى أمور لا تمت إليها على ظاهرها . كأثرها فى تحريم رق العربى وفى اخلاء الجزيرة من غير العرب ، فهى شِنشِنَةُ الغيور على الحوزة ، الموكَّل بحماية الذِّمار (٢) .

ولها أثرها فى سياسته مع الأمم حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف والبر بالوعد ولو كان إشارةً باليد أو نبأةً من صوت . فقد أوجب على

(١) يوضع راحلته : يحملها على السير السريع
(٢) الذمار : مايلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه ، والحرم والاهل والحوزة .

قادته وجنوده إذا نزلوا بلاد الأعاجم فبدرت منهم إشارة أو نبأة يحسبونها عهداً أن ينجزوا هذا العهد ولا ينكثوا فيه ، ولو أتيح لهم أن يتعللوا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات .

وإنك على الجملة لا تعرض عملا من أعمال الفاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة إلا وجدت له قراراً فيها ووجدت عليه صبغة منها .

فهى بلا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة ، وبها تتميز خصائصه التى لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها وإن كانوا عظماء أقوياء .

وقد أسلفنا الاشارة إلى الايمان القوى وقلنا إنه ضابط" لأخلاقه وسوراته ، وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها ، لأن الايمان القوى نفسه يحتاج فى فهمه وتمييزه الى المفتاح الذى يفرق بين ضروب الايمان عند الأقوياء ، وليست القوة كلها كما لا يخفى معدنا واحدا فى البواعث والمظاهر والآثار .

وهكذا كان إيمان عمر فى سلوك دنياه وسلوك دينه : كان إيمان الطبيعة الجندية فى حالتها المثلى .

ففى سلوك دنياه كان يعيش أبداً عيشة المجاهد فى الميدان ... فآثر الشظف وقنع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه .

وفى سلوك دينه كان موقفه بين يدى الله أبداً كموقف الجندى الذى يعلم أنه لا يلقى مولاه إلا ليؤدى الحساب على الكثير والقليل ... فإن تجئه المسامحة جاءت عفواً لا ينسيه تحضير الحساب .

وكان معتمداً على الغيب موصولا بالقدر يركن إليه كأنه يراه بعينيه . ومن دأب كل طبيعة تستحضر الموت أن تنظر الى الغيب ، وتستطلع طلعه (١) وتنتظر منه الحماية والهداية .

فاشتهر عن كثير من كبار القادة أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد لحظهم ، أو بغاية أجل لا يتعجلون عنها ، أو بإلهام يهديهم الى النجاة

(١) يقال : فلان أطلعنى على الامر ، أو أطلعنى طلعه بكسر الطاء .

ويرون أماراته وعلاماتـه فى الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة .

وكان عمر يتفاءل بالأسماء ، وينظر فى الرؤى والمنامات ، ويُروى عنه فى روايات متواترة أنه أنبىء بموته فى منام ، وأنه رأى كأن ديكا ينقره نقرتين ، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتين .

وروى محاربُ بن دثار أنه سأل رجلا : من أنت ؟ فقـال : قاضى دمشق قال : كيف تقضى ؟ قال : أقضى بكتاب الله . فسأله : وإذا جاءك ما ليس فى كتاب الله ؟ فأجابه : أقضى إذاً بسنة رسول الله ، فسأله ثانية : واذا جاءك ما ليس فى سنة رســول الله ؟ قال : أجتهــد برأيى وأؤامر جلسائى . فاستحسن قوله وأوصاه اذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلا : « انى أسألك أن أفْتِى بعلم ، وأن أقضِىَ بحلم ، وأسألك العدل فى الغضب والرضا » .

ثم رجع القاضى بعد فترة فسأله عمر : ما أرجعك ؟ قال : رأيت الشمس والقمر يقتتلان ، مع كل واحد منهما جنودٌ من الكواكب .

فسأله : مع أيّهما كنت ؟

فقال : مع القمر !

فتأمل قليلا ثم ذكر قوله تعـالى : « وجعلنا الليلَ والنهـارَ آيتين فمحوْنا آيةَ الليلِ وجعلنـا آيةَ النهارِ مبْـصِـرَةً » ثم قال : لا تلى لى عملا (١) .

هذه رواية من روايات كثيرة عن المنامات ونظره فيها ، لا ندرى مبلغها من الصحة فى تفصيلاتها ، ولكنها كلها تدل على الغرض الذى قصدنا إليه وهو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات ، الى جانب الايمان القوى الذى لايسهو عن عالَم الغيب طرْفةَ عين .

ومن الحق أن نضيف هنا أن الإيمان القوى ليس بمستغرب فى الطبيعة الجندية ، بل ربما كانت طبيعةُ الجهاد أقرب شىءٍ الى طبيعة الإيمان .

(١) لا تلى : لا هنا نافية وليست ناهية ، فالفعل بعدها مرفوع .

وأن نضيف هنا استدراكا آخر لعله أدعى الى البحث من القول فى الجهاد والإيمان ، وذلك أن العدل لايناقض طبيعة الجند عامة ، وأن طبيعة الجند لاتستلزم العدوانَ فى كل محارب ، ولا سيما المحارب نَضْحاً [1] عن دين ووفقا لشريعة .

فالعدل يفتقر الى شجاعة وشرف ، وهما خَصلتان مطلوبتان فى الجندى المطبوع ، فأما الشجاعة فى الرجل العادل فتحميه أن يحابىَ الأقوياء وهو جبن ، وأما الشرف فيحميه أن يجور على الضعيف وهو خِسَّة ، ولا تناقضَ بين هذه الخصال .

إنما المحارب المعتدى هو الذى « يحارب لحسابه » كما يقولون ، أو يحارب لنفسه مَرْضاةً لطبعه وذهابا مع نزواته ، ومن هذا الطراز الاسكندر وتيمور ونابليون .

***

أما المحارب الذى تقيده إرادةٌ غيرُ إرادته ، ويحكمه قانون غير هواه ، فالحرب من مثله واجبٌ يُلام على تركه وليست بجريمةٍ يلام على اقترافها .

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهادِ جهادُ النفس والهوى قبل جهاد الخصوم والأقران ، كما رأى عمر بن الخطاب .

ومصداق ذلك ظاهر فى كل قائدٍ تدعوه الى الحرب إرادةُ إلهٍ أو إرادة أمة ، أو إرادة ضميرٍ له قانون . فطبيعة الجندى فى هؤلاء لاتناقض العدل إلا كما تناقضه طبيعةُ الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف فى شئون المعاش ، ولا تناقضَ بينه وبين واحدة منها ، أو هى جميعاً فى هذه الخصلة سواء .

هؤلاء لا يحاربون إلا مكرهين ، وإذا حاربوا لم يحاربوا لبغى ولا لتنكيل ولو كانوا فى ميدان القتال ، وسُنَّتهم هى سنة عمر حين نحذر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين . ثم قال : « لاتجبنوا عند

(1) نضحا : دفاعا

اللقاء ، ولا تمثّلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور (١) ، ولا تقتلوا هَرِماً ولا امرأةً ولا وليداً ، ونزّهوا الجهادَ عن عَرَض الدنيا ، وأبْشِروا بالإرباح (٢) فى البيع الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

وذلك هو الجندى فى حالته المثلى .

وذلك هو المفتاحُ الصادق الذى لا نعلم مفتاحاً أصدقَ منه لخلائق هذا الجندىّ العادلِ الكريم .

---

(١) الظهور : النصر
(٢) الارباح : الحصول على الربح

الإسلام

يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذى يعمله الرجل اليوم وينساه غداً ، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت إلى عقباه ، أو يلتفت إلى عقباه ولا يتوقع لها أثراً يغيِّر فى مجرى حياته . فسببٌ واحدٌ لعملٍ من هذه الأعمال كافٍ ولا حاجةَ بعده إلى استقصاء .

لكن العملَ الذى تتحول به حياةُ الانسان تحولا حاسماً لن يرجع الى سبب واحد ، ولن نستغنى فى تفسيره عن عدة أسباب ، بعضُها حديثٌ وبعضها قديم ، ومنها الظاهر الطيِّع والخفىُّ المستعصى ، وقد يجهل صاحبُها بعضَ هذه الأسباب وينسى المهمَّ منها ويتعلق بالهيِّنِ القريب .

فالرجل الذى يغير موطنَه أو معيشته أو زيَّه لايفعل ذلك عَفْوَ الساعة ولا تلبيةً لاقتراح يوحى اليه فى مجلس فراغ . وقد يتوهم هو أنه سمع الاقتراح فلباه ، وأنه لم يكن ليلبِّيه لولا ماسمع فى تلك اللحظة العارضة ، فهاجر أهلَه وترك موطنَه وغيَّر صناعتَه من أجل كلمة ... وإنك سائله ساعتئذ : « انك قد هاجرتَ أهلك وتركت موطنك وغيرت معيشتك لأنك لبَّيْت اقتراحا ، فهل تعلم لمَ لبَّيت الاقتراح ؟ » فاذا سألته ذلك السؤال رددتَه الى نفسه ، فعلم أن الأسباب الصحيحة وراء ذلك ، وأنه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم . بل سمع الاقتراح ولباه لأنه كان قبل ذلك مستعداً للتحول ماضياً فى طريقه . ولو سمعه مائةٌ معه لم يكونوا مستعدين مثله لما عملوا به ولا التفتوا إليه .

وأين تغيير المعيشة والموطن والزى من تغيير العقيدة الدينية ؟

إننا إذا استصغرنا السبب الواحد فى تفسير تلك التغييرات فهو لا مراء أصغر من ذلك جدا فى تفسير التحول الحاسم إلى دين جديد .

لأن الانسان اذا غيَّر معيشته فانما يغير صناعةً ، واذا غيَّر موطنه

فانما يغير بلدا ، واذا غيَّر زيه فانما يغيِّر سمتا [1] بقوم على كساء ، ولكنه إذا غير عقيدته الدينيةَ فقد غير كونه واستبدل به كوناً آخر ، وقد غير ماضيَه وماضيَ أهلِه ، وغير حاضرَه وحاضر أهله ، وغير مصيره فى الدنيا ومصيره بعد الموت ، وغير آراءه ومقاييسَه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات النــاس ، ومنها مآلفُ وأواصرُ ومحــابُّ ومكارهُ متوشجاتُ الأصول الى ماوراءَ الآباء والأجداد .

فسببٌ واحد لا يغير هذا كلَّه دفعة واحدة .

ولابد لتمام هذا التغيير من أسباب سابقة وأسباب مهيِّئة ، وأسباب موقوتة هى أظهر تلك الأسباب ، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيراً لذلك الحدث العظيم فى العالم ، وهل يتغير الإنسان هكذا إلا وقد أحاط بالعالم فى نظره حدثٌ عظيم ؟

ونحن قد أشرنا فيما تقدم الى ندم عمر لشكاية المرأتين اللتين عارضهما فى الإسلام ، وإلى ما كان لندمه من كسر حدته واستلال ضِغْنِه ، وترويض عناده ، والتقريب بينه وبين الخشوع الدينى والهداية الإسلامية . فهل نقف عند هذا الندم وكفى ؟ وهل انتهينا به إلى حيث يستقر الوقوف ؟

إنه لسبب من أسباب ..

ومما لاشك فيه أن عمر كان مقترباً من الإسلام يوم رَثَى لأم عبد الله بنت حنتمة وتركها تنطلق الى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة . وكانت هى على صواب حين طَمِعَتْ فى إسلامه ورجالُها يائسون منه . فقد سألها عامر بن ربيعة مستغربا مستبعدا : كأنك قد طَمِعتِ فى اســلام عمر ؟ قالت : نعم . قال : إنه لا يُسلم حتى يُسْلِمَ حمارُ الخطاب !

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة ، إذ ليس أسرع من المرأة أن تلمح جانبَ الرقة وجانب الغضب من قلب الرجل فى خطفة عين ... أليست حياتها كلّهــا من قديم الزمن منــوطةً بذلك الغضب كيف تتلطف فى

[1] السمت : الهيئة .

تحويله ، وبتلك الرقة كيف تتلطف فى ابتعاثها من مكمنها ؟ وهل تحجبها عنها القوة وهى ما نَفَذَت الى نفس الرجل قط إلا من وراء القوة ؟

فعمر كان مقتربا من الإسلام يوم رثى للمرأة المهاجرة ودعا لها بصحبه الله ، وكان على تمام الإسلام يوم رأى الدمَ على وجه أخته ورأى زوجها منطرحا تحته لايقوى على دفاع .

ولكنه كما قلنا سبب من أسباب ، أو أنه هو السبب العارض الذى يومىء (١) إلى السبب العميق : سبب عارض هو الأسف لشكاية الضعيف ، وسبب عميق هو الرحمة التى تجمل بذى نخوة كريم . وليس الإنسانُ كلُّه ندما ورحمةً وإن طال ندمهُ وطالت رحمته . فليس كل ما احتوى رحمته بمحتويه إلى زمن طويل .

وقد تعددت الروايات فى إسلام عمر واختلف بعض هذه الروايات فى اللفظ واتفق فى المغزى ، وجعل أُناسٌ ينظرون فيها كأنما الصحيح منها لا يكون إلا روايةً واحدة وسائرُها باطل لايشتمل على حقيقة . فلِمَ لا تكون صحاحا كلُّها ؟ ولم لا تكون أسبابا متعددات فى أوقات مختلفات؟ فمن المستطاع المعقول أن نُسقط منها قليلا من الحشو هنا وهناك ثم نخلص منها الى جملة أسباب لا تعارُضَ بينها فى الجوهر ، وقد يعزِّزُ بعضُها بعضا فى نسق السيرة وفى لُباب النتيجة .

رُوى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « كنت للإسلام مباعدا ، وكنت صاحب خمرٍ فى الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلسٌ يجتمع فيه رجالٌ من قريش .. فخرجتُ أريد جلسائى أولئك فلم أجد منهم أحدا . فقلت : لو أننى جئت فلانا الخمار ! .. وخرجت فجئته فلم أجده ، قلت : لو أننى جئت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعَيْن ، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، واتخذ مكانه بين

(١) يومىء : يشير

الركنين : الركنِ الأسودِ والركنِ اليماني . فقلت حين رأيته : والله لو أني استمعت لمحمد الليلةَ حتى أسمعَ مايقول ! وقام بنفسي أنني لو دنوتُ أسمعُ منه لأروعنّه (١) فجئت من قبل الحِجْرِ (٢) . فدخلت تحت ثيابها مابيني وبينه الا ثياب الكعبة ، فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام » .

وروى ابن اسحق في سبب إسلامه كما نقلنا عنه في كتابنا « عبقرية محمد » : « أن عمر خرج يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه .. قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريبٌ من أربعين بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزةُ بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم .. فلقيهُ نُعَيْم بن عبد الله فقال له : أين تريد ياعمر ؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابيء (٣) الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله . فقال نعيم : والله لقد غرتك نفسُك ياعمر ! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجعُ إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال وأي أهل بيتي ؟ قال : خَتَنُك (٤) وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمةُ بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه . فعليك بهما .

قال ... فرجع عمر عامدا الى أخته وخَتَنِه ، وعندهما خبّابٌ في مخدع لهم أو في بعض البيت . وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما . فلما دخل قال : ماهذه الهينمة (٥) التي سمعت ! قالا له : ماسمعت شيئا ! قال : بلى

---

(١) لاروعته : لافزعته
(٢) الحجر : بكسر الحاء حطيم مكة ، مدار البيت من جهة الشمال .
(٣) الصابيء : الخارج من دين الى دين
(٤) ختنك : الختن : الصهر ، زوج البنت أو الاخت
(٥) الهينمة : الكلام الخفي غير الواضح

والله . لقد أخْبِرتُ أنكما تابعتما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد ابن زيد فقامت اليه أخته فاطمة لتكفّه عن زوجها ، فضربها فشجّها . فلما فعل ذلك قالت له أخته : نعم . قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع مابدا لك . فلما رأى عمر مابأخته من الدم ندم على ماصنع فارعوى وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفا أنظر ماهذا الذي جاء به محمد .. وقرأ سورة طه ، فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه . فلما سمع ذلك خباب خرج اليه فقال له ياعمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيّد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمرَ بن الخطاب . فالله الله ياعمر ! فقال له عند ذلك عمر : دلّنى ياخبابُ على محمد حتى آتيه فأسلِم . فقال له خباب : هو فى بيتٍ عند الصفا معه فيه نفرٌ من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خَلَل (١) الباب فرآه متوشحا بالسيف ، فرجع الى رسول الله وهو فزع . فقال : يارسول الله ! هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف . فقال حمزة بن عبد المطلب : تأذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه . فقال رسول الله ائذن له .. ونهض اليه حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحُجزته (٢) أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة (٣) شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بك قارعة (٤) فقال عمر : يا رسول الله ! جئتك لأومنَ بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ! .. »

هاتان الروايتان هما أجمع الروايات للاسباب « المباشرة » التى قرّبت بين عمر والاسلام ، وتتفرع منهما روايات منوّعة يزيد بعضها تارة أن عمر

(١) الخلل : الفرجة بين الشيئين .
(٢) بحجزته : الحجزة موضع الازار من الوسط
(٣) جبذ : جذب
(٤) القارعة : الداهية

قد أوفد لقتل النبى من قبل قريش ، ويزيد بعضها تارة أخرى آيات من القرآن الكريم قرأها عمر فى بيت أخته غير الأيات التى تقدمت الاشارة اليها فى سورة طه . وأشبهها بالتصديق أنه لما اطلع على الصحيفة قرأ فيها اسم « الرحمن الرحيم » فذعر وألقاها ، ثم رجع الى نفسه فتناولها وجعل كلما مرّ باسم من أسماء الله ذُعِر . فلما بلغ « ... ومالكم لاتؤمنون بالله والرسولُ يدعوكم لتؤمنوا بربّكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين » .. قال : أشهدُ أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وهذه على اختلافها رواياتٌ متقاربة يبدو لنا أنها قصة واحدة شُطرت شطرين وزيدت عليها الحواشي والأطراف ، فاختلفت فى ألفاظها ومواعيدها واتفقت فى جوهرها ومدلولها ، لأنها تمسّ نفسَ عمرَ من الناحية التى هى أشبهُ أن تهديَه الى طريق جديد .

وهى — كما أسلفنا — تجمع لنا الأسباب « المباشرة » التى اقترنت بإسلام عمر ، ولا تغنينا عن الأسباب الاخرى التى هى أساس هذه الاسباب ومرجعها ، ولأجلها كان خليقا أن تأخذَه بلاغة القرآن ، وأن تميلَ به الرحمةُ الى الايمان .

فقد كان مهيأ للاسلام لا محالة ، وكانت مجافاته للاسلام خليقةً أن تنتهى بعد قليل ، وألا تطول الا ريثما تعنّ المناسبة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير .

فلم يكن بين عمر والاسلام فى بداية الأمر الا بابٌ واحد للعداء .

وكل ماعدا ذلك من الأبواب فقد كان مفتوحا بينه وبين هذا الدين الجديد ، ماهو الا أن يراه بالعين حتى يندفع فيه .

كان بابُ العداء بينه وبين الاسلام أنه رجل قوى غيور عزيز فى قومه . فاذا رجلٌ يخرج عليهم فيفرّق — كما قال — أمر قريش ويسفّه أحلامَها ويعيب دينها ويسبّ آلهتها ، فلا جرَمَ يثور ويغضب وينقم ، ولاعجب أن يذود عن ذماره ويرحَض (١) المعابةَ عن شرف آبائه ، ويرى أنه غير

(١) رحض الثوب : غسله . ويرحض المعابة عن شرف اباثه : يزيلها .

عاد ولا باغ ، وأن البغى والعدوان انما يجيئان من قِبَل ذلك الرجل الخارج على قومه ، حتى يتبين له بالحق الذى يصدع به أن الذى هو ثيه هو البغى والعدوان .

ذلك باب العداء الوحيد الذى كان بين عمر والاسلام ، وهو باب لايطول مدخله فى نفس طُبِعت على العدل والانصاف .

فما من سبب يصل بين الجاهلى الشريف وهذا الدين الجديد الا كان موصولا بنفس عمر أوثق صلة ، وما علمنا من سبب للاسلام الا كانت له عقدة فى نفس عمر وثيقة القرار .

فربما أسلم أناس لأنهم أُخِذوا ببلاغة القرآن ، وأسلم أناس لأنهم كرهوا المنكر الذى كان يشيع فى الجاهلية ، أو لأنهم ورثوا النزعة الدينية والخلائق المستقيمة ، أو لأنهم جُبِلوا على روحانية تصل بينهم وبين عالم الغيب وحظيرة الأسرار ، أو لأنهم قد عرضت لهم عارضة موقوتة حرَّكت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب .

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم .

وكل أولئك لم يكن عمر فيه بالوسط المكرر ، بل كان فيه العَلَم المترفع المضيء بين الأعلام .

كان عمر بليغا حسن النقد للبلاغة ، هواه منها الصدق والطبع وجمال التفصيل ، فكان يطرب لقول زهير :

فان الحقَّ مقطعه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جَلاء (١)

ويقول كلما أنشده معجبا : ما أحسن ماقسم ! وسماه شاعرَ الشعراء لأنه لا يعاظل (٢) بين القوافى ولا يتبع حُوشِيَّ الكلام .

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر فيقول لجليسه : « الآن اقرأ ياعبد الله » .

وجاءه يوما بعض آل هَرِم بن سِنان ممدوح زهير فقال عمر : أما وان

---

(١) يريد الشاعر ان مقاطع الحقوق ثلاثة ، يمين او حكومة او بينة
(٢) يعاظل : عاظل بالكلام عقده وصعبه واستخدم حوشيه وغريبه

زهيرا كان يقول فيكم فيُحسِن ، فقيل له : كذلك كنا نعطيه فنُجزل . فعاد عمر يقول : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم .

وجاءه وفد من غطفان فسألهم من الذى يقول :

حلفْتُ فلم أترك لنفسِك ريبةً ... وليس وراء الله للمرء مذهبُ

قالوا : نابغة بنى ذبيان . فسألهم : ومن الذى يقول :

أتيتُك عارياً خَلَقاً ثيابى ... على وجلٍ تُظَنُّ بِىَ الظُّنون (١)

فألفيْتُ الأمانةَ لم تخُنها ... كذلك كان نوحٌ لا يخُون

قالوا : هو النابغة . فقال : هو أشعرُ شعرائكم .

وطالما أعجب بقول عبدة بن الطبيب :

والمرءُ ساعٍ لامرٍ ليس يُدركه ... والعيشُ شُحٌّ واشفاقٌ وتأميلُ

وينشده فيقول : على هذا بنيت الدنيا !..

وندر بين أئمة الدين من غاص فى أدب قومه غَوْصه ، ووعَى من أشعارهم وطُرفِهم مثلَ ماوعاه . قال الأصمعى : « ماقطع عمر أمرا الا تمثل فيه ببيت من الشعر » . ونحن نرجع الى الشعر الذى تمثل به فنراه فى أحسن موقع وأصدق شاهد ، ونلمح من قليل أخباره فى خلوته أن الأدب كان جانبا من جوانبه التى ترق فيه حاشيته ، ويأنس فيه الى قلبه ، ويرجع فيه الى فطرته . جاء عبد الرحمن بن عوف الى بابه فوجده مستلقيا على مزحفة له واحدى رجليه على الأخرى وهو ينشد بصوت عال :

وكيف ثَوائى (٢) بالمدينة بعدما ... قضى وَطَرا منها جميلُ بنْ معمرِ

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له : يا أبا محمد : انا اذا خلونا قلنا كما يقول الناس .

ولم يقصر اعجابه بالشعراء على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية ، بل نظر فى فنهم وفاضل بينهم فى بلاغتهم ، ففضّل امرأ القيس لأنه «سابقهم، خَسَف لهم عن الشعر فافتقر عن معانٍ عورٍ أصح بصر » (٣)

---

(١) الثوب الخلق : البالى (٢) ثوائى : اقامتى

(٣) خسف لهم عين الشعر فافتقر من معان عور اصح بصر : استنبط عين الشعر وشق طريق المعانى واتى بالشوارد الحسان . راجع باب « ثقافته »

ونوادره مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة وحفظه لأجمل مايحفظ بين أهل عصره ، كما تدل على ذلك خطبه ورسائله وشواهده وأمثاله .

وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح . فقد نسبت اليه أبيات وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول : لو نظمتُ الشعر لقلته فى رثاء أخى . ولكنَّ الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ ويرويه ويُوصى بروايته ، وأنه نشأ فى قوم يحبون مثل ما أحب ويعجبون بمثل ما أعجبه ، ومنهم أبوه الذى نظم الشعر فى أكثَر من مناسبة ورُوِىَ عنه أنه قال لما توعده أبو عمرو ابن أمية :

أيُوعِدنى أبو عمــرو ودونى	رجالٌ لا يَنهنهها الوعيد (١)
... ...	... ...
ربيــع المعــدمين وكلِّ جــارٍ	اذا نزلتْ بهم سنةٌ كئود(٢)
هم الرأس المقدَّمُ من قريش	وعندَ بيوتِهم تلقى الوفودُ
فكيف أخافُ أو أخشى عدوًّا	ونصرهُمُ اذا أدعو عتيــدُ
فلست بعادلٍ عنهــم سواهم	طَوال الدهرِ مااختلفَ الجديد(٣)

الى آخر مانسب اليه .

فأقرب شيء الى الواقع — والى المتوقع — أن يؤخذَ ببلاغة القرآن رجلٌ نشأ هذه النشأة وأحب الكلام البليغ هذا الحب ، وأن يخشــع لآياته ويعجب لتفصيله ، فيفتح من قلبه مسالك الاصغاء .

وكان عمر مستقيم الطبع مفطورا على الانصاف ، فلم يكن رجل مثله ليستريحَ الى فساد الجاهلية أو يخفى عليه فسادها اذا نُبِّه اليه وهُدِىَ الى ماهو خير منه .

وكانت النزعة الدينية وراثة فى أسرته على مايظهر من مبادرة اختــه فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد الى الاسلام ، وكان له قبل الاسلام رجلٌ

(١) لاينهنهها الوعيد : اى لايهابون التهديد (٢) سنة كئود : شديدة مظلمة
(٣) الجديدان : الليل والنهار ، يعنى انه لايعدل بهم قوما اخرين مهما تعاقب الزمان .

من عمومته يقدح فى الوثنية ويبحث عن الحق فى النصرانية واليهودية ، ويبتلى أهله بالخلاف ويبتلونه بالايذاء والحبس والارهاق ، ونعنى به زيد بن عمرو بن نفيل .

وعمر نفسه .. ألم يقل لنا إنه يئس ليلةً من السمر ومن الخمر فذهب يطوف بالبيت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تنوب عنه مناب المحبوب من الشهوات ؟ ألم يكن فى الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلة من كل أسبوع ؟ بل لعل صلابة الخطّاب أبيه لم تكن فى صميمها شيئا مناقضا لعنصر الدين والايمان . فان هؤلاء الصلّاب الشدّاد فى المحافظةِ على العُرف هم أولئك المؤمنون المتزمتون (١) الذين لا يطيقون المساس بعقائدهم اذا آمنوا بدين .

وزاد عمر على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فِراسَة وزَكانة (٢) وكان يستطلع الرؤى والمنامات ويتصل بالغيب ويبصر على البعد كما سلف فى حديث ساريةَ حين ناداه : ياساريةُ الجبل ! يا ساريةُ الجبل . وبينهما مسيرة أيام ..

وكانت العوارض تمرُّ به فتعطفه الى الاسلام تارة من طريق الرحمة وتارة من طريق العدل والنخوة ، فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياءه . اذ ليس أبغضُ الى الرجل الأبيِّ المنصف من أن يحارب أناسا لايحاربونه ، ويلجُّ فى ايذاء قوم لا يقدرون على أذاه .

فاذا تفتحت هذه الأبواب جميعا بين عمر والاسلام فبابٌ واحد موصد لن يحجبه طويلا عن هذا الدين ، ولن يحجب هذا الدين طويلا عنه .

وقد تفتحت فى يوم من الأيام .

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب ، وأسلم الجاهلى الشريف كما كان ينبغى أن يسلم ، وكما كان يقينا سيسلم فى مناسبةٍ من المناسبات .

---

(١) المتزمت : الوقور المتشدد فى دينه .
(٢) الزكانة : الفطنة والفراسة

فاذا العالم الانسانى قد تفتحت فيه صفحة جديدة :

صفحة يقرأ فيها القارىء قبل كل شىء ماذا يصنع الاسلام بالنفوس ، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التى تسيطر على هذا الوجود : كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى وتلابس القوى فتنمى قوته وتجرى به فى وجهته ، وكان يدا خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة فى التيه فاذا هى صرح له أساس وأركان ، وفيه مأوى للضمائر والأذهان .

جاهلى كسبه الاسلام فكسبه العالم الانسانى كله الى آخر الزمان .. ونفس ضائعة ردت الى صاحبها فعرف منها ماكان ينكر ، واطلع منها على ماكان يجهل ، ونفع بها أمته وأمما لاتحصى ، وصنع بها الاسلام أعظم وأفخم ماتصنعه قدرة بناء وانشاء ، حيثما كانت قدرة بناء وانشاء .

ونظرت الأمم فرأت كيف تعلو النفس الانسانية حتى يحار فيها الانسان وهو ريشة فى مهب النوازع والأشجان (١)

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة ، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروى ظمأه الاليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لايصحو ولا ينام الا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يتنفس الهواء الا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس ، وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم ، وهو وحده أقوى فى المطالبة بهما من ألف غريم .

لقد كان هذا الرجل المجيد يبغض أن يظلم غيره أشد من بغضه أن يظلمه غيره . وهذه منزلة فى الأنفة لا تطاولها المنازل ، لأنها منزلة الأبطال الذين يسمون على أنفسهم ، ولهم أنفس أسمى من عامة الأبطال .

واننا لنعلم كم حز فى قلبه الكريم أن يضرب بريئا على دين الحق كلما رجعنا الى أيامه الأولى بعد الاسلام ، وهى أيام لاتنسى فى تاريخ البطولة والأبطال .

(١) الاشجان « جمع شجن » والشجن : الهم والحزن والحاجة الشاغلة

فما شغله أمر بعد اعلان الدين الا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضربُ أناسا فى سبيل ذلك الدين

ثار الى الناس يضربونه ويضربهم ، فقدم خاله يسأل : ماهذه الجماعة ؟ قيل له ان ابن الخطاب قد صبأ .. فقام على الحِجر فنادى : ألا انى قد أجرت (١) ابن أختى : فانكشف الناس عنه . فكان لايزال يَرى مُسْلِماً يضرب ولا يضْربه أحد ، وثقل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين ، فذهب الى خاله وقد اجتمع الناس فى الحِجْر وناداه : اسمع !.. جِوارُكَ مردودٌ عليك (٢) . قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى : لا تفعل يا ابن أختى . فأصرَّ على ردِّ جِوارِه ، وطاب له بعد ذلك أنه اقتص من نفسه للابرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم ، فلا تمضى تلك الضربات بغير قصاص ، وان كفَّر عنها بالتوبة واعزاز الدين الذى آذاهم من أجله .

وأبى من اللحظة الأولى الا أن يواجه الخطر الأكبر فى سبيل دينه ، والا أن يقْبض على الثور من قرنيه كما يقول الغربيون فى أمثالهم ، وأن يتحدَّى قريشا بحقه مذ آمن بأنهم على باطل . فسأل أناسا : أى أهلِ مكةَ أنقلُ للحديث ؟ قيل له جميل بن مَعمر الجمحى .. فذهب اليــه فصرَّح له باسلامه !.. ولم يكذِّب الرجل الظنَّ به ، فما هو الا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه الى أندية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على باب المسجد : يامعشر قريش ! ألا ان عمر بن الخطاب قد صَبَأ .. وعمر يقول من خلفه : كذب ! ولكنى أسلمتُ وشهدت أن لااله الا الله وأن محمـــدا عبده ورسوله ، ثم تنشب المعركة بين هذا الرجل المفرد وبينهم فيثب على أدناهم منه وأجرئهم عليه ــ عتبةَ بن ربيعة ــ فيصرعه ويبرك عليه يضربه ويدخل أصبعيه فى عينيه لأنهما عمياوان عن الحــق لاتبصران النــور ! ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهم أحد « الا أخذَ شريفَ مَنْ دنا منه » حتى أحجموا عنه وركدت الشمس وفتر من طول الصراع ، فجلس وهم

---

(١) اجاره : اى ادخله فى حماه ورعايته وجواره
(٢) اى : اعفنى من حمايتك .

قائمون على رأسه يثلبونه (١) وهو يقول لهم : « افعلوا مابدا لكم . فوالله لو كنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم » . افعلوا مابدا لكم ! وهذا ما أراد .. فما يستريح وجدانه الحيّ أن يضرب مسلما لاسلامه ولم يضرب كافرا لكفره ، وما يشعر أنه وفّى لله دَيْنَه وقد ضَرب ولم يُضْرب وآذى أناسا ولم يؤذه أحد ، وما تهدأ حاسة العدل فيه — وقد كانت كأنها من حواس بدنه — الا أن يَحسّ القصاصَ فى نفسه كما أحس المضروبون بالأمس عدوانه فى أنفسهم .

وراح يسألُ النبى : يارسول الله ! ألسنا على الحق ان متنا أو حيينا ؟ فقال عليه السلام : بلى ! والذى نفسى بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم . قال : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لتَخرجَن !

« فما لبث النبى أن خرج فى صَفّيْن أحدُهما فيه عمر والآخر فيه حمزة ، ولهما كديد (٢) كأنه كديد الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط (٣) منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان .. وسماه النبى يومئذ الفاروق

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا الا عمر بن الخطاب ، فانه لما همّ بالهجرة تقلد سيفَه وتنكب قوسه وانتضى فى يده سهماً واختصر عَنَزَته (٤) ومضى قبل الكعبة والملأُ من قريش بفنائها ، فطاف فى البيت سبعاً متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحَلَق (٥) واحدةً واحدةً يقول لهم : شاهت (٦) الوجوه ! لا يرغم الله الا هذه المعاطس (٧) ! ومن أراد أن يثكِلَ أمّه أو يوتمَ ولده أو يرْمِلَ زوجته (٨) فليلْقنى وراءَ هذا الوادى ... »

---

(١) يثلبونه : يشتمونه ويعيرونه
(٢) كديد : التراب الناعم
(٣) السليط : البذىء اللسان
(٤) العنزة : عصا لها زج كالرمح الصغير ، واختصرها ، اعتمد عليها فى مشيه .
(٥) الحلق « جمع حلقه » والحلقة : القوم يجتمعون مستديرين
(٦) شاهت الوجوه : قبحت
(٧) المعاطس « جمع المعطس » والمعطس : الانف .
(٨) اى يجعل امه ثكلى ، او ولده يتيما او زوجته ارملة : يعنى « ان اقتله »

لقد كان فى تحدّيه هذا لقريش عدّتان : شجاعته وعدله ... فما كانت شجاعته فى هذا التحدى بأظهرَ من عدله ولا كان عدلُه فيه بأظهرَ من شجاعته . اذ الشجاعُ الحقُّ مطبوعٌ على الأنفة من الظلم لأنه شديد الاحساس بذُلّه ، ومن كان شديدَ الاحساس بذلِّ الظلم فهو شديد الاحساس بعزة العدل من طريق واحد . وقلما أغضب العادلَ الشجاع شيء كاستطالة الظالم وظنّه أن المظلوم لايستطيل عليه ، فذلك هو التحدّى الذى يثير الشجاعة ويثير النقمة على الظلم أو يثير حب العدل فى وقت واحد ، وانّ الموت لأهونُ من الصبر على هذا التحدّى المرذول وهذا الصلَف القبيح . وما الشجاعةُ ان لم تكن هى الجرأةَ على الموت كلما وجب الاجتراء عليه ؟ وأىُّ امرىءٍ أولى بالجرأة من الشجاع الذى يعلم أن الحقَّ بين يديه ؟ ألسنا على الحق ان حيينا وان متنا ؟ فعلى الحق اذن فلنمت ولا نعيشنَّ على الباطل ، فالباطل كريه والجبن كريه . وذانك ملتقى العدل والشجاعة فى قلب العادل الشجاع

***

ونَهَجَ عمرُ طريقَه فى الاسلام كما نهجَ طريقَه الى الاسلام : كلاهما طريقٌ « عمرى » هو أشبه به وهو أقدر عليه ، وكلاهما طريقُ صراحةٍ وقوةٍ لا يطيق اللف والتنطع ولا يحفِل بغير الجد الذى لا عبثَ فيه .. فلا وهنَ ولا رياء ، ولا حذلقة ولا ادّعاء . وما شئت بعد ذلك من اسلام صريح قويم فهو اسلامُ عمر بن الخطاب

قال فى بعض عظاته : « لاتنظروا الى صيام أحد ولا الى صلاته ، ولكن أنظروا من اذا حدَّثَ صدقَ ، واذا أئتمن أدّى ، واذا أشفى — أى هم بالمعصية — وَرِع » .

وقال فى هذا المعنى : « لا يعجبنكم من الرجل طنطنته ، ولكن ... من أدّى الأمانة الى من أئتمنه ، وسلِمَ الناسُ من يده ولسانه »

وقال فى عمل الدنيا والآخرة : « ليس خيركم من عمل للآخرة وترك

الدنيا ، أو عمل للدنيا وترك الآخرة ، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه . وانما الحَرَجُ فى الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة وزاد على حدِّ الكفاية ... » .

ولم يكن أبغض اليه ممن يتوانى ليقال انه متــوكّل على الله ، أو يتراءى بالضعف ليقالَ انه ناسك ، أو يُفرِط (١) فى العبادة ليقال انه زاهد فى الدنيا .

فكان يقول : « ان المتوكّلَ الذى يُلقى حَبَّه فى الأرض ويتوكل على الله » ... و « لايقعد أحدُكم عن طلب الرزق ويقول ارزقنى . وقد علمتم أن السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة ، وأن الله تعالى يرزق الناسَ بعضهم من بعض »

وكان يضرب من يتماوت ويستكين ليظهر التخشع فى الدين ، فنظر الى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدرّة وقال : « لاتُمِتْ علينا ديننا أماتك الله » ، وأشاروا له الى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له : كل يا دهر ! كل يا دهر ! .. ينهاه عن الصوم الذى يعوقه عن معاشه ولا يوجبه عليه الدين .

وكان كلما رأى شابا منكّسا رأســه صاح به : « ارفع رأسك فان الخشوع لايزيد على ما فى القلب ، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما فى قلبه فانما أظهر للناس نفاقاً الى نفاق »

وانما كان يعجبه « الشابُّ الناسكُ نظيفُ الثوب طيبَ الرائحة » ، ويرى المسلمين بخير ما علّموا أبناءهم الرمى والعوم والفروسية ، « فأنتم بخير » كما قال « ماتَزَوْتُم (٢) على ظهور الخيل »

دين الرجل القوى الشجاع الذى ينتصر بدينه فى ميدان الحياة ، وليس بدين الواهن المهزوم الذى تركته الدنيا فأوهم نفسه أنه هو تاركها ليُقبل على الآخرة

---

(١) افرط افراطا : اسرف وتجاوز الحد ، بعكس التفريط
(٢) النزو : الوثوب

وكانت شجاعته فى دينه أندرَ الشجاعات فى النفوس الآدمية .. لأنها الشجاعةُ التى يواجه بها تهمة الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع . فان كثيرا من الناس ليعدِلون عن الصواب الذى يُظهرهم بمظهر الخوف ليقال انهم شجعان ، وانهم فى عدولهم عنه لمن الجبناء المستعبَدين للثناء ، ولم يكن عمر يعدِل عن صواب فَهِمَه ولو قيل فى شجاعته ماقيل ، وتلك أشجع الشجاعات .

فشا طاعون عَمواسَ وعمرُ فى طريقه الى الشام ، فلقيه أبو عبيدةَ وأصحابُه عند تَبُوك وأخبروه خبرَ الطاعون ، فاستشار المهاجرين والأنصار فاختلفوا بين ناصح بالمضىّ وناصح بالقفول : ناصح بالمضى فى طريقه يقول انه خرج لأمر ولا يرى له أن يرجع عنه ، وناصح بالقفول يقول انه اصطحب « بقيةَ الناس وأصحابَ رسول الله ولا يرى أن يُقدِمهم على وباء » ... ثم دعا مشيخةَ قريش من مهاجرة الفتح فلم يختلف عليه رجلان وأشاروا جميعا بالرجوع . فقال أبو عبيدة : أفرارا من قَدرِ الله ؟ قال عمر : نعم نفرُّ من قَدرِ الله الى قدر الله ، أرأيت لو كان لك ابلٌ هبَطتْ واديا له عُدْوتان (١) احداهما خصبة والأخرى جدبةٌ أليس ان رَعَيْتَ الخصبة رعيتَها بقَدر الله ، وان رعيْتَ الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ .. وما رام (٢) مكانه حتى جاءه عبد الرحمن ابن عوف فحسم الخلاف برأى النبى فى الخروج من أرض الطاعون والقدوم اليها ، حيث قال عليه السلام : « اذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدمُوا عليه ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها »

فكان ايمانه بصيرا لا يهجم به على عمياء ، ولا يستسلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالأسباب ، وكانت نصيحته العامّة للمسلمين فى أمر الطاعون كرأيه الخاص فى أمر نفسه وصحبه ، فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلا ، وكتب الى أبى عبيدة : « انك قد أنزلتَ

---

(١) العدوة : المكان المرتفع (٢) رام : برح وترك

الناس أرضا غَمِقَة – أى وخيمة – فارفعهم الى أرض مرتفعة نَزِهة(١) »
وهو أحوط مايحتاط به أمير عالم فى هذه الأيام .

***

كذلك لم يكن يؤمن بشيء ينفع أو يضر غير ماعُرفت أسباب نفعه وضرره ، فكان ينظر الى الحجر الأسود فيقول كلما استلمه (٢) : انى لأعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقبِّلك ما قبَّلتُك »

وسمع أن الناس يأتون الشجرةَ التى بايع رسول الله تحتها بيعة الرِضوان فيصلّون عندها ويتبركون بها ، فأوعدهم (٣) وأمر بها أن تقطع ، مخافة أن تسرىَ الى الاسلام من هذه المناسك وأشباهها لوثَةٌ (٤) من الوثنية والتوكل على الجماد .

***

وربما التبس الأمر من نوادر عمر فى التقشف واجتناب المتع والمناعم فحَسِبتْ فرائض يوجبها ويجرى فيها على طريقة أولئك النساك المتخشعين الذين كان ينهاهم أن يميتوا الدين ويهزأ بهم كلما تنطعوا فيه وأوجبوا مالايجب على المؤمنين .

فلا يلتبسنَّ الأمر هذا الملتَبس ، فهو واضح بيِّن التفرقة من سيرته ومن الأحاديث التى صحبت تلك النوادر ، ففسرتها ودلت على الغرض منها

فعمر كان مسلماً وكان خليفة للمسلمين . وفرقٌ بين محاسبة المسلِم نفسَه وهو مسئول عنها دون غيرها ، وبين محاسبة الخليفة نفسَه حتى يقعَ الشكُّ فى عمله وينزِّهَ يدَه وأيدى أهله عما ليس لهم بحق من سلطان الحكم أو بيت المال ، ثم يفى لذكرى صاحبه الذى خلفه على المسلمين ، فلا يعيش فى مكانه خيراً من عيشته ، ولا يمنح نفسه وذويه مالم يمنحه النبى لآله وذويه .

(١) نزهة : مرتفعة (٢) استلم الحجر الاسود اى لمسه اما بالتقبيل او باليد
(٣) اوعد : تستخدم فى الشر ، اما وعد فتكون فى الخير
(٤) اللوثة : الحماقة .

وعمر الذى كان يقنع بالخشن الغليظ من المأكل والملبس ، ويأبى أن يذوق فى المجاعه مطعما لا يسعُ جميعَ المسلمين انما هو الخليفة الذى يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية ، وقد وُجد منهم من لامه لأنه طرح كساءه وفيه فضلُ ملبس . فاتقاء هذا الحساب وما وراءه من حساب الله هو الذى توخاه خليفة النبى فى معيشته ومعيشة أهله ، مما يشبه تقشف النساك

وعلى هذا كلّه كان أعلمَ الناس أن الطيباتِ حلال" ، وأن النهى عن الحلال تنطّع" فى الدين يأباه الاسلام

كتب اليه أبو عبيدة أنه لايريد الاقامةَ بأنطاكيةَ لطيب هوائها ووفرة خيراتها مخافةَ أن يخلد الجند الى الراحة فلا ينتفعَ بهم بعدها فى قتال ، فانكر عليه ذلك وأجابه : (ان الله عز وجل لم يحرّم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات ، فقال تعالى فى كتابه العزيز : « يأيها الرسلُ كلُوا من الطيّباتِ واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم » ، وكان يجب عليك أن تريحَ المسلمين من تعبهم وتدعَهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون الأبدان النَصِبة (١) فى قتالِ من كَفَرَ بالله)

وحدّث حُذيفة بن اليمان أنه أقبل على الناس وبين أيديهم القِصَاعُ ، فدعاه عمر الى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت ! فقال حذيفة : أمنعتَنى أن آكلَ الخبزَ واللحم ودعوتنى على هذا ؟ قال : انما دعوتُك على طعامى ، فأما ذاك فطعامُ المسلمين .

فللمسلمين حِل" ماشاءوا من الطعام أما الرجل الذى ينفق من بيت المال فله مايكفيه . والحرج كلُّ الحرج عليه — وهو فى عدل عمر وحزمه وجَلَدِه — أن يأخذ منه ما لا حاجة به اليه ، وانه ليزداد حرجاً على مافيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله ويعلم كيف كان رسول الله يأكل فى بيته وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله ، ثم يصيب من هذا أو ذاك خيراً مما أصاب الرسول .

(١) النصبة : التى اصابها النصب ، وهو التعب

وللولاة عنده مثل ما للمسلمين عامّة من حق المتعة السائغة والنعمة التى ترضاها الرجولة ، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه ، بل ربما لامهم على التقتير كما كان يلومهم على الإسراف .

أنكر على عامله فى اليمن حُلَلا مشهَّرة ودهونا معطَّرة فعاد اليه العامَ الذى يليه أشعثَ مغبراً عليه أطلاس (١) ، فقال : لا . ولا كل هذا ... ان عاملنا ليس بالشَعِث ولا العافى (٢) . كلوا واشربوا وادَّهِنوا ، إنكم ستعلمون الذى أكره من أمركم .

***

ومن تمام العلم باسلام عمر أن نعلم فضل اسلامه مع من لم يكن من أهل الاسلام . فان الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدَهم لحقٌ محدود يدخل فى باب السياسة القومية أكثرَ من دخوله فى باب الفضيلة الانسانية . وانما يصبح حقا جديرا باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه .

وعمر كان ولا ريب أشدَّ المسلمين فى اسلامه .

فلو كان الاسلام ظالما بطبيعته لمن لم يدخلوا فيه لكان عمر أشدَّ المسلمين ظلما لهم وقسوةً عليهم . لكنه كان فى الواقع أشدَّ المسلمين رعايةً لعهدهم مذ كان أشدَّ المسلمين غَيْرةً على دينه وعملا بأدبه .

فكان شأنه مع من حاربوه شأنَ المحارب الشريف ، ولن ينتظر محارِب من محارب الى آخر الزمان معاملةً أقومَ ولا أصدق من معاملة عمر لمحاربيه

وكان شأنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يَفى بعهدهم ويَخْلِص فى الوفاء به اخلاصَ من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه ، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه .

كتب للنصارى فى بيت المقدس أمانا على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لاتهدم ولا تسكن ، وحان وقت الصلاة وهو

(١) اطلاس : جمع طلس وهو الثوب الوسخ

(٢) العافى : طالب المعروف ، والشعث : الوسخ الجسد او المتلبد شعر راسه

جالس فى صحن كنيسة القيامة فخرج وصلى خارجَ الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده ، وقال للبطرك : لو صليتُ داخل الكنيسه لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا : هنا صلى عمر ! ثم كتب كتاباً بوصي به المسلمين ألا يصلي أحد منهم على الدرجة الا واحداً واحداً غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذّنين عليها .

أما عهده لهم فقد كان مثالا من السماحة والمروءة لايطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنةً ماكانت .

فكتب لهم العهد الذى قال فيه : « ... هذا ما أعطى عبدُ الله عمرُ أمير المؤمنين أهلَ ايلياءَ من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : انه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرَهون على دينهم ولا يضارُ أحدٌ منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود . وعلى أهل ايلياء أن يُعطوا الجزيةَ كما يُعطِى أهلُ المدائن ، وأن يخرجوا منها الروم واللصوت (١) ، فمن خرج منهم فانه آمِنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنَهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثلُ ما على أهل ايلياء من الجزية ... ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويُخلِّى بِبيَعهم وصُلبهم (٢) فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ... »

وليس لذى عهد من ظافر أن يطمع فى أمان أكرمَ من هذا الأمان .

وانه لقد كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لايقنع بها حتى يشفعَها بالوصاة للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمّة ، وأن يُوفَى لهم بعهدهم ويُنضَح (٣) عنهم ولا يكلّفوا فوق طاقتهم : كتب بذلك الى ابى عبيدة كما كتب الى غيره من الولاة وأوصى به فى وصيته قبل أن يموت .

(١) اللصوت : اللصوص ، مفردها لصت
(٢) البيع : جمع بيعة وهى معبد النصارى ، والصلب ، جمع صليب
(٣) ينضح عنهم : يدافع عنهم

وما شكا اليه مظلوم من أهل الذمة واليا كبر أو صغر الا أنصفه منه . بعث زيادَ بن حُدير الأسدى على عشور (١) العراق والشام . فمرَّ عليه تغلبى نصرانى معه فرس قوَّموها بعشرين ألفا ، فخيره أن ينزل عن الفرس ويأخُذ تسعة عشر ألفا أو يمسكَها ويعطى الألف ضريبة ، فأعطاه التغلبى ألفا وأمسك فرسه . ثم مرَّ عليه راجعا فى سنته فطالبه بضريبة أخرى ، فأبى وشكاه الى عمر وقصَّ عليه قصته ، فمازاد على أن قال له : كُفيت ! ثم رجع التغلبى الى زياد وقد وطَّن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى ، فوجد عمر قد كتب اليه : من مرَّ عليك فأخذْت منه صدقةً فلا تأخذْ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم من قابِل (٢)

وسمع أن بنى تغلب لايزالون ينازعون واليَهم الوليدَ بن عقبة وينازعهم ، وأنهم أوغروا صدره فقال فيهم يتوعدهم :

اذا ما عصَبْتُ الرأسَ منى بمِشوَذٍ (٣)
فغيُّك منى تَغلِبُ ابنةَ وائلِ

فخشىَ أن يضيقَ بهم صبرُه فيسطوَ عليهم ، فعزله ، وأمَّر غيره .

ولعل حاكما من الحكام لايرام منه أن يبلغ فى البر بمخالفيه فى الدين مبلغا أكرمَ وأرفق من اجراء الصدقة على فقرائهم ، ولا سيما الحاكم الذى يدعو الى دين جديد .

وقد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر وقال : ما أنصفناه أن أكلنا شبيبتَه ثم نخذُله عند الهَرم .

وقد جعل ذلك سنَّةً فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين . فمرَّ فى أرض دمشق بقوم مَجذَّمِين (٤) من النصارى ، فأمر أن يُعطَوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت .

واذا أحصيتَ له فى سيرته الطويلة أوامرَ وخطَطا تَحترِم الذميين

(١) العشور : ضرب من الزكاة
(٢) من قابل : اى بعد عام
(٣) المشوذ : العمامة
(٤) مجذمين : مصابين بالجذام وهو مرض قد ينتهى بصاحبه الى تآكل الاعضاء وسقوطها .

بعض الحريات أو بعض الحقوق فكن على يقين أنه قد صدر فى ذلك جميعه عن حكمة توجبها سياسة الدولة ، ويقرها العقل والعرف كما يقرها الدين والكتاب ، ولم يصدر فيه قط عن حيف مقصود أو عن رغبة فى حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقا هم أحرار فيه .

ولعل الذى يُحصَى له من هذه الأوامر والخطط لايعدو النهي عن استخدام بعض الذميين ، ومنعهم أن يتشبهوا فى الأزياء والمظاهر بالمسلمين ، واجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية فى ابان الفتوح ، والحذر من الكيد والتجسس والانتقاض .

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين فارجع الى ماقاله فى ذلك تعلم أنه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحاباة . فقال : « انى نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فانهم يستحلون الرشا » (١)

وطلب يوما من أبى موسى رجلا ينظر فى حساب الحكومة فأتاه بنصرانى ، فقال : انى سألتك رجلا أشركه فى أمانتى فأتيت بمن يخالف دينه دينى . وقلما نهى عن استعمال اليهود والنصارى الا ذكر بعدها : انهم أهل رشا ، ولا تحل فى دين الله الرشا .

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق ، فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين فأبى ، فأعتقه وأطلقه وقال له : اذهب حيث شئت ! ..

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب فى مهام الدولة الا ايثارا للعدل وكراهة للرشوة والزيغ فى الحكومة ، وما نظن أحدا ينكر أن استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر وأن تجتنب فيه مثل هذه الآفة ، اذ يكثر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول وهم غرباء عنها كارهون لمجدها وسلطانها أن ينظروا الى منفعتهم قبل أن ينظروا الى منفعتها . وأن يساوموا على نفوذهم قبل أن يستحضروا الغيرة على سمعتها ، والرغبة فى خيرها وخير أهلها ، ولا سيما فى زمن كانت الدول

---

(١) الرشا : جمع رشوة

تميز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان .

وما من أمّة فى عهدنا هذا تبيح الوظائف العامة الا بقيود وفروق متفق عليها : أولها تحريمها على الأجانب ما لم تكن فى استخدامهم منفعة" عامّة .

وهذه هى سياسة عمر فى مسألة الوظائف القومية ، بغير اعنات للدولة ولا اعنات للرعية ، وكفى باتقاء الإعنات أن العبـدَ المملوك يُخير فى الوظيفة والاسلام فيأبى ، فلا يصيبه من ذلك ضيم ، ويطلَق له زمامُه يفعل مايشاء .

أما نهيه عن تشبُّه الذميين بالمسلمين وكراهتُه أن يبدِّلوا أزياءهم التى ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لِمَ كان أناس" من الذميين يودُّون التشبه بالمسلمين فى الزى والشارة ؟ أكانوا يتشبهون بهم حبا لدينهم فهم اذن مسلمون لايمنعهم مانع أن يجهروا بالاسلام .. أم يتشبهون بهم كيدا لهم ورغبةً فى التسلل بينهم والافلات من عهودهم والتزاماتهم وما توجبُه الدولة عليهم فى تلك العهود والالتزامات ! ..

ان كانوا يفعلونه لهذا فلا لومَ على عمر أن يأباه ، وبخاصة فى الزمن الذى كان المسلمونْ فيه جميعا فى حكم الجنود ، وما من دولة ترضى أن تبيح أزياء جنودها لمن يشاء .

وأما اخراج بعض الذميين من الجزيرة فما خرج منهم أحد" الا وقد غدر بذمّة وكرّر الغدر مرة بعد مرة ، كما صنع أهلُ خَيْبر .

ومنهم من أُجلِى عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء فضلا عن نقضـِه العهد كما فعل أهلُ نجران .

فقد صالحهم النبى على أن يَبقوا فى مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ، وجاء أبو بكر فجدّد الصلح على ذلك ، ثم استخلف عمر فرجعوا الى الربا وأفرطوا فيه ، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم وأتوا عمر يسألونه اجلاءهم . فاستحب هذا الجلاء .

على أنه لم يكن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة ويؤدوا

العشور . فلما كتب اليه المشركون من أهل منبج أن « دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشّرنا (١) » شاور أصحاب النبى فأشاروا عليه بقبولهم ، فدعاهم اليه .

ولا يفوتنا فى هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الإجلاء التى لجأ اليها عمر وأيقن بصوابها وضرورتها . فأول الأمرين أن الجزيرة حَرَمُ الاسلام الذى كان يحيط به أعداؤه ويتربصون به الدوائر ويثيرون الفتنة على أطرافه كما صنع الفرسُ بالعراق والرومُ بالشام ولا أمانَ على حرمٍ يسكنه أناس فيهم منْ يغدر بأهله ، بل فيهم من هؤلاء كثيرون .

وثانى الأمرين أن عمر قد سوّى بين الاسلام والنصرانية فى هذه الخطة ، فحفظ حَرَمَ النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين لايسكنه معهم من لايقبلونه ، كما حفظ حرم الاسلام بالجزيرة العربية للمسلمين لايسكنه معهم من يحذرون غدره .

وقد أجمل العِوضَ حين ألجأته ضرورة الدولة الى اتخاذ هذه الخطة ، فاشترى بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأقطعهم النجرانية عند الكوفة ، وكتب لهم وصاةً قال فيها : « .. هذا ماكتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران . من سار منهم آمِنٌ بأمان الله لايضره أحد من المسلمين .. ومن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الأرض ، فما اعتملوا (٢) من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله .. ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فانهم أقوامٌ لهم الذمة وجِزْيتهم عنهم متروكةٌ أربعةً وعشرين شهرا بعد أن يَقْدَموا ، ولا يكلّفوا ـ الا من صنعهم ـ البرَّ غيرَ مظلومين ولا معتدىً عليهم » .

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذى يختار بعده بالذميين كافة « أن يوفى بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم (٣) » ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات فى كل

(١) تعشرنا : اى تدعنا نؤدى العشور .
(٢) اعتمل : اعتمل فلان ، عمل لنفسه وتصرف فى العمل .
(٣) يقاتل من ورائهم : يحميهم

مااتخذت من حيطة حربية أو حماية قومية أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية ، وان عذرها لدون عذر عمر فى خططه ، وان أسبابها لدون أسبابه فى الاقناع

***

كان مسلما شديدا فى اسلامه ، فلم تكن شدته فى اسلامه خطرا على الناس ، بل كانت ضمانا لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمى ولا مشرك فى غير حدود الكتاب والسنة .

وكان جاهليا فأسلم ، فأصبح اسلامه طورا من أطوار التاريخ ، ولو لم يكن الاسلام قدرة بانية منشئة فى التاريخ الانسانى لما كان اسلام رجل طورا من أطواره الكبار .

***

وكان هذا الرجل يحب ويكره كما يحب الناس ويكرهون ، ولكن لا ينفعك عنده أن يحبك ولا يضيرك عنده أن يكرهك اذا وجب الحق ووضح القضاء . قال يوما لأبى مريم السلولى قاتل أخيه : والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح : فقال له أبو مريم : أتمنعنى لذلك حقا ؟ قال : لا .. قال : لا ضير ! انما يأسى على الحب النساء .

وحسبك من اسلام يحمى الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه ، فذلك المسلم الشديد فى دينه ، والذى يشتد فيأمنه العدو والصديق .

عُمَر وَالدَّوْلَة الإسْلامِيَّة

تأسست الدولة الإسلامية فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه لأنه وطّد العقيدة وسيَّر البعوث ، فشرع السنَّةَ الصالحة فى توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه فى حرب الردة ، وشرع السنة الصالحة فى تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح . فكان له السبْقُ على خلفاء الإسلام فى هذين العملين الجليلين .

إلا أننا نسمى عمَر مؤسسا للدولة الإسلامية بمعنى آخرَ غير معنى السبق فى أعمال الخلافة . لأننا « أولا » لا نجد مكانا فى التاريخ أليقَ به من مكان المؤسسين للدول العظام .

ولأننا من جهة أخرى لانربط بين التأسيس وولاية الخلافة فى اقامة دولة كالدولة الاسلامية ، اذ الشأنُ الأول فيها للعقيدة التى تقوم عليها وليس للتوسع فى الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسا لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافةَ بسنين ، بل كان مؤسسا لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه ، وأعزَّها بهيبته وعنفوانه .

وكان مؤسسا لها يوم بسط يده الى أبى بكر فبايعه بالخلافة وحسَم الفتنة التى أوشكت أن تعصِفَ بأركانها ، وكان مؤسسا لها يوم أشار على أبى بكر بجمع القرآن الكريم وهو فى الدولة الاسلامية دستورُ الدساتير ودعامةُ الدعائم ، ولم يزل يراجعُ أبابكر فى ذلك حتى استدعى زيدَ بن ثابتٍ كاتبالوحىِ فأمره أن يتتبعَ آى القرآن لجمعَها منالرقاع والأكتاف والعسُب (١) وصدور الرجال ، فكان ذلك أولَ الشروع فى جمع الكتاب .

---

(١) الاكتاف : جمع كتف ، والعسب جمع عسيب وهو جريد النخل ، كانوا ينزعون خوصه ويكتبون فى طرفه العريض ، وكان العرب يكتبون كذلك على صفائح الحجارة وعلى الاضلاع والاكتاف الخ ..

هذا إلى أن أبا بكر رضى الله عنه أسَّس ولم يتسع له الأجَل حتى يفرغَ من عمله ، وجاء عمر بعده فأتم عمله واقام الأساس ثم أقام عليه البناء ، وكانت قدرته على التأسيس هى آية الآيات فيه وفى ذلك العصر من البداوة البادية ، لأنه التفت إلى مواضعه الخليقة بالاهتمام والتقديم كأنه راجع تاريخ عشرين دولةً مستفيضةَ الملك راسخةَ العمران . وهى قدرة تروّعنا وتدهشنا لو شهدناها من ملك تربى على الملك ، وسَلَفَه(١) على عرشه سِمْطٌ (٢) من الملوك . وأولى أن تروعَنا وتدهشنا من رجل البادية الذى يتقدم على أمر جديد لم تُعِنه فيه السوابق ولم يهتد فيه إلا بما اختار هو أن يهتدى اليه .

فبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد . وكلاهما عمل لا يفطِن اليه الا من طُبِع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها وكلاهما فطن اليه هذا المؤسس الكبير على أهون مايكون من البساطة والسهولة ، فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آى القرآن ، وكان أثره فى تدعيم الدولة الأدبية كأثره فى تدعيم دولة الغزوات والفتوح .

وندرَ فى الدولة الإسلامية نظامٌ لم تكن له أوّلية فيه ... فافتتح تاريخا ، واستهل حضارة ، وأنشأ حكومة ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والإدارة ، واتخذ لها بيت مال ، ووصل بين أجزائها بالبريد، وحمى ثغورها بالمرابطين ، وصنع كل شىء فى الوقت الذى ينبغى أن يُصنع فيه ، وعلى الوجه الذى يحسن به الابتداء ، فأوجزُ مايقال فيه أنه وضع دستورا لكل شىء وتركه قائما على أساس لمن شاء أن يبنى عليه .

ومِلاك (٣) النُظم الحكومية كلّها نظام الشورى الذى أقامه عمر على أحسن مايقام عليه فى زمانه ، فجمع عنده نُخبةَ الصحابة للمشاورة والاستفتاء ، وضنّ بهم على العِمَالة فى أطراف الدولة ، تنزيها لأقدارهم

---

(١) سلفه : تقدمه (٢) سمط : خيط تنظم فيه حبات العقد ، والمراد عقد

(٣) ملاك الامر : قوامه واساسه ، يقال : القلب ملاك الجسد

وانتفاعا برأيهم واعتزازا بتأييدهم له ومعاونتهم اياه فيما يتولاه من ثواب أو عقاب .

وجعل مَوْسم الحج موسما عاما للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء فى أقطار الدولة من أقصاها الى أقصاها ، يفد فيه الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولايتهم ، ويفد فيه أصحابُ المظالم والشكايات لبسط مايُشْكيهم (١) ، ويفد فيه الرقباء الذين كان يبثهم فى أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال ... فهى « جمعية عمومية » كأوفى ماتكون الجمعيات العمومية فى عصر من العصور .

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم ، ويستمع لهم ويُسمعهم ويتوخى فى جميع ذلك تمحيصَ الرأى وابراءَ الذمة والخلوص الى التبعةِ السليمة من العقابيل .

وإنّ أضعف الناسِ رأيا لمنْ يَستضعفُ فَضْلَ الأمير فى عمل تولاه لأنّه عملُه بمشاورة غيره .

فان بابَ المشاورة مفتوحٌ لكل انسان ، وليس كلُّ انسانٍ مع ذلك بالذى يريد أن يستشيرَ ، أو بالذى يعرف كيف يستشير اذا أراد ، أو بالذى يُحسنُ الموازنة بين الآراء إن عرف مَنْ يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم فى حالةٍ ويرفُضُها فى حالة أخرى .

إن المشاورة لفنٌّ عسير .

وان الذى ينتفع بمشورة غيره لأقدَرُ ممن يُشيرُ عليه .

وقد كان عمر عبقريَّ هذا الفن الذى لا يُجَارى . وكان من بدعه الملهمةِ فى هذا الفن العسير أنه لم يلتمسْ الرأيَ عند أهل الحُنْكة والخبرة وكفى ، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحِدَّة والنشاط ممن يناقضون أولئك فى الشعور والتفكير .. فكان كما روَى يوسف بن الماجشون : « اذا أعياه الأمر المُعضل دعا الأحداثَ فاستشارهم لحِدَّة

(١) ما يشكيهم : ما يحملهم على الشكوى

عقولهم » ، وانه لإلهامٌ فى فن الاستشارة لا يَلْهَمُه الا صاحب رأى أصيل . فمن الرأى الأصيل أن يَخبُرَ (١) الإنسانُ كيف يستعير آراء المشيرين .

انظر إليه كيف يستشير فى اختيار أمير ، تعلم أن الاستشارة كما قلنا فن ، وأنه فن عسير .

قال لأصحابه : دُلّونى على رجل أستعمله .

فسألوه : ماشرْطُك فيه ؟

قال : « إذا كان فى القوم وليس أميرَهم ، كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرَهم كان كأنه رجلٌ منهم » .

ان الذى يسأل هكذا ، لهو أقدر من الذى يجيبه بالصواب ، لأنه قطع له ثلثى الطريق السديد الى الجواب .

وكان ربما استشار العدو الذى لا يأمنه ، كما فعل فى سماع رأىِ الهُرْمزان فى أمر الحرب الفارسية ، لأنه بصيرٌ يطلب نورا ، فاذا رأى النورَ استوى لديه أن يحمل له المصباحَ عدوٌ أو صديق .

ومن اليسير ، اذا تعقّبنا (٢) مشاورات عمر ، أن نعلم أنه هو واضع دستور الشورى فى الدولة الاسلامية ، وأن الشورى التى وضع دستورها هى شورى الرأى الأصيل يستعين بكل أصيلٍ من الآراء .

وقد وضع لقواده دستورَ الحرب ، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم (٣) أعدائها ، كأحسن مايضعه رئيس دولة لقواده وأجناده .

فأرسل المدد إلى العراق وعليه أبو عُبيد بنُ مسعودٍ الثقفى ، وعلّمه كيف يستشير مجلس الحرب الذى معه ، وكيف يتقدم فى موضع الإقدام ويتريّث فى موضع التريث ، وأجمل له ذلك فى قوله : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشرِكهم فى الأمر ، ولا تجتهد

(١) خبر الامر يخبره من باب نصر : علمه

(٢) تعقبنا : تتبعنا (٣) تخوم : حدود ، جمع تخم

مسرعا بل اتئد ، فإنها الحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث (١) ، الذى يعرف الفرصة ، ولا يمنعنى أن أؤمِّر سليطا (ابن قيس) الا سُرعتُه الى الحرب . والسرعة الى الحرب ــ الا عن بيان ــ ضياعٌ ... » ، وزاده تبصرةً بالحيطةِ فقال له : « انك تُقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية (٢) : تقدم على قوم تجرّأوا على الشر فعلموه ، وتناسَوْا الخير فجهلوه . فانظر كيف تكون ، وأحرِز (٣) لسانك ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر ــ مايضبطه ــ متحصنٌ لا يؤتَى من وجهٍ يكره ، واذا لم يضبِطْه كان بمضَيعةٍ » .

فهى المشاورة ، ثم أناةٌ فى الاجتهاد ، الا أن تجب السرعة ، ببيان وثقة ، فليكن الاسراع . وهذه وصية عمر بن الخطاب الذى يُظَنّ به الاندفاع . وينسى من يظن به هذا الظنَّ ، أنه قوىُّ اندفاع وقوىُّ ضابطٌ فى وقت واحد ، وعندما يقترن الاندفاع بضابط فهو مزية وليس بعيب .

وكتب إلى سعد بن أبى وقاص بعد اختياره لحرب فارس وفى كتابه له قبسٌ من هذا المعنى : « اذا انتهيت الى القادسية ، وهو منزلٌ رغيبٌ خصيب دونه (٤) قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك (٥) على أنقابها (٦) ويكون الناسُ بين الحَجَر والمَدَر (٧) ، على حافات الحجر ، وحافات المدر ، والجراع (٨) بينها ، ثم الزم مكانك ، فلا تَبْرحه ، فانك اذا أحسوك أنْغصتهم ، ورَمَوْك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجْلهم ، وحَدّهم وجَدّهم (٩) ــ فان أنتم صبرتم لعدوكم ، واحتبستم لقتاله ،

---

(١) المكيث : الذى لا يتعجل فى الامر
(٢) الجبرية : بفتح الجيم وسكون الباء مع تشديد الياء : الكبر مثل الجبروت
(٣) أحرز : الحرز المكان الحصين ، فالمراد حصن لسانك واضبطه ولا تثرثر
(٤) دونه : بينك وبينه
(٥) مسالحك : جمع مسلحة على وزن مصلحة ، جند المراقبة على الحدود
(٦) انقابها : جمع نقب ، وهو هنا الطريق فى الجبل
(٧) المدر : جمع مدرة وهى القرية والحضر ، وعكسها الوبر اى البادية ، والمراد ، بالحجر من ارض العرب الجبلية الوعرة
(٨) الجراع : جمع أجرع وهو الارض ذات الحزونة تشاكل الرمل ولا تنبت
(٩) حدهم وجدهم : يقال « فلان له جد وحد » اى له بأس وقوة .

وقويتم الأمانة ــ رجوتُ أن تَنتصَروا عليهم ثم لايجتمع لكم مثلهم أبدا ، الا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وان تكن الأخرى (١) ، كان الحَجَرُ فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مَدَرةٍ من أرضهم الى أدنى حَجَرٍ من أرضكم ، ثم كنتم عليهم أجرأ وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتى الله بالفتح »

ثم كتب اليه يستوصفه المنازلَ التى نزل بها ويسأله : « أين بلغَك جمعُهم ؟ ومن رأسُهم الذى يلى مصادمتَكم ؟ فانه قد منعنى من بعض ما أردتُ الكتابَ به قلة علمى بما هجمتم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازلَ المسلمين والبلدَ الذى بينكم وبين المدائن صفةً أنظر اليها ، واجعلنى من أمركم على الجَليَّة » .

وكتب الى أبى عبيد وقد ترك حصارَ حلب يستضعفُ رأيه فى ترك حصارها : « ... سرنى ما علمتُ من الفتح ، وعلمت من قُتِل من الشهداء وأما ماذكرتَ من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحى التى قربت من أنطاكية فهذا بئس الرأىُ ... أتترك رجلا ملكتَ دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمعُ أهلُ النواحى والبلاد بأنك ماقدرْتَ عليه ؟ .. فما هذا برأى .. يعلو ذكرُه بما صنع ، ويطمع من لم يطمع ، فترجع اليك الجيوشُ وتكاتب ملوكَها . فاياك أن تبرح حتى يحكمَ الله وهو خيرُ الحاكمين .. وقد أنفذت اليك كتابى هذا ومعه أهل مشارف (٢) اليمن ممن وهب نفسَه لله ورسوله ، ورغب فى الجهاد فى سبيل الله ، وهم عربٌ ومَوَالٍ (٣) رجالٌ وفرسان ، والمددُ يأتيك متواليا ان شاء الله تعالى » .

فكان دستوره فى الحرب أن يضعَ الأسسَ العامة ويعهد فى تنفيذها الى ذى خبرة وأمانة ، ولا يتخلى عن تبعته العظمى فى مصائر الحرب كلَّ التخلى اعتمادا على القائد وحدَه ، اذ ليس القائدُ بالمسئول الوحيد عن المصير .

---

(١) الاخرى : قصد الكسرة أو الانهزام .
(٢) مشارف الارض : اعاليها (٢) الموالى : يطلق على العتقاء والنصراء والحلفاء

فإذا رأى القائد رأيا وخالفه هو فى رأيه أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأى الذى دعاه اليه ، وأبطل معاذيرَه بتوضيح الأمر وإعانته عليه

ولقد كان الى جانب هذا السهر على الميادين عامةً لا يَغُلُّ يد القائد فيما يحسنُ أن تنطلقَ فيه ، فاذا تجاوز الأمرُ سياسةَ الحرب العامة من فتح الميادين وفك الحصار وانتظار الهجوم فمن حق القائد عنده أن يختارَ لنفسه ولا ينتظرَ الرجوع إليه ، وأن يجرى فى ادارة المعركة على الوجه الذى تمليه ضرورة الساعة ، ولهذا استشاره أبو عبيدةَ فى دخول الدروب خلفَ العدو فكتب اليه : « أنت الشاهدُ وأنا الغائب ، والشاهد يرى مالا يرى الغائب ، وأنت بحضرة عدوك وعيونُك يأتونك بالأخبار ، فإن رأيت الدخولَ الى الدروب صوابا فابعث اليهم السرايا ، وادخل معهم بلادَهم ، وضيِّقْ عليهم مسالكهم ، وان طلبوا اليك الصلح فصالحهم .. »

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدايتها .

وهو يختار القائدَ الضليع بتسيير تلك الحملة .

وهو بعد هذا لايُعفى نفسه من التبعة ، ولا يعفى القائد من واجب الرجوع اليه فى المواقف الحاسمة ، ولا يَغُلُّ يده فيما هو ادرى به وأقدرُ على الاختيار فيه ، ولا ينسى أن يعينه اذا خالفه فى الرأى ليتفق الرأيان المختلفان . فاذا رجع القائد الى الحصار الذىأزمع أن يتركه رجع اليه وهو مؤمنٌ بصواب ما يعمل ، ليستمد من الايمان بالصواب قوةً لن يشعرَ بها وهو يؤدى عملا يخالف الصوابَ فى تقديره .

وهذه السياسة هى السياسة التى جرى عليها عمر فى جميع بعوثه وغزواته وسراياه . وهى السياسة التى لايستطيع حاكم أن يجرى على غيرها فى حرب قديمة أو حديثة ، وقد جرى عليها فجعلته كاسبَ النصر كما يكسبه القائد فىالميدان ، وجعلت بطلَ الفرس رستم المشهورَ فى التواريخ والأساطير يقول ان عمر هو هازمُه فى الميدان ، و « انه هو عمر الذى يكلِّم الكلابَ فيعلمهم العقل ؟ أكل عمرُ كبدى أحرق الله كبدَه ؟ .. »

وربما أخطأ القائد الذى يختاره فمسته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المسئولُ عن اختياره . غير أنها لا تَمَسّه من جانب الا أُعْفِىَ منها من جانب آخر أو جوانب عِدة ، كما حدث فى وقعة الجسر التى قُتل فيهـا قائده أبو عبيد المتقدم ذكره ثم انهزم فيها جيش المسلمين . فهو مسئولٌ عن اختيار هذا القائد كما يُسأل كل رئيس دولة فى مثل ذلك ، ولكن أعذاره على التحقيق أكبر من أخطائه فى كل مسألة من هذا القبيل ، وفى هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبى عبيد انصافا له حجتُه الراجحة فيه ، لأنه كان أول من أجاب الدعوة الى القتال فلم ير من الانصاف أن يؤخَّر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين ، وقد سوَّغ الرجلُ اختيارَه اياه بانتصاراته الأولى التى رفعت شأنه بين القواد ، فلما أخطأ جاءه الخطأ من مخالفة عمر فى وصاياه ، ومنها وجوبُ التريث والحذر من عبور الأنهار والجسور ، ولم يكن على عمر لومٌ فى تقصير عن التنبيه والتحذير .

***

وقبل أن يضع دستورا للولاة وضع دستورا لنفسه قِوامُه أن الحكم محنة (١) للحاكم ومحنة للمحكومين ، و « أنه لايصلح الا بشدة لاجبرية(٢) فيها ، ولينٌ لا وهنَ فيه (٣) » ... وأن الخليفة مسئول عن ولاته واحدا واحدا فى كل كبيرة وصغيرة ، ولايعفيه من اللوم أنه أحسن الاختيار .

قال يوما لمن حوله : أرأيتم اذا استعملتَ عليكم خير من أعلمُ ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ماعلىَّ ؟ قالوا : نعم . قال : لا ، حتى أنظرَ فى عمله أعَمِلَ بما أمرته أم لا ؟ » .

وعهوده على نفسه هى خير العهود التى تؤخذ على ولاة الأمر وأبينُها للحدود القائمة بين الراعى والرعية ، وخير ما فيها أنه كان يَحُثُّ الناس على الاستغناءِ عن التحاكم الى الحكام خلافا لأصحاب الأمر الذين يودون لو فرضوا لأنفسهم حكما فى كل شىء . فكان يقول لهم : « أعطوا الحقَّ

(١) محنة : اختبار ، ومحنه من باب قطع وامتحنه اختبره ، والاسم المحنة ، ولذا سميت المصائب بالمحن لانها اختبار للانسان

(٢) جبرية : جبروت وطغيان (٣) وهن : ضعف

من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضا على أن تحاكموا الىّ .. »

وجمع صلاح الأمر (١) فى ثلاث : « أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله » ، وصلاح المال فى ثلاث : « أن يؤخذ من حق ، ويعطى فى حق ، ويمنع من باطل » .

وعاهد الناس فقال : « لكم علىّ ألا أجتنى شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهه ، ولكم على اذا وقع فى يدى ألا يخرج منى الا فى حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم (٢) ، ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم — أى أحبسكم — فى ثغوركم ، واذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم . فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر المعروف والنهى عن المنكر واحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم » .

ومن أوائل عهوده فى بيان الحق الذى يرشح الحاكم لولاية الحكم : « أيها الناس : انى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما وليت ذلك منكم » .

فأحق الناس بالحكم أقدرهم على البر والحزم والنهوض بالأعباء ، وليس له فى غير ذلك حق يرشحه للحكومة .

ومن أوائل خطبه بعد توليه الخلافة : « ان الله ابتلاكم بى ، وابتلانى بكم ، وأبقانى فيكم بعد صاحبىّ ، فلا والله لايحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى ، ولا يتغيب عنى فآلو (٣) فيه عن أهل الصدق والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسنن اليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم » .

فهو يعاهدهم أن يلى الأمر بنفسه فى كل ماحضره ، وألا يعهد فيه الى

---

(١) اى امر الدولة (٢) الثغور : جمع ثغر وهو من البلاد الوضع الذى يخاف منه هجوم العدو ، ويقصد بسد الثغور : الدفاع

(١) فآلو : الا يألو : اى قصر يقصر من باب عدا . فآلو ، اى اقصر ، ومنه : لاآلوك نصحا اى لا اقصر فى نصحك ولا ادخر جهدا فيه

غيره الا اذا غاب عنه ، ثم لا يكون وكلاؤه فيه الا من أهل الصدق والأمانة ، ثم هو لا يدعهم وشأنَهم بعد ذلك بل يراقبهم ويتتبع أعمالَهم ، فيُحسن الى من أحسن وينكِّل بمن أساء .

وقد كان يقول ويعنى ما يقول ويعمل بما يقول .

وصارحَ القومَ فيما لا يُحْصَى من الخطب والاحاديث أن له عليهم حقُّ الطاعة فيما أمر الله فلا طاعة لمخلوقٍ فى معصية الخالق ، وأن لهم عليه حقُّ النصيحة ولو آذَوْه فيها . ومن ذلك الرواية المشهورة التى سأل الناس فيها أن يدلوه على عِوَجِه فقال له أحدهم : « والله لو علمنا فيك اعوجاجا لقوَّمناه بسيوفنا » ، فحمِدَ الله أنْ جعل فى المسلمين من يقوِّم اعوجاجَ عمرَ بسيفه .

ولم يكن يُبيح من مال المسلمين أجراً لعمله إلا مايقيم أَوَدَه (١) وأودَ أهلِه عند الحاجة اليه ، فان رزقه الله مايغنيه عن بيت المال كفَّ يدَه عنه : « ... أَلا وإنى أنزلتُ نفسى من مال الله ، بمنزلةِ ولىِّ اليتيم ، ان استغنيتُ استعففْت ، وان افتقرتُ أكلتُ بالمعروف ، تَقَرَّمَ (٢) البهيمة الأعرابية : القضْمَ لا الخضْمَ » ، أى كما تأكل ماشيةُ البادية قضماً بأطراف أسنانِها لا مضغاً وطحنا بأضراسها .

ولما سئل عما يَحِلُّ للخليفة من مال الله قال : « انه لا يَحِلُّ لعمرَ من مال الله الا حلّتين : حلةً للشتاء وحلة للصيف ، وما أحج به وأعتمرُ (٣) ، وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريشٍ ليس بأغناهم ولا بأفقرِهم . ثم أنا بعدُ رجلٌ من المسلمين » .

وقد كان أسخى من ذلك فى تقديره لأرزاق الولاة والعمال ، فقدَّر لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفةَ ستمائة درهم فى الشهر له ولمساعديه ، يُزاد عليها عطاؤه الذى يوزَّع عليه كما تُوزَّع الأعطيةُ على أمثالِه :

---

(١) اود : اود باب طرب اعوج ، فالاود العوج ، والمراد ما يكفى حاجاته الضرورية

(٢) قرم : اى اكل اكلا ضعيفا ، والمراد اكل اخف اكل من اخشن طعام

(٣) الحج معروف ، والعمرة : الحج الاصغر ، وهى ماخوذة من الاعتمار اى الزيارة .

ونصفَ شاةٍ ونصفَ جَرِيبٍ (١) من الدقيق .

وقدَّر لعبد الله بن مسعود مائةَ درهمٍ وربع شاة لتعليمه الناسَ فى الكوفة وقيامِه على بيت المال فيها ، ولعثمانَ بن حنيف مائة وخمسين درهما وربع شاةٍ فى اليوم ، مع عطائه السنوى وهو خمسة آلاف درهم ... وهكذا على حسب الولايات والنفقات .

وكان يَحظُر على الولاة مظاهرَ الخُيلاء والأبهة التى تُبعد مابينهم وبين الرعية ، ولكنه ينظر فى أعذارهم فيقبلها أو يُغضى عنها حيثما توقَّفَ صلاحُ الولاية على ذلك .

قدم الى الشام راكباً على حمار فتلقاه عامله معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم ، فلما رآه معاويةُ نزل وسلم عليه بالخلافة فمضى فى سبيله ولم يرد عليه سلامه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبْتَ الرجل يا أميرَ المؤمنين ، فلو كلَّمتَه ! فالتفت اذ ذاك الى معاويةَ وسأله : إناك لصاحبُ الموكب الذى أرى ؟

قال : نعم .

قال : مع شدَّة احتجابك ووقوفِ ذوى الحاجات ببابك ؟

قال : نعم .

قال : ولِم وَيْحَك !

قال : لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو ، فان لم نتخذ العدَّة والعدد استخف بنا وهجم علينا ، وأما الحجاب فاننا نخاف من البَذلة (٢) جرأةَ الرعيَّة ، وأنا بعدُ عاملك ، فان استنقصْتَنِى نَقصتُ ، وان استزدْتَنى زِدْتُ ، وان استوقفْتنى وقفْتُ !

فقال عمر : ماسألتك عن شىء الا خرجتَ منه . ان كنت صادقاً فانه رأىُ لبيب ، وان كنتَ كاذبا فانها خُدعة أريب (٣) ، لا آمرك ولا أنهاك »

(١) الجريب : مكيال كان يستخدم ، يمكن ان يقدر بما يعادل ٣٦٠ رطلا

(٢) البذلة : الابتذال وترك الكلفة (٣) أريب : ذكى

أما دستور الولاة عنده فأساسه أن الولاية تمييز بالواجب والكفاءة وليست تمييزاً بالوجاهة والاستعلاء ، فكان يقول للوالى : « افتحْ لهم بابك ، وباشر أمورَهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غيرَ أن الله جعلك أثقلَهم حِملا » .

وشغَله كلُّ الشغل ، أن تخضع الرعية لواليها ، رغبةً فى حكمه ، واطمئناناً الى عدله ، فكان يقول للوالى : « اعتبر منزلتَك عند الله بمنزلتك من الناس » ، ويقول للرعية : « انى لم أبعثْ اليكم الولاةَ ليضربوا أبشاركم (١) ، ويأخذوا أموالكم ، ولكن ليعلموكم ويخدموكم »

وتستوى عنده رغبة الرعيةِ من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم . فلما رأى أقواما ذمّيين ينقضون العهد ويثورون على الدولة طلب من صُلحاء البصرة وفداً فيهم الأحنف بن قيس وهو مصدَّق عنده ، فسأله : « انك عندى مصدَّق ، وقد رأيتك رجلا فأخبرنى : « ألِمَظْلِمةٍ (٢) نَفَر أهلُ الذمّة أم لغير ذلك ؟ » .

فقال الأحنف : لا . بل لغير مظلِمة ، والناسُ على ماتحب » .

فهدأ باله وقال : « فنعم (٣) اذاً ... انصرفوا الى رحالِكم » .

وربما ذهب فى إرضاء الرعية مذهبا لم يحلم به الغلاة من المطالبين بحقوق الشعوب فى هذه العصور .

فكان من قوّاده وولاته سعد بن أبى وقاص قائدُه المظفر فى حروب فارس ، وقريبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرجل الذى جعله عمر واحداً من ستةٍ يُستشارون بعده فى أمر الخلافة ، فثارت به طائفة من أتباعه وشكتْه الى عمر وجيوشُ الفرس تتجمع للغزو والثأر . فلم يشغله ذلك عن تحرى الأمر من مصادره ، وإيفاد مَنْ يبحثُ عن حقيقة الشكوى بين أهلها . فبعث بوكيله على العمال محمدِ بن مسلمةَ يسأل عن سعدٍ وسيرته فى الرعية . وكلما سأل عنه جماعةً أثنَوْا عليه ، الا

---

(١) ابشاركم : جلودكم .
(٢) المظلمة : بفتح الميم وكسر اللام : اسم لما تطلبه عند الظالم كالظلامة .
(٣) اى : الا ضير اذن .

من شكَوْه فقد أحجم فريقٌ منهم لم يمدحوه ولم يذموه ، وقال فريق منهم : « انه لا يَقسِمُ بالسوية ، ولا يعدل فى القضية ، ولا يغزو فى السريَّة » .

فعاد محمد بن مسلمة الى المدينة وسعدٌ معه ، وأعاد عمر سؤاله فلم تثبت له من أمره ريبة ، الا أنه اتقى الفتنةَ والخطوبُ منذرة ، فعزله وقال لشاكيه : « إن الدليلَ على ما عندكم من الشر نهوضُكم لهذا الأمر ، وقد استعدَّ لكم مَنْ استعدَّ ، وايْمُ اللهِ لايمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وان نزل بكم » ، وقال لسعد يومئذ مبرئا له من تهمة خصومه : « هكذا الظنُّ بك يا أبا اسحق ! ولولا الاحتياطُ لكان سبيلهم بيّناً » . ثم أبى أن يفارق الدنيا وفى ذمَّته شهادة لسعد يعلنها لملأ المسلمين ، فلما حضرته الوفاةُ وسألوه أن يستخلفَ أبَى أن يُخْلف أحدا من أهله ، وسمَّى عليا وعثمانَ وطلحه والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعداً « لأنهم نفرٌ توفى رسول الله وهو عنهم راض . فأيُّهم استُخلِف فهو الخليفة » ... ثم قال : فان أصابت سعدا فذاكَ ، والا فأيهم استُخلف فليستعِنْ به ، فانى لم أعزِله عن عجزٍ ولا خيانة .

وهذا مثل من أمثلة الوفاء بجميع الحقوق ، والرعاية لجميع الذمم من حاكمين ومحكومين .

ولا يبعدُ أن يقعَ الغبنُ على بعض الولاة الكُفَاةِ من فرط العناية بشكايات الرعية ، الا أن عمر فى حزمه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمرين . فغبنُ والٍ أو قائد أهونُ من غبن أمة أو جيش ... ومن أقواله فى ذلك « هان شيءٌ أُصلِحُ به قوما أن أبدّلهم أميرا مكان أمير » .

بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص ، وانما هو سبب من الأسباب التى ترجع الى سلامة الدولة أو مانسميه فى العصور الحديثة بالسياسة العليا . وهذه أسباب

لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر فى أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة ، وأولها عصمة الدولة من فتنة الولاة المقتدرين المحبوبين .

فربما كان الوالى المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة فى تأسيسها من الوالى العاجز البغيض ، اذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب عسير .

فقد تُزين له نفسه ، أو تزين له رعيته ، أن يستقل بالأمر وينتحلَ لذلك ماشاء من المعاذير .. فان فاته الاستقلال ورئيسه قوىٌ مهيبٌ لم يفته بعد زوال ذلك الرئيس ولو جاء بعده من يضارعه فى القوة والمهابة ، لأن الفترة بين زوال عهد واستقرار عهد آخر تُؤْذن بمثل هذا التقلقل ، وتفتح الثغرات لمن يريد أن يَلِجَ (١) منها بعد طول تربص واستعداد .

ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الاسكندر المقدونى وتواريخ العُتاة من قياصرة الرومان ، ولا كان الغيب قد انكشف له فرأى ماتلاه من الأمثلة فى دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من مشرقيين ومغربيين ، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعا وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم لما ندم لحظة على عزل الذين عزلهم وهو يقول لهم : انما عزلتكم لكيلا أحملَ على الناس فضلَ عقولكم ، أو لكيلا تفتَتِنوا بالناس كما افتَتَنَ الناسُ بكم ، ولكان له سببٌ آخرُ وجيه بالغٌ فى الوجاهة يدعوه الى تغليب رغبات الرعية على مكانة الولاة ، وهو عِصمةُ الدولة من أولئك الولاة أن يطولَ بهم العهد وتتم لهم القدرة ويحوطَهم الحبُّ والولاءُ فلا يبقى بينهم وبين الانتقاض (٢) الا الفرصةُ السانحة ، وهى أقرب شىء سنوحاً فى ابان التأسيس والانتقال .

وما لم يكن عزل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التى من هذا القبيل فلا جزاء إلا بقسطاسٍ دقيق محيط ولا سيما فى الشئون المالية ، لأنه يعتمد فى محاسبتهم على وسائلَ متفرقة يستدرك بعضُها نقصَ بعض ، فلا تكاد تخفَى عليه خافيةٌ مما يريد الوقوفَ عليه .

---

(١) يلج : مضارع ولج اى دخل .
(٢) المراد : الخروج على الدولة والاستقلال بالولاية .

فمن هذه الوسائل أنه كان يحصى أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على مازادوه بعد الولاية مما لايدخل فى عداد الزيادة المعقولة ، ومن تعلّل منهم بالتجارة لم يقبل منه دعواه لأنه كان يقول لهم : انما بعثناكم ولاةً ولم نبعثكم تجارا .

ومنها أنه كان يرصد لهم الرقباء والعيونَ من حولهم ليبلغوه ماظهر وما خفى من أمرهم ، حتى كان الوالى من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس اليه أن يرفع نبأه الى الخليفة .

ومنها أنه كان يندب لهم وكيلا خاصا يجمع شكايات الشاكين منهم ويتولى التحقيق والمراجعة فيها ، ليستوفى البحث فيما ينقله الرقباء والعيون .

ومنها أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهارا اذا قفلوا (١) اليها من ولاياتهم ، ليظهر معهم ماحملوه فى عودتهم ، ويتصلَ نَبَؤُه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم علىَ ملاقى الطريق .

ومنها أنه كان يستقدمهم فى كل موسم من مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع مايقولون وما يقال فيهم ، وعليهم شهود ممن يشاء أنيحضر الموسم من أهل البلاد . ونوى فى أواخر أيامه أن يستكمل الرقابةَ بالسير فى البلاد « فيقيمَ شهرين شهرين فى الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها ، فانه ليعلم « أنّ للناس حوائجَ تُقطع عنه ، أما هم فلا يصلون اليه ، وأما عمالهم فلا يرفعونها اليه » .

وكان لايكتفى بوسائله تلك اذا استراب ، فيعمِد الى الحيلة للكشف عن الخبايا التى تريبه . ومن ذلك أنه سمع بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية والى الشام ، فوقع فى نفسه أن ولده قد زوّده فى عودته بمال . وجاءه أبو سفيانَ مسلّماً فقال له : أجِزْنا (٢) يا أبا سفيان ! قال : ما أصبنا شيئا فنجيزَك ! فمد يده الى خاتَمٍ فى يده فأخذه منه وبعثه

---

(١) قفلوا : رجعوا .

(٢) أجزنا : المقصود اعطنا .

الى هندٍ زوجِه ، وأمر الرسول أن يقولَ لها باسم زوجها : أنظرى الخُرْجين اللذين جئت بهما فابعثيهما . فما لبث أن عاد بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر فى بيت المال .

وكانت سُنَّتُه اذا ثبتت على الوالى شبهة التصرف فى بيت مال المسلمين أن يصادرَ المالَ الذى ظفر به أو يقاسم الوالىَ فيما أربى (١) على كسبه المعقول ، فيترك له النصف ويضم النصف إلى بيت المال ، وهذا عدا ما يَجزيه به من عزل أو عقاب .

أما حساب الشكايات من المظالم فكانت سنتُه فيه التحقيقَ ثم الجزاءَ على شِرْعة المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها . فمن ضربَ ضُرِب ، ومن غَصب رَدَّه ماغصب ! ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادةُ التأديب .

وقد يأخذ الوالى أحياناً بوِزْر (٢) ولده أو ذوى قرابته اذا وقع فى نفسه أنهم يستطيلون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاهم الوالى المسئول عنها .

جاءه مصرى فشكا اليه واليَها عمرو بن العاص ، وزعم أن الوالى أجرى الخيل فأقبلت فرسُ المصرى فحسبها محمد بن عمرو فرسَه وصاح : فرسى وربِّ الكعبة ! ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابنُ الأكرمين . وبلغ ذلك أباه فخشِىَ أن يشكوه المصرى فحبسه زمناً ، ومازال محبوسا حتى أفلت وقدم الى الخليفة لابلاغه شكواه .

قال أنس بن مالك راوى القصة : فوالله مازاد عمر على أن قال له اجلس ... ومضت فترة اذا به فى خلالها قد استقدم عَمرواً وابنَه من مصر فقدما ومَثَلا (٣) فى مجلس القصاص . فنادى عمر : أين المصرى ؟ دونك (٤) الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين .

---

(١) اربى : زاد (٢) الوزر : الذنب
(٣) مثلا : مثل بين يديه انتصب قائما ، وبابه دخل
(٤) دونك الدرة : اسم فعل بمعنى خذ .

« فضربه حتى أثخنه (١) ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ماضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! ثم قال : أجِلْها (٢) على صَلْعة عمرو ! فوالله ماضربك ابنه الا بفضل سلطانه ... قال عمرو فزِعا : يا أمير المؤمنين قد استوفَيْت واشتفيْت ، وقال المصرى معتذراً : يا أمير المؤمنين قد ضَرَبْتُ من ضربنى .. فقال عمر : أما والله لو ضَربته ماحُلْنا بينك وبينه حتى تكونَ أنت الذى تَدعه . والتفت الى عمرو مغضباً يقول له تلك القولة الخالدة التى ماقالها حاكم قبله : « أيا عمرو ! متى تعبدتم (٣) الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

***

ومن هذا العدلِ فى شئون الولاية نستطيع أن نفهم دستوره فى شئون القضاء ، فلن يكون هذا الدستورُ الا دستورَ العدل المحكم فى الجزاء والفصل بين الحقوق . الا أننا نعتقد أن وصاياه فى القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه ، فلا تعقيب بعدها لمعقّب فى زمانه أو فى زمانٍ يليه ، مهما تختلفُ الأقوام والأوقات .

أنشأ وظائف القضاء وتخير لها العدولَ (٤) الأكفاء . ولم تكن به من حاجة هنا الى سَنّ الشريعة التى يحكمون بها فانها ماثلة فى الكتاب والسنّة ، ولكنه كان فى حاجة الى تعليم القضاة كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر ، فأحسنَ التعليم .

***

كان يكتب لأحدهم : « اذا جاءك شىءٌ فى كتاب الله فاقضِ به ولا يلفتنّك عنه الرجال ، فان جاءك أمرٌ ليس فى كتاب الله فانظر سنّةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها ، فان جاءك أمرٌ ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنةٌ من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ،

(١) اثخنه : أضعفه وأوجعه وأوهنه (٢) اجلها : أدرها
(٣) تعبدتم : استعبدتم .
(٤) العدول : جمع عدل ، وهو العادل

فان جاءك ما ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت : ان شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وان شئت أن تأخر فتأخر (١) . ولا أرى التأخير الا خيراً لك » .

وضرب لهم أصلح الأمثلة باجتهاده واستفتائه ، فلم يقطع يد السارق فى عام المجاعة رعاية للزمن ، ولم يقطع يد الغلام الذى سرق من سيده رعاية لسنه أو للعلاقة بين السارق والمسروق منه ، واشتركت امرأة وصاحبها فى قتل رجل فتحرج من قتل الاثنين بواحد حتى أفتاه على رضى الله عنه بأنهما مستحقان للقتل كما يستحق اللصوص المتعددون أن يقام عليهم الحد اذا سرقوا لحما من بعير واحد ، فأخذ بفتواه .

***

ومن وصاياه للقاضى : « آسِ (٢) بين الناس فى مجلسك ووجهك ، حتى لايطمع شريف فى حيفك (٣) ولا ييأس ضعيف من عدلك ، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالا وأحل حراما ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى (٤) فى الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج (٥) فى صدرك مالم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، واعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ثم أعمد (٦) الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعى حقاً غائبا أو بينة أمداً ينتهى اليه ، فان أحضر بينته أخذت له بحقه ، والا وجهت عليه القضاء ، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر ... المسلمون عدول (٧) بعضهم على بعض

(١) تقدم : تتقدم و « تأخر » : اى تتاخر
(٢) اس : سو
(٣) حيفك : ظلمك
(٤) التمادي : الاستمرار والاصرار
(٥) يتلجلج : يتردد ويتحير
(٦) اعمد : اقصد
(٧) عدول : تقبل شهادتهم

الا مجلودا فى حدٍّ أو مجرَّبا عليه شهادةُ زور ، أو ظنينا (١) فى ولاء أو قرابة ، فان الله قد تولى منكم السرائر وَدرأ (٢) عنكم بالشبهات . ثم اياك والقلقَ والضجر والتأذىَ بالناس والتنكرَ للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ، ويحسِنُ بهـا الذخرَ ، فانه من يَخلصْ نيّتَه فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس » .

ومن وصاياه لمن يلُون الحكم : الزم خمسَ خصال يسلم لك دينك وتأخذْ فيه بأفضلِ حظك : اذا تقدم اليك الخَصـمان فعليك بالبينةِ العادلة أو اليمينِ القاطعة ، وأَدْنِ الضعيف حتى يشتدَّ قلبهُ وينبسط لسانُه ، وتعهَّدْ الغريب فانك ان لم تتعهَّده تركَ حقَّه ورجع الى أهله وانما ضيع حقَّه من لم يَرْفق به ، وآس بين الناس فى لحْظِك وطرْفِك ، وعليك بالصلحِ بين الناس مالم يستبن لك فصل القضاء » .

***

تلك نماذج متفرقة من وصاياه للقضاة وولاةِ الأحكام ، وهى فيما نراه أحكمُ وصاياه ، وأقربها أن يَتتَبعَها سواه .

ولذلك سببٌ لايَعسُر تعليله . فقد كان عُمرُ فى الجاهلية حَكَما من قبيلةٍ محكَّمين ، أو سفيرا يسعى بين الناس بالصلح من قبيلة سفراء ، فهو فى هذه الصناعة عريق .

إلا أن المرءَ قد يَجلِسُ للحكْم بين الناس كما جلس عمر ولا يحسن الوصيةَ كما أحسنها . وانما بلاغُ حُسنِ الوصية أن تجمعَ الخصلتين اللتين اجتمعتا فى وصاياه لقضاته . فما من أحد يستطيع أن يُوصِيَ قاضياً بخيرٍ مما أوصى ، وما من عُقْدةٍ قضائية تأتى من قِبَلِ القضاة أو من قِبلِ المتقاضين إلا وهى ملحوظة فى كلامه ، وهاتان همـا الخصلتان الباديتان فى دستور القضاء كما أملاه .

---

(١) ظنينا : متهما
(٢) درا : منع العقوبة

ولابد أن يَلفِت النظرَ فى سياسته للولاية وسياسته للقضاء أنه كان يأخذ بالواجب حيث وجب ، وإن اختلف الواجبان .

ففى الولاية كان يتحرى البواطن ويُمعِن فى تحريكها ولا يكتفى من الناس بالظواهر .

وفى القضاء وما شابه القضاء كان يكتفى بالظواهر حتى تنقضَها البينةُ (١) القاطعةُ ، وكان يعلن هذه الخُطَّة على المنبر فيقول : « أظهروا لنا أحسنَ أخلاقِكم واللهُ أعلم بالسرائر ، فإن مَنْ أظهر لنا قبيحاً وزعمَ أن سريرته حسنة" لم نُصَدقه ، ومن أظهر لنا علانيةً حسنةً ظننا به حسنا » ، أو يقول :

« إنما كنا نعرفكم إذ الوحيُ ينزل ، وإذ النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهُرنا ، فقد رُفع الوحى ، وذهب النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنما أعرِفكم بما أقول لكم . ألا فمن أظهرَ لنا خيراً ظننا به خيرا وأثنينا عليه ، ومن أظهر لنا شرًّا ظننا به شرًّا وأبغضناه » .

بل كان له فى الأخلاق الاجتماعية مذهب" ثالث يشبه مذهبَه فى القضاء ، فكان يكره أن يكشِف المرءَ من أخيه مايستره عنه ، وينهى أن تظن بكلمةٍ شراً وأنت تجد لها فى الخير محملاً .

وهذه فى الظاهر نقائض ، وفى الحقيقة واجبات متعددة كل منها فى موضع لازم .

فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل ولىمسئول لا تنصلح الأحوال بغيره ، وفى الغفلة عنه مضرة" مُحقَّقَة" لجميع الناس .

والأخذ بالبيِّنة دون الظاهر فى شئون القضاء واجب" لا محيصَ عنه لضمان السلامة ومنع الجَوْرِ ، وهو فى أحد طرفيْه لايخلو من الحَذَرِ الشديد من الطبيعة البشرية ، إذ فيه خشية" من غَواية الهوى أن تنطلق بالقضاة فى الحكم بغير برهان .

وفى الأخلاق الاجتماعية لا يؤمَنُ التقاطع بين الأصدقاء اذا جرت

(١) البينة : الدليل والبرهان

العلاقةُ بينهم على التجسُّسِ والخدعة ، ولا رعاية للمودة ما لم تَكن رعاية للحرمات ، ومنها الأسرار .

والتفرقةُ بين الواجبات المختلفةِ هى دليل البصيرة فى عرفان كل واجب منها ، وأنها تَصْدُرُ عن رأى أصيلٍ ولا تصدر عن تسخيرِ العرف واملاء التقليد والمحاكاة .

***

وأنشئت فى عهد عُمَرَ دواوين أخرى غير ديوان القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والمحاسبه التى لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده . فأنشأ البريدَ وبيتَ المال ومرابطَ الثغور ومصنع السكة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب . وَوكَل مُعظمَ الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة ، وليس من الميسور أن ينصرف اليها فتيانُ العرب عما هو أولى بهم وهو فَرَائض الدفاع والجهاد فلو وَجد منهم من يَفى (١) لتلك الأعمال عدداً لكانت خسارة الدولة فى قيامهم بها أعظمَ من ربحها ، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم اللازب للمصلحة الكبرى ، وقد يكون عمل الفارسى فى مصلحة فارس والسورى فى مصلحة سورية والمصرى فى مصلحة مصر أحرى (٢) أن يَعْصِمَهُمْ إن كان بهم عاصم ، وإلا فلا تثريب (٣) .

ووضع عُمرُ نظاماً لتحصيل الجِزية وتصرّف فى وضعها على حسب الأمم والبلاد . فأعفى التغلبِيِّين بالشام من الجزية وفرض عليهم بديلا عنها ضِعفَ المسلم ، لأنهم أنِفوا أن يؤدوها وأزمعوا اللحاقَ بأرض الروم .

وكان له نظامٌ اقتصادى يوافق مصلحة الدولة فى عهده ، فكان يَحُضُّ على التجارة ويوصِى القرشيين ألا يغلبَهُم أحد عليها لأنها ثلثُ الملك . ولكنه أبقى الأرض لأبنائها فى البلاد المفتوحة ونَهى المسلمين أن يملِكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيتِ المال كعطاء الجند

---

(١) يفى : يكفى ويصلح
(٢) أحرى : أجدر
(٣) تثريب : لوم وذنب

فى الجيش القائم . وإذا أسلم أحدُ الذميين أَخذَتْ منه أرضه ووُزِّعت بين أهل بلده وفُرِضَ له العطاء . وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم ، وأن يعتَصمَ (١) الجندُ الإسلامى من فتن النزاع على الأرض والعقار ، ومن فتن الدعة (٢) والاشتغال بالثراء والحطام وربما أغضى (٣) عن كثير فى سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها . فصفح عن أهل السواد « العراق » ليأمنوا البقاءَ فيه ، مع أنهم حَنِثُوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين فى أثناء القتال .

ويلوح من كلامه فى أخريات أيامه أنه كان على نية النظر فى تصحيح النظام الاقتصادى وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذى وَجَدها عليه ، فقال : « لو استقبلت من أمرى ما استَدْبَرت (٤) لأخذْتُ فضول (٥) أموالِ الأغنياء فقسمتها على الفقراء »

ولم يردْ فى كلامه تفصيلٌ لهذه النية ، ولكن الذى نعلمه من آرائه فى هذا الصدد كافٍ لاستخلاصِ ما كان ينويه . فعمر على حُبِّه للمساواةِ بين الناس كان يفرق أبدا (٦) بين المساواة فى الآداب النفسية والمساواة فى السُّنَنِ الاجتماعية . فكتب إلى أبى موسى الأشعرى : « بلغنى أنك تأذَنُ للناس جَمّا غفيرا (٧) فإذا جاءك كتابى هذا فأْذَن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالسَهم فأْذن للعامة » ، ولكنه لما رأى الخَدَم وقوفاً لا يأكلون مع ساداتهم فى مكة غَضِبَ وقال لساداتهم مؤنباً : ما لقومٍ يَستأثرون على خُدامهم ؟ ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة ، فى جفَانٍ واحدة .

فالمساواة فى أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفى التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمدَ الفقراءُ على الصدقاتِ والعطايا

---

(١) يعتصم : يمتنع ويتحصن

(٢) الدعة : الخفض والرفاهية

(١) اغضى : اغمض عينه وصفح

(٤) المراد لو رجع من عمرى ما فات .

(٥) فضول : ما زاد عن الحاجة ، جمع فضل .

(٦) أبدا : دائما

(٧) جما غفيرا : جميعا ، الشريف مع الوضيع فى كثرة

ويتعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم فى خطبه : يا معشر الفقراء ، ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق ، فاستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عيالا (١) على المسلمين » . وكان يوصى الفقراء والأغنياء معاً « أن يتعلموا المهنة ، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء » .

فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول الغنى وتقسيمه بين ذوى الحاجة ، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمها فى وجوه البر والإصلاح .

على أن عمر يصح أن يسمى مؤسساً لديوان الوقف الخيرى على الوجه الذى نعهده الآن ، فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الجياع الذين لايجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضا بخيبر فاستشار النبى عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها ، فجعلها عمر صدقة لاتباع ولا توهب ولا تورث ، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم ، ولا جناح (٢) على من وليها أن يأكل بالمعروف ، ويطعم صديقاً فقيراً منها .

***

وعرضت لعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة اليها فى وقته فلم تجده مسألة منها دون ماتحتاج إليه من إصابة الرأى وحسن الروية . فكانت نصائحه فى تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح ، وكانت دواعيه الى بنائها من أشرف الدواعى وأليقها بالأمير .

شاهد فى الجند هزالا وتغير ألوان فسأل قائدهم سعداً : ما الذى غير ألوان العرب ولحومهم ؟ فأجابه : انها وخومة (٣) المدائن ودجلة ، فكتب اليه : « ان العرب لا يوافقها الا ما وافق إبلها من البلدان ، فابعث سليمان وحذيفة فليرتادا (٤) منزلا بريا بحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر

(١) لا تكونوا عيالا على المسلمين : لا تعتمدوا على أن يعولوكم
(٢) لا جناح : لا اثم ولا حرج ولا ذنب .
(٣) وخومة : فساد الجو والبيئة (٤) فليرتادا : فليختارا بعد البحث

ولا جسر » ، وأمر أن تبلغ مناهجُ (١) المدينه أربعين ذراعا وما يليها ثلاثين ذراعا وما بين ذلك عشرين ، وألا تنقص الأزقة عن سبع أذرع ليس دونها شيء ، وألا يرتفع بناء الدور .

فبنيت الكوفة على هذا التخطيط .

وعلم أن الجندَ يشكُون الشتاء ويعوزهم الملجأ الذى يسكنون اليه بعد الغزو فى حدود فارس ، فكتب الى عتبة بن غزوان أن « ارتد لهم منزلا قريبا من المراعى والماء » ، ووصف له مايلتزم من مواقعه وخططه ، فبنيت البصرة عند ملتقى النهرين .

وهو الذى أشار على عمرو بن العاص أن يحفرَ خليجا بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعاصمة الدولة ، وضرب له الموعد حولا يفرغ فيه من حفره واعداده لمسير السفن فيه ، فساقه من جانب الفسطاط الى القلزم (٢) ، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن ، وسُمى خليجَ أمير المؤمنين ، ولم يزل مفتوحا حتى ضيّعه الولاة وغفل عنه الخلفاءُ .

***

فسياسته التعميريةَ وافية" بالغرض منها لعصره ، وقد يلاحظ عليها أبناء العصر الحاضر شيئا لا يوافقهم كالحد من ارتفاع الدور والزهد فى تشييد القصور . أما هو فالوجه الذى توخاه فى سياسة التعمير أن يحمىَ الدولةَ فى نشأتها من الترف والبذخ ، وأن يحول بين الجند وبين الاستنامة (٣) الى متاع القصور المشيدة ، والصروح الممردة ، وما فيها من بواعث الوهن والفتور . ومن فلاسفة العصر الحاضر مَن" يحسب ضخامة البناء دليلا على ابتداء الضعف وعفاء (٤) العقيدة ، ويقول «شبنجلر» أحد

---

(١) مناهج : طرق

(٢) القلزم : مدينة السويس الحالية ، وكان البحر الاحمر قديما يسمى بحر القلزم نسبة لهذه المدينة .

(٣) الاستنامة : الاطمئنان والرغبة والرضا

(٤) عفاء : انتهاء وفناء

هؤلاء الفلاسفة : ان الأمم فى نهوضها تعبر طريقين مختلفين : طريقَ العقيدةِ وقوة النفس ، وتلازمهُ بساطة الظواهر وعظمة الضمائر ، وطريق الفخامة الماديةِ والوفرةِ العددية وفيه تنحل الضمائر وتخلفها العظمة التى تقاس بالباع والذراع ، وتقدر بالقنطار والدينار ، وكانت قبل ذلك تقاس بما لا يتحسّسُ من العزائم والأخلاق .

وعمر على كلتا الحالتين ، لم يتعد طبائعَ الأشياء ، ولم يأخذ فى زمانه بغير الصالح من الآراء .

***

وقصارى القول ، إن هذا الرجل لم تواجهه فى ولاياته الواسعة صعوبةٌ أكبرُ منه وأحوج إلى قدرة أعلى من قدرته أو هيبةٌ ودرايةٌ أجلُّ مما كان له من هيبة ودراية ، فاذا عرضت الصعوبة الطارئة فهناك الحزم اللازم لمواجهتها ، والحيلة الصالحة لتدبيرها ، كأنما كان لها على استعداد ، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس (١) بهذه الأمور .

وكان اضطلاعه (٢) بتفريج الأزمات والكوارث كاضطلاعه بتدبير الحاجات الى التعمير والتنظيم . ففى السنة الثامنة عشرةَ للهجرة فاجأه قحطُ الرمادة المشهور ، وهو القحط الذى لا يقال فى وصفه أوجز من قولهم يومئذ إن الوحشَ كانت تأوى فيه إلى الإنس ، وإن الرجل المتضوّر من الجوع كان يذبح الشاةَ فيعافها لقبحها .

فنهض لهذه الكارثة نهوضه لكل خَطْب ، واستجْلَب القوتَ من كل مكان فيه مزيدٌ من قوت ، وجعل يحمِله على ظهرِه مع الحاملين الى حيث يَعثُر بالجياع والمهزولين العاجزين عن حمل أقواتهم ، وآلى (٣) على نفسه لا يأكلن طعاما أنقى من الطعام الذى يصيبه الفقيرُ المحروم من رعاياه ، فمضت عليه شهور لا يذوق غير الخبزِ والزيت ، ونظر فى كل شىء حتى فى تعليم كل بيت كيف ينتفعُ بالرزق الذى يرسله اليهم مع

(١) يتمرس : يتدرب ويتمرن ويعالج (٢) اضطلاعه : احتماله وقيامه
(٣) آلى : حلف

عساله ... فقال للزبير بن العوام : « اخرجْ في أول هذا العيرِ فاستقبلْ بها نجدا ، فاحمل اليَّ أهلَ كلِّ بيت قدرت أن تحملَهم الى ، ومن لم تستطع حمله فمُرْ لكل أهل بيتٍ ببعيرٍ بماعليه،ومُرْهم فليلبسوا كساءين، ولينحروا البعيرَ فليحملوا شحمه ، وليقددوا لحمه ، وليحتزوا (١) جلده ، ثم ليأخذوا كبّة من قديد وكبة من شحم وحفنة من دقيق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق »

وهذه السهولة في مواجهة كل حالة بما يوائمها هي التي تبرز لنا « مؤسس الدولة الملهم » في هذا الرجل العظيم .

فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القِرطاسِ صعبٌ عند تصورِنا إياه ، وإحاطتِنا بما يستدعيه من تدبير وانجاز وخُلق وهيبة . فكم بين المدينة وتلك الأطراف في زمن أسرعُ وسائله بعيرٌ سريع ! وكم عملَ عمر لملاحقة كلِّ جيشٍ يسيرُ وكلِّ بلدٍ يُفْتَتَحُ ، وكلِّ أمةٍ تحكم ، وكلِّ عارضٍ يطرأ على غير رِقبة (٢) ولا سابقة خبرة ؟

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس بسهل ، واختيار القواد على حسب ما يُنْدَبون له وليس بسهل ، والأمرُ بكلِّ حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل ، والسؤال عن قادة الأعداء ومداوراتهم (٣) ليستقصيَ خبرهم ويعرفَ مايقابلهم به من الكيد والعُدة وليس بسهل ، وإنشاءُ المدن والعمائر في مواضعها ، وإقامة الدواوين عند الحاجة إليها ، وإرضاء الأمم والجيوش بالإصغاء الى شكاياتهم ولو جاءت في غير أوانها ، والنهوضُ للكوارث والأزمات بما ينبغي لها ، والمشاورةُ لمن تُستمَعُ منه المشورةُ ، والاجتهادُ بالرأي عندما تختلف الآراء ، والاشتغال بكل شاك كأنه لا يشتغلُ بغير ما شكاه ، وخدمةُ الناس في دينهم وخلقهم كخدمته اياهم في دنياهم ودولتهم ، وتجددُ هذه المتاعب يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام ، وهي شاقة لا سهولةَ فيهـا على غير

(١) حز الجلد واحتزه : قطعه (٢) رقبة : ترقب وانتظار
(٣) المداورة : المحاربة والافتنان في أساليب

صاحبها القدير عليها ولو زاولها عرَضا الى أيام .

وجليلٌ بعض هذا غاية الجلال لو أن صاحبَه قنَع منه بالإشراف والمراجعة ولم يعمل بيده فيه كأنه خادم البيت المرهَق وأجيرَ الديوان الصغير ، لكنه كما نعلم كان يَكدَحُ بيده ويحمِلُ على ظهره ويَتَعَقَّب (١) بعينه ، ولا يَدعَ أحدا من خدام الدولة الواسعة الا وهو شريك له فى مثل مايتولاه .

وأكبر ما يستحق الإكبارَ فى هذا الرجل الكبير أنه كان قادرا على تأسيس الدول وعلى فتح الأمصار ، ولكنه راضَ (٢) القدرتين فلم يُقدِمْ على فتح الأمصارِ إلا بمقدار .

فليس الفتحُ شهوةً عنده ولا المجدُ الحربى لُبانةً (٣) من لباناته ، وهو على علمه بأن الله وَعَدَ المؤمنين أن يورثهم الأرض لم يكن يرى فى ذلك داعيا الى العجلة بالفتح ، كما كان يرى فيه دواعى للتبصر والأناة ، حتى لا يُسْفك دَمٌ فى غير مُوجِب ولا تُعتَسفَ خطة بغير روية .

فكان همُّه الأكبرُ تأمين الجزيرة العربية من أطرافها وحماية الإسلام فى عقر داره . ولولا أن الدول العظمى التى كانت تُحدِقُ بجزيرة العرب تحفَّزت (٤) للبطش بها وقمع دعوتها فى مهدها لكانت للدولة الإسلامية سياسةٌ أخرى فى مصاولة أولئك الأعداء .

فدولة الروم كانت ترسل البعوث الى تخوم (٥) الجزيرة ، وتهيج القبائل لحربِ المسلمين من عهد النبى عليه السلام ، وكان المسلمون يعيشون فى فزَع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها . يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبى حيث يقول : « ... وكنا تَحدَّثنا أن غسان (٦) تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم توبتِه فرجعَ عشاءً فضرب بابى ضربا شديداً وقال : أثمَّ هو ؟ ففزعتُ فخرجت اليه ، وقال :

---

(١) يتعقب : يتبع ويفحص
(٢) راض : روض وذلل
(٣) لبانة : حاجة ورغبة
(٤) تحفزت : استعدت وتوثبت
(٥) تخوم : حدود
(٦) غسان : عرب الشام

حَدَثَ أمرٌ عظيم ... قلت : ما هو ؟ أجاءتْ غَسَّان ؟ قال : لا . بل أعظمُ منه وأطول .. طلّقَ النبى صلى الله عليه وسلم نساءَه ! » .

ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغُ الفــزع من تهديدِ الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار .

أما فارس فقد بلغ بِطُغْيانها أن عاهلَها غضِب من دعوته الى الاسلام فأوفد الى الحجازِ رسُولا مع نفرٍ من الجند ليأتيه بالنبى العربى حياً أو ميتاً !! ولولا أنه مات قبل إنجازِ وعيده واشتعلتْ نيران الفتن فى بلادِه لوطئت الجيوشُ الفارسيةُ أرضَ الجزيرة قبل أن ينهضَ العربُ لدفاع . وما هو الا أن حَفِظَ العرب حدودهم من قِبَل العراقِ الفارسى حتى سكنوا الى ذلك ، وود عمرُ بن الخطاب « لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لا يصِلون الينا ولا نصلُ اليهم » ، ولم تتغير خُطَّته هذه الا حين استوى يَزْدَجِرد على عرش فارس وتأهَّب للغــارةِ على المســلمين واخراجِهم من حيث نزلوا ، فتجددَ القتال .

***

وقد طال تردد عمر فى فتح مصر ، ولم ينبعث الى غزوها حبــا للغزو ولهَجاً (١) بالفتوح ، ولولا أن علم أن أريطيــون قائدَ الروم فى بيت المقدس قد فرَّ منها الى مصر ليحشد فيها الحشودَ ويتأهب للكر على الشام لطال تردده فى الزحف عليها . ومع هذا أوشك أن يسترجعَ عمرو ابن العاص بعد اشخاصه اليها ، ونهاه عن الايغال فى المغرب بعدِ فتحها ، لأن السطوة ــ وهو مقتدر عليها ــ لم تكن تزدهيه (٢) ولا تغويه ، لأن الضنَّ بالأرواح أغلبُ فى طبعه من الشغفِ بالفتوح ، و « أن رجلا من المسلمين أحبُّ الىَّ من مائة ألف دينار ! » .

فلا يخطىء القائل الذى يقول إن الأناة فى السطوة أكبر ما يستحقُّ الإكبار من هذا الخلق الرفيع ، وإن دلالته الانسانية أكبرُ دلالةٍ يشتملُ عليها هذا السجل الحافل بالمآثر . لأنه يرينا القوةَ كيف تكون نعمةً

(١) لهجا : اللهج بالشىء الولوع به (٢) تزدهيه : تستهويه وتستخفه

انسانيةً عالية ولا تكون لزاماً نقمةً من نقم الأثرة والأنانية ، ويرينا الرجلَ كيف يَقْوى فلا يخافهُ الضعيفُ بل يخافه من يُخيف الضعفاء .

وبحقٍّ يتزود بهذه القوة مؤسس دولةٍ تقومُ على دين ، لأن الدولةَ قد تقيمها القوة الطاغية ، أما الدينُ فلا يهدمه شيء كما تهدمه قوة الطغيان

إن البأسَ الذى رُزِقته نفسُ عمر لحظٌ عظيم . ولكنه لو كان فى يدىْ غيرها لقد يكون نصيبها منه أوفى من نصيبها وهو فى يديها ، فلم يشحذه عمر قط لغرضٍ يَخصه دون غيره ، ولم يضرب به قط بمعزلٍ عن الايمان حتى فى أيام الجاهلية . فلو لم يقع فى رُوعِ (١) عُمَر أن محمداً أهان قريشاً وانتقص دينها لما تصدّى له بأذى ، ولولا حرمةُ الايمان الجاهلى عنده لما ثار على ايمان محمد وصحبه .

وغاية ما هنالك أنه فرّق بين ايمانٍ وايمان ، ففى الجاهلية كان ايمانه مضللا فَعَقِمَ ولم يأت بطائل ، وفى الاسلام كان ايمانه رشيداً فأتى بأطيب الثمرات .

***

قبل أن يقال إن عمر كان أكبر فاتح فى صدرِ الاسلام ينبغى أن يقالَ انه كان يومئذ أكبرَ مؤسس لدولة الاسلام ، وإنه أسسها على الايمان ولم يؤسسها على الصولجان (٢) ، فكان مؤسساً لها قبل أن يَلِيَ الخلافة وينفردَ بالكلمة العليا ، وكان من يوم إسلامه آخذاً فى تشييد هذا البناء الذى تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء .

إن تاريخ عمر وتاريخَ الدولة الإسلامية لا يفترقان ، فاذا بدأتَ بهذا فقد بدأت بفصل من تاريخ ذاك ، ولن يطول بك الاستطراد ، حتى تثوبَ إليه كرة أخرى .

---

(١) الروع بالضم : القلب والعقل والبال.

(٢) الصولجان : عصـا الملك ، فارسي معرب ، اذ لا يجتمع فى كلمة عربية صاد وجيم ، الجمع الصوالجة ، والمراد انه لم يؤسسها على الطغيان والابهة ، وغطرسة الملوك

عمر والحكومة العصرية

من الحقائق التى لا يحسن أن تغيب عنا ونحن نقدرُ الأبطال من ولاة العصور الغابرة أنهم أبناءُ عصورِهم وليسوا أبناءَ عصورِنا . وأننا مطالبون بأن نَفهمَهم فى زمانهم وليسوا هم مطالبين بأن يشبهونا فى زماننا ، وأن الرجل الذى يصنع فى عصره خير ما يُصنَعُ فيه هو القدوةُ التى يقتدى بها أبناءُ كل جيل ، ولا حاجة به الى اقتداءٍ بنا ، ولا أن يَشُقَّ حجابَ الغيب لينظر إلينا ويعملَ ما يوافِقنا ويرضينا .

ويحسن بنا أن نذكر مع هذا أن أشكال الحكومات بمرتبةٍ دونَ مرتبة المبادىء التى تقوم عليها ، وأن المبادىء التى تقوم عليها بمرتبةٍ دونَ مرتبة الروح الانسانىِّ الذى ينبغى أن يعمَّها ويتخللها ، لأن المبدأ يعيبه أن يخلوَ من الروح الانسانى ، ولا يعيبُ الروح الانسانىَّ أن يخالف المبدأ فى بعض الأحايين .. فالملَكية والجمهورية شكلان من أشكال الحكومة قد يقومان على مبدأ واحد هو مبدأ الحكومة الشعبية أو الديموقراطية ، ولكنَّ العدلَ والحرية هما الروح الانسانىُّ المقدَّمَ على المبدأ وعلى الشكل معا ، لأن فقد المبدأ والشكل لا يضيرنا اذا وجدنا العدل والحرية .. أما فِقدان العدل والحرية فهو الذى يضير ولو توافرت المبادىء والاشكال .

فاذا عرفنا العدل بروحِه ولبابه فلا ضيرَ عليه أن تنكرَه مبادىء الثورة الفرنسية ، أو مبادىء الوثيقة الكبرى فى البلاد الانجليزية ، أو مبادىء الدستور الأمريكى فى أيام آباء الدستور هناك ، أو مبدأٌ من المبادىء التى لا تَنِى تتجدد وتتغير كائنا ما كان .

ويحسن بنا أن نسأل أنفسنا كلما أعجِبنا بعظيم من عظماء العصور

الحديثة : ماذا كان هذا العظيم صانعاً لو نشأ فى القرن الأول للهجرة مثلا أو القرن الأول للميلاد ؟ أكان يصنع فيه ما هو « عصرى » فى زماننا ، أو يصنع فيه ما هو عصرى فى ذلك الزمان ؟ فمما لا مراء فيه أنه يخالف عمله فى زماننا ولا يخالف عمله فى زمانه الذى نشأ فيه ، ولا ملامة عليه فيما خالف وفيما وافق ، بل اللوم علينا نحن اذ ننتظر مالا يُنتظر ، ونقيس على غير قياس .

والى جانب هذا كلّه ينبغى أن نذكر ولا ننسى أن عصرنا ليس بخير العصور ! وأننا لو ملكنا تبديله فى كثير من الأمور لبدّلناه ، وأننا لا نتفق على استحسان الحسن ولا استقباح القبيح فيه ، وأن الفارق الأكبر بينه وبين العصور الأخرى انما هو فرق الألفة والاستغراب ، فعصرنا مألوف لنا وسائرُ العصور مستغربة فى أنظارنا ، وكثيرا ما يكون الاستغرابُ عرضيا سخيفا متعلقا بالمظاهر والأزياء دون الجواهر وحقائق الأشياء .

أذكر من الصور التى رأيتها فى الصحف الأوربية — ولا أنساها — صورةً جامعة لبعض المشــهورين والمشهورات فى أزياء عصرنا وأزياء العصور السابقة على اختلافها ، عَرَضتها الصحيفة وأحسبها كتبت تحتها : هل تعرف هؤلاء لو مروا بك فى الطريق ؟

فاذا تأملت الصورة رأيت فيهــا يوليوس قيصر فى القبعــة الطــويلة وكسْــوة السهرة السوداء ، ورأيت كليوبترة فى زى الباريسية العصرية ، ثم رأيت أميرا من أمراء هــذا الزمن وحكيما من حــكمائه على نمط التماثيل التى حُفِظَت لقياصرة الرومان وحكماء اليونان . فاذا بك تستغرب ما تَأْلفُ وتألف ما تستغرب ... وكأنك على اســتعداد أن تحادِثَ يوليوس قيصر حديثك للرجل الذى يفهمك وتفهمه من الكلمة الأولى ، وعلى حذرٍ أن تقارب الرجل الذى مثّلته لك الصورة فى زى الأقدمين المخالفين لك فى العقيدة والشارة والذوق ونمط التفكير والنظر الى الأشياء .

هذه صورة نشرت يومئذ للتسلية والفكاهة ، ولكنها خليقة" أن تعلّمنا الكثير ، وأن تصحح لنا مقاييس المقابلة والتقدير بين كل عصر سابق وعصر أخير .

ونحن – اذ ننظر الى أعمال عمر بن الخطاب نقيسها الى نظام الحكم فى زماننا – واجدون فيها كثيرا من المستغربات التى تحول بيننا وبين تقديرنا الصحيح للوهلة الأولى . ولكننا لا نلبث أن نرفع القشرة وننفذَ الى اللباب حتى تزول الغرابة ونرى فى مكانها الحقَّ الخالد الذى تتغير العصور ولا يتغير ، بل نرى فى مكانها أحياناً ما يصلح كل الصلاحية للتفسير حتى بمبادىء هذا العصر الأخير .

خذ مثلا أنه – وهو أقدر المالكين فى عصره – كان يقنع بالكَفاف ويلبس الكساء الغليظ ويهنأ أبلَ الصدقة – أى يداويها بالقطران – ويراه رسل الملوك وهو نائم على الأرض نومة الفقير المدقع ، وتعرضُ له المخاضة (١) وهو داخل الى الشام فينزل عن بعيره ويخلع خُفّيه ويخوضُ الماءَ ومعه بعيره ، ويسافر مع خادمه فيساوى بينهما فى المأكل والمركب والكساء .

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هذا ولا يطالبُ بأن يصنعه ، وهو وأبناء العصر الحديث على حق فيما ارتسموه لأنفسهم من السمت (٢) والشارة ، لأن حاكم الأمة يحتاج الى المهابة بين قومه وغيرهم من الأقوام ، وهذا حسن مشكور .

ولكن هذه وجهتنا نحن فى هذا ، فما هى وجهة عمر فيه ؟

وهذه حجتنا نحن فيما ارتسمنا ، فما هى حجة عمر فيما ارتسم ؟ اننا اذا عقدنا المقارنة بين الوجهتين والحجتين ألفيناه فى غنى عن وجهتنا وحجتنا ، وأنه كان يصل إلى الغاية التى نرومها نحن من طريقٍ أقوم وأنفذ من الطريق الذى توخيناه . فكان يعيشُ عيشةَ الفقراء وأمته

(١) المخاضة : موضع الماء يجوزه الناس مشاة وركبانا
(٢) السمت : الهيئة

وأمم أعدائه أهيَبَ له مما تهاب التيجانُ في القصور .

وكان عملُ الرجلِ تثبيت سلطان وتثبيتَ عقيدة هي أساس الحكم قبل كل أساس ، فكانت عيشتُه الفقيرةُ أعونَ له على تثبيت العقيدة ، ثم لا غضاضةَ فيها على سلطان .

وكان يدينُ نفسَه بهذه العيشة ولا يأبى على غيره أن يخالفها ، ويقنَعُ باليسير ويعطى الحقَّ الكثير لمن يستحقه على تفاوت في المآثر والأعمال . فلما ندبَ أبا عبيدة لتوزيع الطعام في عام المجاعة أعطاه ألفَ دينار وألحَّ عليه في قبولها ، ولما قسَّم الولاياتِ جعل لكل والٍ كِفاء (١) عمله من أجر وطعام مكفولا له مع عطائه الذي يُعْطاه كسائر المسلمين . وهو الذي خالف أبا بكر في التسوية بين الأعطية لعلمه بتفاوت الحقوق ، فقال له : أتسوِّى بين من هاجر الهجرتين وصلَّى الى القبلتين وبين من أسلم عامَ الفتح خوفَ السيف ؟ أتجعل من قاتَلَ رسولَ الله كمن قاتل معه ؟ ولقد ظل كلاهما على رأيه حتى قامَ عمرُ بالخلافة فأخذ بمذهبِ التفضيل وتوفيةِ العطاء حسب الحقوق . أما المهابة فمن افتقر من الولاة الى المظهر فيها لم يمنعه عمر ولم يوجب عليه أن يقتدى به في خصاصته (٢) وشظَفه ، فله من ذاك ما تقضي به مصلحة الدولة حيث كان .

وبهذا يكون الحاكمُ عمرُ بن الخطاب قد أدى « الواجب الحكومى » على الوجه الأقوم ، فلا سبيل لأحدٍ الى أن يؤاخذه فيه بقياس حديث أو بقياس قديم .

فاذا بقى أن نستدل بتشديده في المعيشة على تفكيره أو خُلُقه فما هي الدلالة التي يدل عليها ؟ هل يدل هذا التشديد في محاسبة النفس على شيء يعاب ؟ هل هو أدنى الى النقص أو أدنى الى الرُّجحان ؟

ان أناسا يشددون على أنفسهم عن كَزازةٍ (٣) في الطبع وضِيق في

---

(١) كفاء عمله : أى مايكافىء عمله ويجازيه
(٢) الخصاصة : الفقر
(٣) الكزازة : الانقباض ، والمراد التزمت والجمود

الحظيرة (١) وعجزٍ عن ملابسة الدنيا ، وهذه نقائصُ تُعابُ في مقياسِ الفكرِ والأخلاق .

ولكن هل كانت خليقةُ عمرَ بن الخطاب خليقةَ المُرعَب المتوجس العاجز الذى يرجعُ الشظفُ عنده الى العجزِ عن ملابسة الدنيا ؟ أعجل الناس بالاتهام لايتهم عمر بهذا ولا بما يشبهه ويدانيه .. وانما تدل جملة أخلاقه على أن الخُلُقَ الذى ألزمه حياة الشظَف انما هــو خلُقٌ قوىٌّ يروضُ صاحبَه على ما يريد ، وليس بخلقٍ ضعيف يُجفِل من التصرف والتكليف إجفالَ العجز والرهبة والوسواس .

وفى « طبيعةِ الجندى » التى قدمنا الكلام فيهـا بعضُ التفسير لنظرته فى حساب نفسه ، وفى الموقف الذى اختار أن يقفه بين يدى الله . فهو يعلم أن الله شديدُ الحساب وأن الله رَحيمٌ ، ولكن الجندىَّ القوىَّ اذا وقف بين يدى مولاه جعل تعويلَه على الوفاء بالأمر وقضاء الواجب فى أدق تفاصيله ، ولم يجعل معوَّله الوحيد على طلب الرحمة والصفح عن الخطيئة . فان جاءه الصفح من مولاه فليس هذا بمُعفيه أمام نفسه من استقصاء الحساب ولو جار عليها . فأكرمْ لطبيعته الجادة القويةِ أن يجورَ على نفسه من أن يترخص فى اعطائها ثم يتعرضَ للصفح والغفران .

وكان وفاؤه لحق الصداقة كوفائه لحق الله سببا من أسـباب هـذا الشظف الذى عاش عليه بعد النبى وخليفته الأول ، فقد أبى له وفاؤه أن يعيش خيرا مما عاشا ، وأن يستبيح ــ وقد صار الأمرُ إليه ــ حظا لم يستبيحاه ، وكثيرا ماتوسل اليه خاصته أن يُشفقَ على نفسه ، وأقنعوه بما علموا أنه أدنى الى اقناعه ، وهو أن يتوسع فى العيش ليكون ذلك أقوى له على الحق ، فكان يقول لهم : « قد علمتُ نصحكم . ولـكنى تركت صاحبىَّ على جادَّة (٢) ، فان تركت جادَّتهمـا لم أدركهمـا فى

(١) ضيق الحظيرة : الحظيرة مأوى الماشية ، والمراد « ضيق الافق »
(٢) الجادة : وسط الطريق ، والمقصود طريق الرسـول صلى الله عليـه وسلم وصاحبه ابى بكر

المنزل (١) » ، وكلما نصح له ذووه ومنهم بنته حفصة أن يستكثرَ من الطعام الطيب والنعمة السائغة سألها : كم كان نصيب النبى من هذا أو من ذاك ، وأنت تعرفين نصيبه ؟ فيكون السؤال هو الجواب .

ثم كانت رغبته فى اقامة الحجة على ولاته وعماله سببا آخرَ من أسباب شظفه وقناعته بالقليل . فقد يستحى أحدهم أن يخونَ ليغنى وخليفته قانعٌ لا يطمع فى أكثرَ من الكفاف .

وما كان عمر بالذى يجهل ما عرفه الناس من مروءة «الأبهة والوجاهة» وهو الذى يعلم ما جهلوه ، ولكنه كان غنيًا عنها إيثارا لغيرها مما هو أرفعُ منها وأدل على المروءة فى حقيقتها . فكان يقول : « المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة ومروءة باطنة ، فالمروءة الظاهرة الرياش والمروءة الباطنة العفاف»

فهو فى جملة أحواله يفرضُ الشظفَ على نفسه لأن قوّته الخلقية تستطيع أن تريدَ فتفعل ، وتستسهلَ الجدَ الذى يصعب على غيرها . ففيها رجحانٌ يُكبِره العقل والخلق، وليس فيها نقصٌ يُعابُ بمقياس التفكيرِ أو مقياسِ الأخلاق .

انما كان الرجلَ يُحاسِبُ غيرَه فيعطيه حقه فى غير بخس ولا حرج ، ويحاسب نفسَه فيؤثر الشدة ليقطعَ الشكّ ويدرأ الشبهة (٢) ويقتدىَ بصاحبيه ، ويتركَ القدوة المثلى لمن يليه ، فلا سبيل عليه لباحث فى نظم الحكم ولا لباحث فى معانى الأخلاق . على أن عصورنا الحديثة تستغربُ الشظفَ من عمر وهى تهلل للملوكها وتكبر لهم حين يستنون لأنفسهم سنّته فى بعض أوقات الضيق والمحنة ، وهى الأوقات التى يتنبه فيها شعور الرعية للفارق بينها وبين راعيها فى المعيشة والتكليف . وأكثر ما يكون ذلك فى أوقات المجاعات والحروب وشُحِّ المئونة على الإجمال .

ففى الحروب الأخيرة تجاوبت الصحف بالثناء على الملوك الذين راضوا أنفسَهم وراضوا أسرَهم وحاشيتهم معهم على جراية الحرب التى

(١) المزل : المنزلة والمكانة

(٢) يدرأ الشبهة : يدفعها ويبعدها .

توجبها ضرورات التموين ، وعدوا من مفاخر الملوك أنهم لا يأكلون الا ما تأكله شعوبهم ، وأنهم لا يرون لهم عزة فى الترف الذى يعز على رعيتهم (١) ، فاقتدوا بعمر فيما أوجبه على نفسه عام القحط (٢) وعلمتهم الشدة كيف ينفذون الى الواجب الانسانى من وراء زخارف الحضارة الحديثة

وشىء آخر يستغربه العصريون فى نظام حكومة عمر وإن كانوا ليتمنَّون مثله لو استطاعوه ، ونعنى به طريقته فى محاسبة الولاة والعمال سواء لتحقيق العدل أو لتحقيق الأمانة .

فكان يجزى الوالى جزاء المثل عن كل مَظْلمة وقعت على أحد رعاياه ، ويأخذ الوالى بسيئات أبنائه وذويه ان أساءوا وهم مستطيلون (٣) بما للولاية من حول وجاه . وكان يحصى أموال الولاة ثم يستصفى مازاد عليها كلما فَشَت (٤) لهم فاشية من النعمة لايخبرونه بمصدرها .

وفى هذا وذاك ضمان للعدل والأمانة يستغربه العصريون لأنهم لا يألفونه فى طرائق الحكومات العصرية .

ولكن أتراهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع ؟

بل لأنه غير مستطاع ولا ريب ، أو لأن الحكومات العصرية لا تملك أن تتحراه وتنصف فى تنفيذه (٥) .

أما أنه حسن فلا شك فى حَسْنه ولا فى أنه أحسن من نظائره بين النظم العصرية ، لأن حكومات العصر الحديث قد تحمى الوالى وإن ظلم واعتدى فلا تسمح بمقاضاته الا بإذن منها ! وقد تحميه مرة أخرى بالاحالة الى الثقة بالوزارة ومنع المناقشة فى عمله ، لأنها هى المختصة بمناقشته فيه ، وتعتذر فى الحالتين بعذر المحافظة على نظام الدولة أن يهدده مايهدد

(١) يعز على رعيتهم : يصعب عليهم تحقيقه
(٢) عام القحط أو عام المجاعة ، وقد سبقت الاشارة اليه
(٣) مستطيلون : اى معتزون بسلطانهم وجاههم
(٤) فشت لهم فاشية من النعمة : ذاعت وانتشرت ، والفاشية كل شىء منتشر من المال كالغنم والابل وغيرها
(٥) تحاول الحكومات على عهدنا أن تتحراه بما تستطيع من وسائل . وقانون « الكسب غير المشروع » ضرب من هذا الصنيع

مراكز الحكام . ولم يكن عمر يخشى هذا الخطر لأنه أقوى منه ، فله هو الحق وعلى النظم العصرية الملام .

أما الطريقة العصرية فى ضمان أمانة الحكام فهى أن تحرّم عليهم الدساتير مباشرة الأعمال فى الشركات وما اليها ، ثم هى لا تأخذ منهم درهما ولو دخلوا الخدمة صفر اليدين وخرجوا منها بالضِّياع والقصور والأموال . فَمَنْ استغرب الطرائق العمرية فى هذا الباب فليستغربها ماشاء وهو يعلم أن الغرابة ليست بعيب ، وأن المألوف هو المعيب إن قصر عن الغرض المطلوب .

وما عدا هذا من اختلاف بين العهدين فقلّما يعدو اختلاف الأسماء وتغيير العناوين ، وقلَّ أن ينفذ الى ما وراء القشور . وهذه بعض الشواهد التى تقرب أسباب النظر الى حقيقة هذا الاختلاف . مرَّ عمر فى سوق المدينة فرأى إياس بن سلمة معترضا فى طريق ضيق فخفقه بالدرّة وقال له : « أمِطْ عن الطريق يا ابن سلمة ! » (١) .

ثم دار الحول (٢) ولقيه فى السوق فسأله : أردتَ الحج هذا العام ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، فأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطاه ستمائة درهم وقال له : يا ابن سلمة ! استعن بهذه ، واعلم أنها من الخَفْقة التى خفقتك بها عامَ أول ! .. قال إياس : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكّرْتنيها . فأجابه عمر : أنا والله ما نسيتها .

فالنظم العصرية تحار فى وضع هذه الحادثة فى باب من أبوابها المرتَّبة حسب الوظائف والأوامر والمراجعات .

ولكن ماذا يصنع جندى المرور فى عصرنا اذا شاء أن يُميط الطريقَ ويفضَّ الزحام وماذا تصنع المحاكم فى تعويض من أصابه الضرب بغير ضرورة؟

ان جندى المرور ليضربُ بالدرّة وبما هو أقسى منها ، وإن المحاكم لتعوّض المضروبَ بشىء من مال الدولة عن خطإ الجند والموظفين . وعمر

(١) امط عن الطريق : تنح وانسح (٢) دار الحول : انقضى عام

قد عوّض الرجل من ماله كما يؤخذ من قول ابن سلمة أنه ذهب به الى بيته ، فان لم يكن هذا المبلغ من مال عمر وكان من خزانة الدولة فقد غَرِمَ عمر كل دين عليه قبل موته ، ولم يفارق الدنيا الا على ضمانٍ وثيق أن يعادَ كلّ درهم من دينه الى ذويه ، وقد يكون الخطأ يومئذ فى الحساب لا فى تصرف عمرَ بنِ الخطاب .

ورأى عمر امرأة فى زىّ استغربه فسأل عنها فقيل له إنها الأَمَة فلانة ! فضربها ضرباتٍ وهو يقول لها : يالكعاء ! أتشبّهين بالحرائر (١)

وهنا مجال واسع للحذلقة العصرية فى الكلام على « الحرية الشخصية » وعلى حق من يشاء أن يلبس مايشاء ويسير حيث يشاء .

ولكن ماذا تصنع الحضارة العصرية بالنساء المريبات اللاتى يتنكّرْن بأزياء الحرائر ويأوين الى البيوت فى أحيائهن ويخرجن معهن الى الطريق ؟ وبماذا يختلف شأن النساء المريبات من شأن الإماء فى زمن كنّ فيه متهمات الأعراض ؟ ورأى عمر رجلا يتبختر ويمشى مشية قبيحة لاتليق بالرجال فأمره أن يتركها فأبى وزعم أنه لايطيق تركها فجلده . وعاد بعد جلده الى التبختر فجلده مرة أخرى . ثم مضت أيام وجاءه الرجل وقد ترك تلك المشية القبيحة ودعا له : جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين . إن كان إلا شيطانا (٢) أذهبه الله بك .

الحرية الشخصية مرة أخرى ! ..

غير أن عمر فى عقوبته هذه انما كان يعاقب على أمر نهى عنه القرآن وليس له أن يبيحه بحال ، فهو قانون يعرفه من أوقع العقاب ومن وُقّع عليه ومن شهدوه وأقرّوه ، وكلهم يأبى أن يمشى فى الأرض مرحا ويعدّها من قبائح الآداب .

---

(١) الحرائر : الامة ضد الحرة والجمع اماء ، والحرائر جمع حرة ، واللكعاء الحمقاء

(٢) ان كان الاشيطانا : اى ماكان الاشيطانا

ولكننا فى العصر الحديث نقسم النواهى والأوامر الى قسم يحاسب عليه القانون وقسم يحاسب عليه العرف المأثور . وعقاب العرف حق الأمة وليس بحق الحكومة والقضاء .

وحجة العصر الحديث أن العقاب القانونى هنا غير منصوص عليه وليس النص عليه بمستطاع ، وربما فتح الباب للاغراض والأهواء واستبداد الحاكمين اذا استطيع .

وعندنا أن حجةَ العصرِ الحديث فى هذا ناهضة" لاشك فى صدقها ، ولكنها ان نهضت فانما تَنهضُ على العصر الحديث ولا تنهض على عمر ولا على من وثقوا بعدله وأسلموه زمام العرف والقضاء على السواء ... فماذا لو استطاع العرف فى عصرنا أن يحاسب الناسَ بالحبسِ والجلد والغرامة على رذائل الذوق وقبائح الآداب دون أن يخطىء أو يجور ؟ أيأبى الإصلاح وهو آمن" عقباه ؟ انْ أباه فليس صوابه فى إبائه بأكبرَ من صواب عمر فى تقريره ، وليس على عمر ولا على رعيته جناح" أن يطمئنوا الى عدل يعيينا أن نطمئن الى مثله .

وقد تقدَّم أن عمر غَضِبَ على الحطيئة لهجائه الناس ونهاه أن يهجوَ أحدا فضرع اليه الرجل وقال : اذن أموتُ ويموتُ عيالى من الجوع ، فأنذره ليقطعنَّ لسانه ! .. ثم عطف عليه فساومه على ترك الهجاء بثلاثة آلاف درهم ، فسلِم الناسُ من لسانِه واستغنى عن هذه الصناعة ماعاش عمر ثم عاد اليها بعد موته .

ان أمين الحساب فى خزائن الدول الحديثة يحار فى أى باب من أبواب المصروفات يضع هذه الدراهم التى اشترى بها هجاءَ الحطيئة ، ولكنه لا يحار طويلا حتى يذكر باب الدعوة وماتنفقه الدول من الملايين ثمنا للثناء والهجاء ، فيضعها هنالك وهو أهدأ ضميرا مما وضع فى الباب كله ، لأنه مال تنتفع به الرعية وتنتفع به الاخلاق ولا نفع فيه لذوات الحاكمين

ولنضرب أمثلة من طرازٍ آخرَ على الطريقة العمرية التى يستغربها

المصريون وهم مخطئون فى استغرابها أو قادرون على النظر اليهـا كما ينظرون الى المألوفات لو أطلقوا عقولهم من عِقال الصيغ والأشـكال ونفذوا من ورائها الى الجواهر والأصول .

كان عمر يَعُسُّ فى المدينة فسمع صوت رجل وامـرأة فى بيت ، فتسور الحائط فاذا رجلٌ وامرأة عندهما زِق خمر (١) . فقال : ياعدو الله ! أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصية ؟ فقال الرجل : يا أمير المؤمنين : أنا عصيت الله فى واحدة وأنت فى ثلاث ، فالله يقول : « ولا تجسَّسوا » وأنت تجسست علينا ، والله يقول : ! وأْتوا البيوتَ من أبوابها » وأنت صعدت من الجدار ونزلت منه ، والله يقول : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلِّموا على أهلها » ، وأنت لم تفعل ذلك .. فقال عمر : هل عندك من خيرٍ ان عفوت عنك ؟ قال نعم ، والله لا أعود . فقال: اذهب فقد عفوتُ عنك .

ما أسرع ما تقول الحذلقة العصرية وهى مستريحة البـال : هـذه بَدَوات (٢) البادية فى حكمها . تجسسٌ ثم مُحاجَّة جدلية ، ثم نزولٌ عن عقاب . وهى « طريقة تعوزها الاجراءات الرسمية » التى نحن عليها حريصون وبها جِدُّ فخورين ! ..

لكن ما القول فى مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجرى عليه النظام الحديث فى اجراءاته الرسمية بغير استثناء ؟

فالدساتير الحرة تمنع الرقابة وفض الرسائل واسـتباحة الأسرار .. والحكومات مع هذا المنع الدستورى تضطر الى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوى الشبهات . فاذا اتفق فى حادث من الحوادث أنها استباحت سرا يدل على جريمة محظورة فماذا يكون من سير الاجراءات الرسمية ؟ يكون ماكان من عمر فى الحادث الذى رويناه بغير اختلاف .. فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور ، ولا تثبت عنده الجريمة الا بدليل

---

(١) الزق : السقاء (الاناء)

(٢) البدوات : جمع بدأة وهى الرأى الذى — ج

مشروع ، والحكومة تضطر هنا الى السكوت ومتابعة الحالة حتى تسفر عن بينة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء . وهى فيما تصنع من هذا القبيل أعجز من عمر فيما صنع ، لأنه جعل الاستطلاعَ سبيلا الى العظة والتوبة ، واستغنى عن الاجراءات الرسمية التى نحن عليها حريصون وبها جد فخورين !

ونقترب من حادث تطول فيه الألسنة العصرية أبعدَ مما طالت فى شتى الحوادث التى قدمناها ، ونعنى به كتابَه الذى خاطب به النيلَ يوم قيل له إنه أمسك عن الفيضان .

وقد زعم المؤرخون أن أهل مصر ذهبوا الى عمرو بن العاص فى شهر بؤونة فأخبروه أن للنيل عندهم سُنَّة قديمة لا يجرى الا بها ، وهم « انهم اذا كانت ليلة ثلاث عشرة من هذا الشهر عمدوا الى جارية بِكْرٍ بين أبويها فحملوا عليها من الحلى والثياب أفضلَ مايكون ثم ألقوا بها فى النيل » .. فلم يجبهم عمرو الى ماسألوه وقال لهم : هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ماكان قبله . فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى لا يجرى فيها النيل قليلا ولا كثيرا ، ثم رفع عمرو الخبر الى عمر فاستصوب ماصنع وكتب له : انى بعثت اليك بورقة مع كتابى هذا فألقها فى النيل . وفى الورقة كتاب يخاطب به النيل يقول فيه : « من عبد الله عمر الى نيل مصر . أما بعد ، فان كنت تجرى من قِبَلِك فلا تجر ، وان كنت تجرى من قِبَل الله فنسألُ اللهَ أن يجريك »

قال رواة هذه القصة : إن عُمروا ألقى بالورقة فى النيل قبل يوم الصليب بشهر وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج ، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا (١) ، واستراحوا من ضحاياه فى ذلك العام وفيما بعده من الأعوام .

والرواية على علاتها قابلة للشك فى غير موضع عند مضاهاتها على التاريخ . وقد يكون الواقع منها ـــ ان وقعت ـــ دون مارواه الرواة بكثير

(١) ذراع القياس تؤنث كثيرا وتذكر قليلا. (١) البيع : الكنائس

ولتكن على هذا صحيحة بحذافيرها ، فما هى الغضاضة فيها على العلم الحديث ، ولا نقول على العقل « البدوى » قبل نيّف وألف سنة ؟

ان عمر لم يجد أهل مصر معوّلين فى فيضانهم على القناطر والسدود وفنون الهندسة فأبى عليهم أن يعولوا عليها ، ولكنه وجدهم معولين على خرافة يعافها العقل والشعور فأنكرها وحَقّ له أن ينكرها ، ولم يقل لهم ان ورقته الملقاة فى النيل هى التى تجريه ، بل قال لهم ان النيل ليجرى بغير تلك السنّة التى استنوها له وبغير القربان الذى يتقربون به اليه ، وليس فى هذه القصة كلها مايستغرب من حاكم عصرى مؤمن بالله منكر للخرافات . فورقة عمر أقرب الى العقل فى زماننا هذا من الكؤوس والقوارير التى تكسر فى الأنهار عند فتح قناطرها وجسورها ، وأقرب الى العقل من البخور الذى يحرق فى البيَع (١) والهياكل جلبا للفيضان واستغاثة بالسماء .

ونحن لا نعرض لهذه الأشتات من طريقة عمر فى حكومته لأنها هنات تلجىء المعجب به الى دفاع وتسويغ . وليس فى كل هذه الأشتات وأشباهها ما يلجىء عمر ولا المعجبين به الى دفاع أو تسويغ .

وانما عرضنا لها توسعةً لأفق النظر الى العظمة الانسانية فى مختلف أزمانها ، واستخفافا بالغرائب التى تخلقها العادة العارضة لعبادها ، ثم هى لا تستحق من هوانها أن نخسر من أجلها شعورنا بعظمة الإنسان وانها لأنفس مانصونه ونعتزّ به فى جميع الأزمان .

عدل عمر نخسره لأنه كان يقضى فيه بغير « استئمارة » مدموغة ينص عليها قانون المرافعات ! أو لأنه كان يقضى فيه على غير « الاجراءات العصرية » فى مواجهة الحقوق الشخصية ! أو لأنه كان يقضى فيه قضاء يختلف الفقهاء فى عنوانه وفى الرف الذى يضعونه عليه بين رفوف الأضابير

يالها من حماقة تخجل العصر الحديث ! تخجله وهو واقف بين العصور يتطاول عليها بتسخيف الحماقات وإدحاض الخرافات .

---

(١) البيع : الكنائس

عمر والنبي

يندر أن يظفرَ الباحثون فى طبائع الانسان بمغنم نفسيٍّ هو أوفرُ ثمرةً وأنفسُ محصولا من دراسة عمر بن الخطاب ، لأن الظواهرَ المختلفة التى تتجلى فى هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ولا ظواهر كل دراسة ، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جدا فى النفوس التى نعهدها ، ومما يتعذر جدا حتى فى نفوس الأفذاذ من العظماء .

بَيْدَ أن المغنمَ الأكبر فى هذه الدراسة انما هو مغنم علم الأخلاق . لأن علم الأخلاق أحوجُ الى الاستدلال بالظواهر الطبيعية ، وأفقرُ الى الأسناد والدعائم التى تقيمها أمثالُ هذه الدراسات .

فكل نفس ــ عظمتْ أو صغرتْ ــ فدراستُها مغنم لعلم النفس لاشك فيه ، كائنةً ماكانت النتيجة التى نتأدى إليها من بحث خفاياها وتنظيم شواهدها .

لكن الوصول الى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذى لن يزال اليوم وبعد اليوم صعبا وجديدا الى أمد بعيد .

فالمفروض أن نتائجَ علم الأخلاق « فكرية تكليفية » يستنبطها الفكر الذى يختلف فى صوابه كما يختلف فى خطئه ، ويمليها التكليف الذى يطاع ولا يطاع ، ويراض عليه الانسان رياضتَه على الأمر الغريب « الأجنبى » عن نوازع الطباع .

فاذا اهتدينا الى نفس تعزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التى هى أقرب الى الآمال المنشودة منها الى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغنم كبير

واذا ظفرنا بحقيقة نفسية هى فى الوقت نفسه حقيقةٌ فكرية وحقيقة خلقية فذلك هو المغنم المضاعف الذى قلما يُنال .

ونفس عمر بن الخطاب هي تلك النفس التي تدعَم علم الأخلاق من الأساس ، وهي ذلك الصرح الشامخ الذي ننظر الى أساسه فكأننا تسلّقنا النظرَ الى ذروته العليا ، لأنه قرَّب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب ، اذ هو التقريب الملموس .

آمال كثيرة من آمال محبي الخير ودعاة الاصلاح هي في نفس عمر بن الخطاب وقائع مفروغ منها ، كأنها وقائع المرئيات والمسموعات .

فمنها فيما أسلفناه أن القوة لا تناقض العدلَ في طبيعة الانسان بل يكون العدلُ هو القوةَ التي تُخيف فيخافها الظالمون .

ومنها فيما نحن بصدده الآن أن القوة لا تناقض الاعجاب على خلاف مايتبادر الى الأكثرين .

فان الأكثرين يحسبون أن الرجل الذي يُعجَب به الناسُ لا يُعجَب هو بأحد ، وأن البطل الذي يقدسه عشاق البطولة لا يعشَقُ البطولةَ في غيره ، وأن التطلع الى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار ، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضةَ أن يصغر الى جانب المتفوقين عليه ، ممن هم أكبر قدرا وأحق بالاعجاب .

لكن البطل الذي ندرسه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان أقوى نقض مستطاع ، لأنه بطل يرُوع ويعرف رَوْعةَ البطولة .. ويستحق الاعجاب غاية استحقاقه ، ثم يخيل اليك من فرط ولائه لمن يفوقونه أنه خُلِق للاعجاب بغيره ، ولم يخلق ليكون هو موضعَ إعجاب .

فعمر كان يحب محمدا حب اعجاب ، ويؤمن به ايمان اعجاب ، ويستصغِر نفسَه اذا نظر الى عظمة محمد ، وما هو فيما خلا ذلك بصغير في نظر نفسه ولا في نظر الناس .

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوةً في الدعة وحسن المعاملة لجميع صحبه وتابعيه ، وكان يعامِلهم جميعا معاملة الاخوان والزملاء ،

فلا يغمُرهم برهبة التفاوت الشاسع والتفوق البعيد . فلو جاز أن ينسى أحدٌ فارقا بينه وبين عظيم لنسى أصحاب النبى هذا الفارقَ بما يلقونه من مساواته وحسن معاملته ، ولو نسيانا الى حين .

الا أن عمر « العظيم » سمع مرةً من صديقه محمد عليه السلام كلمة « يا أخى » فظل يذكرها مدى الحياة .

استأذنه فى العُمْرة فأذن له وقال : « يا أخى لا تنسَنا من دعائك » . فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها : « ما أُحِب أن لى بها ما طَلعتْ عليه الشمس ، لقوله يا أخى ! » .

شهادة لعظمة محمد أنه يؤاخى الناس كبارا وصغارا وأن الناس كبارا وصغارا لا ينسَوْن مافى مؤاخاته من فخر وغبطة ، وما بينهم وبينه من فارق بعيد .

وشهادةٌ لعظمة عمر أنه أهلٌ لذلك الاخاء ، لأنه يدرك مافيه من عظمة ، ويشعر بما فيه من رضوان .

وما يدريك ماعمرُ الذى يَشيع فى قلبه الفرح بهذا الاخاء ؟

ليس بالرجل الذى يُحب تواضُعَ المرائين ، وليس بالرجل الذى يجهل مقداره أو يَهاب مخلوقا بغير الحق ، وبغير الاعجاب .

عمر هذا هو الذى تولى الخلافة وحُجَّته الأولى فى ولايتها أنه أكفأُ المسلمين لها غيرَ مُدافَع ، وأنه كما قال : « لو علمتُ أن أحدا أقوى منى على هذا الأمر لكان أن أقدَّم فتضربَ عنقى (١) أحبَّ الىَّ من أن أَلِيَه » (٢) .

نعم ، هو عمر أقدرُ المسلمين كما يعلَم ، وهو عمر الذى يستصغر نفسه اذا نظر الى المثل الأعلى والقدوة الفضلى ، وهو اذن أكبر مايكون بهذا الاستصغار .

---

(١) العنق : يذكر ويؤنث

(٢) أليه : مضارع من ولى الامر فهو يليه وأنا اليه

لقد كان يَسمَع وهو خليفة يقول كالساخر وما هو بساخر : « بخ بخٍ (١) يابن الخطاب . أصبحتَ امير المؤمنين ! »

اكان يقولها لأنه كان يجهل انه آكفأ العرب للخلافة بعد صاحبيه ؟ .. كلا .. بل كان يقولها لأنه يعرف النظر الى المثل الأعلى .. يعرف الاعجاب بما فوقه ، يعرف محمدا ويعرف أن اللحاقَ به أمل" لا يطالُ ، يعرف الإعجاب بطلاً مُعجَبا ببطل ، ويشاء فضلُه أن تُحصى له هذه بين أصدق شواهد البطولة فيه .

ومن الخطإ أن يتوهم المتوهّم أن عمر كان يتصاغَرُ لأنه يَشعُر بِصِغره ، ويتواضع لأنه يَشعُر بضَعةٍ فيه .

ان الصغير لا حاجة به الى تصاغر لأنه صغير" ، وربما كانت حاجتُه الكبرى الى مُدَاراة شعُوره الدخيلِ بتفخيم الرواءِ ، وتزويق الطلاء، والتخايل بالمسكن والكساء .

وانما كان عمر يتصاغَر لأنه يشعر بعظمتهِ ويكبَح ما يخامِره من اعتداد بنفسه ، ومحال" أن تمتلىءَ نفس" بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها . فليس ذلك من معهودِ الطباع فى حيٍّ من الأحياء ، ولا نقصر القول على الانسان .

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر مايراه من بواعث الكبرياء ، لا على قدر مايراه من بواعث الصغر ، فأبى أن يَركبَ البِرذَوْن (٢) وهو يُغالِب عزة الفتح داخلا الى الشام دخول المنتصر ، وقيل له فى ذلك فصاح بهم : خلّوا سبيل جَمَلى ! انما الأمر من ها هنا ، وأشار الى السماء !

وكلما اعتَز مَنْ حوله من خاصة أهله وخلصاء رعاياه بما يرونه فيه من بَسطَة السلطان وعلو الكلمة غضّ من اعتزازهم وأحضر فى أذهانهم ماينسيهم السلطان المبسوط والكلمة العالية فقال لأصحابه يوما وقد مرّ

---

(١) بخ : كلمة تقال عند الرضا بالشىء

(٢) البرذون : ضرب من الدواب يخالف الخيل العراب ، عظيم الخلقة غليظ الاعضاء

بيعض الشّعاب (١) على مقربة من مكة : « لقد رأيتُنى فى هذه الشّعاب أرعى ابلَ الخطاب ، وكان غليظا يتعبنى ، ثم أصبحتُ وليس فوقى أحد ! » .

وضايقت هذه الكلمة ابنه فقال له : « ماحملك على ماقلتَ يا أمير المؤمنين ؟ » .. قال : « ان أباك أعجبَه نفسُه فأحب أن يَضَعها » (٢) .

وانظر هنا الى كلمة « أمير المؤمنين » يقولها الابن ، ثم انظر الى كلمة « أباك » يقولها أمير المؤمنين .

ومن قبيل هذا ركوعُه لله ذليلا خاشعا يوم أمَر أبا سفيان أن يَنْقُل الحجر من مكانه فنقله ، فخشع لله الذى جعله يأمر أبا سفيان فى شِعاب مكة فيستمع لما أمر .

وليس هذا وأشباهُه تصاغرا يكشِف الصغر ، انما هو تصاغرٌ يكشف القوة والاعتداد بها ، ويكبَحُها بعنان متين هو نفسُه دليلُ القوة والاعتداد .

***

بل يشاء بأسُ هذا البطل أن تتَمادى فيه الصفاتُ الى غايتها وهى متناقضةٌ فى النظرة الأولى ، فاذا بهذا التمادى يردها الى الوفاق والتكافؤ ولا يوسع ما بينها من ظواهر الاختلاف .

فمما رأيناه أنه عادل يفوق العدول ، وقوىٌ يفوق الأقوياء ، فاذا العدلُ والقوة فيه وفقان متساندان لايختصمان ولا يتناقضان .

ومما رأيناه أنه بطل تُعجب بطولته الأصدقاء والخصوم ، ثم هو فى اعجابه بالبطولة كأنه خلو من دواعى الاعجاب .

وبقى من موافقاته النادرة أن الاعجاب عنده لاينقض الاستقلال ، ولا يهدد « الشخصية » بالفناء والزوال ، فيعجب بمن يفوقه غاية الاعجاب ، ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ ، ولا يتناقض الأمران .

(١) الشعاب : جمع شعب (بكسر الشين) وهو انفراج بين الجبلين أو هو الطريق
(٢) ان يضعها : ان يقلل من شانها

فلم يكن أحد يُعجَب بمحمد أكبرَ من اعجاب عمر .

ولم يكن أحد مستقلا برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر فهو آية الآيات على أن فضيلة الاعجاب لا تَغُضُّ من صراحة الرأى عند ذى الرأى الصريح .

فما أحجم عمر قطُّ عن مصارحة النبى عليه السلام برأى يراه ، ولو كان ذلك الرأىُ من أخص الخصائص التى يقف عندها الاستقلال .

فمحمدٌ فى بيته وهو صاحبه ، ومحمد فى شريعته وهو صاحبها ، كان يستمع الى عمر حين يقترح وحين يستنزل الأحكام ، وحين يستدعى الوحى فى أمر من الامور .

فكان يشير على النبى عليه السلام أن يَحجُب نساءه ، ويبلغ ذلك احدى أمهات المسلمين زينب فتقول له : انك علينا يا ابن الخطاب والوحىُ ينزل علينا فى بيوتنا ! .. وتخرج احداهن سودةُ وهى تحسَبُ أن أحدا لا يعرفها لاستتارها بالظلام فيعرفها بطول قامتها ويناديها « عرفتك يا سودة ! » ليؤكد ضرورة الحجاب . فيؤمَرُ المسلمون بعد ذلك ألا يسألوهن الا من وراء حجاب .

ولما همَّ النبى عليه السلام بالصلاة على عبد الله بن أُبَيٍّ كبير المنافقين يوم وفاته تحوَّل عمر حتى قام فى صدره ، وأخذ يذكّره مساوىء عبد الله وأقاويله فى النكاية بالاسلام ، وحكمَ القرآن فيه وفى أمثاله أن « استغفرْ لهم أو لا تستغفرْ لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفِر الله لهم » ، وألح فى التذكير حتى أكثرَ على النبى عليه السلام وهو يبتسم ويقول له : « أخِّر عنى ياعمر ، لو أعلمُ أنى إن زدت على السبعين غُفِر له زِدْتُ » ، ثم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه .. ثم ما كان الا يسيرا كما قال عمر حتى نزلت هاتان الآيتان : « ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبدا ولا تَقُم على قبره » .

وروى أبو هريرة عن النبى عليه السلام أنه أنفذه الى رهط من المسلمين

فقال له : اذهب اليهم « فمن لقيتَ من وراءِ هذا الحائط يشهَد أن لا اله الا الله مستيقِنا بها قلبُه فبشّره بالجنة » ، فكان أول من لقِيَ عمر ، فصده وعاد به الى النبى يسأله : « يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، أبعثتَ أبا هريرة منْ لَقِيَ يشهد أن لا اله الا الله مستيقنا بها قلبُه بشّره بالجنة ؟ » . قال النبى : نعم . فلم يتريث عمر أن قال : « فلا تفعل يا رسول الله ! فانى أخشى أن يتّكِل الناسُ عليها . فخلّهم يعملون » ، فوافقه عليه السلام وقال : « فَخَلّهم ! » .

وفى التشريع أو التحليل والتحريم كان عمر لا يقنعُ حتى يصل الى القول الفصل فيما يستفسر عنه ويتردد فى حكمه ، فما زال يسأل عن الخمر حتى حُرّمت وبطلَ فيها الخلاف . وهو هو الذى كانت الخمر شهوةً له فى الجاهلية يُحبها ويكثر منها ، ولو شاء لالتمس الرخصَة فيها ولم يكثر من السؤال عن تحريمها ، ففى سؤاله عنها وحَذرِه منها فضل أكبرُ من فضل الاستقلال بالرأى والاخلاص فى المراجعة ، وهو فضل الغَلبةِ على النفس والتحصنِ من الغواية بالأمر الذى لا هَوادة فيه .

وجرى صلحُ الحديبية الذى كان ظاهرُ الغبنِ فيه على المسلمين ، وظاهرُ الفوزِ فيه للمشركين . فيستطيع قارىء التاريخ قبل أن يحصى أسماء المعارضين للصلح والصابرين عليه أن يعلم أين كان عمر بين الفريقين : فقد غمّه هذا الصلحُ غما شديدا وذهب الى أبى بكر يراجعه ويناجيه : علام نُعطى الدنيّة فى ديننا ؟ فأجابه أبو بكر : ياعمر الزم غَرْزك (أى رحلك (١)) فانى أشْهَد أنه رسول الله . وردد عمر أنه ليشهد أنه رسول الله ، ثم ذهب فى بعض الروايات اليه عليه السلام فسأله : ألسنا يارسول الله على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ ورسول الله يجيبه : بلى ! بلى ! فيعود فيسأل : علام نعطى الدنيّة فى ديننا ونرجع ولما يحكمِ اللهُ بيننا وبينهم ؟

---

(١) الرحل : كل شىء يعد للرحيل من متاع ومركب الخ .

فلما ناداه : ابن الخطاب ! انى رسول الله ! ولن يُضيِّعنى الله أبدا ، ثم علم أنه الفتحُ المنتظرُ ، ثاب الى الرضى وكفّ عن السؤال .

والمحنة على ماهى عليه أعظم مما يطيقه صبر عمر وتسكن اليه سورة (١) طبعه . فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عامَهم ذاك فيردوا مَن جاءهم من قريش ولا تَرد اليهم قريش أحدا ممن يجيئون اليها ، وأن يكتب النبى اسمه فى عقد الصلح فلا يكتب فيه أنه رسول الله ، وهذه محنة وردت على حَمية (٢) عمر بالوارد الجلَل الذى ليس أقسى منه ولا أمر على هذه الحمية العَزوف . ولكن الصلح لم ينته حتى تفاقمت المحنة وادلهمت الغاشية كأن ماابتلاه منها لايكفيه . فبينما هم يكتبون اذ جاء أبو جندل ابن سهيل يرسف فى الحديد قد انفلت الى رسول الله . فقام اليه سهيل(٣) ــ وكان وكيل المشركين فى عقد الصلح ــ فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ليدفع به الى قريش ، وأبو جندل يصيح : يامعشر المسلمين ، أأُرَد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فواساه النبى ودعاه الى الصبر والاحتساب(٤) ووثب عمر اليه يمشى الى جنبه ويُدنى منه قائم السيف ويقول له : اصبر يا أبا جندل فانما هم المشركون ، وانما دمُ أحدهم دمُ كلب . ورجا ــ كما قال بعد ذلك ــ أن يأخذ أبو جندل سيفه فيضرب به أباه .. قال : ولكن الرجل ضَنّ بأبيه ونفذت القضية .

فالمحنة أعظم مما تطيقه الحمية العمرية بغير وازع من هداية نبوية . ولأيا ما (٥) سكنت نفسُه واطمأنت الى حكمة سيده ومعلّمه وهاديه . ولا سيما حين ناداه : ابن الخطاب ! انى رسول الله ولن يُضيِّعنى الله أبدا ..

هذه المراجعة كانت من خلائق عمر التى لا يحيد عنها ولا يأباها النبى عليه السلام ، وكثيرا ماجاراه واستحب ما أشار به وعارض فيه . فلا جَرَم

(١) سورة الغضب : وثوبه ، وسورة السلطان سطوته واعتداؤه .
(٢) الحمية : الأنفة ، والمراد انها نزلت على انفة عمر وكبريائه نزولا عظيما .
(٣) سهيل : هو أبوه .
(٤) الاحتساب : الصبر وادخار الاجر عند الله على هذا الصبر .
(٥) لأيا ما : اللأى الشدة والمشقة . يقال فعل ذلك بعد لأى ، ولأيا عرفت الشىء ، او لأيا ما .

يراجع النبى فى كل عمل أو رأى لم يفهم مأتاه ومرماه ما أمكنته المراجعة ، وما قلقت خواطره حتى تثوب الى قرار .

اللهم الا أن تستعصى المراجعة ويعظم الخطر فهناك تأتى الخليقة العمرية بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذى يضطلع بجلائل المهمات .

فلما دخل النبى عليه السلام فى غمرة الموت ودعا بِطِرْس (١) يملى على المسلمين كتابا يسترشدون به بعده أشفق عمر من مراجعته فيما سيكتب وهو جد خطير ، وقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم غَلَبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسْبُنا (٢) . ومال النبى الى رأيه فلم يعد الى طلب الطِّرس واملاء الكتاب . ولو قد علم النبى أن الكتاب ضرورة لا محيص عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين .

وكانت هذه سنته فى حياة النبى وبعد موته فى كل عمل لا يستريح اليه ، فلم يُحجم عن مراجعة أمره حيا وميتا فى مسألة ليست من مسائل الوحى الذى فيه فصل الخطاب ، وما كانت المسألة مسألة رأى فهو ناهض لها برأيه حتى يؤمنَ بخطئه أو يرده عن المعارضة أمر مطاع .

كذلك صنع فى قيادة أسامة بن زيد قائد الجيش الى البلقاء ، وفيه جِلّة الصحابة من كبار السن والمقام . فقد ولاه النبى القيادة ومات عليه السلام وهو فى أول الطريق ، فقال أسامة لعمر : ارجع الى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه يأذن لى أن أرجع بالناس ، فان معى وجوه الناس (٣) ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثَقَل (٤) رسول الله وثَقَل المسلمين أن يتخطّفهم المشركون » ، وقالت الأنصار : « فإن أبى الا أن نمضى فأبلغه عنا واطلب اليه أن يولّى أمرنا رجلاً أقدم سنا من أسامة » .

وغضب أبو بكر وكان جالسا فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله وتأمرنى أن

(١) الطرس : الصحيفة
(٢) حسبنا : يكفينا .
(٣) وجوه الناس : أكابرهم .
(٤) الثقل : الحشم والمتاع .

أنزعَه ؟ ..

فوجبت الطاعة ، لأنه أبرأ ذمتَه بالمراجعة وسمع أمر الرئيس الذى لا رجعة فيه ، وعمر جندىٌّ متى صَرُح (١) له الأمر من صاحب الأمر لم يبق له الا أن يطيع .

وخُتمت سُنَّة النبى بوفاته فلم يكن بين الصحابة أحدٌ أحرص على هذه السُّنة وألزمُ لها وأكثر رجوعا اليها من عمر . ولم تكن له وصيةٌ مقدمةٌ على الأخذ بكتاب الله وسُنَّة رسوله . الا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل اذا وجب البحث عن العلة التى وراء السنة النبوية ، فخالف أبا بكر رضى الله عنه فى اقطاعه الأرض لعيينة بن حصن والأقرع بن حابس وقال لهما : ان رسول الله كان يتألّفكما (٢) على الاسلام وهو يومئذ ذليل ، وان الله قد أعز الاسلام .. « فاذهبا فاجهدا جهدكما .. »

فقد علم سنة النبى مع « المؤلفة قلوبهم » ولم يغفل عن سببها وموقتها ، فهى سنَّة تطاع لحكمتها ولا توضع فى غير موضعها ، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التى ألفوها من صاحب الرسالة ، اذا تغيرت الحكمة واختفت العلة ، واستغنى الإسلام عن ناصرين تتألفهم العطايا والأنفال (٣) .

ولمثل هذا السبب ولاشك نهى عن زواج المتعة ونهى عن التحلل من بعض مناسك الحج ولم يكن منهيًا عنهما كل النهى فى حياة النبى عليه السلام . فكان الرجل يتزوج بالمرأة لأجل معلوم ثم يتركها . وكان منهم من ينوى الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه ، فنهى عنهما عمر فى أيام خلافته وقال : « متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأضربُ عليهما » .

وموافقات عمر للقرآن وللسنة كثيرة لايدعونا المقام هنا الى احصائها واستيفائها ، وكذلك مراجعاته ومناقشاته فيما يَرِد عليه من أحكام لاتنجلى

(١) صرح الامر : وضح .
(٢) يتألفكما : يعطيكما ليستميل قلوبكما.
(٣) الانفال : جمع نفل وهو الغنيمة .

مآتيها ومراميها ، فحسبنا منها دلائل استقلاله وصراحة عقله فيما سردناه ، وحسب الاسلام فخرا أن يؤمن به الانسان ايمان عمر ثم يستقل برأيه وطبعه استقلال عمر . فالايمان فى أقصاه لا يعطل الرأى المستقل فى أقصاه ، وكل صفة فى عمر فهى صفة" مستقصية لا وسط فيها . اذا آمن فذلك غاية الايمان ، واذا استقل فذلك غاية الاستقلال ، واذا أعجب فذلك غاية الاعجاب .. وان الظفر الذى يظفره علم الأخلاق من دراسته لمبعثه هـذا الشاهد من الصفات التى تتناقض فى ظاهرها وهى على عهدنا بها فى عمر متفقات" متساندات" لاتستغنى واحدة منها عن سائرها .

فلو لم يكن فى دراسة عمر الا أن نرى رجلا عادلا بالغا فى عدله ، قويا بالغا فى قوته ، معجبا بالبطولة بالغا فى اعجابه ، مستقلا بالرأى بالغـا فى استقلاله ، لكفى بذلك ظفرا لعلم الأخلاق ، وكفى بسيرة واحدة أن تقرر لنا هذه الحقائق التى تستكثر على عشرات السير ، وهى أن القوة لاتناقض العدل ، وأن البطولة لاتناقض الاعجاب ، وأن الاعجاب لايناقض الاستقلال وتلك الحقائق أثبت فى عمر من معارف بدنه وملامح سيماه .

***

وكانت مودة النبى لعمر كمودة عمر للنبى شرفا له من جانبيه ، وشهادة لعظمته وعظمة معلّمه ومؤدبه وهاديه .

كانت نظرة محمد اليه نظرة" عالية" لا تعلوها نظرة أحد من أصحابه فلم يكن أحد" يكبر عمر كما كان يكبره أكبر عارفيه ، ولم يكن رضاه عن مخالفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافقاته وتسليماته . لأنه كان ينظر الى بواعث هذه وتلك فيحمدها ويرجو للاسلام خيرا منها ، بل يدخـر للإسلام سورته (١) كما يدخر له تسليمه وطاعته ، ويسوسه فى رفق وكرامة سياسة المعلم لتلميذه الذى يعينه ويستعين بغيرته ،ويروضه رياضة الامام لمريده الذى يهيئه للامامة بعد حين ، ويشجعه بقبول الحسن من رأيه تشجيع من يتثبت فيه حسن الرأى ويستزيده منه .

(١) سورته : سورة الغضب وثوبه ، وسورة السلطان سطوته .

ولا يتأتى أن ينظر النبى الملهم الى عمر دون أن يرى فيه أولى مشابهاته للطبائع النبوية وهى الالهام الدينى والبصيرة الروحية ، فكان عليه السلام يقول فيه : « لقد كان قبلكم من بنى اسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فان يكن فى أمتى أحدٌ فعمر » .

ومثله قوله فى بعض مانُقل عنه عليه السلام : « لو كان بعدى نبىٌّ لكان عمرَ بن الخطاب » وقوله : « ان الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبِه » .. وقوله : « عمر بن الخطاب معى حيث أُحب ، وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان » .

وتلك لمحات نبىٍّ ملهم الى بصيرة ملهمة تقارب بصيرة الأنبياء .. وان فى هذه اللمحات لمعرفة بالنفس ونفاذا الى الضمير ، من أجلها كان محمد مصلحَ نفوس وهادى ضمائر ، وفاتح عهد روحىٍّ فى تاريخ الانسان .

ومن تحصيلِ الحاصلِ أن نقول إن محمدا قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر وكل خليقة من خلائق طباعه . وراقبه قبل اسلامه وبعد اسلامه فلم تفته كبيرةٌ ولا صغيرةٌ من مواطن العظمة فيه ، الا أنه لم يَحمَد منه شيئا كما حَمِد حبَّه للحق وكراهته للباطل ، فهى الخَصلة التى تلاقيا فيها وتقاربا من قِبلها ، وان كان محمدٌ لأرحبَ صدرا وأعلم بالناس من أن يكلف صاحبه أن يشبهِه كلَّ الشبه فى علاج الحق والباطل ، فلابد من فارق بين الرجلين هو الفارق الذى لابد منه بين المعلم والمريد وبين الامام والمأموم .

ولا نخالنا نلمس هذا الفارق كما نلمسه من قصة الاسود بن شريع ذلك الشاعر الذى كان يُنشد النبىَّ بعض الأماديح فاستنصته (١) مرتين اذ دخل عليهما عمر والشاعر لا يعرفه . فصاح : واثُكلاه (٢) ! من هذا الذى أسكتُّ له عند النبى ؟ فقال النبى : هذا عمر ... هذا رجلٌ لايحب الباطل ! » .

(١) استنصته : طلب منه السكون والانصات .
(٢) الثكل : فقد الحبيب ، وكلمة واثكلاه .. صيغة من صيغ الندبة يراد بها التحسر وابداء الدهشة هنا .

وتلك قصة تكبر عمر مرة وتكبر النبي مرات ، فلا يسمعها السامع فيخطر له أن محمدا كان يقبل الباطل الذى يأباه عمر . أو كان يهوى اللغو الذى يُعرضُ عمر عن سماعه ... وانما يسمعها فيعلم أى الرجلين يهدى صاحبَه فى مناهج الحق ويدرّبه على كراهة الباطل ، ويعلم أن الامام يطيقُ مالا يطيقه المريد ويتسع صدره لما تضيق به صدور تابعيه ، وأن محمدا أراد أن يعود الناس مهابةَ عمر ، وأن يستبقى لعمر سورته فى محاربة الضلال ، والأيام كفيلة بترويض تلك السورة فيما ينبغى أن تراض عليه ..

وهنا يتجلى مذهبان فى كراهة الباطل ، ويتجلى فارق واضح بين مذهبِ المعلم ومذهب المريد .

فعُمَر كان ينكر الباطل انكار المحارب ، ويرفع له سلاحه حيثما رآه ، ومحمد كان ينكره ولا يرفع له سلاحه حيثما رآه ... لأنه يعلم ضروبا من الباطل وضروبا من الانكار .

ومن الانكار أحيانا أن يتجاوز عنه ، وأن يشفق عليه اشفاق الرجل على سخف الطفل الصغير ، وأن يتربص به الأيام حتى يزول ، وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب ، وهو بذلك قد أعد له ضروبا من الانكار ، وكان أكمل عدة له من الراصدين له فى ميدان واحد .

أنقول ان الفارق بين محمد وعمر فى هذا هو الفارق بين نبى وخليفته ؟!

ان قلنا ذلك فقد قلنا حقا جامعا لاشبهة فيه ، ولكنا لا نعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الأسماء .. فمحمد نبى وعمر خليفة مافى ذلك خلاف . ولابد بينهما من فارق مافى ذلك خبر جديد ، فما هو الفارق الذى لايعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات ؟

الفارق فيما نرى هو الفارق بين انسان عظيم ورجل عظيم .

فالنبى لا يكون رجلا عظيما وكفى ، بل لابد أن يكون انسانا عظيما فيه كل خصائص الانسانية الشاملة التى تعم الرجولة والأنوثة والأقوياء

والضعفاء ، وتهيئه للفهم عن كل جانب من جوانب بنى آدم . فيكون عارفا بها وان لم يكن متصفا بها ، قادرا على علاجها وان لم يكن معرضا لأدوائها، شاملا لها بعطفه وان كان ينكرها بفكره وروحه ، لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد (١) ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخبر (٢) بسعة آفاق الدنيا التى تتسع لكل شىء بين الأرض والسماء ، لأنه يملك مثلها آفاقا كآفاقها ، هى آفاقُ الروح .

ومن الصغائر الآدمية التى كثيرا ما يطيقها الانسان العظيم ويبرم بها الرجل العظيم كل غرور صبيانى يَحيك بنفوس الناس ، وهو ضروبٌ ليست لها نهاية : غرور الشاعر بأماديحه ، وغرور الفنانِ بصنعته ، وغرورُ المرأة بجمالها ، وغرور الشيخ بتراثه ، وغرور الأحمق بخُيلائه ، وغرور الجاهل بعلمه .. وفى كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمر فارقٌ واضح وتفاوتٌ محسوس ، وكانت بينهما دروس تجرى بها الحوادث تعليماً وهدى كما تجرى عرضا غير ظاهر فيه قصدُ التعليم والتلقين .

وعمر رضى الله عنه قد استفاد من دروس معلمه وهاديه فى هذه الضروب شتى الفوائد ، كما ظهر من سياسته فى أيام خلافته ومن مراجعةِ نفسه والنبى عليه السلام بقيد الحياة .

فقد أشار على النبى بقتل عبد الله بن أبيٍّ بن سلّول حين مشى بالفتنة بين المسلمين . فأبى النبى وتركَ عبد الله يمضى فى شطَطه حتى أنكره قومه وعَنّفوه ، وتصدى له من صُلبه من يريد له الموت (٣) ، فقال النبى لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدَتْ له أنفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ بركةً من أمرى .

وكان عمر يستكثر صلاة النبى على عبد الله بن أبيٍّ بعد موته ويستعظم

---

(١) الأنداد : جمع ند وهو النظير الكفء . (٢) أخبر : اكثر خبرة .

(٣) كان من المنافقين وهو الذى قال فى غزوة بنى المصطلق « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل » فغضب الرسول والصحابة لقولته .

أنْ يَهَبَه قميصه وأن يكفنه أهله فى ذلك القميص ، وكان النبى يرعى فى ذلك حق ابنه الذى أخلص فى اسلامه ، وبلغ من اخلاصه أنه اقترح على النبى قتل أبيه ، وسئل النبى كما جاء فى بعض الروايات : لم وجهت اليه بقميصك وهو كافر ؟ فقال : ان قميصى لن يغنى عنه من الله شيئا ، وانني أؤمل من الله أن يدخل فى الاسلام كثيرا بهذا السبب ؟ فقيل ان ألفا من الخزرج أسلموا لما رأوا زعيمهم يطلب الاستشفاء بثوب الرسول ، وخرجت الصحابة وعمر فى طليعتها بعبرة باقية من هذا الدرس النبوى الحكيم ..

وشبيه بدرس عبد الله بن أبى درس الخطيب المفوه سهيل بن عمرو الذى أسر فى بدر فأشار عمر على النبى بكسر ثنيَّتيه السفليين ليعجز عن الكلام اذ كان مشقوقَ الشَفَة السفلى .. فأبى النبى « عسى أن يقومَ مقاما لا تذمه » ، فما زال ومازال عمر حتى رآه فى حروب الردة يقطع بلسانه كما يقطع السيف ، فحمد له ذلك المقام .

وجاء الفتح بعد صلح الحديبية فرأى عمر كما رأى المعارضون معه أن قريشا خسرت ولم تربح بالصلح الذى عارضوه ، وأن المسلمين ربحوا ولم يخسروا بقبوله ، وأنهم زادوا عددا وزادوا حلفاء من غير المسلمين ، وان الذين رفضهم النبى من تابعيه عملا بالصلح لم ينفعوا قريشا بل كانوا بلاء عليها أشد من بلاء القتال . وبدا ذلك من مبدأ الأمر لعمر فاعتبر به وقال : « مازلت أتصدق وأصوم وأصلِّى وأُعتق من الذى صنعت يومئذ مخافةَ كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا » .

وتجتمع خلاصة هذه الدروس كلها فى خبر واحد من أخبار عمر بعد ولايته الخلافة ، وذلك حين بلغوه فتح « تستر » وذكروا له أن رجلا ارتد عن الاسلام فقتلوه ، فلامهم على قتله وقال لهم : « هلا أدخلتموه بيتا وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفا فاستتبتموه (١) ؟ اللهم انى لم أشهد ولم آمرْ

(١) استتبتموه : رجوتم توبته

ولم أرض اذ بلغنى » .

فهذا عمر تلميذ محمد فى الاسلام ، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول ومَن على شاكلته من المنافقين والمشركين ، وهذا عمر المستفيد بما وعَى من تلك الدروس ، ومعنى ذلك جميعه أن محمدا أعظم من عمر ، وليس معناه أن عمر لم يكن بعظيم .

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن النبى عليه السلام كان يعلم مايحتاج اليه صاحبه وما يستغنى عنه من الدروس . فعمر لم يعوِزْه قط درسٌ قوى يعلّمه حبَّ الحق وكراهة الباطل لأنها خليقة متمكنة منه أصيلة فيه موشوجة (١) بطبعه ، ولكنه قد يعوزه حينا بعد حين أن يتعلم الصبر على الباطل ولا سيما فى فَوعةِ الشباب (٢) والا يأسى على الحق أن تفــوته معركة زائلة فى صراعه الدائم مع خصمه القديم ، فهى معركة لا تضيع بصدمة ولا تؤخذ بهجمة ، ولا تزال سجالا منظورة العواقب فى ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء .

وربما أعوزه ما يعوز الأقوياء فى معظم الأحايين ، وهو أن يذكروا أن الناس جميعا ليسوا بأقوياء ، وأن الناس جميعا ليسوا بعمر بن الخطاب ، فاذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة فقد يشقّ ذلك على آخرين ، واذا استطاع أن يتصدى للموت فى كل لحظة فليس ذلك فى وسع كل مسلم وقلما يستحضرُ الأقوياء هذه الحقيقة الا بعد تذكير وروية . أما على البداهة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلا لما هم أهل له وكفؤا لما هم قادرون عليه ، ولهم من الشرف فى نسيان هذه الحقيقة فوق مالهم من الشرف فى تذكارها ودوام استحضارها .

وقد كان تفكير عمر كله على البداهة فى عهد النبى عليه السلام ، فكان يُفضى اليه بما يوحيه عفوُ خاطره وتمليه بادرة فكره (٣) ، مطمئنا الى مرجِع الرأى ومَقطَع القول بين يديه ، شاعراً بواجبــه الأول أحسنَ

(١) موشوجة بطبعه: اى موصولة بهمرتبطة (٢) فوعة الشباب : حدته

(٣) تمليه بادرة فكره : اى بما يتاتى له من الراى السريع

شعور فى هذا المقام ، لأنه شعور الرجل الكريم الذى لا يضنّ بشىء من عونه ، فهو يعرض أقصى ماعنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفى باليسير منه اذا شاء ، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير ويترك لصاحب الأمر أن يطلب الكثير .

مثل عمر فى هذه المواقف مثل صاحب المال تنزل الضائقةُ الحازبة (١) فيبسط ما عنده من المال جميعا ويدع للوالى القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد ، وذلك أفضل الحسنيين وأكرم الواجبين ، وهو الواجب الذى يليق بعمر فى صحبة الرسول .

ولا يحسبنّ قارىءٌ أننا نعتسف (٢) التأويل والتخريج لننظر الى عمر فى أجمل الصور ونوجهَ أعماله أحسن توجيه . فما نقوله هنا لا يعدو تفسيرَ عمرَ نفسه لما اتصف به من الشدّة فى عهد رسول الله ، وتفسيرهُ — كما قال غير مرة — أنه كان سيفا للرسول ان شاء ضرب به وان شاء أغمده فى قِرابه ، وأنه كان جِلوازه (٣) القائمَ بين يديه ، وليس من شأن الجلواز أن يمسك كثيرا أو قليلا من بأسه حتى يؤمَر بامساكه ، ويُردّ الى الهَوادة واللين .

بل هذا الذى نقوله هو الذى قاله أبو بكر رضى الله عنه فى شدّة عمر ولينه ، فكلما تحدثوا اليه بغلظته قال : انما يشتد لأنه يرانى لينا ، ولا غلظة على الضعفاء فيه !

فكان جميلا بعمر أن يسهوَ عن تلك الحقيقة وأن يحتاج فيها الى تذكير واستحضار ، وكان أفضل واجبيه لا مِراء أن يعرِض البأس حتى يُؤبَى ، ثم يثوب الى اللين ولا جُناحَ عليه .

وهو اليقين الذى لا يخامرنا الشك فيه أن عمر كان خليقاً أن يفهم تلك الحقيقة بتفصيلاتها لو جعَل بالَه اليها ولم يجعل بالَه الى تقديم ما عنده

---

(١) الحازبة : الشديدة
(٢) الاعتساف : الاخذ على غير الطريق ، يعنى اننا لانحمل التاويل فوق ما يطيق .
(٣) الجلواز : الشرطى

« والجود بأقصى جوده » في انتظار القول الفاصل من رأى النبى عليه السلام ، ولولا استعداده لفَهم تلك الحقيقة وما شابهها لما انتفع بالقدوة ولا أغنت معه المثُل والتجاريب .

ومهما يكن من حاجته الى دروس معلمه وهاديه فالذى نعتقده أن مكانه من الخلافة لم تقرره الحاجة الى تلك الدروس ، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد فى هذا الاعتبار سواءٌ منهم الخلفاء الراشدون وغيرُ الخلفاء الراشدين . فما من رجل كان بين أصحاب محمد عليه السلام الا كان مفتقرا الى جانب من جوانب هديِه وتهذيبه وتقويمه ، وما كان عمر على التخصيص بأشد افتقاراً إلى ذلك من رفاقه وتابعيه وان اختلف مايَعْوِزه وما يعوزهم من مواضع الهدْى ، والتهذيب ، والتقويم .

وواضح مع هذا أن دعوة النبى عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس فى مرض وفاته لم تكن بالمصادفة ولا بالاختيار الذى يتساوى فيه أبو بكر وعمر فى ذلك المقام . فقد دعاه ثم دعاه حتى وصل الأمر اليه رضى الله عنه فلباه . وتفصيل ذلك كما جاء فى رواية البخارى أن النبى اشتدَّ عليه المرض فقال : مروا أبا بكر فليُصلِّ بالناس : قالت عائشة رضى الله عنها : إن أبا بكر رجل رقيق القلب اذا قام فى مَقامك لايكاد يُسمِع الناسَ من البكاء . فلو أمرتَ عمر ؟ فعاد النبى يقول : مروا أبا بكر فليصلِّ ! فعاودته ، فقال مرة أخرى :مروه فليصل ، انكنَّ صواحبُ يوسف (١) .

وحدَّث عبد الله بن أبى زمعة أن بلالا دعا النبى الى الصلاة فقال : مُروا من يصلِّى بالناس ، « فخرجتُ فاذا عمر فى الناس ، وكان أبو بكر غائبا . فقلت : قم يا عمر فصلِّ بالناس . فقام ، فلما كبَّر سمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صوته ، وكان عمر رجلا مُجهِرا (٢) : فقال : فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون . فبعث الى أبى بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس » .

---

(١) العبارة تحمل معنى اللوم والعتب على النساء ، والاشارة الى موقف النساء فى قصة يوسف عليه السلام .

(٢) مجهر : مرتفع الصوت .

قال عبد الله بن أبى زمعة إن عمر لقينى فقال لى : ويحك ! ماذا صنعت بى يا ابن أبى زمعة ؟ والله ما ظننت حين أمرتنى الا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك . ولولا ذلك ما صليت بالناس ... قلت : والله ما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ! ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة .

والواضح من كلتا الروايتين أن النبى عليه السلام قصد الى اختيار أبى بكر للقيام فى مقامه من امامة المسلمين وضمَّن ذلك ما ضمنه من معنى الاستخلاف والتقديم .

فعلى أى وجه نفهم هذا الاختيار الذى صدر عن قصد وروية ولم يصدر عن مصادفة واتفاق ؟ وعلى أى وجه تساءل النبى عليه السلام حين سمع صوت عمر ولم يسمع صوت أبى بكر فقال : « يأبى الله ذلك والمسلمون » ؟ .

اننا لا نفهم ذلك الا على وجه واحد يَجمُل بمحمد ويجمل بأبى بكر ويجمل بعمر كما يجمل بالمسلمين .

فمن البديه أن ينظر النبى فى اختيار خليفته الى جميع الاعتبارات التى تدخل فى الحسبان ولا يقنع بالنظر الى اعتبار واحد . .

فاذا نظر النبى الى جميع الاعتبارات فأى غضاضة على عمر أن يقع الاختيار على أبى بكر ولا يقع عليه ؟

ان اختيار أبى بكر يجمع للاسلام فضائل الرجلين ولا غضاضة فيه على أحدهما ولا على المسلمين . ولكن الغضاضة أن يتأخر أبو بكر وهو أسن وأسبق الى الاسلام وثانى اثنين فى الغار ، وأقمَن (١) أن تبطل حوله منافسة الأنداد ، وله الرأى الصائب والشجاعة المأثورة والايمان الثابت والمسالمة المرضية والحق الظاهر فى الايثار كلما قوبل بغيره من الحقوق .

ومع هذا الرجحان الذى انفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه فى

---

(١) اقمن : اجدر واولى .

الموقف الذى كان منظوراً بعد موت النبى عليه السلام ، وهو موقف رضى ومسالمة بين المسلمين يُغنيان اذا جرت الأمور فى مجراها الطيب المأمون . فاذا تأزمت واضطربت ونفدت حيلة اللين حتى نبذه أبو بكر فى رفقه وهَوادته فذلك إذن موطن الاجماع ، واذا صلُب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلين فى الأمر سواه فصلابتهم أقْمَنُ اذن أن تنعطف بلينه الى الاجماع الذى لا شذوذ فيه .

فالنبى عليه السلام قد حسب للعواقب كل حساب ، وقد نظر فى استخلافه الى كل اعتبار ، وقد وازن بين أمور كثيرة ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة .

ومما نظر اليه عليه السلام أن عمرَ أصغر من أبى بكر بعشر سنوات أو نحو ذلك . فدور أبى بكر لا يحجُب دور عمر ، واذا انتفع الإسلام بمزايا أبى بكر فى حينها الذى هو أحوج اليها فسينتفع الاسلام بمزايا عمر فى الحين الذى يتولاه فيه ، يومَ تغنى الصلابة فى مدافعة الأعداء ما أغناه الرفقُ فى تأليف الأوِدّاء (١) .

ولا يحسبن قارىء هنا أيضا اننا نستخلص النتائج من التاريخ وندرك ما كان بعد أن كان ، فالواقع المنصوص عليه أن الذى رأيناه بعد وقوعه قد كان منظورا اليه قبل أن ينكشف عنه الغيب ، وقد نظر اليه النبى عليه السلام فقال : « أُريت فى المنام أنى أنزع بدلو بَكرةٍ على قليبٍ ، فجاء أبو بكر فنزع ذَنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غَرْبا ، فلم أر عبقريا يفرِى فرِيَّه ، حتى رَوِيَ الناس وضربوا بعَطَن (٢) . ولم يخفَ معنى هذه الرؤيا على معبّريها لأنها لا تحتمل غير تعبير واحد ، وهو الذى أشار اليه الشافعى رحمه الله ففسر ضعفَ النزْع بقِصَر المدة وعَجَلة الموت والاشتغال بحرب أهل الردة عن « الافتتاح والازدياد الذى بلغه عمر فى طول مدته » .

(١) الاوداء : جمع وديد وهو صاحب المودة .

(٢) القليب : البئر ، والذنوب : الدلو المملوءة ، والعطن : مبرك الابل حول الماء والغرب : الدلو العظيمة .

ويجوز أن النبى عليه السلام قد أدخل فى حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيل لايحيط بها أبناء عصره ولا نراها نحن فى عصرنا . فلهـذه المسائل فى جميع العصور نواحيهـا الموضعية ونواحيها الخـاصة التى لا يدركها كل من عاش بينها ولا يتأتى نقلها بالكتابة والتدوين . ومتى كانت هذه هى التقديرات التى فصلت فى مسألة الترشيح للخلافة فأى غضاضة فيها على عمر .. ؟ انها شىء لا يتناوله وحده ، وليست لكفاءة أبى بكر ولا لكفاءته هو كل اليد فيه ، وان الذى حدث لا يعدو أن يكون موازنة بين أحوال ثم تقديما للصالح فى تلك الأحوال ، أو هو تأخير موعد ومناسبة وليس بتأخير حق وكفاءة ، فأبو بكر كفء للخلافة ، وعمر كفء للخلافة ، ولكن تقديم أبى بكر أصلح وأولى وأوفق لأحوال الزمن ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين .

وانك لتكونن على ثقة من حقيقة واحدة فى رهط محمد تجزم بها وأنت آمن أن تخالف التاريخ فيما بطن وفيما ظهر .. وذلك أنه عليه السلام لم يبرم قط أمرا فيه غضاضة على أحد من أصحابه ، ولا سيما فى مسألة الاستخلاف أو التقديم للامامة والصلاة بالناس ، فكل الذى حدث فيها فهو الذى يجمل بالنبى من تقدير وتدبير ، ويجمل بصاحبيه من إيثار وتوقير ، ويجمل بالإسلام من تمكين وتعمير ، وانتفاع بعمل كل عامل ، واقتدار كل قدير .

بقى جانب من جوانب العلاقة بين النبى وعمر لا يسكت عنه لكثرة ما قيل فيه ، فضلا عن وجوب النظر فيـه لأنه يتمم العلم بتلك العلاقة ويزيدنا فهما لها واستقصاء لمداها واطلاعا على طريقة عمر فى الموازنة بين الواجبات والشئون حيثما اشتجرت بين يديه ، ونريد به جانب العلاقة بين عمر وآل البيت ، وبين عمر وابنى عم النبى الكبيرين على وابن عباس بعد انتقال النبى الى الرفيق الأعلى .

فالذين أولعوا فى التاريخ بخلق القضايا والمخاصمات يقولون كثيرا فى

هذه العلاقة ، ويمثلون عمر على صورة الرجل الذى كان يتحدى بنى هاشم ويناجزهم مناجزة لعصبية فيه عليهم ، ولكنهم لا يذكرون من الوقائع ما يعزز شبهة أو يرجح بظن فى هذه الوجهة . وكل ما حفظته لنا أنباء العصر فانما تخلص بنا الى الخلاصة التى تجمل بعمر وتحمد منه . وهى الوفاء المحض لذكرى النبى عليه السلام فى آله وخاصة بيته ، والأمانة المحض لمصلحة العرب والاسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة ، وكل ما عدا ذلك لغو وباطل .

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبى النصيب الأوفى والمكان المقدم بين الصحابة ، وكان لهم التفضيل فى كل حق من حقوق المسلمين حسبما كان بينهم وبينه عليه السلام من رحم وقرابة ، وفضلهم عمر على أقرب الناس اليه فى اللقاء والحفاوة ، فكان فى بعض الأيام ينتظر الحسين بن على رضى الله عنه فذهب اليه الحسين فلقى عبد الله بن عمر فى الطريق فسأله : من أين جئت ؟ قال : استأذنت على عمر فلم يأذن لى . فرجع الحسين ولم يذهب اليه .. ثم لقيه عمر معاتبا وسأله : مامنعك ياحسين أن تأتينى ؟ قال : قد أتيتك ولكن أخبرنى عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت .. فعز ذلك على عمر وقال له : وأنت عندي مثله ! وأنت عندي مثله ؟ وهل أنبت الشعر على الرأس غيركم ؟

وكسا عمر أصحاب النبى فلم يكن فى الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضى الله عنهما ، فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة تصلح لهما وقال حين رآها : الآن طابت نفسى !

وسافر الى الشام فاستخلف عليا رضى الله عنه على المدينة . وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع اليه فى قضائه متحرجا من دعوته اليه حين يحتاج الى سؤاله . استفتاه بعضهم فى مجلسه فقال : اتبعونى ، وأخذهم الى علي فذكر له المسألة فقال علي : ألا أرسلت إلي ؟ قال عمر : أنا أحق بإتيانك .

وكذلك كان يستفتي ابن عباس فى الدين والأدب ولا يلقاه باحثا

مسترسلا فى الحديث الا قال له معجبًا متبسطا : غُص غَوّاص ! (١) وقلما سُئل فى أمر وابن عباس حاضر الا قال يشير اليه : عليكم بالخبير بها .

ولم يحجم عن توليتهم الولايات الا كما أحجم عن تولية الجِلّة من الصحابة ورءوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة وصانهم عن محاسبته وعتابه . وفى ذلك يقول لابن عباس : انى رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم .. والله ما أدرى أصَرفكم عن العمل أو رفَعَكم عنه وأنتم أهل ذلك ؟ أم خشى أن تُعاونوا لمكانكم منه فيقع العتابُ عليكم ، ولابد من عتاب ؟

أما مسألة الخلافة فالذى يزعمه فيها الذين يخوضون فى القضايا والمخاصمات أن عمر رضى الله عنه تعمد أن يحول بين علىٍّ والخلافة بصرفه النبىَّ عن كتابة الكتاب الذى أراد أن يبسط فيه وصاياه فلا يضلُّ المسلمون بعده ، ويزعمون أنه هو قد حال بين علىٍّ والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها .

واستكثروا من عمر صرامته فى دعوة علىٍّ الى مبايعة أبى بكر كما جاء فى بعض الروايات التى تُرجِّح صحتها ، وخلاصتها « أن عمر أتىَ منزل علىٍّ وبه طلحةُ والزبيرُ ورجالٌ من المهاجرين فقال : والله لأُحرِّقنَّ عليكم الدار أو لتخرجُنَّ الى البيعة ، فخرج الزبير مُصْلِتا بالسيف فسقط السيفُ من يده فوثبوا عليه (٢) فأخذوه .. » ، أو قال لهما فى رواية أخرى : « والله لتبايعانّ وأنتما طائعان ، أو لتبايعان وأنتما كارهان » .

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة وعَدّوها من اصرار عمر على الاجحاف بعلىٍّ واقصاء بنى هاشم عن الخلافة .

---

(١) الغوص : النزول تحت الماء ، يقال : فلان يغوص على حقائق العلم ، اذا كان كثير البحث فيه .
(٢) مصلتا بالسيف : مجردا السيف من غمده .

أما القول بأن عمر هو الذى حال بين النبى عليه السلام والتوصية باختيار علىٍّ للخلافة بعده فهو قولٌ من السخف بحيث يسىء الى كل ذى شأن فى هذه المسألة ، ولا تقتصر مساءته على عمر ومن رأى فى المسألة مثلَ رأيه .

فالنبى عليه السلام لم يدْعُ بالكتاب الذى طلبه ليوصى بخلافة علىٍّ أو خلافة غيره ، لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج الى أكثرَ من كلمة تقال ، أو اشارة كالاشارة التى فهم المسلمون منها ايثارَ أبى بكر بالتقديم ، وهى اشارته اليه أن يصلى بالناس .

وقد عاش النبى بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبَه ولم يكن بين علىٍّ وبين لقائه حائل ، وكانت السيدة فاطمة زوجُ علىٍّ عنده الى أن فاضت نفسه الشريفة . فلو شاء لدُعِي به وعُهِد اليه .

وفضلا عن هذا السكوت الذى لا اكراه فيه نرجع الى كل سابقة من سنن النبى فى تولية الولاة فنرى أنه كان يجتنبُ آله الولايةَ ويمنع وراثة الأنبياء ، وهذه السنة مع هذا السكوت لا يدلان على أن محمدا صلوات الله عليه أراد خلافة علىٍّ فحيل بينه وبين الجهر بما أراد .

ولم يعتمد عمر على الشورى فى اختيار الخليفة بعده وله مندوحةٌ عنها . فقد رأى من أصحابه — كما قال — حرصا سيئا وخلافا لا يحسمه رأى واحد ، وكانت حيرته عظيمة بين الاستخلاف وترك الاستخلاف ، فلما قيل له وهو طعين يودع الحياة : ماذا تقول لله عز وجل إذا لقيته ولم تستخلف على عباده ؟ .. أصابته كآبةٌ ، ثم نكس رأسه طويلا ثم رفع رأسه وقال : « ان الله تعالى حافظ الدين ، وأىَّ ذلك أفعلْ فقد سُنّ لى . إن لم أستخلف فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، وان استخلفتُ فقد استخلف أبو بكر » .

واختار للشورى فى أمر الخلافة أناسا ليس بين المسلمين أولى منهم بالاختيار ، وكأنهم كانوا مُسَمَّيْن بأسمائهم لهذه المهمة لو لم يرشحهم

هو لرشَّحهم لها كلٌّ مختار .

ولم يكن الفِكاك من التبعة هو الذى أوحى اليه أن ينفُضَ يديه ويلقى بالعبء على عواتق غيره . فعمر لاينجو بنفسه ليُوقع أحدا فيما يحاول النجاة منه ، ولكنه قدَّر أن الرجل الذى تختاره كثرة المحكَّمين هو أولى أن ينعقد عليه الاجماع ، وينحسم بترجيحه النزاع . فمن خرج عليه فهو باغى فتنة يتبعها الأقلون ويردعها الأكثرون .

وكان مع هذا يود لو اجتمع الرأى على اختيار علىٍّ بعد المشاورة فقال لابنه : لو ولَّوها الأجلح « أى المنحسر الشعر » لسلَك بهم الطريقَ ، فسأله ابنه : فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدّم عليا ؟ قال : أكره أن أحملَها حيا وميتا .

وفيما عدا الاستخلافَ بعد النبى والاستخلاف بعد عمر فالسياسة التى جرى عليها عمر كانت كلُّها سياسةً عامةً قائمةً على أساس عام لا تفرقةَ فيها بين بنى هاشم وغيرهم ولا بين علىٍّ وغيره .

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عصبةٌ دون غيرها بالغةً ما بلغت منزلتُها ، ولم يكره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت .

كان يَحجُر على وجوه قريش أن يخرجوا إلى البلدان إلا باذنٍ والى أجَل ، وبلغه أنهم يشكونه فأعلن فى الناس « ان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونةً على ما فى أنفسهم . ألا ان فى قريش من يضمر الفُرقة ويروم خَلع الرِّبْقَة (١) ، أما وابنُ الخطاب حيٌّ فَلا . ان أخوفَ ما أخافُ على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد » .

وكان يزجُر قومَه بنى عَدىٍّ كلما أحس منهم الطمعَ فى خلافته لأنه واحد منهم ، فيصارحهم قائلا : « بخ بخ بنى عدى . أردتم الأكل على ظهرى ، وأن أهبَ حسناتى لكم ، لا والله حتى تأتيكم الدعوةُ وإن أطْبق عليكم الدفتر .. » أى وان كُتِبتُم فى الأعطية آخر الناس . وهو

---

(١) الربقة حبل تشد به البهيمة . وفى الحديث « خلع ربقة الاسلام من عنقه » .

الذى أبى أن يختار ابنه للخلافة وقال للمغيرة بن شعبة الذى زيّن له استخلافه : « لا أربَ (١) لنا فى أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتى . ان كان خيرا فقد أصبنا منه ، وان كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسَب منهم رجلٌ واحدٌ » .

وجمع علياً وعثمان فى مجلس الشورى لاختيار الخليفة فالتفت الى على فقال : « اتق الله يا على إن وليّت شيئا ، فلا تحملنّ بنى هاشم على رقاب المسلمين » .

والتفت الى عثمان فقال : « اتق الله ان وليّت شيئا فلا تحملنّ بنى معيط على رقاب المسلمين » ، أو قال بنى أميّة .

وكان أكبر همه أن يعصم الاسلام من الملك الذى يستأثر به مستأثر لأناس دون أناس ، وكثيرا ما سأل : والله ما أدرى أخليفةٌ أنا أم ملك ؟ مستعيذا بالله من كل سلطان لا يعم جميعَ رعاياه بالخير .. وكلمته لابن عباس حيث قال : « ان الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوةَ والخلافة ، وان قريشا اختارت لأنفسها فأصابت » هى كلمته حيثما تكلم فى هذا الصدد لا يخص بها بيتا دون بيت ولا معشرا دون معشر ولا قبيلة دون قبيلة ، الا الأمانة لمصلحة المسلمين جميعا حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاءٌ فى الاتفاق .

وما كانت لعمر صرامةٌ مع علىٍّ لم تكن له مع غيره فى مأزق الخوف من الفتنة والذودِ عن الوحدة . فقبل أن يسلِم الروحَ كانت وصيته وهو لا يعلم مَنْ الخليفةُ بعده : « ان اجتمع خمسةٌ ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخْ (٢) رأسه بالسيف ، وان اتفق أربعة فرضوا رجلا وأبى اثنان فاضرب رءوسهما ، فان رضى ثلاثةٌ رجلاً منهم وثلاثة رجلاً فحكّموا عبد الله بن عمر ، فأىُّ الفريقين حكمَ له فليختاروا رجلاً منهم ، فان لم يرضَوْا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم

(١) الارب : الغرض والغاية .
(٢) الشدخ : كسر الشيء الاجوف .

عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين ، إن رغبوا عمــا اجتمع عليــه الناس » .

وما اختار ابنه عبد الله للفصل بين الفئتين المتساويتين الا لأنه خارج من الاختيار ، ثم لم يجعل له القول الفصل حتى يفتح للناس مخرجا من رأيه ان شاءوا ألا يتبعوه .

ولن يَقْضِيَ بأمثلَ من هذا القضاء فى مأزق الفتنة أحد له قضاء عادل منزه عن خبايا القلوب .

فما اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذى يجمــل به ويحمد منه ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس . هو الحكم الذى يَعم ويعدل ولا يخص ويتحيز ، وهو الحكم الذى لو سئل فيه النبى سيد بنى هاشم لأعاد فيه قوله : « عمر بن الخطاب معى حيث أحب ، وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان » .

عمر والصحابة

بايع عمرُ فبطلَ الخلافُ الا مالا خطر فيه .

وبويعَ عمرُ فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه .

وقد تواترت أقوالُ الصحابةِ في عمرَ بما يُشيدُ بفضله ويشهد بقدره ويكبر في أعين الناس أكبرَ من تقال فيه . لأن الذين قالوها أناس لهم حلوم راجحة ، وألسنة صادقة ، وعقيدة راسخة ، وقلوب لا تهاب أن تقول الحق في انسان . ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على قدْر عمر بين الصحابة من كل ما قيل . لأن شهادة الواقع هي الشهادة التي يقولها الصادق باختياره ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا يستطيع . وانما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه الشعور . أما الشهادة التي تعبر عن نفسها بلغة الواقع فهي قائمة من وراء كلام الألسنة ومن وراء هوى النفوس : انكارها كإنكار المحسوس الذي تقع عليه الأيدي ولا تغمض عنه العيون .

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبي بسلام .

ولكن انتهاءها بسلام لا يعني أنها كانت ستنتهي وحدها بسلام على أية حال ، ولا يعني أنها انتهت لأنها من المسائل التي يؤمن فيها الخطر وتمتنع فيها الفتنة . اذ الحقيقة أن انتهاءها على هذا النحو قد كان أعجوبةً من أعاجيب التاريخ ، مع ما يحيط بها من دواعي النزاع ومن كوامن القلق والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق .

فما هو الا أن لَحِقَ النبيُّ بالرفيق الأعلى حتى تحفزت دواعي النزاع من كل فج ، وتكشفَتْ كوامنُ القلق والخوف من كل مكمن ، وجهل أعلم الناس كيف تنجلي الغاشية ويستقر القرار .

فالأنصار يقولون انهم أحق بالخلافة من المهاجرين لأنهم كثرة والمهاجرون قلة ، ولأنهم فى ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم ، ولأنهم جميعا عربٌ مسلمون ولهم فضلُ التأييد والايواء .

والمهاجرون على قلتهم غير متفقين على اتفاق ينعقد به الاجماع ، وحجتهم الغالبة أنهم السابقون الى الاسلام ومنهم جلة الصحابة الأولين .

وتسايرت الأحاديثُ بحق آل البيت النبوى فى الخلافة النبوية،وبين آله رجلان قويان هما على والعباس ، لو أصغَيا الى هذه الدعوة ومضيا فيها لتمخَّضت عن خطبٍ عظيم .

وكأن هذه العصبيات لم تكفٌ دعاةَ الخلاف حتى جاء أبو سفيان يزيدها عصبيةً أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبائل وأصغرها فى قريش ، فدخل على علىٍ والعباس يثيرهما ويعرض عليهما النجدة والمعونة ، ويَهيب بعلىٌ باسمه ، ثم بالعباس باسمه : « يا على ! وأنت يا عباس ! ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأنها عليه — يعنى أبا بكر — خيلا ورَجْلاً وآخذنَّها عليه من أقطارها»(١) .. فيجيبه علىٌ بما هو أهله « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا : ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ماخلَّيناه واياها » ، ثم يبلغ من كرم النحيزة أن يؤنب أبا سفيان من طرف خفىٌ على سعيه فى هذه العصبية فيقول : يا أبا سفيان ! إن المؤمنين قوم نصحةٌ بعضهم لبعض ، وان المنافقين قوم غَشَشَة بعضهم لبعض ، متخاونون وان قربت ديارهم وأبدانهم ! » .

ولم تكن هذه العصبياتُ كلٌ ماهنالك من دواعى النزاع وكوامن القلق والخوف ، فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغبون ، وكان هنالك ضعفاءُ من المسلمين يقفون على شفير (٢) من الفتنة لايلبث أن يضطرب

---

(١) الرجل جمع راجل ، وقوله « لاخذنها عليه من اقطارها » تهديد بانه سينازله من كل ناحية وصوب .

(٢) شفير كل شيء : حرفه .

تحت أقدامهم حتى ينهار ، وكان هنالك أناس لاينصرون ولا يَخذُلون ، فهم إن لم يفسدوا فى الأرض لايُصلحون .

وبين هذه المخاوفِ والنوازعِ تنتهى مســألة الخلافة بســلام فيكون انتهاؤها بسلام أعجوبةَ الأعاجيبِ . وتبحث عن سر هذه الأعجوبة أو عن سرها الأكبر فيغنيك فيها أن تذكر اسما واحدا هو اسم عمر بن الخطاب .. إلى أين كانت تلك الفتنةُ ذاهبةً لو لم يقف فى وجهها عمر وقفته المرهوبة يوم السقيفة ؟

سؤال يدلك على سر تلك العجيبة قبل كل جواب . فما عُرف رأىُ عمر فى البيعة حتى بطل الخلاف الا مالا خطر له . واطمأن من يوافق ، وعلم من يخالف أن خلافه لا ينفعه ، واجتمعت كلمةٌ على مبايعة أبى بكر أوشكتْ أن تكون كلمات .

قال أبو بكر لعمر : أبسُط يدك نبايع لك .

قال عمر : أنت أفضل منى . قال أبو بكر : أنت أقوى منى .

قال عمر : ان قوتى لك مع فضلك . لاينبغى لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فوقك ياأبا بكر . أنت صاحبُ الغار مع رسول الله ، وثانى اثنين ، وأمَرك رسول الله حين اشتكى فصليتَ بالناس ، فأنت أحقُ الناس بهذا الأمر .

ووثب عمر فأخذ بيدِ أبى بكر ، فتواثبَ الجميعُ من عِلية الصحابة يبتدرون البيعة ، ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمرُ بين يديه يقول للناس : « ان الله قد جمع أمرَكم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وأولى الناس بأموركم فقوموا فبايعوا » ..

فكانت البيعةُ العامةُ ، وتركت شجرة الخلاف لجفاف ، فان لم تذبل لساعتها فهى وشيكة ذبول .

بايع عمر فقطعت جَهيزةُ قولَ كل خطيب .

وذلك قدرُ عمر عند الصحابة ، وقدره عند أبى بكر ، وقدره عند الله ، تغنى شهادةُ السرائر فيه عن شهادة كل كلام .

وفى تلك الكلمات الموجزات التى تبادلها الصديقان العظيمان خلاصةُ نقدِ الناقدين وبحثِ الباحثين ، وحكم التاريخ فى أبى بكر وعمر ، وفى موقف الخلافة من بدايته الى منتهاه .

قال عمر : انك أفضل منى . وقال أبو بكر : انك أقوى منى .

وقال عمر : ان قوتى لك مع فضلك .

صدَقا غاية الصدق ، وجاملا غاية المجاملة ، وقضَيا بالعدل والحكمة والاخاء ، وتركا التاريخ يقول مايقول ويسهب مايسهب ، ثم لايزيد فى فحواه كلمة على ما ضمَّنَتْه تلك الكلماتُ الموجزات .

ولقد كان من قوة عمر أنه كان يراجع أبا بكر فى خلافته حتى يرجعَ عن رأيه ، وكان من فضل أبى بكر أنهم يسألونه مستثيرين : والله ماندرى أأنت الخليفةُ أم عمر ؟ فيقول : هو لو كان شاء !

وكان فضلُ أبى بكر وقوة عمر جمعا لا يشذ عنه مكابر ، ومن شذ عنه فما له من فضل ولا من قوة ينفعانه .

بل كان الرجلان على اختلافهما فى المزاج كأنهما رجل واحد يراجع نفسه بين الرأيين المختلفين ، حتى يستقر على أحدهما فاذا هو رأى جميع لاخلاف فيه ، لأنهما يصدران عن عقيدة واحدة ، ويتجهان الى غرض واحد ، فهما غير مفترقين الى أمد طويل

وأعجوبة الأعاجيب فى هذا الأمر موقف الرجلين من المشكلة الكبرى التى واجهتهما معا بعد موت النبى بأيام قلائل ، وهى مشكلة الردة ونكوصِ العرب عن أحكام الدين ، وحيرةِ الصحابة الكبار فيما يعامَل به المرتدون .

وليس العجبُ أن يختلفَ أبو بكر وعمر فى مشكلةٍ كبيرةٍ أو صغيرةٍ ، وانما العجب هو نوع هذا الخلاف الذى لم يتوقعه أحد . فيخالفُ أبو بكر

لأنه يجنح الى الشدة والصلابة ، ويخالف عمر لأنه يجنح الى اللين والهوادة ثم يلتقيان ولا يتعارضان .

فأبو بكر يأبى الا أن يحارب الذين منعوا الزكاة ويقول مصرًّا على قوله : « والله لو منعونى عَنَاقا (١) لقاتلتهم على منعها » .

وعمر يقول له : « كيف تُقاتلُهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فمن قالها فقد عصمَ منى نفسَه وماله الا بحقه ، وحسابُه على الله ! » .

ويشارك عمرَ فى رأيه جلةُ الصحابة كأبى عبيدة الذى قال فيه النبى « انه أمين الأمة » ، وسالمٍ مولى أبى حُذَيفة الذى قال فيه النبى « ان سالما شديد الحب لله » ، وأناسٍ من هذه الطبقة فى صحابة الرسول .

ويعود أبو بكر فيقول : « ان الزكاة حق المال » ، وفيها نحارب بالحق .

ثم يَهيب بعمر : رَجَوْتُ نُصرتَك وجئتَنى بخذلانك ؟ أجبَّارٌ فى الجاهلية وخوَّارٌ فى الاسلام ؟

فإذا بعمر يثوب الى شدته بعد أن أفرغ أمانةَ الرأى كما قال : « ماهو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال حتى عرفتُ أنه الحقّ » ، وما أسهل أن يُعرفَ الحق لمن يريد أن يراه ولا يُغمض عينيه . أرجلان هنا مختلفان أم رجل واحد ؟

قل هذا وذاك فالقولان مستويان . مادمت لاتنسى أن الرجلين المختلفين معهما العقيدةُ الراسخة التى لاتفارقهما ، وطالما جمعت العقيدةُ جيوشا على قلبٍ واحدٍ ، فضلا عن رجلين .

وانما كان يعيب عمرَ أن يعارضَ اذا كان فى المسألة وجهٌ واحد لايحتمل المعارضة بحال ، فأما أن يكون لها وجه آخرُ يبديه ويشرح حجته فالذى يعيبه ويضير الاسلامَ أن يكتم ذلك الوجهَ وأن ينطوى عليه صامتا فى موقف البحث والمشاورة ، وهو الناصح الأمين .

---

(١) عناق : معزة .

ومسألة الردة قد كان لها وجه" آخرُ غيرُ الذى رآه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان عمر خليقا أن يرى ذلك الوجه الآخر لأنه موافق لمجمل آرائه فى الحرب والسياسة . فقد كان بطيئا الى الحرب كما عرفنا من عامّة وصاياه وكان أبطأَ مايكون عنها اذا نشبت بين العرب أو المسلمين ، وكان جيش الاسلام بعيدا عن المدينة فى غزوة الروم التى خرج بها أسامة بن زيد بعد قيام أبى بكر بالخلافة ، فالتريث الى أن يستكمل الاسلامُ عدتَه ويسترجع الغائبين من جنده وجه" غير ضعيف ، أو هو فى أقل الأمر وجه لا يحسنُ كتمانُه عن الأمير المسئول .

وقد كان من عادة عمر أن يطيعَ صاحبَ التبعة متى وجبت الطاعة واستقر القرار ، فلا ضير إذن ألا يألوَه جُهده معارضةً حتى يتبين مذاهبَ الرأى على اختلافها ، ثم هو مستعد بقوته لمعاونته بأقصى مااستطاع .

ومثل هذا الرجل ، معارضتُه قوة" فوق قوةٍ وخير" لاضير فيه .

وخليق" بنا أن نفهمَها على صوابها فى مسألة الردة فنعلمَ بعد النظرةِ الثانيةِ أنها من دلائل قوته المعهودة وليست من فلَتات الضعف فيه ، لأنه رأَى الرأى فلم يحجم أن يبديه ويشرحَ حجته ، جريئا فيما رآه .

وعلى هذا الدأب ظل عمر قوةً لأبى بكر بموافقته ومعارضته على السواء . وأصاب فيما قال له يوم بايعه : « ان قوتى لك مع فضلك » ، فكسب الإسلام خليفتين معا بتقديم أبى بكر للخلافة لأنهما لم يبغيا بالخلافة مأربا غير خدمة الاسلام .

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف الا مالا خطر فيه .

عرضها عليه أبو بكر فقال : لا حاجة لى فيها ، فقال أبو بكر « ولكنَّ لها بك حاجةً ياابن الخطاب » ... وسأل خِيرة أصحابه فقال له عبدالرحمن ابن عوف : هو والله أفضل من رأيك فيه ، وقال عثمان بن عفان : ان سريرتَه خير من علانيته ، وانه ليس فينا مثلُه ، وسأل أُسَيد بن الحُضير فقال : « اللهم أعلمه الخيرة بعدك . يرضى للرضى ويسخط للسخط ، والذى

يسر خير من الذى يعلن ، ولن يلى هذا الأمرَ أحدٌ أقوى عليه منه » .

وأجمع المهاجرون والأنصار على تزكية عمر وتصويب أبى بكر فى ترشيحه ولعلهم لم يذكروا من مناقبه الا ماهو به أعلم وأخبر ، فلم يزده ثناء المثنى علما بصاحبه ! ولم يكن قدح القادح ليخلف رأيه فيه ، لأنه على عرفانه بالدنيا وعرفانه بالناس لايجهل أن رجلا كعمر بن الخطاب فى حزمه وصدقه أن يخلو من مبغض ، ولن يبغضه أحد لما يعيبه ويحول بينه وبين ولايه أمر المسلمين .

قال له وهو يعرض عليه الخلافة : « ياعمر ! أبغضك مبغض وأحبك محب . وقدما يبغض الخير ويحب الشر » .

وان منهم لمن حذره شدةَ عمر وقالوا له : « انك كنت تأخذ على يديه ولا تطيق غلظته ، فكيف وهو خليفة ؟ وما أنت قائلٌ لربك اذا سألك عن استخلافه علينا ؟ »

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه ، وأمر من حوله أن يجلسوه فجلس ، فقال لمن خوفوه الله وعمر : « أبالله تخوفوننى ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم . أقول : اللهم انى قد استخلفت على أهلك خيرَ أهلك ! »

ولو شاء أبو بكر لقال ان ماخوفوه من شدة عمر لتفضيلةٌ من فضائله التى قدمته عنده على غيره ، فقد خاف عليهم الفتنةَ ، وكان أكبرُ حذره أن تجيء الفتنة من أولئك الأعلام الذين يتبعهم الطغام (١) وليس لها لا غيرُ عمرَ يرهبونه ويتقون الفتنة باتقائه ، فمن هنا وصاه فحذره « هؤلاء النفرَ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قد انتفخت أجوافهم ، وطمحت أبصارُهم ، وأحب كلُّ امرىء منهم لنفسه » وقال له : « ان لهم لحيرةً عند زلة واحد منهم ، فاياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ماخفتَ الله ، ولك مستقيمين ما استقامت طريقتك »

فالذين حذروه عمر انما رغبوه فيه ولم يحذروه منه ، لأنه أراد لهم

---

(١) الطغام : جمع طغامة وهو الوغد .

من يخافونه ويستقيمون معه ، فكانت سيئته عندهم حسنةً عند أبى بكر ، ورجاءً فى صلاح أمر الأعلام والطغام .

فلما اتفق مدح المادحين ونقد الناقدين على ايثار عمر بالخلافة فرغ أبو بكر من مشورته ، وأبرأ الى الله ذمته ، ودعا بعثمان فأملى عليـه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهـد به أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمِنُ الكافر ويوقِنُ الفاجر ، ويصدُق الكاذب : انى استخلفت عليكم بعدى .»

ثم أخذته غَشْية فكتب عثمان « عمر بن الخطاب » ، ولم يترك الكتاب خِلوا من الاسم مخافة أن يذهب الموت بأبى بكر فى تلك الغشية فيلج من يلجُ بالخلاف ، وله شبهة يحوم عليها .

وانه ليكتبها اذ أفاق أبو بكر فقرأ عليه ماكتب ، فكبَّر وأدرك ماوقع فى رُوعه فحياه ودعا له : « جزاك الله عن الاسلام خيرا : والله ان كنتَ لها لأهلا (١) » .. ثم أتم الكتاب .

ثم بويع عمر بالخلافة باجماع لم ينعقد لخليفة قبله ولا بعده الا أن تكون وراثة فى دولة استقرت لها دعائم وثبتت لها أركان . فكانت شهادةً من الصحابة والمسلمين أجمعين بما هو أنطق من الألسنة والقلوب : بالبديهة التى لا تكذِب فى صادق ولا كذوب .

وجائزٌ جدا أن يبدأ عمر خلافته وهذا رأى المسلمين فيه ، وأن يختمها آخرَ الأمر ورأيهم فيه على اختلاف ، اذ الحكم يخلق العداوات ، ويفتِّق أسباب التباعد فى الظنون والآراء ، ويفتن صاحبه حتى يتبدل من حيث يريد ولا يريد . فشهادة أخرى من شهادات الواقع والبداهة أن عمر قـد فارق الدنيا والمختلفون فيه ينقصون ، والمتفقون على حمده يزيدون ، ثم هم يزيدون فى حمدهم اياه وثنائهم عليه .

دخل زياد على عثمان فى خلافته بما بقى عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان

---

(١) اى : انك كنت اهلا لها .

فاخذ شيئا من فضة ومضى به ، فبكى زياد" .. قال عثمان : مايبكيك ؟ قال : أتيت أمير المؤمنين (١) بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهما فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام ، وان ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ فلم أر أحدا قال له شيئا .. قال عثمان : « ان عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله ، وانى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله . ولن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر . لن تلقى مثل عمر ! »

وبكى على" يوم موته فسئل فى بكائه فقال : « أبكى على موت عمر . ان موت عمر ثلمة" (٢) فى الاسلام لا ترتق الى يوم القيامة » وقال عبد الله بن مسعود : « كان اسلامه فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة » .

وقال معاوية يوازن بين الخلفاء : « أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهرا لبطن » . وقال عمرو بن العاص وهو يحدث نفسه : « لله در ابن حنتمة !.. أى امرىء كان ! »

ولم يقل فيه قائل راض ولا ساخط" الا ثناء" كهذا الثناء ، بعد خلافة طويلة لو خرج منها بنصف الثناء لأربى على الأمل فى انصاف بنى الإنسان.

ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعوا قدره .. الا أنه كان متفضلا" فى هذا كما كان مفضلا فى جميع محامده وحسناته ، فإنه رعى أقدارهم وهو مستطيع" ألا يرعاها ، وقليل" منهم من كان قادرا أن يعمل غير ما عمل ويقول فيه غير ماقال .

جمع منهم مجلس المشورة لايبرم أمرا ولاينقضه إلا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مأثورات النبى وأحاديثه .

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعا له فجنبهم ولاية الأعمال قائلا لمن راجعه فى ذلك : « أكره أن أدنسهم بالعمل (٣) » فسبق الدساتير العصرية بحسن

(١) يعنى عمر بن الخطاب . (٢) الثلمة : الخلل ، ورتق الثلمة : اصلاحها
(٣) يعنى بالعمل هنا الولاية والحكم ، اما العمل للانتاج فقد سبق أن عرفنا راى عمر فيه .

تقسيمه وصادق حَدْسِه وتدبيره . هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الامة أن يَلِيَ عملا من أعمال الحكومة ، فهما فى الدولة وظيفتان لا تجتمعان .

وقدَّم صغار هم على أعظم العظماء من رءوس القبائل وقروم (١) الجزيرة العربية . فحضر بابَه سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيانَ ابنُ حرب فى جمع من السادة ينقطع نِدهم بين الكابرين (٢) وحضره معهم صُهيب وبلال وهما مَوْليان فقيران ، ولكنهما شهدا بدرا وصحبا رسول الله ، فأذن لهما قبل عِلية القوم ! وغضب أبو سفيان فقال لصاحبه : لم أرَ كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ أما صاحبه فكان حكيما فقال : أيها القوم ! انى والله أرى الذى فى وجوهكم .. إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم . دُعى القوم — الى الإسلام — ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم اذا دُعوا يوم القيامة وتُرِكتم ؟ » .

ولو غيرُ عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال ، ولا أمِنَ أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل .

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس الذى يعطى كلَّ ذى قدر قدرَه حيث ينبغى له من تقديم وتأخير . فيقدم من يقدمه عمله ويؤخر من يؤخره عمله ، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين .

فلما ندبَ الناسَ الى غزوِ العراقِ فبادر اليه أبو عبيدِ بنُ مسعود وتخلف من حضر الدعوة من الصحابة ولاَّه قيادتهم وأبى أن يوليَّها رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار . وأجاب من راجعوه قائلا : « لاوالله لا أفعل . ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو ، فإذا جَبُنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرئاسة منكم مَن سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء . والله لا أؤمِّر عليهم إلا أولهم انتدابا » .

ثم دعا معه ابن عبيد وسليط بن قيس فأبلغهما « إنكما لو سبقتما

---

(١) القروم : جمع قرم وهو السيد .
(٢) اى : ليس لهم مثيل بين السادة الكبراء .

لولّيتكما .. » والتفت الى أمير الجيش الذى اختاره فقال له : « اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب » . هذا مااستحقوه ، فلا رجحانَ لهم إلا بالحق ، ولا رجحان عليهم إلا للحق .

ومن الحق الذى له الرجحان عليهم حقُّ الأمة جمعاء ، وحق الأمان الذى يعم الدولة ويوطد أركانها . فإذا خيف على الدولة من بعضهم فأمانُ الدولة مفضل عليهم ، وحقها الأكبر مُقدَّم على الكبير من حقوقهم . فربمـــا حبَسهم فى المدينة لايسافرون منها الا بإذنٍ وإلى أجل مخافةً منهم على الناس ومخافة عليهم من الناس . ويستأذنه أحدهم فى غزو الروم والفرس محتجا بسابق بلائه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجةً عليه يذوده بها عن السفر ، ويقول له : « ان لك فى غزوك مع رسول الله مايكفيك ويبلغك ، وبحسبْك ، وهو خير لك من الغزو اليوم ، وإنَّ خيرا لك ألا ترى الدنيا ولا تراك » .

على هذا الوجه وحدَه ينبغى أن نفهم كلَّ علاقة كانت بين عمر وبين أحد من أكابر الصحابة والتابعين ، فهو القسطاس الذى لايجور ، وكأنه لا يعرفُ الجورَ لو شاء .

بل على هذا الوجهِ وحدَه نفهمُ كلَّ علاقة بينه وبين أحد من عامة المسلمين . فلكلِّ رجلٍ حقّه ، ولاضير على أحد أن يتأخر قدرُه ويتقدمُ عمله ، ولا ينفعُ أحدا أن يتقدمَ قدرُه ويتأخرَ عملُه . فكل عمل له حساب ، وكل قدر وله كرامة ، وأكبر الصحابة خليـــق أن ينزل منزلة المرءوسين لمن سبقهم الى العمل النافع . وأصغر الناس خليق أن ينال جزاءه الحسن اذا استحقه ، وكل قسطاس غير هذا القسطاس فإنما يقارفه الحاكم لظلم أو لخوف ، وليس لهذا ولا ذاك سبيل إلى عمر . لأنه عادل ، ولأنه لا يخاف ، وإذا وقع مايخافه غيره فهو ضليع بالتبعات (١)

(١) ضليع بالتبعات : قدير عليها .

على هذا الوجه وحده ينبغى أن نلتمس التأويل فى محاسبات عمر ومعاملاته اذا وقع منها مايحتاج الى تأويل ، وقلّ فى محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج اليه ، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره ؛ وحسابُه لنفسه أعسَر من حسابه للآخرين .

ففى جميع محاسباته للقادةِ والولاةِ من كبار الصحابة لم توضع مسألةٌ فى موضع التأويل الكثير والمناقشةِ الحادمة (١) كما وضعت مسألةُ خالدِ ابن الوليد رضى الله عنه .

ولا يُعقل أن تكون هذه المسألة شذوذا عن خطته مع جميع القادة والولاة ، لأن الذى صنعه فيها عمر هو الذى كان منتظرا أن يصنعه ، سواء كان القائد خالدا أو كان رجلا غيره ... وهذا الذى ينفى الشذوذ والحيف ، أو ينفى المعاملة الخاصةَ التى تكيل للناس بكيلين وتزن لهم بميزانين ،وتنظر إليهم بنظرين مختلفين .

عزلَ عمرُ خالدا وهو سيف الإسلام وبطل الجزيرة والشام ، وإذا كان لابد لخالد بن الوليد من عازل أو قاض عادل فلن يكون عازلَه وقاضيَه غيرُ عمر بن الخطاب . هو على قدر عزله بلا مراء ، وهو قدر كبير .

فقال أُناس إنها منافسة الند للند والشبيه للشبيه ، وقال أناس عزله لغير خطإ أتاه ، وقال أناس إنها تِرةٌ (٢) قديمة ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجبٍ عزلَه وحرمانَ المسلمين من بأسه وجهاده .

والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تُخيلها لهم وتقربها إلى حدسهم ، لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خَلْقٍ وخُلُقٍ توحى الظن بالتنافس والملاحاة ، وكانت مشابهة خالد لعمر فى خِلقته تلتبس على بعض الناس فيكلمونَ عُمَرَ وهم يحسَبُونه خالدَ ابن الوليد .

---

(١) الحادمة : يقال : حدمته الشمس او النار . اى : اشتد حرها عليه . واحتدمت النار اى اشتد حرها ، ومنه : احتدمت المناقشة .
(٢) الترة : الثار .

فمن شاء أن يَخبط بالظنِّ فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عَزْلَه ، لأن عمر نفسَه قد صانَ على القائد الكبير كرامتَه وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى ، وكتب إلى الأمصار يبرئُه من الخيانة ويُعلنهم « أنه لم يعزله لسخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتِنوا به » ... قال : « فخشيت أن يوكلوا به ويُبتَلوا ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » . ولما سأله خالد في ذلك قال له : « إن النـاس افتتنوا بك فخفت أن تفتتن بالناس » .

فمن شاء أن يخبط بالظن هنا فقد يخبط ماشاء وله شبهة فيه ، ولكنه لا يرجع الى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقطَ شبهاته بين يديه ، ويوقنَ أن عمر لم يحاسِبْ خالدا بميزان غير الذى حاسب به جميع القادة والولاة ، وأن المدهش الحق أن يبقيه في الولاية والقيادة بعـد ما أخذه عليه ، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين .

والذى أخذه عمر على خالد يرجع بعضه الى أيام النبى عليه السلام ، وبعضُه الى أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وبعضه الى أيامه ، وكله مما يَصِح أن يؤخذَ به في موقف الحساب ، وإن كان الذى حدث في أيام عمرَ وحدها كافياً لما قضاه في أمره .

ففى فَتْح مكة نهى رسول الله خالداً عن القتل والقتال وقال له وللزبير : « لا تقاتلا الا من قاتَلَكُما » . ولكن خالدا قاتل وقتل نيفا وعشرين من قريش وأربعةَ نفرٍ من هذيل ، فدخل رسول الله مكة فرأى امرأة مقتولة فسأل حنظَلة الكاتب : من قتلها ؟ قال : خالد بن الوليـد . فأمره أن يدرك خالدا فينهاه أن يقتل امرأة أو وليدا أو عسـيفا ــ أى أجيرا ــ وبعث اليه من يسأله : ماحملك على القتال ؟ فاعتذر بخطإ الرسـول فى تبليغه . وشهد الرسول على نفسه بالخطإ فكف عنه (١)

(١) يعنى الرسول الذى حمل رسالة النبى عليه السلام اليه .

ثم بعث رسول الله خالدا الى بنى جذيمة داعيا الى الإسلام ولم يبعثه للقتال ، وأمره ألا يقاتل أحدا ان رأى مسجدا أو سمع أذانا ، ثم وضع بنو جذيمة السلاح بعد جدال بينهم واستسلموا . فأمر بهم خالد فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم ، وأفلتَ من القوم غلامٌ يقال له السَّمَيْدع حتى اقتحم رسول الله وأخبره وشكا إليه . فسأله رسول الله : هل أنكر عليه أحد ماصنع ؟ قال : نعم . رجلٌ أصفرُ رَبْعة(١) ورجل أحمر طويل . وكان عمر حاضرا فقال أنا والله يارسول الله أعرفهما . أما الأول فهو ابنى ، وأما الثانى فهو سالم مولى بنى حذيفة . وظهر بعد ذلك أن خالدا أمر كلَّ مَنْ أَسَر أسيرا أن يَضرِبَ عنقه ، فأطلق عبد الله ابن عمر وسالم مولى أبى حذيفة أسيرين كانا معهما ... فرفع رسول الله يديه حين علم ذلك وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » ... ثم دعا عَلِى بن أبى طالب وأمره أن يقصد الى القوم ومعه إبل وورِق (٢) ، فوَدَى (٣) لهم الدماء وعوضهم من الأموال .

وفى عهد أبى بكر رضى الله عنه وَجَّه خالدا الى بعض أهل الردة يدعوهم الى أحكام الإسلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا إليه . فعزم على المسير إلى مالك بن نويرة ولم يأمره الخليفة بالمسير اليه . وأحجم الأنصار ينتظرون أن يكتب إليهم الخليفة بما يراه ، وقال خالد : قد عهد الىَّ أن أمضى وأنا الأمير ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمتــه فاتنى لمْ أعلمْه ، وكذلك لو ابتُلِينا بأمر ليس فيه منه عهدٌ إلينا لم نَدَعْ أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، فأنا قاصد إلى مالك ومن معى من المهاجرين والتابعين ولست أكرِهُهم ... » .

ثم جاءته الخيـــل بمالك بن نويرة فى نفر من بنى ثعلبــة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم ، يشهد قوم أنهم أذَّنوا وأقاموا وصلَّوا ، ويشهدُ

(١) ربعة : معتدل الجسم .
(٢) الورق : بكسر الراء ، المال من الدراهم
(٣) ودى : اعطاهم الدية وهى المال يعطى لأهل القتيل بدل النفس .

آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء . فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم فى ليلة باردة ، وأرسل فيما قيل مناديا ينادى : أدْفِئوا أسْراكم ، فظنَّ القوم أنه أراد قتلهم ... لأن إدفاء الأسرى كنايةٌ عن القتل فى لغتهم .

ويروى أن مالكا قال لخالد : ابعثْنا الى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا ، فلم يجبه خالد الى طَلِبته وقال له : لا أقالنى الله ان أقلتك ، وتقدَّم الى ضرار بن الأزور بضرب عنقه . وتزوَّج بامرأته فى الحرب وهو أمر تكرهه العرب وتعايره .

وقد بلغ الخبرُ عمرَ بنَ الخطاب فقال لأبى بكر : ان سيفَ خالدٍ فيه رَهَق (١) . فاعتذر له أبو بكر بأنه « تأوَّل فأخطأ » وودَى مالكا واستدعى خالدا اليه .

قَدِمَ خالد فدخل المسجد وعليه قَباء وفى عمامته أسهم غرزها للمباهاة ، فقام اليه عمر فنزعها وحطَّمها وقال له : قتلت أمرءاً مسلما ثم نزوت على امرأته؟ والله لأرجمنك بأحجارك !

وكان أبو بكر رضى الله عنه هَمَّ بعزل خالد لاستئثاره بتصريف المالِ الذى فى ولايته فسأل عُمرَ : من يُجزىءُ جزاءَ خالد ؟ (٢) فندب عمرُ نفسَه ليخلفه ان لم يكن بدٌ من ذلك ، وتجهز عمر حتى أنيخ الظَّهر فى الدار ، لولا أن مشى أصحاب رسول الله الى أبى بكر يوصونه أن يَحْتَفِظَ بعمر لحاجته اليه ، وأن يبقى خالدا فى ولايته لحاجته اليه ، فعمل بما أشاروا .

ذلك ما كان فى عهد النبى وأبى بكر . فلما بويع عمر كتب الى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألا يعطى شاة ولا بعيرا الا بأمره ، فأحاله الى ما جرى به العمل قبله . وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال فيه : « إما أن تدعنِى وعملى وإلا فشأنك بعملك » فلم يُطقها عمر وقال : « ماصدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه » .

---

(١) الرهق : الظلم والسفه والطغيان .
(٢) يعنى : من يقوم مقامه ويكون فى مثل كفايته ؟

وقد أبرمه منه أنه وهب الشاعرَ الأشعثَ بن قيس عشرة آلاف درهم، ونمى الأمرُ اليه كما كانت تنمى اليه أخبار الولاة والقوّاد من عيونه وأرصاده . فكتب الى أبي عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة « فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة ، وان زعم أنها من ماله فقد أسرف » .

وقد أبى خالد أن يجيب فى مبدإ الأمر فاعتقله أبو عبيدة بعمامته كما أمر عمر ، ونَزعَ منه قلنسوته فى موقف المحاسبة حتى قال انها من ماله . فقومت عروضه وضُمّ مازاد منها الى بيت المال ، وقال له عمر يومئذ :

« يا خالد ! والله انك عليّ لكريم ، وانك اليّ لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء » .

ولم يَعزِله عمرُ دفعةً واحدة على إثر قيامه بالخلافة كما جاء فى بعض الأخبار ، لأن اسم خالد كان بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس بعد فتحه ، والأرجح أن فى تاريخ القصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين ومنهم ابن الأثير ، فكتب عن عزل خالد فى أخبار السنة الثالثة عشرة للهجرة ثم ذكره فى أخبار السنة السابعة عشرة ، وأورد فى الموضعين أقوالا متشابهات .

تلك جملة المآخذ التى أخذها على خالد من عهد النبى عليه السلام الى عهد خلافته ، وما من أحد يعرف عمر ثم يلوحُ له أنه أنكر من خالد شيئا كان يقبله من غيره ، وأنه نصب له ميزانا غير الموازين التى يحاسب بها القوّاد والولاة وكل صاحب عمل مسئول . فرأى عمر فى انكار هذه المآخذ معروف من بداية أيامه ، والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله ولو كانوا على البعد منه ، كما حدث من ابنه فى بعثة جذيمة حيث أبى على خالد بطشه بمن أوثقهم وغرضهم على السيف ، ثم أنكر النبى عليه السلام ما أنكراه واستصوب ما استصوباه .

فعمر كان يكره الاسراع الى القتال ويوصى قواده جميعا بالتريث

فيه ، وربما نحى القائد المغوار عن القيادة وهو كفؤ لها لأنه يعجّل بالقتال كما قال لسليط بن قيس : « لولا أنك رجل عجِل فى الحرب لوليتك هذا الجيش والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث » .

وكان يتحرّج غاية الحرج أن يستبيح دم برىء أو مشكوك فيه ، وتقدّم فى هذا الكتاب أنه لام أناسا من أصحابه لأنهم قتلوا رجلا ارتد عن دينه ، وقال لهم : هلا استتبتموه وحبستموه ؟ وتبيّن من رأيه فى أهل الردّة أنه كان يؤثر الهوادة والاستتابة على القتال . فان كان قتالٌ فالذى لا حيلة فيه ولا محيص عنه ، فانكاره لمقتل مالك بن نويرة وأصحابه هو رأيه الذى لا شذوذ فيه ، ويضاف اليه انكار البناء بامرأته (١) ، ووقوع البناء بها فى أثناء المعركة ، وهو أمر لا ينفرد عُمَرُ بكراهته وانتقاده ، بل تكرهه العرب عامة مسلمين وغيرَ مسلمين .

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب : يكتب عروضهم (٢) قبل ولايتهم ، ويسألهم فيما فشا من طارىء أموالهم ، ويأمرهم اذا عادوا الى أهلهم أن يدخلوا المدينة نهارا لينكشف ما عادوا به اليهم ، ويقاسمهم كل درهم يُرْبى (٣) على المحسوب من أرزاقهم . ويجرى على هذه السنة مع كل والٍ وكل عامل ذى أمانة . فلم يستثن منها أحدا قط ، ولم يُعرف وال قط سلم من مصادرة أو حساب عسير .

فالذى صنعه مع خالد حين أنكر « سرعة هجماته وشدّة صدماته » سنّة عمرية لا شذوذ فيها ، والذى صنعه حين حاسبه على هباته وتوزيعاته سنة عمرية كذلك لا شذوذ فيها ، ولو أنه صنع غير هذا الصنيع لقد كان ذلك هو الشذوذ المستغرب الذى لا يقع من عمر بن الخطاب خاصة ، لأنه لا يحابى ولا يفرّق فى المعاملة ولا يبالى غضب قائد كبير ولا وال قدير . وليس يحب أن يقال ان رجلا من الرجال لا غنى عنه لدولة الاسلام ، فربما كان شيوع هذه العقيدة أخطرَ على الإسلام

(١) البناء بالمراة : الزواج منها (٢) العروض : الامتعة .
(٣) يربى : يزيد .

من عزل وال مظلوم أو ولاة مظلومين .

ولا ننسى الأمانة الكبرى التى هى أكبر من أمانة الرفق بالولاة والعدل فى محاسبة العمال ، ونعنى بها أمانة الدين والدولة أو ما نسميه نحن فى أيامنا « بالسياسة العليا » .

وعمر لا يتركنا نفسر أعماله هنا باجتهادنا فى فهمها وتأويلها على مانراه ، بل يصرح للناس فيها بما يغنيهم عن التفسير والتأويل .

فكان يرعى فى شئون الولاة الكبار والقوّاد المشهورين أمرين يجيزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذة .

أحد هذين الأمرين أن يفتَتِنَ بهم الناسُ فيفتتِنوا هم بالناس كما قال لخالد بعد عزله . والخوف فى هذا الأمر من القائد الكفء أعظم من الخوف من قائد صغير لم يَبْلُ أحسن البلاء ولم تتساير بذكره الأنباء ، فليس لهذا خطر فى بقائه كخطر القائد الكبير .

وخطته هنا عامة لا يخص بها واليا دون وال ولا قائدا دون قائد .

فلما عزل زياد بن أبى سفيان عن ولاية العراق سأله زياد : لِمَ عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ ألعجز أم خيانة ؟ فقال له : لم أعزلك لواحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس . وقديما قال فيه عمر : لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه . فالحيطةُ منه وفاقُ رأيه فيه .

وقد كان من خلق عمر أن يقدّم الحَذر ويأخُذَ الحيطةَ ويطيلَ الرّوية ، ثم يجزم بالرأى السديد فى غير ابطاء ، ولهذا كان يكره ولاية الرجل الفخور وينهى عنها فى خلافته وقبل خلافته ، فأشار على أبى بكر ألا يولى خالدَ بن سعيدٍ وكلمه فى عزله لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب ... فعزله أبو بكر كما أشار .

فاذا اجتمع لعمر هذا السبب من أسباب السياسة العليا الى المآخذ التى أنكرها على خالد فلا جناح عليه ، ولا محل للشك والظِنة فى أسباب عزله .

لقد رأى زهوَ خالدٍ بالنصر والغلَبِ قبل أن يفتح الشـام ويسبق

بالشهرة أنداده من القوّاد : رآى ذلك يوم عاد من حرب أهل الردّة فدخل المسجد وفي عمامته السهام . ورآه يوم استقل ببيت المال في ولايته على عهد أبي بكر وعلى عهده ، ورآه في أمور كان يبتدئها ولا يستأذن فيها ، ورآه مما يُحِس ولا يلمس ومما يُقدَّر ولا يُنتظر ، « فاذا أشفق أن يفتتن بالناس كما افتتنوا به فلا جناح عليه » .

وثاني الأمرين اللذين يدخلان في تقديرات السياسة العليا ويجيزان العزل في غير جريرة ظاهرة أن يصبح القائد ضرورة لا غنى عنها لتسيير الجيوش وفتح الفتوح ، وأن يُعزى اليه النجاح فتتخاذل العزائم وتصغرُ أقدار القادة دونه ، وأن تعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدةُ بالله ، ويخسر الجيشُ بذلك أضعاف ما يخسره بإقصاء قائده ولو لم يكن له نظير .

فان كان له نظير كما تبين من اختيار عمر لقوّاده في كل ميدان فلا خَسارة هناك ، بل هو كسب العقيدة وكسب قائد جديد . واذا حان اليوم الذي يُنتفع فيه بالقائد المعزول فهو قمين أن ينفع مابقيت فيه بقية من صلاح وخير .

وتعويل عمر على العقيدة أمر تعزوه الى كل شيء فتراه فيه على صواب: تعزوه الى ايمانه بالله فهو فيه مصيب ، وتعزوه الى حسن سياسته فهو فيه مصيب ، وتعزوه الى تقديره للواقع فهو فيه مصيب . فكل أولئك كان خليقا أن يرجّح كفة العقيدة عنده على كل كفة ، وأن يوجب عليه استبقاءها قبل كل استبقاء . وألا يزال بالناس يذكّرهم ماذكرهم به حين كتب الى الأمصار بعد عزله خالدا « ان الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » .

ولو أن رئيسا لخالد غير عمر بن الخطاب في ايمانه المكين لما فاته أن يعلم أين كانت قوةُ المسلمين وبم كان انتصارُهم في جميع الميادين ، ولا فاته أن يستبقي هذه القوّةَ بكل وسيلة وأن يفتديها بجميع ما في يديه : تلك قوةُ العقيدة لا مراء ، ان ضاعت فلا عوض عنها ، وان بقيت فللقادة عوضٌ كثير .

فكيف بعمر بن الخطاب الذى يؤمن بهذا ايمان تسليم كما يفكر فيه تفكير سياسة وتدبير ؟ لئن نسى ذلك لهو الحقيق باللوم على نسيانه ، ولئن ذكره فاقتضاه ذكره أن يعزل خالدا بغير جريرة لما كان عليه من لوم . وهو كما رأينا لم يعزله لغير جريرة ، أو لم يكن حسابه له مختلفا عن حسابه للقادة والولاة ... وقد كان أبو بكر نفسه — وهو من أبقى خالدا — يلمح بعض الخطر من افتتان الناس به حين قال : أَعجزَتْ النساء أن ينشئن مثل خالد ؟! ..

ويؤكد تعويل عمر على العقيدة فى كل نجاح واسناده كل فشل الى ضعفها والترخص فيها أن الجيش الذى غزا مصر أبطأ فى فتحها فالتمس عمر علة ذلك فى ضعف نياتهم وكتب اليهم يقول : « عجبت لابطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين . وما ذاك الا لما أحدثتم ، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم »

فنظرته فى عزل خالد هى النظرة العامة التى لا تخصيص فيها لرجل ولا لمعركة ولا لمكان ، وتقديمه العقيدة على كل عدة من عدد النصر هو الخطة التى جرى عليها فى مراقبة القادة ومراقبة الجيوش وتدبير عدد النصر وتجنيب المسلمين مآزق الخذلان ... وهل أخطأ ؟ هل كانت منه حماسة ايمان ولم تكن روية تفكير ؟ هل يرى غير هذا الرأى ناقد عسكرى من أعداء الاسلام لو بحث فى الأمر ونفذ الى حقائق الأسباب ؟.. كلا . بل هو صدق الرأى وصدق الايمان معا مقترنين لا يشير هذا بغير ما يشير به ذاك .

ودون هذا من أسباب « السياسة العليا » يجيز لعمر ما استجازه من عزل خالد من القيادة والولاية ، ولا سيما بعد ما أخذ عليه ما أخذ وبعد ما علم الناس أنه لا يسامح أحدا فى أمثال هذه المآخذ . فما باله يسامح خالدا فيها ؟ انه اذن لصانع النصر الذى لا غنى عنه ، وان الخطر الأكبر الذى يخشاه لقد حق على الجند وعلى الدولة ، ولقد حق معه خطر آخر

لا يقل عنه : أن يسكن الناس الى التفرقة فى الحساب ، وأن يألفوا مايعاب اذا عيب من الرءوس والأقطاب ، دون الأتباع والأذناب .

ومسألة أخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصرى وهو ينظر فى عزل خالد للأسباب التى قدّمنا أو لأى سبب غيرها .. وذلك أن حقوق الولاية فى عصرنا غير حقوق الولاية فى عصر عمر على التخصيص ، وهو العصر الذى بدأت فيه تجربة الولاية والعمالة فى دول الاسلام .

فالولاية فى عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مرانة طويلة ودراسة خاصة واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة اخرى ، وكأنها صناعة العمر التى لا يحتمل عمر الانسان تجديد صناعتين مثلها . فاذا قيل ان واليا عُزل فى عصرنا فكأننا نقول ان تاجرا صودر ماله أو زارعا حيل بينه وبين زرع أرضه . ومصادرة من هذا القبيل حرىّ أن تُلتمس لها أسباب من قبيلها فى الرجاحة والإقناع .

غير أن الولاية فى عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه ، ولم يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذى اصطلح عليه العرف وان لم ينص عليه القانون ، وانما كانت تجربة ارتجالية يتساوى فيها جميع الصالحين من المسلمين ، لا تنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة ، فيصح أن يعزل الوالى لأسباب أهون من تلك الأسباب التى قدمناها فى الرجاحة والاقناع ، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة فى ندبة متساوية بين جميع المسلمين .

« لله در « ابن حنتمة » ! .. أىّ رجل كان ! »

كلمة قالها رجل يعرف الرجال . قالها عمرو بن العاص وكأنه لم يكن يود أن يقولها لولا أنطقه بها الاعجاب الذى لا يجدى فيه كتمان .

وهى كلمة يقولها الناظر فى سيرة عمر كلما وقف من أخبارها موقف الناقد الذى يبحث عن الخطأ فيُلفيه حيثما بحث عنه عسيرا جدّ عسير ... أى رجل كان هذا الرجل ؟ أى عـدل كان عدله ؟ أى قسطـاس كان

قسطاسه ؟ أى حساب كان حسابه لنفسه ؟ وأى سبيل للناقد الى رجل كان يحاسب نفسه هذا الحساب ؟

وربما اختلفت الأمزجة أو اختلف تركيب العقول والأبدان فقلْ فى ذلك ما تشاء ، وقلْ فى خلائق عمر ماتشاء ... قل هى الشدّة والصرامة ، أو قل هى الخشونة والصلابة ، أو قل هو نسيان الضعف وفرط الغيرة على الحق فى عالم تَستكثَر فيه مصانعة الحقوق ويُستعظم فيه تكلف الصواب .. قل مابدا لك من ذلك واذهب ماشئت أن تذهب فيه ، فانك لا تعطى المزاج حقه ولا تفرض له فرضه حتى تَحار بعد ذلك فى سبب انتقاد أو علة اختلاف ، لأنه لا يزاول أمرا الا وهو صواب لا محل فيه لسوء الطوية من وجهة ذلك المزاج .

كنا نقرأ عن عزل خالد ما تتفق قراءته من هنا وهناك ، وكنا نستمع الى الذين يردونه الى المنافسة والتناظر فنجيز هذا ولا نمنعه ، أو نرى فيه منالا من قدر عمر ومنقصة تغض من اعجابنا بمزاياه . لأنه قد يغار من خالد ويعزله لغير جريرة ، ويبقى له بعد ذلك قدره الجليل وأثره الضخم فى تاريخ الانسان .

وفى عصرنا هذا رأينا أبطالا خدموا أقوامهم ثم بلغ من ضِغنهم على منافسيهم أنهم قتلوهم ولم يقنعوا باقصائهم عن الحكم ولا بمحاسبتهم بين يدى القضاء . ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات من الحسنات وقرنوا قتل أفراد باحياء أمة فبقى لأولئك الأبطـال حقهم الخالد فى الثناء والتعظيم . واذا بلغ من صواب عمر أنك لا تحصى عليه خطأ غير عزله لخالد وما جرى مجراه فما أكثر هذا صوابا على الآدمى وان كان من أعظم العظماء !

بدأنا نقرأ عن هذه القصة وفى خَلَدنا هذا الفرض الذى لا يحملنا على استبعادها ، وعندنا أنه خطأ يذكر الى جانب حسنات ، فلا ضير أن يكون له موضعه فى جانب تلك الحسنات .

ثم نقرأ كل ما تسنى لنا أن نقرأه فى هذه القصة فلا نزال نستبعد الخطأ ونستبعده ، ولا تزال كلمة ابن العاص تعود الى لساننا وتعود ، حتى نطلقنا بها كما هى ، وغفر الله لابن العاص .

وهكذا كنا نصنع فى كل خطأ تنسب الى عمر وتواتر على السماع دون تمحيص واستقصاء . فلا تزال بنا الوقائع حتى يَثبت بطلانه من أساسه أو يضعف سنده ضعفا لا يبيح الاعتماد عليه ، الا لمن يتجنى ويتمحل ذرائع النقد ودعوى التخطئة والعيب .

كلا . هذا رجل لا يسهل نقده ، ولا يتــأتى لإنسان أن يحاسبه كما حاسب هو نفسه ، ولن يقع الخلاف بين المنصب وبينه الا على أنه اختلاف فى الأمزجة وتركيب العقول والأبدان . فاذا وُضع هذا موضعَه من التقدير فأعسرْ عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ ، وأن تُحصى عليه خطأ فيه من سوء النية نصيب .

فالذى حصل والذى كان متوقعا حصوله ينفيان الظنة عن مروءة عمر وانصافه فى قضية خالد بن الوليد ، وقد حكم فيها بما وجب عنده ، وانتهى كل شىء بعد ذلك فى هذه القضية بانتهاء الغرض منها فى مصلحة الدولة ومصلحة السياسة العليا . اذ لا موضع فيهــا لحزازات النفوس وصغائر المنافسة وما تجرّ اليه من لغو المشاكسة وفضول الكلام .

قال لخالد : لن تعتب علىّ فى شىء بعد اليوم ، ثم أمسك عن الخوض فى قضيته الا أن تثار فى معرض عام ، فيشير اليها حيث تثار على سبيل الاعتذار ، ويقبل ماشــاء له كرم الخليقــة أن يسمع من ملام الأقربين والمشايعين وان أغلظوا فى المقال ، على ما كان له من هيبة ترد الجامح وتخيف من لا يخاف .

قال من خطبته بالجابية : انى أعتذر اليكم من عزل خالد بن الوليد ، فانى أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفة المهاجرين فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان .

فتصدّى له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه بكلام غليظ يقول منه : « والله ما أعذرتَ ياعمر . ولقد نزعت غلاما استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأغمدت سيفا سله رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت أمرا نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطعت رَحِما وحسدت بنى العم ... » .

فما زاد عمر على أن قال وهو يعذره : « انك قريب القرابة ، حديث السن ، تغضب فى ابن عمك » .

ولم ينس أن يصون للرجل اسمه ومنزلته فى أمصار المسلمين ، فكتب ما ألمعنا اليه آنفا يرحض عنه سمعة العجز والخيانة ، ويجعل العزل لفضيلة فيه لا لقصور منه ، ولا لتثريب عليه .

وعلم بموته فاشتدّ حزنه عليه واسترجع (١) مرارا ونكس رأسه وهو يكثر من الترحم عليه ، ثم قال : كان والله سدّادا لنحور العدو ميمون النقيبة .

ولم يُهمه أن يذكر صوابه أو خطأه فى عزله بمقدار ما أهمه أن يعلن فضله ويذكر حسناته فقال : « قد ثَلِمَ فى الاسلام ثُلمةٌ لا تُرتق » . وقيل له : لم يكن هذا رأيك فيه ، فلم يحجم أن يعلن قائلا : « ندمت على ما كان منى اليه » ... وقال فى غير هذا المعرض وبلغه أنه لم يعقب من حطام الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه : « رحم الله أبا سليمان ، كان على غير ماظنناه به » .

وقد كان عمر ينهى عن الندب والعويل ، فلما مات خالد واجتمع بنات عمه يبكينه وسئل عمر أن ينهاهنّ قال : « دعهنّ يبكين على أبى سليمان ، مالم يكن نقع أو لقلقة (٢) . على مثله تبكى البواكى » !

ودخل هشام بن البخترى فى أُناس من بنى مخزوم على عمر فاستنشده شعره فى خالد ، وقال له وقد أطال الاصغاء اليه : « قصرت فى الثناء على

(١) استرجع : قال : « انا لله وانا اليه راجعون » .
(٢) النقع واللقلقة : اثارة التراب والافراط فى النحيب والبكاء

أبى سليمان . رحمه الله ، ان كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وان كان الشامت به لمتعرضا لمقت الله . رحم الله أبا سليمان ! ما عند الله خير له مما كان فيه » .

***

ومن الحق أن يقال ان قضية خالد قد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمر ، وقد عرضت لنا هذا البطل فى صفحتيه فاذا هو بطل الفؤاد فى ولايته وبعد عزله ، وفى شدته على عدوه وطاعته لأميره ... وما على مثله من ضير أن يحق عليه العزل فى ميزان عمر بن الخطاب فذاك ميزان تعلو فيه الكفة ولا يزال صاحبها راجحا أى رجحان . وقد استحق المجد بيقين واستحق العزل بظن ، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الابقاء على رضاه لقد كان ذلك الظن حقيقا بالغض عنه والتجوز فيه .

وكفى بالرجلين فضلا أن يختلفا ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما ويعترف به كل محب وشانىء ، وكل منصف وجاحد ، وما نخال أن تقديرنا خالدا وتقديرنا عمر يدعونا أن ننصب الميزان فى هذه القضية من جديد . فقصارى مانغنم من ذلك أن خالدا كان جديرا بالبقاء فى منصبه ولم يكن مستحقا لعزله ، وليس ذلك بشىء الى جانب ما رأيناه حين نصب الميزان فى القضية كما نصبه خليفة الاسلام ، فقد أرانا عدلا أعظم من بطولة الأبطال ، فان أخطأ البطل — على تقدير خطئه — فالعدل أعظم منه وأحرى أن يتعقبه كأنه من أضعف الضعفاء ، وذلك ميزان أشرف لعمر ولخالد وللاسلام من كل ميزان .

ثقافة عمر

اذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول إنه كان رجلا وافر الحظ من ثقافة زمانه ، انه كان أديبا مؤرخا فقيها ، مشاركا فى سائر الفنون ، مدربا على الرياضة البدنية ، خطيبا مطبوعا على الكلام ، فليس أرجحَ من نصيبه فى ثقافة زمانه نصيب .

ظل فى اسلامه كما كان فى جاهليته عظيم الشغفِ بالشعر والأمثالِ والطُّرفِ الأدبية ، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلائلها ودقائقها التى لا تدع له من وقته فراغا لغيرها ، فكان يَرْوِى الشعر ويتمثلُ به ويحث على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة كما قال لابنه عبد الرحمن « يابنىَّ انسُبْ نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسنَ الشعر يحسُنْ أدبك ، فان مَن لم يعرف نسبه لم يصل رحمه. ومن لم يَحفظ محاسن الشعر لم يؤدِّ حقا ولم يقترف أدبا » ... وقال للمسلمين عامَّة : « اروُوا الأشعارَ فانها تَدُلُّ على الأخلاق » .

ونظر الى فائدته العملية كما نظر الى متعته الأدبية ، فقال فيه انه جِذل (١) من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به النائرة (٢) ويبلغ به القوم فى ناديهم ، ويُعطَى به السائل .

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التى لا يبالى الموت لو حُرِم نصيبه منها ، فكان يقول : لولا أن أسيرَ فى سبيل الله ، وأضعَ جبهتى لله ، وأجالسُ أقواما ينتقون أطايبَ الحديثِ كما ينتقون أطايب الثمر لم أبالِ أن أكونَ قد مُت .

واذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فذلك غاية

(١) الجذل : الاصل . (٢) النائرة : الهياج .

ما يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ .

وقد كان اعظام الرجل فى عينيه بمقدار حذقه للحديث وقدرته على الابانة والمنطق الحصيف ، فنظر يوما الى هرم بن قطبة ملتفا فى بَتٍّ (١) بناحية المسجد وقد عرف تقديم العرب له فى الحكم والعلم وهو ما هو من دمامة وضآلة ومنظر زرىٍّ ، فأحب أن يكشفه ويسبرَ حكمته ، فسأله فى علقمةَ بن عُلاثة وعامر بن الطفيل : أرأيت لو تنافرا اليك اليوم أيهما كنت تُنَفِّر (٢) ؟ فأجابه الرجل : يا أمير المؤمنين ! لو قلت فيهما كلمة لأعدتُها جَذَعة ، أى لأعاد الحرب فتيَّةً كما كانت ، فأثنى عليه وقال : لهذا العقل تحاكمت اليه العرب !

وجاءه وفد فيه الأحنف فتركهم جميعا واستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظمَ قدرَه وعقد له الرئاسة الى أن مات .

وسرَّه أن عاد العرب الى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد فى سبيل الدين : فكان يقول ان الشعر « كان علم قوم لم يكن لهم علم أصحُّ منه ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهادِ وغزو فارس والروم ، ولَهِيَتْ عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا (٣) الى ديوان مدوَّن ، ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقلَّه وذهب منهم أكثرُه » .

ومن ناحية الأدب فيه وناحية الدين معاً حثَّهُ على تعلم العربية « لأنها تثبت العقل وتزيد فى المروءة » ، وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية .

ولم يزل عمرُ الخليفةُ هو عمر الأديب طوال حياته ، لم ينكر من الشعر الا ماينكره المسئول عن دين ، ولم ينس قط أنه الأديبُ الحافظ الراوية الا

(١) البت : الطيلسان من خز ونحوه .

(٢) نفر فلانا ينفره : غلبه فى المنافرة ، ونفر فلانا « بتشديد الفاء » وانفره : اعانه وغلبه وحكم له وهو المقصود هنا .

(٣) لم يئلوا : لم يرجعوا .

حيث ينبغى أن ينسى ذلك ليذكرَ أنه القاضى المتحرزُ الأمين .

فنهى عن التشبيب بالمحصَّنات كما نهى عن الهجاء ، وجيء له بالحطيئة متهما بهجاء الزِبرقان بن بدر حيث يقول فيه :

دعِ المـكارمَ لا ترحـلْ لبُغيتهـا

واقعُدْ فانك أنت الطاعمُ الكاسى (١)

فنسى أنه الأديب الراوية ولم يذكر الا أنه القاضى الذى يدرأ الحدود بالشبهات ولا يحكم بما يعلم دون مايعلمه أهل الصناعة ، وقال للزبرقان : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة . ثم سأل حسان بن ثابت فقضى بأنه هجاه وأفحَشَ فى هجائه ، فحبسه وأنذره ونهاه أن يعود الى مثلها ، فانتهى طَوال حياةِ عمر ، ثم عاد الى الهجاء بعد وفاته .

واستعداه تميم بن مقبل على النجاشى لأنه قال فى قومه بنى العجلان :

اذا الله عـادى أهــلَ لؤم وذلة

فعادى بنى العجلان رهطَ ابنِ مقبل

فذكر عمرُ قضاءه ولم يذكر روايته للشعر ، وقال على سنة القضاة يدفع الحدود بالشبهات : انه دعاءٌ والله لايعادى مسلما .

قال تميم : فانه يقول عنا :

قبيلته لا يغدِرون بذمَّة ولا يَظْلمونَ الناس حبةَ خردلِ

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء . قال تميم ، وإنه يقول :

تعاف الـكلابُ الضـارياتُ لحومَهم

وتأكلُ من عوفِ بن كعبِ بن نهشـلِ

فقال عمر : كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه .

قال تميم : وانه يقول :

ولا يَرِدُون الماء الا عشيةً اذا صَدَرَ الوُرَّاد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك (أى الزحام) .

(١) الطاعم الكاسى : أى المطعم المكسو

قال تميم ، وإنه يقول :

وما سُمِّيَ العجلانَ الا لقولهم
خذ القعبَ (١) واحلب أيها العبدُ واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم أنفعهم لأهله .

قال تميم ، فسله عن قوله :

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللئيم ورهطُ العاجزِ المتذلّل

فقال عمر : أما هذا فلا أعذرك عليه ، وحبس الشاعر وضربَه وأنذَره لئن عاد ليضاعفنّ له العقاب .

وقد تجوّزنا فقلنا ان عمر نسى علمه بالشعر ليذكر ابراء الذمة فى القضاء . وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب فى نسيان أدبه . ولكنه مطلب ما استطيع قط ولن يستَطاع . فكان عمر فى تخريجه للكلام وعلمه بما تنصرف اليه معانيه أخبرَ بالشعر من قاض لا يفقه منه الا ظاهر لفظه ومعناه .

ومن المشهور عن عمر أنه كان عليما بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها كعِلمه بالمتخيَّر من شعرها والسائر من أمثالها .

جنح الى ذلك بطبعه ونَقَله عن أبيه ، وكثيراً ما كان يقول كما جاء فى البيان والتبيين : سمعت ذلك عن الخطاب ، ولم أسمع ذلك عن الخطاب .

ومن وصاياه : « تعلَّمُوا النَّسبَ ولا تكونوا كنَبَطِ السواد (٢) اذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا » . ومنها « عليكم بطرائف الأخبار ، فانها من عِلمِ الملوك والسادة ، وبها تُنال المنزلةُ والحظوةُ عندهم » .

وفِقهُ عمر بالشريعة التى كان مسئولا عن نَفاذِها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه . فكان عبدُ الله بن مسعود

---

(١) القعب : قدح ضخم غليظ ، جمعه قعاب واقعب .
(٢) النبط : جيل من العجم ينزلون بالبطائح بين العراقين

يقول : « كان عمرُ أعلَمنا بكتاب الله ، وأفقَهنا فى دين الله » ، وكان اذا اختلف أحد فى قراءة الآيات قال له : اقرأها كما قرأها عمر ، وأطنب فقال : « لو أن عِلمَ عمر بن الخطاب فى كفةِ ميزان ووُضِع علم الأرض فى كفة لرَجَح عِلمُ عُمر بعلمهم » ولقد كانوا يَرْوون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم ... وقال ابن سيرين : « اذا رأيت الرجلَ يزعم أنه أعلمُ من عمرَ فشُكَّ فى دينه » ، وكل مافسر به آى القرآن فى معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح فى وزن العقل والدين ، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح .

ونصائحه للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يَعرفُ ماهو العلم وماذا يجمل بالعلماء فى طلبه ، فكان يقول : « تَعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينةَ والحِلم ، وتواضَعوا لمن تَتعلَّمون منه وتواضعوا لمن تُعَلِّمون ، ولا تكونوا جبابرةَ العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » . وكان يوصى طلابه « أن يكونوا أوعيةَ الكتاب وينابيعَ العلم ، ويسألوا الله رزقَ يوم بيوم ، ولا يضيرهم ألا يُكْثَر لهم » ولا يزال يذكرهم أن التفقهَ مقدَّمٌ على السيادة « فتفقهوا قبل أن تسودوا » .

ولم يقصر نصائحه على علم الدين وحدَه ، ولا علم الأدب واللغة وحده ، بل تناول كل ماعرف من معارف زمانه فقال : « تَعلَّموا من النجوم مايدلكم على سبيلكم فى البر والبحر ولا تزيدوا عليه »

ولا شك أن نصائحه العمليةَ فى طلبِ العلم كانت أغلبَ من نصائحه النظرية فيه ، شأنه فى ذلك شأنُ رجلِ الدولةِ الذى يعلِّم الناس ماينفَعُهم ويُصلِحُ معاشَهم ويهذب أخلاقهم ... ولكننا مخطئون ان فهمنا من هذا القول الذى رويناه فى علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفناها نحن فى أيامنا ، فانما الزيادة التى كرهها هى تلك الزيادة التى كانت على عهده تخوض فى التنجيم وتربط أقدارَ الناس بالكواكب وتجعل منها أرباباً تُعبَدُ وأرصاداً تؤتمن على أسرار الغيب

وذلك ماتَنهَى عنه الآن وتَعُد النهيَ عنه من تحقيق العلمِ الصحيح

ولم يفته الحرصُ على المعرفة التى تخترع منها منافع للناس فى أمر المعاش ، فطلب الى أبى لؤلؤة غلام المغيرة أن يُنجِزَ ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء ، وهو علم الصناعات كما انتهى اليه فى عصره ، لا يضيره أنه قسط ضئيل ، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على مايلقاه منه تشجيعُ الصناعة يوم يراها جليلةً كبيرة الآثار .

على أن زُبدَة الثقافة كلها فى أقطاب الحكم وعظماء الأعمال انما تتلخص فى شىء واحد هو الدرَايةُ بالناس ، ونفاذُ البصر فى شؤون الدنيا ، وصدق الخِبْرة بدخائل النفس البشرية ، أو هو مانسميه فى أيامنا هذه بالرأى السليم والحكمة العملية ، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قليلَ النظراء فيه ، وحُفظت له كلماتٌ فى معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكام ، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء .

فأى كلمة أدل على النفس البشرية من قوله : « ليس العاقلُ الذى يعرف الخيرَ من الشرِّ ، ولكنه الذى يعرف خيرَ الشرين » .

وأى نفاذ فى تركيب الطبائع أمضى من نفاذه اذ يقول : « ما وجدَ أحدٌ فى نفسه كِبْرا الا من مهانة يجدها فى نفسه » ، أليس هذا بعينه هو مركبَ النقص الذى يلهج به علم النفس الحديث ؟

وأى رأى فى تجربة الناس أصدق من رأيه حين يقول : « لا تعتمدْ على خُلُق رجل حتى تجرِّبه عند الغضب » ، أو حين أثنى بعضهم على رجل أمامه فسأله : أصحبتَه فى السفر ؟ أعاملته ؟ فلما أجابه نفيا قال : « فأنت القائل بما لم تعلم ! »

وأى فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين : « اذا توجه أحدُكم فى الوجه ثلاث مرات فلم ير خيرا فليَدعه » ؟

كذلك سداد جوابه حين سئل فيمن يشتهى المعصية ولا يقارفها ، وفيمن ينتهى عنها وهو لايشتهيها ، أيهما أفضل وأجزل مثوبةً عند الله ؟

فكتب فى هذا فصل الخطاب اذ قال : « ان الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر كريم » . وكذلك وصيته بكتمان السر وتبيينه لحسن عقباه حين قال : « من كتم سره كان الخيار بيده » .

وكذلك وصيته فى الحب والبغض حين قال « لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا » .

وكذلك مخافته محنة الفراغ على الناس أشد من مخافته محنة الخمر حين قال : « أحذركم عاقبة الفراغ فانه أجمع لأبواب المكروه من السكر » .

وكذلك وصاياه التى كانت تحفل بها كتبه الى الولاة وخطبه فى الصلوات والأعياد كلها آيات من هذه الحكمة العملية التى هى خلاصة الثقافة المحمودة فى أقطاب الحكم خاصة ، وفى كل رجل يزاول شؤون الحياة على التعميم .

أما مشاركته فى سائر الفنون والمعارف التى كانت ميسورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره ، ولا يتقصى فيها الى التفصيل .

فقليل من يتخيل أن عمر كان يعرف « جغرافية » الشرق كأحسن مايعرفها رجل فى وطنه ، ولكنه كان يعرفها حقا عن سماع وعن رؤية وعن زكانة تعين السماع والرؤية . بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم مايتولونه من البلاد ويعزل من يرى فيه تقصيراً عن ذاك . فاستقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه اليه وقالوا فى شكواهم اياه « انه لايدرى علام استعمل » وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير ، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره .

ومن الواجب أن نشك فى كل خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة

من المعارف العملية التى يحتاج اليها فى تدبير الدولة ، فلا يعقل مثلا أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب وقد كان تاجراً منذ نشأته فى الجاهلية ، وكان يحَضّر الجيوش ويعرف ماهى الألوف وماهى عشرات الألوف ، فاذا استفسر عن رقم فلن يكون الا استفسارَ تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة كما جاء فى أخبار الخراج من هَجَر والبحرين .

قال أبو هريرة ما فحواه : قدمت من هَجَر والبحرين بخمسمائة ألف درهم : فأتيت عمرَ بن الخطاب ممسياً أسلمه اياه فسأل كم هو ؟ قلت خمسمائة ألف درهم ! قال : وتدرى كم خمسمائة ألف درهم ؟! قلت نعم : مائة ألف ومائة ألف خمس مرات ... قال : أنت ناعس ، اذهب فبت الليلة حتى تصبح !

فكل شىء يجوز أن يفهم من هذه القصة الا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك ، وهو الذى شهد الدولة وحسابها من عهد أبى بكر وأحصى الجند والمال فى عهده ... انما هى غبطة واستعظام وليس هو جهلا بدلالة هذا الرقم فى جملة الحساب

واذا قل من يتخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقل من أولئك من يتخيل له حظا من السماع والغناء ، ولكنه كان يسمع ويغنى فى بعض الأحيان ، ولا ينهى عن غناء الا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات . جىء له برجل يغني فى الحج وقيل له : ان هذا يغني وهو مُحْرِم ، فقال : دعوه فان الغناء زادُ الراكب .

وروى نائلٌ مولى عثمان بن عفانَ أنه خرج فى ركب مع عمرَ وعثمانَ وابن عباس ، وكان مع نائل رهطٌ من الشبان فيهم رباحُ ابن المعترف الفهرى الذى كان يحدو ويجيد الحُداء والغناء . فسألوه ذات ليلة أن يَحْدُو لهم فأبى وقال مستنكرا : مع عمر ! قالوا : احدُ فان نهاك فانته . فحدا ، حتى اذا كان السَحَرُ قال له عمر : كُفَّ فان هذه ساعةُ ذِكْر . ثم كانت الليلةُ الثانية فسألوه أن ينصب لهم نَصْب

العرب (١) . فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلا : مع عمر ؟ .. قالوا له كما قالوا بالأمس : انصب فان نهاك فانته . فنَصَبَ لهم نصب العرب حتى اذا كان السحرُ قال له عمر : كفٍّ فان هذه ساعة ذكر . ثم كانت الليلة الثالثة فسألوه أن يغنيَهم غناء القِيان (٢) . فما هو الا أن رفع عقيرته (٣) بغنائهنَّ حتى نهاه وقال له : كفٍّ فان هذا يُنَفِّر القلوب .

وكان يخرج للحج ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغنىَ شعراً ويؤثر أن يكون ذلك من شعره .

خرج مرة للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بنُ عَوف ، فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار ، وقال عمر : بل دعوا أبا عبد الله فليغنِّ من بنيات فؤاده . فما زال يغنيهم حتى كان السَّحَر ، فهتف به عمر : ارفع لسانك يا خوات فقد أسْحَرْنا .

وجاءه قوم فذكروا أن إمامهم يصلي بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر ، فقام معهم اليه واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه ، واستنشده الأبيات التى يغنيها ، فأنشده :

وفؤادي كلمـــا نبهته عاد فى اللذاتِ يبغي تَعَبي
لا أراه الدهرَ الا لاهيـاً في تمـاديه فقد برَّح بي
ياقرينَ السوء ماهذا الصِّبا فنَي العمرُ كذا باللعب (٤)
وشباب بانَ (٥) مني فمضى قبل أن أقضيَ منـه أربي
نفسِ لاكنتِ ولاكانالهوى اتقي المولى وخافي وارهبي

فأعاد البيت الأخير ، وقال لمن شكوا اليه : من كان منكم معنياً فليغنِّ هكذا . وكان مرة فى سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد :

---

(١) الحداء : الغناء للابل كى تجد فى السير ، والنصب : غناء ارق من الحداء وهو غناء الركبان .
(٢) القيان : جمع قينة وهى الجارية البيضاء ، وقيل : تختص بالمغنية .
(٣) عقيرته : صوته .
(٤) الصبا : من الشوق ، يقال منه « تصابى » ، والصباء اللعب مع الصبيان .
(٥) بان : ذهب وودع .

وما حَمَلَتْ من ناقةٍ فوق رحْلها
أبرَّ وأوفى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ

فاجتمع الركب اليه ، فقرأ فتفرقوا . فعل ذلك وفعلوه مرات ، فصاح بهم : « يا بنى المتكاء (١) ! اذا أخذتْ فى مزامير الشيطان اجتمعتم ، واذا أخذت فى كتاب الله تفرقتم ؟ .. » لا يلومهم على الغناء وسماعه ، انما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات .

ولاشك أن الشغفَ بالشعر الجَزْل والحديث الرائق والصوت الحسن لايجتمع فى نفس الا اجتمع معه ذوقٌ للجمال وسرور بكل حسن جميل . ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر وبأسِه وشدة حَجْره على زينة الحسان ؟ فقد دخل فى رُوعِ أناس أنها جميعاً تناقض حب الجمال ، وقد سمعنا هذا فعلا من أدباء يُجِلُّون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من مأثور حسناته ، لأنه كان شديدا فى الحجاب وكان ينفى الفتيان الحسان كما صنع بنصرِ بن حجاج ومعقل بن سنان ، وكان يقول : « استعينوا بالله من شِرار النساء وكونوا من خِيارهن على حذر » .

وعندنا نحن أن هذا جميعَه يَنمُّ على الاحساس بخطر الجمال وطغيان فتنته ، ولا ينم على غفلة عنه وقلة مبالاة بأثره . وما نخال أحدا من المترخصين فى الحجاب كان يؤمن بسلطان الجمال أبلغ من ايمان عمر بسلطانه ، أو كان يعرف حق المرأة فى الشوق اليه كما عرفه وأمر برعايته ، فانه كان ينكر على الآباء أن يُكرهوا فتياتهم على قِباح الوجوه ويوصيهم : « ألاَّ تُكرهوا فتياتِكم على الرجل القبيح فانهن يحببن ماتحبون » . وجاءت له امرأة بزوج أشعَث أغبَر تسأله الخلاص منه ، فأمر به أن يَستَحِمَّ وأن تُقلَّم أظفارُه ويؤخَذ من شعره ، ثم قال له ولمن فى مجلسه : « هكذا فاصنعوا لهنّ فوالله انهن ليُحببن أن تتزينوا لهنّ كما تحبون أن يتزيَّنّ لكم » .

(١) المتكاء : المرأة لم تختن .

فكل ماروى عن عمر من الشدة والرفق فى معرض الجمال فهو دليل على الاحساس به واكبار خطره ، وليس بدليل على الغفلة عنه واستصغار أثره ، وربما كانت الشدة والحجز أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة .

***

ومن الآداب العامة التى لها حظ من ذوق الجمال فى معارض السياسة أدب الذكريات الذى لايستغنى عنه ولاة الأمر الموكلون بإحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها .

ففى هذا الأدب كان لعمر النصيبُ الذى يغنيه ، فهو الذى اختار أو وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الاسلامى . وانه لأصلحُ يوم يؤرَّخ به الاسلام لأن العقائد كما قلنا فى « عبقرية محمد » : « تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب ، وكل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التى تعتقد حقا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتَعتَقِدُ ومن حولها صنوف البلاء » .

وكلما اقترح على عمر اقتراحٌ فيه نفحة من ذوق الذكرى كان مجيبا له سريعَ الاصغاء اليه . فكان يحترم وفاءَ بلال واقلاعَه عن الأذان بعد وفاة النبى عليه السلام ، ولكنه دعاه الى الأذان تلبيةً لاقتراح الجِلة من الصحابة فى يوم وداع دمشق بعد الفتح المبين . فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة اذا بالصوت الذى انقطع بعد النبى يرتفع رويدا رويدا فى الفضاء ويسرى رويدا رويدا من الأسماع الى الصدور ، والتفتوا وكأنهم يسألون : ماذا ؟ هل عاد محمد الى الأرض ؟ ان لم يكن قد عاد فقد عاد الحنينُ اليه أقوى ماينبعث من صوت انسان الى صدر انسان .. فذابت قلوبٌ لايذيبها الهول ، وبكى أشيب أولئك الأبطال وأصبرهم على حر القتال .

واذا كان عمر المعجب بالجمال مستكنا وراء ستار يحوجنا الى النظر

من ورائه فعمر الرياضى المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله ، وبسيرته فى الجاهلية وسيرته بعد الاسلام ، وسيرته بعد الخلافة الى أن فارق الحياة . فكان يصارعُ فى المواسم ويسابق على الخيل وكان ينوط مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب الى الأمصار أن « علّموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحَسُن من الشعر » ، ولا يفتأ يذكّرهم أنه « لن تَخور قُوىً مادام صاحبها ينزع وينزو » أى يرمى بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب .

أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البِنْيَة ولم تكن من صفات الذهن وكفى ، فكان له فم يمتلىء بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول ، ولوحظ عليه انه كان ينطق ببعض الحروف — كالصاد — من كلا شدقيه وهى تُنطَق فى الأغلب من شدق واحد .

وكان جَهورىَّ الصوت واضح النطق سليم الشفتين فى اخراج الحروف ، وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرؤها فكأنك تصغى الى خطيب لاتفقد منه الا الصوت المسموع .

ولانطباعه على الكلام الذى لاتصنّع فيه كان يستسهل كل كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب الا الذى يغير من نظرته الى الناس ويلجئه الى المداراة والباطل . فكان يقول : « ما يتصعّدنى (١) كلام كما تصعّدنى خطب النكاح » ، والتمس ابن المقفع علة ذلك فقال : ما أعرفه الا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه ، ونظر الحِداق من قرب فى أجواف الحداق (٢) ، ولأنه اذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء ، واذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية . والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح الى « أن الخطيب لايجد بدا من تزكية الخاطب ، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا وغرَّ القوم من صاحبه » . وكلا القولين جائز

(١) مايتصعدنى كلام : مايشق على .　　(٢) الحداق : جمع حدقة وهى سواد العين

فى بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم فى محافل النكاح . فهو مطبوع على أن يتكلم الى الناس كلام رجل يقود الرجال ، ومطبوع على الصدق الذى تثقل على صاحبه المداهنة ، وهى مما لا غنى عنه فى هذا المقام ، ولو كان الخاطب من الأكفاء .

وقد اختلفوا فى نظمه الشعرَ فزعم الشعبى أنه كان شاعرا ورُويت أشعارٌ لا تشبهه ولا ترضيه ، ونفى هو نظمه للشعر حين قال : « لو كنت أقولُ الشعرَ لرثيتُ أخى زيدا » .

ولا طائلَ فى هذا الخلاف لأنه لن ينتهى الى رأى قاطع يُسْكَتَ عليه ، ولكنما المهم فى هذا الصدد أنه كان مطبوعا على التعبير وله عبقرية فيه ، أو أن تعبيره كان خاصا به لا يشبهه تعبير سواه ، فهو تعبيرٌ عُمَرىٌّ بمفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحد من أهل عصره حتى ليَسهُلُ تمييز كلامِه من كل كلام ، ويصعبُ تزوير القول عليه ولو أحكِمت المحاكاة .

فمن خصوصياته فى التعبير أنه كان يقول : « لولا الخليفى لأذنت » ، وهو يعنى الخلافة ولا يقصد الاغراب .

ومنها وهو ينقل خبر اسلامه الى خاله : « وجئت الى خالى فأعلمته فدخَل الى البيت وأجاف الباب » أى أوصده .

ومنها وهو يصف ما وقع فى نفسه من الآية التى تلاها أبو بكر رضى الله عنه حين أنكر موت النبى فقال : « والله ماهو الا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ماتقلنى رجلاى » ، يعنى أنه عجز عن القيام .

ومنها فى الكتابة والقراءة ينهى عن العَجَلة فيها : « شر الكتابة المشق وشر القراءة الهَذْرمة ، وأجود الخط أبينه » (١)

ومنها وهو يذكرُ امرأة كانت تسقِى الناس يوم أحُد : انها « كانت تزفر للناس القرب » أى تحملها .

(١) مشق فى الكتابة : مد حروفها واسرع فيها ، هذرم القرآن : أسرع فى قراءته لا يتدبر معانيه .

ومنها فى المشورة : « الرأىُ الفرد كالخيط السَّحِيل ، والرأيان كالخَيطَين المُبْرمَين ، والثلاثة مرار لايكاد ينتقض » (١)

ومنها حين كَتَب الى أبى عبيدة بعد ولايته الخلافة : « ... ولاتَبعثْ سَريَّة الا فى كَثف من الناس » (٢)

ومنها حين شكا اليه الشاكى هجاء الشاعر الذى قال فيه :

ولا يردون الماء الا عشــيَّةً ... اذا صدر الورَّاد عن كل مورد

فقال : ذلك أنفى « للسكاك » أى الزحام .

ومنها فى سماحه بالبكاء « ما لم يكن نقع أو لقلقة » أى ما لم يثير التراب ويفرط فى العويل ..

ومنها وقد حار بأهْل الكوفة : « أعْضــلَ (٣) بى أهلُ الكوفة مايَرْضَون بأمير ولا يرضاهم أمير »

ومنها : « ان قريشا تريد أن تكون مُغْنويات لمال الله » أى مصائد تحتجنه لها دون عباد الله .

ومنها : « تَمَعْددوا واخشَوشِنُوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوا » أى تزيَّوا بزى العرب من معد بن عدنان .

ومنها : « فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين ، ولا تَلِثوا (٤) بدار مَعْجزة » أى تقيموا .

ومنها : « فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرَّة أن يقتلا » أى أن يتعرضا للقتل .

ومنها : « .. ان الاقتصاد فى السُّنة خيرٌ من الاجتهاد فى الضلالة ، فافهموا ماتوعظون به ، فان الحريب من حرب فى دينه » يريد المسلوب .

ومنها وقد سمع بامرأة سافرة يبرزها زوجها فقال : « هذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرْت عليهما لَشتَرْت بهما » أى لأغلظت القول نهما

---

(١) السحيل : الثوب السحيل الذى لايبرم غزله ، مرار : قوية محكمة .
(٢) الكثف : الجماعة . (٣) اعضل بى : اعيانى امرهم .
(٤) فى المختار : ولا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكساب والتعيش .

ومنها لما سألوه : لم حَصَبْت المسجد فقال : « هو أغفر للنخامة وألين فى الموطن » أى أستر للبصاق .

ومنها : « ثلاث من الفواقر (١) : جار مقامة ان رأى حسنة سترها وان رأى سيئةً أذاعها ، وامرأة ان دخلت عليها لَسَنَتْكَ وان غبت عنها لم تأمنها . وسلطانٌ ان أحسَنْت لم يحمَدْكَ ، وان أسأت قتَلَكَ » ، ولسنتك : أى تناولتك بلسانها .

ومنها : وهو يُخاطب سعد بن عُبادة يوم السقيفة : « لقد هَمَمْت أن أطأك حتى تَنْدر عضدك » أى تسقط .

ومنها وهو يتكلم عن امرىء القيس : « خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عُور أصح بصر » ، أى استنبط عين الشعر وشق طريق المعانى وأتى بالشوارد الحسان .

ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين فى الغنائم وبيت المال : « والله لئن بَقِيت ليأتيَن الراعىَ بجبل صنعاء حظّه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يَحْمَر وجهُه » ، أى قبل أن يخجل ويحمر وجهه فى طلبه .

ومنها قوله لأعرابى استفتاه فى صيد ظبى وهو مُحْرِم : « أتقْتُلُ فى الحَرم وتغمِصُ الفتيا ! » أى تعيبها ولا ترضاها .

وأشباه هذا كثير لاتخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب ، تعمدنا أن نكثر شواهده لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات .

ويُلحَق بهذا تسمية مواليه بين أسبق وأسلم ويرفأ وفرقد وذكوان وفروخ وما شابه هذه الأسماء ، وهى تسمية مفردة تكاد تقتصر عليه ، وانما هى الطبيعة العمرية تمثلت فى صيغة الكلام وفى اختيار الأعلام ، فلا تستطيع أن تسميها اغرابا أو عَسْلَطَةً أو تعمّلا (٢) بنحو من أنحائه ، اذ ليس وراءها قصدٌ متفقٌ فى جميع هذه الصيغ ، وأبينُ

(١) الفواقر : جمع فاقرة وهى الداهية .
(٢) العسلطة : الكلام بلا نظام ، وكلام معسلط اى مخلط . والتعمل : التكلف .

ما يبين فيها أنها من عفو البداهة هنا وهناك ، وأنها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها ، فهى قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف . وهكذا كان المتكلم عمر ، وهكذا كان كلامه الذى ينطبع عليه حين يكون منطبعا على التعبير ، فلو أن كلمات تتمثل رجلا لتراءى لنا من مثال هذه الكلمات شخصُ عمرَ فى خُلُقِه وخَلْقِه كما كان .

***

ومحصّل هذه الأخبار جميعا أن عمر كان من نخبة المثقفين فى العربية ، وكان وافر السهم فى ثقافة قومه وعصره . وكان الجانب العملى من ثقافته أغلبَ وأظهرَ من جوانبها النظرية كما هو المعهود فى ساسة الأمم وعواهل الدول . وان كان هذا لايمنع أنه اشتاق الى نفائس الشعر وأطايب الأدب لمَا يَجِده من راحة النفسِ ومتعة الخاطرِ .

ويستطرد بنا الكلامُ على ثقافته العربية الى الكلام على موْقفه من الثقافات الأخرى فى زمانه ، وعلى حقيقة الرواية التى شاعت وتواترت عن موقفه من مكتبة الاسكندرية التى قيل انه أمر باحراقها . فهل هو الآمر باحراقها كما جاء فى تلك الرواية ؟ واذا كان هو الآمر بذلك فما دلالته على تفكيره ؟ وما وجه التبعة فيه ؟ فحوى تلك الرواية أن عمرو بن العاص رفع اليه خبر المكتبة الكبرى فى الاسكندرية فجاءه الجواب منه بما نصه : « أما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها مايوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غِنى ، وان كان فيها مايخالف كتاب الله فلا حاجةَ اليه ، فتقدم باعدامها » قال مفصل هذه الرواية : فتوزّعت الكتب على أربعة آلاف حمّام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها !

وأحرى شىء أن يلاحظ فى مسألة المكتبة هذه أن الذين أدحضوها وأبرأوا عمر من تبعتها كان معظمهم من مؤرخى الأوروبيين الذين لا يتهمون بالتشيع للمسلمين ، وكانوا جميعا من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم

فى هذا الموضوع .

فالمؤرخ الانجليزى الكبير ادوارد جيبون Gibbon صاحب كتاب الدولة الرومانية فى انحدارها وسقوطها يسرد الحكاية ويعقب عليها قائلا : « أما أنا من جانبى فاننى شديد الميل الى انكار الحادثة وتوابعها على السواء ، لأن الحادثة لعجيبة فى الحق كما يقول مؤرخها اذ يسألنا هو أن نسمع ماجرى ونعجب ! .. وهذا الكلام الذى يقصه أجنبى غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمائة سنة يوازنه ويرجح عليه ولاشك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحى وكلاهما مصرى ، وأقدمهما البطريق يوتيخيوس Eutychius الذى توسع فى الكتابة عن فتح الاسكندرية وان القضاء الصارم الذى نسب الى عمر لبغيض الى أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذى يفتون بتحريم احراق الكتب الدينية التى تغنم من اليهود والمسلمين فى الحرب ، وما كان من الكتب دنيويا ظنينا سواء ألفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين . وقد تعزى الى متقدمى الخلفاء بعد محمد غيرة" أضرى من ذلك بالهدم والابادة . ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفد الأوراق سريعا لقلة المادة المحترقة ! فلا نرجع الى نكبة المكتبة فى الحريق الذى أصابها على غير قصد بيدى قيصرى وهو يدافع عن نفسه ، ولا الى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدبيرا لتعفية الآثار المتخلفة من أيام عبادة الأصنام ، ولكننا ننحدر شيئا فشيئا من عصر أنتونين الى عصر ثيوديسيوس فنعلم من سلسلة الأنباء المعاصرة أن القصر الملكى وهيكل سرابيس لم تبق فيهما تلك الأسفار التى جمعها البطالسة وبلغت فى احدى الروايات أربعة آلاف وفى رواية أخرى سبعة آلاف ، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأضابير ، فان كانت هذه هى الوقود الذى أفنته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين

بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت فى الحمامات أنفع لبنى الانسان ! » .

والدكتور الفرد بتلر Butler المؤرخ الانجليزى الذى أسهب فى تاريخ فتح العرب لمصر والاسكندرية يلخص الحكاية وينقضها ابتداءً لأن حنا فليبوتوس الذى قيل انه خاطب عمرو بن العاص فى أمر المكتبة لم يكن حيًّا فى أيام فتح العرب لمصر .. ثم ينقضها لأسباب شتى منها أن كثيرا من كتب القرن السابع كانت من الرَّق (١) وهو لايصلح للوقود ، وأنها لو قضى الخليفة باحراقها لأحرقت فى مكانها ولم يتجشموا نقلها الى الحمامات مع مافيه من التعب ومع امكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان ، وأننا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقى من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمّام مائة وثمانين يوما ، وهذا عدا الشك الذى يعتور القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الاسكندرية ، ثم كتابتها بعد ذلك خِلْوا من المصادر والأسناد ، بل هذا عدا ماقيل من احتراق المكتبة فى السنة الثامنة والأربعين للميلاد ، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسيحيين .

والمستشرق كازانوفا يسمى الحكاية أسطورةً ويقول انها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون ، وينقضها لمثل الأسباب التى لخصناها من كتاب بتلر ، ثم يقول : « .. وهناك اعتراض أخطر مما تقدم وهو أن ما ذكر عن يحيى النحوى منقولٌ عن كتاب الفهرست لابن النديم فى أواخر القرن العاشر ، وفيه أن يحيى هذا عاش حتى فتحت مصر وكان مقربا من عمرو ولم يذكر شيئا عن مكتبة الاسكندرية ، فحادثة المكتبة اذن من أوهام ابن القفطى أخذها عن خرافة كانت شائعة فى عصره » .

ثم يمضى فى تفنيده فيقول : وقد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والأشوريين والبابليين والقبط التى حرّقها عمر عند فتح العرب . وقال

(١) الرق : بفتح الراء وكسرها ، جلد رقيق يكتب فيه .

ابن خلدون فى كلام آخر : ان العرب لما فتحوا بلاد الفرس سأل سعد بن أبى وقاص عمرَ عما يأمر به فى شأن الكتب التى بها فأمره بالقائهـا فى اليمّ فانتقلت القصة من فارس الى الاسكندرية مع الزمن ، وفعـل الخيال فعْله فى تحريفها .

« وقد وقع تحريف فى هذه الخرافة فى بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبرنجل أن مكتبة الاسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد ، وأن الترك فتحـوا الاسكندرية سـنة ٨٦٨ وأضرموا فيها النار على عهد أحمد بن طولون .. ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر وانما أقامه خليفة بغداد حاكما عليها ، فلا علاقة للترك اذن بهذا الحادث المزعوم » .

قال : « وفى سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دى لندبرج أن أحد الضـباط الانجليز اتهم نابليون الأول باحراق مكتبة الاسكندرية » .

قال : « وسنلم هنا بالسبب الذى من أجله ظهرت هذه الخرافة فى القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك » .

« ففى أواخر القرن الثانى عشر رجعت مصر الى حكم خلفاء بغداد ، وأبلى صلاح الدين بلاءه فى الحروب الصليبية وانتصر على المسيحيين فلقبه الشعب بفاتح مصر ، وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب . وكان لابن القفطى أب" يعجب بصلاح الدين ولاّه صلاح الدين قضاء القدس ، وعاصر عبد اللطيف البغدادى وهو من المعجبين مثله بصلاح الدين ، فتلاقيـا فى القدس وسمع منه هذه الأسطورة التى توسع ابن القفطى فى نقلها . فكان أول من ألّف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد . ومما يروى عن صلاح الدين أنه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية الى القرن الثامن عشر يوشّيها ماينسجه الخيال حول الخرافة العسرية . ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد تعززها خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله ألا كتابَ الا كتابُ الله .. »

ومن المشارقة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجى زيدان فى الجزء الثالث من كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » حيث قال انه كان يميل الى نفى الحكاية ثم عدل عن ميله هذا الى قبولها وأورد من أسباب ذلك « أن حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها أبو الفرج لتعصب دينى ، ولا دسها أحد بعده ، بل هو نقلها عن ابن القفطى وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدرا محتشما جمع من الكتب مالا يوصف ، وكانوا يحملونها اليه من الآفاق ، وكانت مكتبته تساوى خمسين ألف دينار ، ولم يكن يحب من الدنيا سواها ، وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ، ولم يخلف ولدا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب ، وله مؤلفات عديدة فى التاريخ والنحو واللغة ، وفى جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها الى أيام صلاح الدين فى ستة مجلدات ، وكتاب تراجم الحكماء الذى نحن فى صدده وأن ابن القفطى وعبد اللطيف البغدادى أخذا عن مصدر ضائع . وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلابد له من سبب ، والغالب أنهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الاسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب ، فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ، أو لعل لذلك سببا آخر ، وفى كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبى الفرج ... »

ونرى نحن أن ابن القفطى كان أولى ممن تقدموه بالسكوت عن حريق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه لعرفانهم قدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفاء الراشدين ، فان ابن القفطى لايجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين فى المغالاة بنفاسة المكتبات فلابد من تعليل أصوب من هذا التعليل لسكوت المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية ، الى أن نجمت بعد

بضعة قرون ..

فمن جملة هذا العرض لآراء نخبة من الثقات في هذه المسألة يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها ، وأنها موضوعة في القرن الذى كتبت فيه ولم تتصل بالأزمنة السابقة له بسند صحيح ، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذميم عليه وعلى الاسلام .

واذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا توضع قبل القرن السادس الهجرى الذى تسربت فيه الى الكتب المدو نة ، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر فى الحكاية من جميع أطرافها .

لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها فى وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة .

فهو يستلزم أن يكون الملفق عليما بالأقوال والأحوال التى أثرت عن عمر بن الخطاب ، وفيها مايجعل حكاية المكتبة قريبة التصديق مشابهة لما يتوخاه الخليفة فى أوامره ونواهيه .. ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح الاسكندرية فضلا عن المسيحيين أو الاسرائيليين ، وانما علمت واستفاضت بعد ما دونت السير وجمعت المتفرقات .

ويستلزم تلفيق الحكاية ، للتشهير بالخليفة المسلم ، أن يكون الملفق عارفا بما فى هذه التهمة من المعابة ، شاعرا بما فيها من الاعتساف والغرابة ولم يكن هذا أيضا مفهوما فى أيام فتح الاسكندرية بين خصوم الاسلام ، لأنهم كانوا قد تعودوا احراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجسا من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم ، وما من عارف بالكتب بينهم الا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين فى تدمير التحف الاغريقية ولا سيما « ثاوديسيس » الذى أحرق هياكل شتى ، فيها ولا شك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التى عليها الخلاف .

وقد يستلزمُ تلفيقُ الحكايةِ أن تكونَ مصرُ وأخبارها موضعَ اهتمام ومثارَ قيل وقال ، ولم تكن مصر قط قبلة أنظار العالم كما كانت في أوقات الحروب الصليبية ، يومَ كانت هي ميدانَ الفصلِ ومناط الظفر والهزيمة بين جيوشِ الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها .

وقد يستلزمُ كذلك أن يكون العصرُ عصرَ حَزَازَة بين الاسلامِ وخصومه كما كان عصرُ الحروب الصليبية وما قبله بقليل .

وقد يستلزمُ مع جميع أولئك أن يشتركَ في القيل والقال حافظو الكتب الاغريقية في بيزنطية وشواطىء آسيا الغربية ، وهي البلاد التي كانت موطىء أقدام الجيوش في الكرِّ والفرِّ والقدوم والاياب ، ومنها تَدفَّقَ حافظو الكتب الى أوربا عندما أغار الترك على بيزنطية من تلك الأرجاء .

فتلفيق الحكاية اذن كان عجيبا في أيام فتح الاسكندرية وما تلاها من الأزمنة الى زمان القِفطي والبغدادي وأبي الفرج الملطي ، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبةِ في تلك الأيام .

وتلفيقُها في عصرِ الحروب الصليبية غيرُ عَجيب لاجتماع الأسباب التي يستلزمها ذلك التلفيقُ ، ولهذا ظَهَرَتْ فيه وأمدَّنا ظهورُها فيه بالسبب الذي يُبطِلُ العجب ويفسِّرُ الغوامض التي لايفسرها تعليلٌ معروف غير هذا التعليل .

الا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر باحراق مكتبة الاسكندرية ، فما هي الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر ؟ ولماذا كان يَحرُمُ عليه أن يَحرِقَها ويجب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها ؟ ولماذا كان ينبغي أن يكون على يقين أنها شيء مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم ، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لايجوز التفريط فيها ؟

أمِنَ النقصِ في تفكير الانسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلعَ على الفلسفة اليونانية ؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحةً كلَّ الوضوح من أحوالِ أقوامها الذين حفظوها ، ان

صح أنهم حفظوها ؟

ان أحوالَ الرومِ والقبطِ فى ذلك العهدِ لم يكن فيها دليل واحد عى أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفيسة ، وأن ضياع كتبهم فيه ضياعٌ لذخيرةٍ من ذخائر العالم التى لايجوز التفريط فيها .

فقد كانوا على شر حال من الضعفِ والفسادِ والجهلِ والهزيمةِ والشقاقِ والتهالكِ علىسفساف الأمور . فاذا كانَ عمرُ غيرَ مطالب بعلمِ الفلسفةِ اليونانيةِ أو غيرَ ملوم على فوات الاطّلاع عليها ، واذا كانت أحوالُ الأممِ التى هى أهلُها لا تدلُّ على قيمتها بل تسوِّغُ الاعتقادَ بخلوها من كل قيمة ، فأين هو العيب فى تفكيره ان صح أنه فكر على ذلك المنوال ؟

انما يعيبُ الانسانَ أن يكون عدوًّا للمعرفة على اطلاقها ولم يكن عمرُ عدوًّا للمعرفة ولا مُعرِضا عنها ، بل كان مشغوفا بها حيث رآها دينيةً كانت أو أدبية ، ومن قومه أتت أو من غير قومه .

فكان يستشيرُ الغرباءَ فى تدوين الدواوين ومنافع الصناعة ولا ينهى عن علم شىء الا أن تكون فيه فتنة أو ضلال .

وكان ولا ريب يؤثر للمسلمين أن يُقبِلوا على دراسة القرآن ويُقدِّموا فهمَه على فهم كل كتاب . وهذا واجبه الأول الذى لا مراء فيه ، وما من أحدٍ هو مطالبٌ بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص ، لأنه الخليفة الذى فى عهده انتشر المسلمون بين أقطار المشرق وخيفَ عليهم أشدَّ الخوف أن ينحل العِقدُ الذى جمعهم وبثَّ فيهم الهمة والبأس وسوَّدهم على العالمين .

وفى الأخبار التى نُقلت بهذا الصدد أن رجلا أنبأه أنهم لما فتحوا المدائن أصابَ كتابا فيه كلام معجب ، فسأله : أمن كتاب الله ؟ قال لا . فدعا بالدرَّة فجعل يضربه بها وهو يقرأ : « الر . تلك آيات الكتاب المبين . انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون .. » ثم قال : « انما أهلك من كان قبلكم

أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراةَ والانجيلَ حتى دَرسا وذهب مافيهما من العلم » .

رُويتْ هذه الروايةَ عن عمر بن ميمون عن أبيه ، وليس فيها ما يأباه العقل ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والايمان الى حين .

فبالتجربة الواقعيةِ أيقنَ عمرُ أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلماتِ الى النور ، وانتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب .

وما فرغ المسلمون بعدُ من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله بينهم سنوات . فكيف يرضى الخليفة الذى يهمّه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه الى كتب لايؤمن مافيها ؟ وكيف يكونُ الحال اذا تفرقوا شَذرَ مَذرَ (١) ولهم فى كل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذى لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كل مافيه ؟ أمن عداوة المعرفة هذا أو من ايثار المعرفة التى تتقدم على غيرها ؟ واذا لم تتقدَّم هذه المعرفة على غيرها فى السنوات الأولى من تداول القرآن الكريم فمتى تتقدَّم ؟ ومتى يُعطى القرآن حقّه من الفقه والوعىِ والاقبال ؟ وأين هى الغنيمةُ الروحية التى تعدل فى كتاب من الكتب بعض ماغنمه المسلمون بوحى القرآن فى صدر الاسلام ؟

فعلى أى فرضٍ من الفروض لم يكن فى تصرف عمرَ مايأباه العقلُ الذى ينظر الى الحقائق المشهودة والآثار الواقعة ، ويجوز أنه أمر باحراق مكتبةِ الاسكندريةِ على أبعد احتمال ، ولكن الذى لايجوز لمنصف أن يفهم من ذلك أنه عدوُّ الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب ، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفع ومعرفة مجهولة ظواهرها كلها تغرى باتهامها . ولا لوم عليه أن يولدَ حيث يجهلها ، ولا لوم عليه أن يتهمها وهى لم تنفع أهلَها يوم رآهم يخبطون فى الضلالة والهزيمة ، ولا يُقال عن عقلٍ يفكر هذا التفكير إنه لم يفكر على هدىٍ مستقيم .

(١) شذر مذر : اى متفرقين

عُمَرُ في بَيْتِهِ

كان الخليفةُ الأكبرُ — صاحب الأمر فى الجزيرة العربية ، وصاحب الغلبة على ملكِ الأكاسرة والقياصرة والفراعنة ، ومدبر الحكم فى الرقعةِ الوسطى بين قارّات العالم المعمور — رجلا فقيرا يعيش فى بيته عيشةَ الكفاف ، ويقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يتمناه كثير من الرجال ، ويزهد فيه كثيرٌ من النساء .

فمن غير العجيب أن يخطب بعض النساء فيأبين عيشه ، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبى عليه السلام ، فلم يقبلنه الا وقد خيرن بينه وبين الطلاق .

وما ندرى أى الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل ، فان الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصى ، وهى جميعا مما تغالى به السير وتزدان بجماله ، ولكننا لا نعرف بينها ماهو أغلى وأجمل من هاتين الشهادتين أن يعيش فى بيته عيشا لا يُشتَهى ، وأن تكون فى يده صولة الملكِ فلا ترى فيها امرأة من النساء خِلابة (١) تغرها ، ولا صولة تخيفها من أن ترفضها وتأباها .

ان امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى فى الشهادة له من ألف امرأة يُقبلن على بيته ويطمعن فى سلطانه .

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفا لم نسمع فيما قيل عن ايمانه بالله أصدق منه ولا أوجز وأوفى ، فقالت أم أبان بنت عتبة بن ربيعة انه رجل « أذهله أمرُ آخرته عن أمر دنياه ، كأنه ينظر الى ربه بعينه »

والذى نعنيه من الوصف هو قولها عن مخافته الله انه كان يخافه كأنه يراه بعينه .

---

(١) خلابة : اى ما يخلب ويخدع

فهو فى الحق أصدق وصف لايمان هذا الرجل المتفرد بايمانه كما تفرد بكثير من شئونه . انه تجاوز حد الايمان الى حدّ الرؤية والعيان ، وحقق مبالغات أبى الطيب المتنبى حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة فقال :

تجاوزت مقدار الشجاعةِ والنّهى ... الى قولِ قوم أنت بالغيبِ عالمُ

ومهما يكن من ايمان بالغيب فهو لايبلغ فى اليقين والحضور مبلغ الرؤية بالعين ؛ وهى قولة عابرة من قائلة أصابت مالم يُصبه قائل ، ولعلها لاتدرى مدى صوابها .

وخطب عمر أمّ كلثوم بنت أبى بكر الى أختها أمّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت له : الأمر اليك ، ثم سألت أختها فأبته وقالت : لا حاجة لى فيه . فزجرتها قائلة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، انه خشن العيش شديد على النساء . وكرهت عائشة أن تجبهه (١) بالرفض فوسّطت فى الأمر عمرو بن العاص يحتال له برفقه وحسن تدبيره ، فجاء عمر وفاجأه قائلا : بلغنى خبر أعيذك بالله منه . قال ماهو ؟ قال : خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر . قال نعم ، أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى ؟ قال لاواحدة ، ولكنها حدثة (٢) نشأت تحت كنف أمير المؤمنين فى لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهابك ومانقدر أن نردّك عن خلق من أخلاقك . فكيف بها ان خالفتك فى شيء فسطوت بها ؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير مايحق عليك ! .. ففهم عمر أن ابن العاص لايتقدم على هذه الوساطة بغير موسط ، وأن فى الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء .. فسأله كأنه يستطلع ما وراءه من الممانعة . كيف بعائشة وقد كلمتها ؟ قال : أنا لك بها ، وأدلكَ على خير منها : أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، تعلق منهـا بنسب رسول الله .

وأم كلثوم بنت علي حدثة" أيضا ، والمحظور فى اغضابها أكبر من المحظور

---

(١) تجبهه : تواجهه ... (٢) حدثة : صغيرة السن .

فى اغضاب بنت أبى بكر ، وان اعتمد ابن العاص على أن عمر يسلك نفسه فلا يغضبها ، فقد كان حريا به أن يعتمد على شيء من ذلك فى خطبته لبنت الصدّيق .. فلن يفوت عمر ـ وهو يعلم من يخاطبه فى الأمر ـ أن يفهم خبيئة سعيه ، وأن يتجاهله لئلا يكشف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضى الله عنهما ، ويعمل بما يراه الصواب .

والطريف فى القصة ـ وكلها طريف ـ أن يذهب عمرو بن العاص الى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه ، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته اياه مادام على صدق فى مقاله .

وللمرأة أن تأبى الخشونة فى رجلها ولا تستريحَ اليها ، ولكنّ دارس الأخلاق لا ينبغى أن يعيب هذه الخصلة الا بمقدار مافيها من نقص فى الطبائع الانسانية الأصيلة . اذ المحقق أن الخشونة حرمانٌ من الصقلِ والمرونةِ ، ولكننا نخطيء كل الخطأ ان حسبناها حرمانا من البر والرحمة ، لأن المرء قد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة ، ويكون خشن الملمس وهو رحيم مُفرط الرحمة ، ويغلب فى هذه الحالة أن تكون خشونته ـ كما أسلفنا فى فصل سابق ـ درعا يستر بها مواضع اللين فى خلقه ، وضربا من الخجل أن يطلع على ناحية فيه يتطرّق اليها الضعف وتنفذ منها الرماية .

فالخشونة نقيض الصقل والنعومة ، وليست نقيض العطف والرحمة . وعمر بن الخطاب من أفذاذ الرجال الذين تنجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء ، حتى فى علاقاته بالأهل والنساء .

رحمة عمر رحمةٌ فى غلاف ، وليست بالرحمة المكشوفة لكل ناظر ولامس ، ولا تطول بالناس عشرته حتى ينقشع هذا الغلاف عن قلب وديع مفعم بالعطف والمودّة ، مفتح الجوانب لكل عاطفة كريمة ولو لم تكن من ولىّ حميم .

فنساؤه اللائى عاشرنه قد كَلِفن بحبه ورَضِين عَيشه لرضاهنّ

بمودته وعطفه ، وكانت احداهن التى سميت العاصية وسماها النبي عليه السلام الجميلة لا تطيق فراقه ، فاذا خرج مشت معه الى باب الدار فقبلته ولم تزل فى انتظاره .

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد ، وهى على قسط وافر من الجمال ومن الدين ومن البلاغة ، تولهت (١) فى رثائه حين قتل فلم يكن بكاؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد ، وتعددت قصائدها فى تأبينه بكلام لا يغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة ، وهى التى قالت فيه :

عصمةُ الناسِ والمعينُ على الد ... هر وغيثُ المنتاب والمحروبِ
قل لأهل الضراءِ والبؤس موتوا ... قد سقته المنونُ كأسَ شعوب(٢)

وقالت فيه :

رءوفٍ على الأدنى غليظ على العدا ... أخى ثقة فى النائبات منيبِ
متى مايقل لا يكذبُ الله قوله ... سريعٍ الى الخيرات غير قطوب

وقالت فيه :

جَسَدٌ لُفِّفَ فى أكفانِه ... رحمةُ اللهِ على ذاك الجسد

وقالت فيه :

يا ليلة حُبست عليَّ نجومها ... فسهرتها والشامتون هجودُ
قد كان يُسهرني حذارُك مرةً ... فاليوم حقَّ لعيني التسهيدُ

ولا يبكى الرجلَ هذا البكاء على مافى عيشه من الشظف الا ومن وراء خشونته مودة قلب تنفذ الى القلوب .

وأكثفُ ماتكون الدروع أرق مايكون الموضع الذى يليها وأخوفه من الاصابة . فانظر أين الموضع الحصين المحمى فهنالك الموضع اللين الذى يخاف عليه ، ولا يخدعنك عن ذلك خادع من اظهار أو تظاهر غير مشعور به ، وغير مقصود .

أين اكثف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التى عنيناها ؟

---

(١) تولهت : كاد عقلها يذهب من شدة الحزن .
(٢) شعوب : اسم للمنية « الموت » ؛ سميت كذلك لانها تفرق الخلائق .

المرأة ولا نزاع !

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها ، وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله غيور يحب الغيور ، وان عمر غيور » .

وعلى المرأة ومن المرأة كان حذره أن تتخايل للعيون وتتبرج فى مضطرب الفتون .

وكلما أوصى بوصية فيها فانما هى الفتنة التى يتقيها ، فلما قال عليكم بالأبكار لم يقل عليكم بالأبكار لأنهن أمتع وأنصر ، ولكنه قال عليكم بهن لانهن أكثر حبا وأقل خبا (١) .

ولما توجس من زواج المسلمين ببنات الأعاجم لم يتوجس منه لأنه حرام بل لأن « فى نساء الأعاجم خلابة ، فان أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » .

فالخلابة هى المحذور الذى يتقى .

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر . انك لاتبعد كثيرا حتى تلمس الموضع الذى نم عليه الرجل حيث قال : « لو أدركتُ عَفراءَ وعروة جمعت بينهما (٢) » ... أو نمَّ عليه الصبى الذى عناه ابن الخطاب حيث قال : « أحب أن يكون الرجلُ فى أهله كالصبى ، فاذا احتيج اليه كان رجلا » .

ومتى كان فرطُ الغيرة على المرأةِ أو الحذرِ منها دليلا على أنها ذلك الشىءُ المهينُ ، وان قال الغيور الحذور بلسانه إنها لشىءٌ مهين ؟ ..

وابحثْ عن جانب واحد مُغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذى ينبغى أن يوصل فانك لن تجده فى نفس هذا الرجل بتة ، وان جهدت فى البحث .

فكان ابنا بارا لا ينسى التحدث عن أبيه ، ويعتز بذكراه على ماكان من

(١) الخب : الخداع .

(٢) عروة بن حزام : شاعر من الشعراء العشاق المشهورين وصاحبته عفراء ، مات شهيد عشقه .

قسوته عليه فى صباه ، ولم يزل يقسم باسمه حتى نهاه النبى ، فانتهى وهو يقارب الكهولة .

وكان أبا يحب أبناءه ويعرف وَجد الآباء بالأبناء ، وينزع الثقة من وال لا يحنو على صغاره .. أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبى صغير فجلس فى حجره وهو يلاطفه ويقبّله ، فسأله المرشح للولاية : أتقبّل هذا يا أمير المؤمنين ! ان لى عشرة أولاد ما قبّلت أحدا منهم ولا دنا أحدُهم منى .. فقال له عمر : وماذنبى ان كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك .. انما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزّق وهو يقول : انه اذا لم يرحمْ أولاده فكيف يرحم الرعية ؟

وكان كلاب بن أمية الكنانى فى غزوة فاشتاق اليه أبوه الهرم وحزن لغيابه ، واتصل نبؤه بعمر فكتب الى قائد الجيش يستعيد كلابا الى المدينة فلما عاد ودخل عليه سأله : ما بلغ من برّك بأبيك ؟ قال : كنت أكفيه أمرَه ، وكنت أعتمد — اذا أردت أن أحلب لبنا — أغزر ناقة فى ابله وأسمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد ، ثم أحلب له فأسقيه .

ثم بعث الى أبيه فجاء يتراوح فى مشيته ضعيفا بصره ، محنيا ظهره ، فسأله : كيف أنت يا أبا كلاب ؟ .. قال : كما ترى يا أمير المؤمنين .. ثم جاء بلبن حلبه ابنه ففطن الرجل وقال وهو يدني الاناء من فمه : لعمرُ الله يا أميرَ المؤمنين أنى لأشم رائحة يدي كلاب من هذا الاناء ! .. فقال عمر : هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به . فوثب اليه ابنه ، وطفق الأب الذى لم يكد يراه يضمه ويقبّله .. وبكى عمر ، وأمر كلابا أن يلزم أبويه مابقيا ، وله عطاؤه كأنه يجاهد فى سبيل الله .

ومن حنانه على الأطفال أنه كان يشفق عليهم أن يحزنوا فى لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه ، فحدّث سنان بن سلمة أنه كان فى صباه يلتقط البلح فى أصول النخل مع بعض

الصبية اذ أقبل عمر فتفرق الغلمان وثبت هو فى مكانه ، فلما دنا منه أسرع قائلا : يا أمير المؤمنين ، انما هذا ما ألقت الريح ! .. قال عمر : أرنى أنظر فانه لايخفى عليّ . فنظر فى حجره ثم قال : صدقت . الا أن الصبى لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين الى بيته ! .. فقال : يا أمير المؤمنين ، أترى هؤلاء الآن ؟ .. وأشار الى الصبية الهاربين ، ثم قال : والله لئن انطلقتُ لأغاروا عليّ فانتزعوا مامعى ، فمشى معه عمر حتى بَلَّغه بيته ! ..

وكثير" على المصدقين المفرطين فى التصديق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم يصدقوا أنه وأد بنتا فى الجاهلية على تلك الصورة البشعة التى انتقلت الينا فى بعض الروايات ، وخلاصتها أنه رضى الله عنه كان جالسا مع بعض الصحابة اذ ضحك قليلا ثم بكى ، فسأله من حضر فقال : كنا فى الجاهلية نصنع صنما من العجوة فنعبده ثم نأكله وهذا سبب ضحكى ، أما بكائى فلأنه كانت لى ابنة فأردت وأدها فأخذتها معى وحفرت لها حفرة فصارت تنفض التراب عن لحيتى فدفنتها حيّة .

فهى قصة يَعتَورها الشك من ناحية ضحكها ومن ناحية بكائها ومن ناحية اجتماعهما فى لحظة واحدة لتمكين واضع القصة من التفرقة بين عصر عمر فى جاهليته واسلامه ، وأدعى مافيها من الشك تلك الخاتمة التى يتم بها اختراع الفجيعة والبلوغ بها الى ذروتها ، وهى نفض الطفلة الصغيرة تراب حفرتها عن لحية أبيها .

فالوأد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية ، ولم يشتهر بنو عدي خاصة بهذه العادة ولا اشتهرت بها أسرة الخطاب التى عاشت منها فيما نعلم فاطمة أخت عمر وحفصة أكبر أولاده وهي التى كُنِّيَ أبا حفص باسمها .

وقد ولِدتْ حفصة قبل البعث الاسلامى بخمس سنوات فلم يَئِدها . فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهى فى السن التى تفهم فيها كيف تنفض التراب عن لحية أبيها ؟ .. ولماذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومة

فلم يذكرها أحد من اخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومتها وخئولتها ؟

ما نحسبها الا احدى جنايات الأغراب على من خلقوا وفى سيرتهم مثال للاغراب والاعجاب . فهى اختراعة تضعفها قرائن التاريخ وتضعفها خلائق عمر التي لا تتبدل هذا التبدل من النقيض الى النقيض بين جاهليته واسلامه . وقد كان عمر فى جاهليته لم يسلم بعد يوم أشفق على أخته وهى دامية الوجه ، وكان فى جاهليته يوم أحب أخاه حبه المفرط وبقى عليه فليس وقوع القصة المزعومة فى الجاهلية مانعا لغرابتها ومقربا لتصديقها ، وغير هذا الأب وهذا الأخ يطيق هذه القسوة التى لاتطاق .

ان قليلا من الآباء من أحب أبناءه كما أحب عمر أبناءه ، وان قليلا من الاخوة من أحب أخا كما أحب عمر زيدا أخاه ، فما سمع اسمه بعد مقتله الا سالت عبرته ، وما هبت الصبا كما قال الا وجد نسيم زيد وتمنى نظم الشعر لينظمه فى رثائه .

بل ان قليلا من الأصدقاء من أخلص لأصدقائه وعشرائه كما أخلص عمر لكل صديق وعشير ... وهو القائل : « لقاء الاخوان جلاء الأحزان » ، وهو القائل حرصا على المودة وضنا بها : « اذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليستمسك به ، فقلما يصيب ذلك » .

فاذا أردنا أن ننقب عن وشائج الرحم وصلات المودة فى نفس هذا الرجل المهيب المخيف فلننقب عنها فى ينابيعها الخفية التى تسرى منها وتترقرق فى نواحيها ، ولا ننقب عنها فى الصخور التى تكتنفها وتطفو عليها وترفع اعلامها .

أو نحن حريون أن ننقب عنها بين هذه الصخور والأعلام ولكن على هدى وبصيرة . فلا نقنع منها برأى العين من بعيد أو قريب ، ولا نغتر بما تبديه كأنه كل شيء تحتويه .

فما هذه الصخور والأعلام التى كانت تروع الناظر من هيبة عمر ومن ملامح سيماه ؟.. هى مظهر قدرته على نفسه لا أكثر ولا أقل ، وهى

الحارس اليقظ الذى يحمى تلك النفس أن يتسرب اليها الوهن وأن تؤخذ على غرّة ، من حيث يخاف عليها .

والمرء لا يعتصم بقدرته على نفسه وهو آمن ، ولا يوقظ الحارس على دخيلته وهو وادع فى سربه . انما يعتصم بقدرته ويوقظ حارسه حين يحذر ، وانما يحذر من الطارق الذى لا يستهين به ولا يزال على رقبة منه .

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر مايكون اعتصاما بقدرته فى أمسّ الأمور بقلبه وسريرة طبعه : فى خشية الخديعة من ناحية الترف والمتعة ، فهو لا يستسلم لشهوة مأكل ولا ملبس ولا قنية دنيوية ، وفى خشية الخديعة من ناحية ولده وأهله فهو يجفل من أن يرى لهم رزقا لايعرف مأتاه ، ويجفل من أن يرى لهم ابلا سمانا بين الابل العجاف مخافة أن يسمنها لهم الناس فى مراعيهم .. لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك ابل أبناء أمير المؤمنين ! ..

وكان أكثر ما يكونُ اعتصاما بقدرته حين يلمح الفتنة الكبرى التى يقتدر بها شيطان الغواية . وتلك هى المرأة لا فرق بين خيارها وشرارها ، فمن شرارها استعذ بالله !.. ومن خيارها كن على حذر !..

واذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فانتظرْ شيئا واحدا لن تجد حِوَلاً عنه ، وهو تقديره العدلَ تقدير الخائف أن يزيد فيه شعرةً أو ينقصَ منه شعرة . فمتى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر ، ومتى استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفى سبيل الحق انتصاره .

يعرض شأن المرأة فهو الغيور الحذور ، وهو الواقف على الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه ، فلا هى بظالمة ولا مظلومة فى كل أمر يرجع اليه .

فمن همّه كان ألا تُظلم لضعفها ، ولا تغبن لحيائها وخفرها ، ومن حقها عنده ألا تُكره على زواج الرجل القبيح لأنها تحب لنفسها ما يحبه الرجل لنفسه ، وأن يُعرف لها عذرها حيث يعرف للرجل عذره فى الصلة بينها وبينه . فسمع مرة أعرابية تنشد :

فمنهن من تسقى بعذب مبرد نقاخ (١) فتلكم عند ذلك قرت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن (٢) اجاج ولولا خشية الله فرت

فتوهم فى زوجها عيبا وأرسل فى طلبه فاذا هو متغير الفم ، فخيره بين خمسمائة درهم وطلاقها ، فقبل الدراهم وطلقها .

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد :

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرقنى ألا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله لا شىء غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه

فسأل عن زوجها فعلم أنه خرج فى غزوة طالت غيبته فيها ، فأمر بعد ذلك ألا تطال غيبة الأزواج فى الغزوات .

وكان يقبل شكوى المرأة من زوجها الذى يهمل النظافة والزينة ، لأن النساء « يحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم » .

وقبل شكوى المرأة من زوجها الخاضب (٣) قبل البناء بها يوهمها أنه شاب وهو موخوط الرأس بالشيب ، فأوجعه ضربا وقال : عررت القوم

ولم يكن يتحرج مع المرأة مثل هذا التحرج أن تستر من سيرتها مالايضير ستره ان عاق زواجها . فكاشفه رجل بأمر ابنة له أسلمت وأصابها حد من حدود الله ، فهمت أن تذبح نفسها ، فأدركها أهلها وقد قطعت بعض أوداجها (٤) ، فبرئت وتابت واستقامت على الهداية . فسأله : أأخبر القوم الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها ؟.. قال : ويلك !.. أتعمد الى ماستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك نكالا . « أنكحها نكاح العفيفة المسلمة » .

فهى أولى عنده ببعض المحاباة حين لا ضير فى المحاباة . وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه « ليمنعن النساء الا من الأكفاء » .

وترى أنه قضى فى الخلاف بين الزوج والزوجة بالقول الفصل فى بناء

---

(١) النقاخ : الماء العذب الصافى .
(٢) الاجن : الماء المتغير الطعم واللون ، والاجاج : المالح المر .
(٣) الخاضب : الذى يخضب بالحناء او نحوه .
(٤) الاوداج : جمع ودج وهو عرق فى العنق .

الأسر وتعمير البيوت ، حيث قال لرجل همّ بطلاق امرأته لأنه لايحبها : أو َكلّ البيوت بُنى على الحب ؟ فأين الرعاية والتذمم ؟ »

فانه لبرّ بربات البيوت لم يدركه متحذلقة العصر الذين يلغطون بالحب والزواج ويجهلون أن الرعاية والتذمم أَقمن بالدوام والتعمير من زواج يبنى على الحب وحده ، لأن الحب منوط بالأهواء التى تتغير بين آونة وأخرى ، وأما مناط الرعاية والتذمم فهو الأخلاق التى قل أن يطرأ عليها تغيير

وقد استشار النساء فيما يُحسِنّ كما استشارَ الرجال فيما يحسنون ، ولم يتعال قط أن يرجع عن خطئه اذا ردته عنه امرأة بالبيّنة الصادعة (١) ، ومن ذاك أنه نهى الناس فى بعض خطبه أن يزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية ، فصاحت به امرأة فطساء من صفوف النساء : ماذاك لك ؟ فلم يأنف أن يسألها : ولِمَ ؟ قالت : لأن الله تعالى يقول : « ... وآتيتم احـداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا » ، فرجع عن خطئه واعترف بصوابها .

فما للمرأة من حق تُعطاه ، وما ليس لها بحق لا تعطاه وتذاد عنه .

والذى ليس لها بحق فى رأى عمر ــ ورأى كل رجل ذى رجولة ــ ألا تتعرض لعمله الذى لاتفقهه ، ولا يُرْجَع اليها فى مثله ، ولاسيما ان كان شأنا من شئون الدولة ، ومهمةً من أخص مهام الرجال ، فتشفعت له امرأته فى وال مقصّر تسأله : فيم وجَدْت (٢) عليه ؟ .. فالتفت غاضبا وقال لها : وفيم أنت وهذا ؟.. انما أنت لُعْبَةٌ يُلعَبُ بك ثم تُتركين ! . كلمـة لا تَلبَسُ القفاز الناعم ، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس فى كل حين .

والذى ليس بحق للمرأة أن تعلو كلمتها على كلمة وليها ، وهذا الذى كان ينكره عمر على أهـل المدينة حيث قال : « ... كنا معشَر قريش نَغلِب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار اذا هم قوم تَغْلِبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار . وصِحْتُ على امرأتى

(١) البينة الصادعة : المراد ، البينة التى تحملك على الاذعان والتصديق .
(٢) وجدت عليه : غضبت ، من الموجدة .

فراجعتنى ، فأنكرت أن تراجعنى . قالت : ولمَ تنكر أن أراجعك ؟ فوالله ان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ليراجعنْه وان احداهن لتهجرُه اليوم حتى الليل .. فأفزعنى .. »

نعم هذا مفزع لعمر ، وقد كان ولا ريب مفزعا لرسول الله أن تعلو كلمة على كلمته فى بيته ، لكن طريقة محمد فى تغليب الكلمة طريقة نبى يؤم متبعيه ، وطريقة عمر طريقة مريد مؤتَمٍّ بنبوة ، ولا جناح على عمر ألا يلحق بشأو محمد فى كل ما سبق اليه .

فمحمد انسان عظيم ، وعمر رجل عظيم . وهذا هو الفارق بينهما كما بيّناه فى مناسبة سابقة . وانما الفارق بينهما فى المناسبة التى نحن بصددها أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندى فى معرض القوة والنضال، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها فى معرض الهوى والفتنة ، فيكسرها ولا ينكسر لها اذا لجت فى الغرور وانطلقت فى عنانه. . ومن ثم استصغر عمر ولدَه نفسَه — عبد الله — لأنه عجز عن تطليق زوجه . فلما أشاروا عليه باستخلافه قال لمن كلمه فى ذلك : « ويحك ! كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ؟ »

أما الانسان العظيم فهو يشمل ضعف الانسانية كلَّه ويعطف عليه . ومنه ضعف المرأة فى غرورها واعتزازها بدلال الضعف على القوة ، لأنه فى حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة فى بعض نواحيها . فهو يرى فى تَكَبُّر المرأة اذا كانت كبيرةً عنده نوعا من الاعتراف بكبره ، وهو لا يقف معها فى ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى ، لأن ميدانه هو يشمل الميدانين مجتمعين ، اذ هو ميدان الانسان كله والانسانية جمعاء .

على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأى الرجل فيها كما يظهر من رأيها فيه ، فبعد معاملة عمر للمرأة وقوله فيها يبقى له شأن فى عالمها يظهر لنا من رأيها هى فيه .

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فوصفته بأنه كان نسيج وحده ،

وهى عائشة رضى الله عنها ، وجمعت الشفاءُ بنت عبد الله بعض صفاته فقالت انه « كان اذا تكلم أسمع ، واذا مشى أسرع ، واذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا » . وصاحت أم أيمن مرضعة النبى يوم أصيب : اليوم وَهَى الاسلام .

وعلينا نحن أن نسأل المرأة فى عصر عمر عن مثال الرجل فى عصرها ولا نسأل فيه نساء زمان غير ذلك الزمان . وما نخالنا نعرف رأى المرأة يومئذ فى الرجل الذى يكبر فى عينها كما نعرفه من امرأة هى هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية ، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه .

جاءها أبوها يشاورها فى رجلين من قومها يخطبانها فاستخبرته عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما ففى ثروة وسـعة من العيش ، ان تابعتِه تابعك ، وان ملت عنه حط اليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر فموسَّع عليه ، منظور اليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب ، مِدْرَهُ أرومته (١) وعزّ عشيرته ، شديد الغيرة لاينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله » .

فقالت : « يا أبت ! الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد ابائها ، وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشِرتْ (٢) وخافها أهلها فأمنت ؟ .. ساء عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمقت . وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت (٣) . فاطو ذكر هـذا عنى ولا تسمّه علىّ بعد ! .. وأما الآخـر فبعل الفتاة الخـريدة الحـرة العقيلة (٤) ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوجْنيه » .

ونحن نحسب هذا رأى المرأة النجيبة فى زمان عمر ، ولو شئنا لحسبناه رأيها فى كل زمان على أن تضمره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان .

---

(١) المدره : السيد الشريف المقدم فى اللسان واليد ، والارومة : الاصل .
(٢) الاشر : البطر .
(٣) احمقت : ولدت احمق ، وانجبت : ولدت نجيبا .
(٤) الخريدة : العذراء فيها حياء وخفر ، والعقيلة : الكريمة .

فان زادت خشونة العيش فى بيت عمر على القدر الذى ترضاه المرأة فهى خشونة غير محقورة السبب ، لأنها لا تحسب على عمر « الزوج » من ناحية حتى تحسب لعمر « الرجل » من ناحية خرى . اذ هى لم تأت من قلة القدرة على العيش وانما جاءت من كثرة القدرة على النفس ، وهى خليقة تعجَب بها المرأة فى الرجل الذى تكبره ، لأنها من أقوى خلائق الرجولة فيه .

وليس لدينا بيان واف عن النساء اللاتى تزوج بهن عمر يعيننـــا على التمييز بين سماتهن والبحث فى المياسم الشخصية التى يتعددن فيها أو يختلفن ، ويجيز لنا أن نسهب فى الكلام عن موقع كل منهن من نفسه ، وأثرها فى حياته ، ومبلغ حظوتها عنده ، وسبب هذه الحظوة فى رأيه وشعوره ، وما يدل عليه جميع ذلك من نوازع فطرته وذوقه . فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان واف فى هذا الباب ، فلم يبق لدينا منه الا أســماء وأعوام ونوادر مقتضبات ، لاتســاعدنا على تكوين سمات واضحات فضلا عن التفرقة بين تلك السمات .

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئا كثيرا فى هذا الباب ، لأننا مستطيعون أن نعوض ما فقدناه بالقياس الى ما عرفناه ، فلا نخطىء اذا رجحنا ان سمات هؤلاء النساء جميعا تدخل فى نطاق الوصف الذى كان يستحبه عمر فى المرأة ولا يطيق منها أن تخالفه وتخرج عليه .

فأفضل ما كان يشرطه فى المرأة أن تكون ولودا ودودا ، وألا تُعاب بالحمق فيسرى حمقها فى دماء وليدها ، اذ « لم يقم جنين فى بطن حمقاء تسعة أشهر الا خرج مائقا (١) » كما قال .

أما ذوق الجمال فقد كان عمر فيه كما كان فى جميع خلائقه عربيا بحتا يستملح ما يستملحه كل عربى صميم ، ويستحسن الحسن عنده وهو أعم من الملاحة ، ويروى عنه أنه قال : « تزوجْها سمراء ذلفاء(٢) عيناء(٣) ،

(١) المائق : الاحمق الغبى
(٢) صغيرة الانف .
(٣) عيناء : حسنة العين واسعتها

فان فرِكتها (١) فعليَّ صداقها » وأنه قال : « اذا تم بياض المرأة فى حسن شعرها فقد تم حسنها » ، وهذان هما الملاحة والحسن كما وصفا فى الشعر العربى من قديم الى حديث .

ومن القليل الذى بقى لدينا من أخبار نسائه نعلم أنه كان موفور الحظ من هذا الجمال فى الزوجات ، فقد وُصف أكثرهنَّ بالحسن البارع ، وضرب المثل بملاحة احداهنَّ بين نساء قريش وهى قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة . فروي فى مأثور الحديث الشريف أن سعد بن عبادة قال يوما فى حضرة النبى عليه السلام : ما رأينا من نساء قريش ما كان يذكر من جمالهنَّ ! فقال له عليه السلام : « هل رأيت بنات أبى أمية بن المغيرة ؟ هل رأيت قريبة ؟ » ، وهى احدى زوجات عمر قبل اسلامه .

***

ويروى أن جميلة بنت ثابت سميت بهذا الاسم لجمالها ، وكان اسمها فى الجاهلية عاصية ، فكرهته بعد اسلامها وسألت عمر ثم سألت النبى فى تغييره فاتفقا على تسميتها بوصفها ، ونوديت بعد ذلك باسم جميلة . وروى عن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل أنها أعطيت شطر الحسن مع ما رزقته من الفصاحة والتقوى . وروي مثل ذلك عن زوجات أخريات ، وان لم يتفوقن هذا التفوق المشهور .

ومن أخبار زوجاته أنه طلق اثنتين من أشهر نسائه بالجمال وهما قريبة وجميلة ... تزوَّج بالأولى وطلقها قبل اسلامه ، وتزوَّج بالثانية وطلقها بعد اسلامه ، ولا ندرى على التحقيق ما سبب تطليق هاتين الزوجتين الجميلتين ، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو على شُموس المرأة غير صبور ؟ .. لعله ذاك ، ولعل الذى أبقى عاتكة بنت زيد فى عصمته أنها تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها ، أو غضَّت من دلالها بالفطنة والتقوى .

(١) فركتها : ابغضتها وتركتها .

وكذلك بقيت فى عصمته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وهى جميلة صغيرة ، وولدت له ابنا سماه باسم أخيه زيد الذى كان يحبه ويذكره ويطيل البكاء عليه ، وأعزها عنده النسب والأدب والمحافظة على آصرة النبوة ، فلم يفترقا فى الحياة ولم ينشب بينهما خلاف الا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضمها الى بيت المال .

***

وله مع احدى أولئك الزوجات قصة صغيرة لا يفوتنا ايرادها فى الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه : تدل على عمر فى أبوته ، وتدل على عمر فى سورة طبعه ، وتدل على عمر فى مثوبته الى الحق كلما وجب أن يثوب اليه .

فقد طلق جميلة وله منها ولد صغير ، فرآه يوما يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه ، فأدركته جدته الشموس بنت أبى عامر وجعلت تنازعه اياه حتى انتهيا الى أبى بكر رضى الله عنه وهو خليفة ، فقال له أبو بكر : خل بينه وبينها فهى حاضنته ، فرده اليها ولم يراجعه بكلمة .

ولعمرى ان فى هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغنى عن قصص ، وفيها عمر انسان عطوف ، وفيها عمر رجل سوار الطبيعة ، وفيها عمر صاحب خلق مكين يكبح من طبيعته كل سورة جاوزت حد العدل والانصاف ، وهذا هو عمر فى شتى نواحيه .

وقد تدل هذه القصة على شىء يبرئه من بعض اللوم فى تطليقه أم هذا الولد ، فاسمها عاصية واسم أمها الشموس ، وكأنهما — كما ينبىء عنهما هذان الاسمان — من أسرة تباهى بدلال بناتها وشموسهن وتختار لهن من الأسماء مايدل على هذه الخصلة ، وقد يضيف الى توكيد هذه الخصلة فيهن أن عاصية غضبت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له : سميتنى باسم الاماء ! ثم اختار لها النبى هذا الاسم فقالت : يارسول الله ! أتيت عمر فسمانى جميلة فغضبت ، قال عليه السلام : أو ما علمت أن الله عز

وجل عند لسان عمر وقلبه ؟

فكأنها نشأت فى قوم يعتقدون أن التحسين والترغيب انما هو من شأن الاماء ، وأن الشموس والعصيان أليق بالحرائر وان أحببن أزواجهن وأحبوهن ، فان كان فى تطليقها مأخذ على عمر فقد يكون فيه مآخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبها وأحبته .

ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات ، فقرّت عينه بهم لأنه كان كأهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصى الناس أن يستكثروا منها ، وكانوا جميعا عنده بمكان الحب والمودّة لا يخشى الانحراف عن العدل من جانب كما يخشاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهله على التعميم ، ولهذا كان يجمعهم اذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم « ان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم » ، ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة !

***

وليس بنا أن نحصي فتاواه وأقضيته فى محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه خاصة قبل سائر أهله . فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته ، ولكنا نكتفى بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه فى اتجار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين ، وذاك أن ابنيه عبد الله وعبيد الله خرجا فى جيش الى العراق ، فلما قفلا نزلا بالبصرة وذهبا الى أبي موسى الأشعرى وهو أميرها ، فقال لهما : لو أقدر على أمر أنفعكما به ؟ ثم عرض عليهما أن يحملا الى أبيهما مالا من مال الله فيشتريا به متاعا من العراق يبيعانه بالمدينة ، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح . فلما علم عمر سألهما : أكل الجيش أسلفه ؟ ثم أمرهما أن يؤديا المال وربحه ... فسكت عبد الله وقال عبيد الله : ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا ، لو نقص هذا المال أو

هلك اضمنتّاه ! وقال رجــل فى المجلس : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا[1] ؟ فأخذ رأس المال ونصف ربحه ، وأخذ ابناه نصف ربح المال .

وانما كان عمر يتقى محاباة الولاة لأبنائه وذويه واقرار هذه المحاباة بإذنه ، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتّجر ويربح ما يعيش به فى أهله ، ويلجأ الى التجارة لقــلة رزقه الذى فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين ، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله ، فقال عثمان : كل واطعَم ، وقال على : ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ، وقال هــو : ان افتقرت أكلت بالمعــروف ، وان أيسرت قضيت . وكان يقترض فيعسر فيتأخر قضــاؤه ، فيأتيه صاحب بيت المــال ويشتد فى تقاضيه ، فيحتال له عمر ويؤجله الى أن يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين ، فيسد به دينه .

***

ومع هذا كان يشفق أن يقترض من بيت المــال الا أن يتعذر عليــه الاقتراض من بعض صحبه . فأرسل مرة الى عبد الرحمن بن عوف فى طلب أربعة آلاف درهم يجهز بها عيرا (٢) الى الشام ، فعاد الرسول يقول له : خذها من بيت المال ثم ردها . ! وشق ذلك عليه فلقى صاحبه وعلم منه صدق ما بلغه فقال : أفإن مت قبل أن تجيء قلتم أخذها أمير المؤمنين دعوها له . وأوخذ يوم القيامة ؟ : « لا ... ولكنى أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك ، فان مت أخذها من ميراثى » .

وحدث ما توقعه من مجيء الأجل قبل سداد ديونه جميعا فلم يشغله الموت ولا شغلته كبار الخطوب التى يضطلع بتصريفها قبل موته أن يسأل عن ديونه ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله ، وقال لابنه : « ان وفى به ــ أى بالدين ــ مال آل عمر فأدّه من أموالهم ، والا فاسأل فيه بنى عدى ، فان لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشا ولا تعدهم (٣) الى غيرهم » .

---

(١) القراض : قارضه قراضا ، اى دفع اليه مالا ليتجر فيه ، ويكون الربح بينهما على ما شرطا (٢) العير : الابل التى تحمل الزاد (٣) اى لا تجاوزهم وتتركهم لتسأل غيرهم

وكان عبد الرحمن بن عوف حاضرا فأشار عليه مقترحا أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدى ، فلم يقبل عمر ، ودعا بأبنه عبد الله فقال : اضمنها ! فضمنها ، ووفى بوعده . فلم يُدفن أبوه حتى أشهدَ بها على نفسه أهلَ الشورى وعدةً من الأنصار ، وما انقضى أسبوع حتى حمل المال الى عثمان ، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه ، وقد بيعت لعمر دار فى هذا الدين وسُميت زمنا باسم دار القضاء ، لأنها بيعت فى قضاء دينه .

ولأَن يموت عمر مدينا مُوفِّى الدين لهو أعظم الشرفين ... وأيسر من ذلك شرفا أن يموت غنيًا بغير دين .

صورة مجملة

صحبنا عمر بن الخطاب فى حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال .

صحبناه فى جاهليته واسلامه ، وفى سره وعلانيته ، وفى بيته وحكومته، وفى دينه وثقافته ، وفى اتصاله بالله واتصاله بالناس . فاذا الصورة المجملة من جميع هذه الصور المختلفة صــورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور ، واذا هــو صــاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الانسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه الى غاية واحدة : وهى احقاق الحق وادحاض الباطل ، ووسمته جميعاً بسمة الجندية المجاهدة التى تحمى الحدود للناس وتحميها من الناس ، وهو هو فى طليعة من يحمى وفى طليعة من يحتمى على السواء .

ورسخت فى طويته خليقة المساواة فى العــدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التى لا تنفصل منه ، وحتى أصبح يتجرد من نفسه أو يجرد منها شخصا آخر غريبا عنه لا فرق بينه وبين أحد فى حدود الله وحرماته ، وتمكنت هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامدا وغير عامد ، فكان يتكلم عن نفسه كمـــا يتكلم عن غريب : بخ بخ يا عمر ! ويحك يا ابن الخطاب ! ماذا يقول عمر ؟ وهذا فلان ابن عمر وليس بفلان ولدي ... الى أشباه هذه التجريدات التى تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع الناس ، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس .

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء ، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة « باطنه خير من ظاهره » أو كما قال فيه الصديق من كلام فحواه أن مبغضيه هم المبغضون للخير .

وكان له محبون من كرام الناس لا يعدلون بحبه حب أحد من أمثاله ،

فكان عبد الله بن مسعود يقول : « لو أعلم عمر كان يحب كلبا لأحببته . والله انى لأحسب العضاه (١) قد وجدتْ فقدَ عمر » .

والغالب فى أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب عنهم الهيبةُ ألفةَ الغرباء الذين لا يختلطون بهم فى السر والعلانية ، بل تحجب عنهم ألفةَ الأقربين فى كثير من الأحيـان ، لأنهم من تفردهم بالصراحة والحق فى عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم اليهم :

أعاذَكَ أنسُ المجد من كل وحشةٍ فانك فى هـذا الأنام غـريب

ولكنهم لا يَكرهون الا عن خطـأ أو حسـد لئيم . وكان عمر على التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية فى قلب انسان ، لأنه كان على عِظَمِ « شخصيته » مبرأً من العنصر الشخصى ، فى معاملة الأصدقاء والخصوم . وانما ينجم العداء الشـديد من الاحساس بهذا « العنصر الشخصى » ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام .

فالذين كانوا يذوقون انصاف عمر كانوا يستمرئونه ويحبونه ، والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشـعرون بعمر بن الخطاب معـاقبا لهم صوّالا عليهم ، وانما يشعرون بميزان الشريعة منصوبا على رءوسهم ، يتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب . فلا موضع هنا للضغينة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازة بالحزازة .

ولهذه الخصلة ذكرهُ بالحبِّ والاعجابِ مَن ابتلُوا بعدلِه أشـدَّ ابتلاء ، وانطبعتْ نفوسُهم على الدهاءِ أو الهجاء .

فعمرو بن العاص ومعاويةُ كانا يُثنيان عليه وشدَّ ما ابتليا فى حياته بضربات عدله وهيبته ، والحطيئة أهجى الشعراء وأبخـلهم بالثناء كان رفاقُه يذكرونَه اسم عمر بعد موته فيرتعب ثم يهدأ فيقول : يرحمِ الله ذلك المرء ! .. ويثنى عليه .

وقد قال عمرو بن العاص اذ رأى عمر يبكى لاستعطافِ الحطيئة اياه

(١) جمع عضاهة وهو شجر كبير له شوك . ووجدت ، اى : علمت .

فى سجنه : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدلَ من رجل يبكى على تركه الخطيئة !

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلا فلا يكون قتله دليلا على بغضاء « شخصية » أو خلة ترتبط بحياته الفردية . فانما البغضاء « الوطنية » هى علة التآمر على قتله بين المغلوبين فى ميدان القتـــال على التحقيق ، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكراه فانما هى فى أصلها « بغضاء وطنية » كامنةٌ وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية ، وان تطاولت الأيام .

فالمعلومُ أن عمرَ مات بطعناتٍ من خنجر فيروز « أبى لؤلؤة » من سبايا الفرس بالمدينة ، وأن فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا اليه مولاه المغيرةَ بن شعبة لأنه فرض عليه خراجا درهمين فى كل يوم ، فسأله عمر عن صناعته فأنباه أنه « نجار نقاش حداد » .. فلم يستكثر عمر هذا الخراج على من يصنع هذه الأعمال ، وقال له : قد بلغنى أنك تقول . « لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت » ، وطلب اليه أن يصنع رحى على هذه الصفة ، فقال له : لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدَّث بها من بالمشرق والمغرب .. ثم انصرف وهو يقول : « وسع الناسَ عدلُه غيرى ! » . فقال عمر لسامعيه : لقد توعدنى العبد آنفا ... ولم يؤاخذْه بهذا الوعيد ، بل كان من نيته أن يلقَى المغيرةَ ليخفِّفَ عن مولاه .

هذا هو السبب الظاهر الذى لايستر ما وراءه ، لأن أبا لؤلؤة لم يكن الا منفِّذا للكيد الذى اتفق عليه كثيرون ، وقد روى عبد الرحمن بن أبى بكر أنه رأى هذا الرجلَ مع الهرمزان وجُفَينة قبـــل مقتل عمر جالسين يتحدثون . فلما فاجأهم قاموا وقوفا فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه ، وهو الخنجر الذى حمله فيروز لقتل عمر وقتلِ نفسه ان أُخذ بفعلته .

والهرمزانُ أميرٌ زالتْ عنه الامارة بعد ذهاب الدولة المجـــوسية ،

وجُفينةَ من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس ، وأبو لؤلؤة فارسي شديد الحقد على المسلمين لم ينس أسره ولم يزل كلما جيء إلى المدينة بأسرى من وقعات فارس مسح رءوسهم وتوعدَ المسلمين أجمعين .

وقد شاركهم فى هذه المؤامرة يهودى مغلوبٌ تظاهر بالاسلام وهو المسمى بِكَعْبِ الأحبار . ولعله أراد أن يكسب سُمْعةَ العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة ، فذهب الى عمر قبل ثلاثة أيام من مقتله ينذره أن يختارَ وليَّ عهده لأنه ميت فى ثلاثة أيام ... فسأله عمر : وما يدريك ؟ قال : أجده فى كتاب الله التوراة . فلم تجز هذه الدعوى على عمر وعاد يسأله : « اللهَ ! انك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ؟ » ، فأشفق الرجل أن ينكشف دجله وقال : بل أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك . ثم كرر له النذير مرتين فى اليومين التاليين .

فعمر انما ذهب رحمه الله شهيدَ مؤامرةٍ من أعداء الدولة الاسلامية لا شك فيها ، وما كانت قصة الخراجِ الا الستارَ الذى يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى مخافة القصاص الذى يحيق بهم اذا جهروا بما دبروه ، أو جهروا بالعلة التى من أجلها تربصوا بذلك التدبير .

ان مقتل عمر أحرى أن يعد جزءا من أكبر أجزاء سيرته ولا يُحْسَب نهاية تختِم تلك السيرة دون أن تضيف اليها .

فقد تمثلت فى مقتله مزاياه الكبار التى تمثلت فى جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله ، فكان عمر الصريع قدوة فى الشجاعة وتقديم الواجب والايثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير ، كما كان عمر فى أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير .

وكان رضى الله عنه ينظر الى الحياة كأنها رسالة تؤدى ما استطيع أداؤها ثم لا معنى لها اذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها ، فبعد الحجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوَّم كومة من البطحاء ألقى

عليها طرف ردائه واستلقى عليها ورفع يديه الى السماء ، ودعا الله : « اللهم كَبِرَتْ سنى وضَعُفَتْ قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرّط . اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك » .

ومضت أسابيع فخرج يوما قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوى الصفوف للصلاة ، فلم يكد يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين احداهما فى كتفه والأخرى فى خاصرته ، وقيل ثلاث طعنات احداهن تحت السرة وقد خرقت الصفاقين (١) قضى بها نحبه رحمه الله ، وقيل بل ست طعنات منها تلك الطعنة القاتلة .

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة ، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم فى موعدها ، وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلى بالناس .

ثم جعل يُغمَى عليه ولا ينتبه اذا دعوه ، حتى قال بعض عارفيه : انكم لن تفزعوه بشىء مثل الصلاة ان كانت به حياة ... فنودى : الصلاة .. الصلاة ! فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات : « الصلاة ! ها .. الله .. اذن .. » ثم قال : لا حظ فى الاسلام لمن ترك الصلاة

ولم يهمه من قتله بعد أن حُمِل الى منزله الا أن يعرف ألِمظلمة كان قتلُه أم لبغى من القاتل ؟ فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال : ولِمَ قاتله الله وقد أمرت به معروفا ؟ ثم حَمِد الله قائلا : « الحمد لله الذى لم يجعل قاتلى يحاجّنى عند الله بسجدة سجدها له قط . ما كانت العرب لتقتلنى ».

وهَمّه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند الله . فأمر ابن عباس أن يخرج الى المهاجرين والأنصار يسألهم: أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى ؟ فصاحوا معلنين : « لا والله . ولوددنا أن الله زاد فى عمره من أعمارنا » .

---

(١) صفاق البطن هو الجلد الباطن عند سواد البطن .

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها ، فنهاهم أن يبكوا عليه . ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا أدَم" هو أم النقيع خرج بلونه .. فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه صديد ، فأشار عليه الطبيب أن يعهد ... فقال : « لو قلت غير هذا لكذبتك » .

وكان قد أنكر على الناس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه : ويحكم أيها الناس ، أأنظر فى أمر نفسى قبل أن أنظر فى أمور المسلمين ؟ .. فلما قال الطبيب مقالته أخذ فى تدبير المهم من شئون الدولة وأولها الخلافة ، فجعلها شورى ليستقر بها القرار ما أستطيع اقراره ، ونجا بأهله منها وهو يقول : « ... أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، وان نجوت كفافا (١) لا وزر ولا أجر اني لسعيد » .

وهو فى هذا كله لايخالف ديدنه من صراحة ولا يكتم طبيعة أهل الفناء من حب الحياة ، ولا يخفى « ان للحياة لنصيبا من القلب وان للموت لكربة ! » ولكنها لم تمنعه قط أن يعطى الحق حيث وجب للموت أو للحياة .

فلما فرغ من شئون الدولة نظر فى أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده ، وأقبل يطمئن الى مضجعه فى جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا . فدعا بابنه عبد الله ينطلق الى عائشة أم المؤمنين ويقرئها منه السلام .. ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرا ... ثم يستأذنها أن يدفن الى جوار صاحبيه يعنى النبى عليه السلام وخليفته الصديق .

ووجدها عبد الله تبكى فسلم عليها واستأذنها فأذنت وقالت : كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه به اليوم على نفسى !

فلم يكفه هذا حتى يستوثق كل الاستيثاق من رضاها ، فعاد يخاطب

(١) نجوت كفافا : اي ، لا لي ولا علي .

ابنه : « يا عبد الله بن عمر ! انظر ، فاذا أنا قبضت فاحملونى على سريرى ثم قف على الباب . فقل : يستأذن عمر بن الخطـــاب ، فان أذنت لى فأدخلنى ، وان ردتنى فردنى الى مقابر المسلمين ، فانى أخشى أن يكون اذنها لى لمكان السلطان » .

قال شهود دفنه : « فلمـــا حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة الا يومئذ » ... وفارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلوم أو متهم بظلم ، فما دلها شيء على عظم فضله ولا عظم الحاجة الى العدل فيها كما دلها هذا الختام .

فهرس

عبقرية محمد

صفحة

فهرس

عبقرية الصديق

عبقرية عمر



The Complete Works of
ĀBBAS MAHMOUD AL - ĀAKAD

Volume I

DAR
AL-KITAB
ALLUBNANI